

الجزء الاول

(رحلة ابن بطوطه)

(المسألة)

تحفة النظار . في غرائب الامصار

وعجائب الأسفار



طَبَعَ بِالْمَطْبَعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ بِمَكَّةَ الْمُكَرَّمَةِ

يَسْتَأْذِنُ رُقْعَةَ الْفَجْرِ ٦ جَوَارِ الْأَرْضِ الشَّرِيفِ مُصَبِّرِ

(على تفقة أصحابها) ❀

ورثة المرحوم فضيلة الشيخ محمد عبد الخالق المهدي

(الطبعة الاولى)

(۱۳۴۶ هـ — ۱۹۲۸ م)



قال الشيخ الفقيه العالم الثقة النبيه الناسك الابر وفدا لله المعتمر شرف الدين المعتمد في سياحته على رب العالمين أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم اللواتي ثم الطنجي المعروف بابن بطوطه رحمه الله ورضي عنه بمنه وكرمه آمين

الحمد لله الذي ذلل الارض لعباده ليسلكوا منها سبلا فجاجا . وجعل منها واليه اناراتهم الثلاث نباتا واعادة واخراجا . دحاها بقدرته فكانت مهادا للعباد . وأرساها بالاعلام الراسيات والاطواد . ورفع فوقها سمك السماء بغير عمد . واطلع الكواكب هداية في ظلمات البر والبحر . وجعل القمر نورا والشمس سراجا . ثم أنزل من السماء ماء فاحيا به الارض بعد الموات . وأنبت فيها من كل الثمرات . وفطر أقطارها بصنوف النبات . وفجر البحرين عذبا فراتا . وملحها أجاجا . وأكمل على خلقه الانعام . بتدليل مطايا الانعام . وتسخير المنشآت كالأعلام . لتمتطوا من صهوة القفر وتمن البحر اثباجا . وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد الذي أوضح للخلق منهاجا . وطلع نور هدايته وهاجا . بعثه الله تعالى رحمة للعالمين . واختاره خاتما للنبيين . وأمكن صوارمه من رقاب المشركين . حتي دخل الناس في دين الله أفواجا . وأيده بالمعجزات الباهرات * وأنطق بتصديقه الجمادات . وأحيا بدعوته الرمم الباليات . وفجر من بين أنامله ماء ثجاجا . ورضي الله تعالى عن المتشرفين بالانماء اليه أصحابا وآلا وأزواجا . المقيمين قتاة الدين فلا تخشى بعدهم اعوجاجا . فهم الذين آزره على جهاد الاعداء . وظاهروه على اظهار الملة البيضاء . وقاموا بحقوقها الكريمة من الهجرة والنصرة والابواء . واقتحموا دونه نار البأس حامية . وخاضوا بحر الموت عجاجا . ونستوهب الله تعالى لمولانا الامام الخليفة أمير المؤمنين . المتوكل على رب العالمين . المجاهد في سبيل الله . المؤيد بنصر الله — أبي عنان فارس ابن موالينا الأئمة المهتدين . الخلفاء الراشدين . نصر ابوسع الدنيا

وأهلها ابتهاجا * وسعدا يكون لزمانه الزمان علاجا * كما وهبه الله بأسا وجودا لم يدع طاغيا
ولا محتاجا * وجعل بسيفه وسيبه لكل ضيقة انفراجا * وبعد * فقد قضت العقول * وحكم
المعقول والمنقول * بان هذه الخلافة العلية . المجاهدة المتوكلية الفارسية . هي ظل الله الممدود على
الانام رحيله الذي نه الاعتصام وفي سلك طاعته يجب الانتظام فهي التي أبرأت الدين
عند اعتلاله وأخذت سيف الغدوان عند انسلاله وأصلحت الايام بعد فسادها ونققت
سوق العلم بعد كسادها وأوضحت طرق البر عند إنهاجها وسكنت أقطار الارض عند
ارتجاجها وأحيت سنن المكارم بعد ممانتها وأماتت رسوم المظالم بعد حياتها وأخذت
نار الفتنة عند اشتعالها ونقضت أحكام البغي عند استقلاها وشادت مباني الحق على عما
التقوي واستمسكت من التوكل على الله بالسبب الاقوى فلما العز الذي عقدناه على
مفرق الجوزاء والمجد الذي جرد أذياله على مجرة السماء والسعد الذي رد على الزمان غض
شبابه والعدل الذي مد على أهل الايمان مديداً طنابه والجود الذي قطر سحابه اللجين
والنضار والباس الذي فيض غمامه الدم الموار والنصر الذي تفيض كتابه الاجل
والتأييد الذي بعض غنائمه الدول والبطش الذي سبق سيفه العدل والاناة التي لا يمل
عندها الامل والحزم الذي يسد على الاعداء وجوه المسارب والعزم الذي يفل جموعها
قبل قراع الكتائب والحلم الذي يخفي العفوم من ثمر الذنوب والرفق الذي جمع على محبته
بنات القلوب والعلم الذي يجلو نوره دياجي المشكلات والعمل المقيد بالاخلاص والاعمال
بالنيات ولما كانت حضرته العلية * مطمح الآمال ومسرح همم الرجال ومحط رحال
الفضائل ومثابة أمن الخائف ومنية السائل توخي الزمان خدمتها ببدايع تحفه وروائع
طرفه فانتال عليها العلماء انثيال جودها على الصفات وتسابق اليها الادباء تسابق عزماتها
الى العداة وحج العارفون حرما الشريف وقصد السائحون استطلاع معناها المنيف
ولجا الخائفون الى الامتناع بعز جنابها واستجارت الملوك بخدمة أبوابها فهي القطب الذي
عليه مدار العالم وفي القطع بتفضيلها تساوت بديهة عقل الجاهل والعالم وعن مآثرها
الفائقة يسند صراح الآثار كل مسلم وباكال محاسنها الرائقة يفصح كل معلم وكان ممن وفد
على بابها السامي وتعدى اوشال البلاد الى بحرها الطامي الشيخ الفقيه السامح الثقة الصدوق
جوال الارض ومخترق الاقاليم بالطول والعرض أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن
ابراهيم اللواتي الطنجي المعروف بابن بطوطة المعروف في بلاد الشرقية بشمس الدين وهو
الذي طاف الارض معتبرا وطوى الامصار مختبرا وباحث فرق الامم وسيرسیر العرب

والعجم ثم اتى عصا التسيار بهذه الحضرة العليا لما علم ان لها مزية الفضل دون شرط ولا ثنيا وطوى المشارق الى مطلع بدرها بالغرب وآثرها على الاقطار لإبشار التبر على الترب اختصارا بعد طول اختبار البلاد والخلق ورغبة في اللحاق بالطائفة التي لا تزال على الحق فغمره من احسانه الجزيل وامتنانه الحفي الحفيل ما أنساه الماضي بالحال وأغناه عن طول الترحال وحقر عنده ما كان من سواه يستعظمه وحقق لديه ما كان من فضله يتوهمه فسمي ما كان ألقه من جولان البلاد وظفر بالمرعى الخصب بعد طول الارتياح ونفذت الإشارة الكريمة بان يملى ما شاهده في رحلته من الامصار. وما علق يحفظه من نوادر الاخبار. ويذكر من لقيه من ملوك الاقطار. وعلمائها الاخيار. وأولائها الابرار. فاملى من ذلك ما فيه نزهة الخواطر. وبهجة المسامع والنواظر. من كل غريبة أفاد باحتلاؤها. وعجوبة اطرف بانتحائها. وصدر الامر الى لعبد مقامهم الكريم المنقطع الى بابهم. المتشرف بخدمة جنابهم. محمد بن محمد بن جزى الكلبي اعانه الله علي خدمتهم. واوزعه شكر نعمتهم. ان يضم اطراف ما اهله. الشيخ ابو عبد الله. من ذلك في تصنيف يكون على قوائمه مشتملا. ولنيل مقاصده مكلا. متوخيا تنقيح الكلام وتهذيبه. معتمدا ايضا حقه وتقريبه، ليقع الاستمتاع بتلك الطرف. ويعظم الانتفاع بدرها عند تجريدته عن الصدف. فامثل ما امر به مبادرا. وشرع في منهله ليكون بمعونة الله عن توفية الغرض منه صادرا ونقلت معاني كلام الشيخ ابي عبد الله بالفاظ موفية للمقاصد التي قصدها. موضحة للمناحي التي اعتمدها. وربما اوردت لفظه على وضعه. فلم اخل باصله ولا فرعه. واوردت جميع ما اوردته من الحكايات والاخبار. ولم انعرض لبحث عن حقيقة ذلك ولا اختبار. على انه سالك في اسناد صحاحها اقوم المسالك. وخرج عن عهدة سائر ما يشعر من الالفاظ بذلك. وقيد المشكل من اسماء المواضع والرجال بالشكل والنقط. ليكون انفع في التصحيح والضبط. وشرحت ما امكنتني شرحه من الاسماء العجمية لأنها تلبس بعجمتها على الناس ويخطئ في فك معماها معهم ودالقياس. وانا ارجو ان يقع ما قصده من المقام العلى ايده الله بمحل القبول. وابلغ من الاعضاء عن تقصيره المأمول. فعوائدهم في السماح جميلة. ومكارمهم بالصفح عن الهفوات كفيلة. والله تعالى يدريهم عادة النصر والتمكين. ويعرفهم عوارف التأييد والفتح المبين

قال الشيخ ابو عبد الله — كان خروجي من طنجة مسقط رأسي في يوم الخميس الثاني من شهر الله رجب الفرد عام خمسة وعشرين وسبعمائة معتمدا حجاج بيت الله الحرام. وزيارة قبر

الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام . منفردا عن رفيق أنس بصحبته وركب أكون في جلته لباعث على النفس شديد العزائم * وشوق الى تلك المعاهد الشريفة كامن في الحيازم . فجزمت أمرى على هجر الاحباب من الاناث والذكور . وفارقت وطنى مفارقة الطيور للوكور . وكان والدى بقاء الحياة فتحملت لبعدهما وصبا واقيت كما لقيانا من الفراق نصبا * وسنى يومئذ ثنتان وعشرون سنة قال ابن جزى أخبرني أبو عبد الله بمدينة غرناطة ان مولده بطنجة في يوم الاثنين السابع عشر من رجب الفرد سنة ثلاث وسبع مائة

(رجع) وكان ارتحالى في ايام امير المؤمنين وناصر الدين المجاهد في سبيل رب العالمين الذى رويت أخبار وجوده موصولة الاسناد بالاسناد . وشهرت آثار كرمه شهرة واضحة الأَشْهاد . وتحلت الايام بحلى فضله . ورتع الانام فى ظل رفقه وعدله . الامام المقدس أبو سعيد ابن مولانا أمير المؤمنين وناصر الدين الذى قل حد الشريك صدق عزائم . وأطفأت نار الكفر جداول صوارمه . وفتكت بعباد الصليب كتابه . وكرمت فى اخلاص الجهاد مذهب . الامام المقدس أبو يوسف بن عبد الحق جدد الله عليهم رضوانه وسقى ضرائعهم المقدسة من صوب الحيا طله وانه : وجزاهم أفضل الجزاء عن الاسلام والمسلمين . وابقى الملك فى عقبهم الى يوم الدين . فوصلت مدينة تلمسان وسلطانها يومئذ أبو تاشفين عبد الرحمن بن موسى بن عثمان بن يغمراسن بن زيان . ووافقت بهار سولى ملك افريقية السلطان أبي يحيى رحمه الله وهما قاضى الانكحة بمدينة تونس أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن على بن ابراهيم النفزاوي . والشيخ الصالح أبو عبد الله محمد بن الحسين بن عبد الله القرشى الزيدى — بضم الزاي نسبة الى قرية بساحل المهدية — وهو أحد الفضلاء وفاته عام اربعين وفي يوم وصولى الى تلمسان خرج عنها الرسولان المذكوران فاشار على بعض الاخوان بمرافقتهم فاستخرت الله عز وجل فى ذلك وأتمت بتلمسان ثلاثا فى قضاء ما ربي وخرجت أجد السير فى آثارها فوصلت مدينة مليانة وأدركتها بها وذلك فى إبان القيظ فلحق الفقيهين مرض أقمنا بسببه عشر اثم ارتحلنا وقد اشتد المرض بالقاضى منهما فاقمنا ببعض المياه على مسافة أربعة أميال من مليانة ثلاثا وقضى القاضى نحبه ضحى اليوم الرابع فعاد ابنه أبو الطيب ورفيقه أبو عبد الله الزبيدي الى مليانة فقبروه بها وتركتهما هنالك وارتحلت مع رفقة من تجار تونس منهم الحاج مسعود بن المنتصر والحاج العدولى ومحمد بن الحاجر فوصلنا مدينة الجزائر وأقمنا بخارجها أياما الى أن قدم الشيخ أبو عبد الله وابن القاضى فتوجهنا جميعا على منبجة الى جبل الزان ثم وصلنا الى مدينة بجاية فنزل الشيخ أبو عبد الله بدار قاضيها أبي عبد الله

الزواوي ونزل أبو الطيب ابن القاضي بدار الفقيه أبي عبد الله المفسر وكان أمير بجاية
اذ ذاك ابا عبد الله محمد بن سيد الناس الحاجب وكان قد توفي من تجار تونس الذين صحبتهم
من مليانة محمد بن الحجر الذي تقدم ذكره وترك ثلاثة آلاف دينار من الذهب وأوصي
بها لرجل من أهل الجزائر يعرف بابن حديدة ليوصلها الى ورثته بتونس فأنتهى خبره
لابن سيد الناس المذكور فانتزعها من يده وهذا اول ما شاهدته من ظلم عمال الموحدين
وولائهم . ولما وصلنا الى بجاية كما ذكرته أصابتني الحمى فإشار على أبو عبد الله الزبيدي
بالاقامة فيها حتي يتمكن البرء مني فابيت وقلت ان قضي الله عز وجل بالموت فتكون
وقائي بالطريق وانا قاصد ارض الحجاز فقال لي اما ان عزمتم فبيع دابتك وثقل المتاع
وانا اعيرك دابة وخباء وتصحبنا خفيفا فاننا نجد السير خوف غارة العرب في الطريق
ففعلت هذا واعارني ما وعد به جزاه الله خيرا وكان ذلك اول ما ظهر لي من اللطاف
الالهية في تلك الوجهة الحجازية وسرنا الى ان وصلنا الى مدينة قسنطينة فنزلنا خارجها
وأصابنا مطر جود اضطرنا الى الخروج عن الاخبية ليلا الى دور هنالك فلما كان من الغد
تلقانا حاكم المدينة وهو من الشرفاء الفضلاء يسمى بابي الحسن فنظر الى ثيابي وقدر ثوبا
المطر فامر بغسلها في داره وكان الاحرام منها خلقا فبعث مكانه احراما بعلبكيا وصر
في أحد طرفيه دينارين من الذهب فكان ذلك أول ما فتح به علي في وجهتي ورحلنا
الى ان وصلنا مدينة بونه ونزلنا بداخلها وأقمنا بها أياما ثم تركنا بها من كان في صحبتنا
من التجار لاجل الخوف في الطريق وتجردنا للسير وواصلنا الجد واصلتني الحمى فكنت
أشد نفسي بعمامة فوق السرج خوف السقوط بسبب الضعف ولا يمكنني النزول من
الخوف الى ان وصلنا مدينة تونس فبرز أهلها للقاء الشيخ أبي عبد الله الزبيدي ولقاء
أبي الطيب ابن القاضي أبي عبد الله النفزاوي فاقبل بعضهم علي بعض بالسلام والسؤال
ولم يسلم علي احد لعدم معرفتي بهم فوجدت من ذلك في النفس مالم املك معه سوا بق
العبرة واشتد بكائي فشعر بحالي بعض الحجاج فاقبل علي بالسلام والاي ناس وما زال
يؤنسني بحديته حتي دخلت المدينة ونزلت منها بمدرسة الكتبيين — قال ابن جزي أخبرني
شيخني قاضي الجماعة الخطباء أبو البركات محمد بن محمد بن ابراهيم السلمي هو ابن
الحاج البلقيني انه جرى له مثل هذه الحكاية قال قصدت مدينة بلش من بلاد الاندلس
في ليلة عيد برسم رواية الحديث المسلسل بالعيد عن أبي عبد الله ابن الكجاد وحضرت
المصلي مع الناس فلما فرغت الصلاة والخطبة أقبل الناس بعضهم علي بعض بالسلام وأنا

في ناحية لا يسلم على أحد فقصد الى شيخ من أهل المدينة المذكورة وأقبل على بالسلام والايناس وقال نظرت اليك فرأيتك منتبذا عن الناس لا يسلم عليك أحد فعرفت انك غريب فاحببت ايناسك جزاء الله خيرا (رجع)

— ذكر سلطان تونس —

وكان سلطان تونس عند دخولي اليها السلطان أبي يحيى ابن السلطان أبي زكريا يحيى ابن السلطان أبي اسحاق ابراهيم ابن السلطان أبي زكريا يحيى بن عبد الواحد بن أبي حفص رحمه الله . وكان بتونس جماعة من اعلام العلماء منهم قاضي الجماعة بها ابو عبد الله محمد بن قاضي الجماعة أبي العباس أحمد بن محمد بن حسن بن محمد الانصاري الخزرجي البلسني الاصل ثم التونسي هو ابن الغاز . ومنهم الخطيب ابو اسحق ابراهيم بن حسين ابن علي بن عبد الرقيق الرقيعي وولي أيضاً قضاء الجماعة في خمس دول . ومنهم الفقيه أبو علي عمر بن علي بن قداح الهواري وولي أيضاً قضاءها وكان من اعلام العلماء ومن عوائده انه يستند كل يوم جمعة بعد صلاتها الى بعض اساطين الجامع الاعظم المعروف بجامع الزيتونة ويستفتيه الناس في المسائل فلما أفتي في أربعين مسألة انصرف عن مجلسه ذلك واظلني بتونس عيد الفطر فحضرت المصلي وقد احتفل الناس لشهود عيدهم وبرزوا في أجمل هيئة وأكل شارة ووافي السلطان أبو يحيى المذكور راكباً وجميع أقاربه وخواصه وخدام مملكته مشاة على أقدامهم في ترتيب عجيب وصليت الصلاة وانقضت الخطبة وانصرف الناس الى منازلهم وبعد مدة تعين لركب الحجاز الشريف شيخه يعرف بأبي يعقوب السوسي من أهل أقل من بلاد إفريقية وأكثره المصامدة فقد موني قاضياً بينهم وخرجنا من تونس في أواخر شهر ذي القعدة سالكين طريق الساحل فوصلنا الى بلدة سوسة وهي صغيرة حسنة مبنية على شاطئ البحر بينها وبين مدينة تونس أربعون ميلاً . ثم وصلنا الى مدينة صفاقس وبخارج هذه البلدة قبر الامام أبي الحسن اللخمي المالكي مؤلف كتاب التبصرة في الفقه قال ابن جزى في بلدة صفاقس يقول علي بن حبيب التنوخي (كامل)

سقياً لارض صفاقس * ذات المصانع والمصلى
محبي القصير الى الخليج * فقصرها السامي المعلى
بلديكاد يقول حين * تزوره أهلاً وسهلاً
وكأنه والبحر يحسر تارة عنه ويملا

صب يريد زيارة * فاذا رأى الرقباء ولى
وفى عكس ذلك يقول الاديب البارع أبو عبد الله محمد بن أبي تميم وكان من المجيدين
المكثرين (رجز)

صفاقس لاصفا عيش لساكنها * ولاسقى أرضها غيث اذا انسكبا
ناهيك من بلدة من حل ساحتها * عاني بها العاديين الروم والعربا
كم ضل في البر مسلوبا بضاعته * وبات في البحر يشكو الاسر والعطبا
قد عاين البحر من لوم لقاطنها * فكلما هم ان يدنو لها هربا
(رجع) ثم وصلنا الى مدينة قابس ونزلنا بداخلها وأقمنا بها عشرألتو الى نزول
الامطار. قال ابن جزى في ذكر قابس يقول بعضهم (رجز)

لهفى على طيب ليال خلت * بجانب البطحاء من قابس
كأن قلبي عند تذكارها * جذوة نار بيد قابس

(رجع) ثم خرجنا من مدينة قابس قاصدين طرابلس وصحبنا في بعض المراحل
اليها نحو مائة فارس أو يزيدون وكان بالركب قوم رماة فها بهم العرب وتحامت مكانهم
وعصمنا الله منهم وأظلنا عيد الاضحى في بعض تلك المراحل . وفي الرابع بعده وصلنا
الى مدينة طرابلس فاقمنا بها مدة وكنت عقدت بصفاقس على بنت لبعض أمراء تونس
فبنيت عليها بطرابلس ثم خرجت من طرابلس أواخر شهر المحرم من عام ستة وعشرين
ومعى أهلى وفي صحبتي جماعة من المصامدة وقد رفعت العلم وتقدمت عليهم وأقام الركب
في طرابلس خوفا من البرد والمطر وتجاوزنا — مسلاتة ومسرارة وقصور سرت — وهنالك
أرادت طوائف العرب الايقاع بنائم صرفتهم القدرة وحالت دون ماراموهم من اذابتنا
ثم توسطنا الغابة وتجاوزناها الى قصر برصيصا العابد الى قبة سلام وأدركنا هنالك
الركب الذين تخلفوا بطرابلس ووقع بيني وبين صهرى مشاجرة أوجبت فراق بنته
وتزوجت بنتا لبعض طلبة قاس وبنيت بها بقصر الزعافية وأولت وليمة حبست لها
الركب يوما وأطعمتهم. ثم وصلنا في اول جمادى الاولى الى مدينة الاسكندرية حرسها الله
وهى الثغرا الحروس . والقطر المانوس . العجيبة الشأن . الاصيلة البنيان . بها ماشئت من
تحسين وتحصين . وما تروى دينا ودين . كرمت مغانيها . ولطفت معاينها وجمعت بين الضخامة
والاحكام مبانيها . فهى الفريدة تجلى سناها . والخريدة تجلى في حلالها . الزاهية بجماها
المغرب . الجامعة لمفترق الحاسن لتوسطها بين المشرق والمغرب . فكل بدية بها اجتلاؤها .

وكل طرفة فاليها انتهاؤها . وقد وصفها الناس فأطنبوا . وصنفوا في عجائبا فاغربوا
وحسب المشرف الى ذلك ماسطره أبو عبيد في كتاب المسالك
— ذكر أبوابها ومرساها —

ولمدينة الاسكندرية أربعة أبواب . باب السدرة واليه يشرع طريق المغرب . وباب
رشيد . وباب البحر . والباب الاخضر وليس يفتح الا يوم الجمعة فيخرج الناس منه الى زيارة
القبور ولها المرسى العظيم الشأن ولم أرفى مراسى الدنيا مثله الا ما كان من مرسى كوكم
وقال يقوط ببلاد الهند ومرسى الكفار بسرادق ببلاد الاتراك ومرسى الزيتون ببلاد
الصين وسيقع ذكرها

— ذكر المنار —

قصدت المنار في هذه الوجهة فرأيت أحد جوانبه متهدما . وصفته انه بناء مربع
ذاهب في الهواء وبابه مرتفع على الارض وازاء بابه بناء بقدر ارتفاعه وضعت بينهما ألواح
خشب يعبر عليها الى بابه فاذا أزيلت لم يكن له سبيل وداخل الباب موضع لجلوس حارس
المنار وداخل المنار بيوت كثيرة وعرض الممر بداخله تسعة أشبار وعرض الحائط عشرة
أشبار وعرض المنار من كل جهة من جهاته الاربع مائة وأربعون شبرا وهو على تل
مرتفع . ومسافة ما بينه وبين المدينة فرسخ واحد في بر مستطيل يحيط به البحر من ثلاث
جهات الى أن يتصل البحر بسور البلد فلا يمكن التوصل الى المنار في البر الا من المدينة
وفي هذا البر المتصل بالمنار مقبرة الاسكندرية وقصدت المنار عند عودي الى بلاد
المغرب عام خمسین وسبع مائة فوجدته قد استولى عليه الخراب بحيث لا يمكن دخوله ولا
الصعود الى بابه . وكان الملك الناصر رحمه الله قد شرع في بناء منار مثله بازائه فعاقه الموت
عن اتمامه

— ذكر عمود السواری —

ومن غرائب هذه المدينة عمود الرخام الهائل الذي بخارجها المسمى عندهم بعمود
السواری وهو متوسط في غابة نخل وقد امتاز عن شجراتها سموا وارتفاعاً وهو قطعة
واحدة محكمة النحت قد اقيم على قواعد حجارة مربعة أمثال الدكاكين العظيمة ولا
تعرف كيفية وضعه هنالك ولا يتحقق من وضعه . قال ابن جزى أخبرني بعض اشياخي
الرحالين ان أحد الرماة بالاسكندرية صعد الى أعلي ذلك العمود ومعه قوسه وكنانته
واستقر هنالك وشاع خبره فاجتمع الجم الغفير لمشاهدته وطال العجب منه وخفي على
الناس وجه احتياله وأظنه كان خائفاً أو طالب حاجة فانتج له فعله الوصول الى قصده

لغرابة ما أنى به. وكيفية احتياله في صعوده انه رمى بنشابة قد عقد فوقها خيطا طويلا وعقد
 بطرف الخيط حبلا وثيقا فتجاوزت النشابة أعلى العمود معترضة عليه ووقعت من الجهة
 الموازية للرامي فصار الخيط معترضا على أعلى العمود فجذبه حتى توسط الحبل أعلى العمود
 فكان الخيط فاوسطه من احدى الجهتين في الارض وتعلق به صاعداً من الجهة الاخرى
 واستقر باعلاه وجذب الحبل واستصحب من احتمله فلم يهتد الناس لحيلته وعجبوا من
 شأنه (رجع) وكان أمير الاسكندرية في عهد وصولي اليها يسمي بصلاح الدين وكان
 فيها أيضاً في ذلك العهد سلطان افر يقية المخلوع وهو زكرياء أبو يحيى بن أحمد بن أبي
 حفص المعروف بالبحاني وأمر الملك الناصر بانزاله بدار السلطنة من اسكندرية وأجرى
 له مائة درهم في كل يوم. وكان معه أولاده عبد الواحد ومصرى واسكندري وحاجبه
 أبو زكرياء بن يعقوب ووزيره أبو عبد الله بن ياسين. وبالا سكندرية توفي البحاني
 المذكور وولده الاسكندري وتوفي المصري بها الى اليوم. قال ابن جزى من الغريب ما اتفق
 من صدق الزجر في اسمي ولدي البحاني الاسكندري والمصري فمات الاسكندري
 بها وعاش المصري دهرًا طويلاً بها وهي من بلاد مصر (رجع) ونحول عبد الواحد لبلاد
 الاندلس والمغرب وافر يقية وتوفي هنالك بجزيرة جربة

— ذكر بعض علماء الاسكندرية —

فمنهم قاضيها عماد الدين الكندي إمام من أئمة علم اللسان وكان يعمم بعمامة خرقت
 المعتاد للعلماء لم أرفى مشارق الارض ومغارها عمامة اعظم منها رأيتها يوماً قاعداً في صدر
 محراب وقد كادت عمامته ان تملأ المحراب. ومنهم نخر الدين بن الريني وهو أيضاً من القضاة
 بالا سكندرية فاضل من أهل العلم

— حكاية —

يذكر ان جد القاضي نخر الدين الريني كان من أهل ريفنة واشتغل بطلب العلم
 ثم رحل الى الحجاز فوصل الاسكندرية بالعشي وهو قليل ذات اليد فاحب أن
 لا يدخلها حتى يسمع قالا حسنا فقعده قريبا من بابها الى ان دخل جميع الناس وجاء وقت
 سد الباب ولم يبق هنالك سواه فاغتاظ الموكل بالباب من ابطائه وقال متهم كما دخل يا قاضي
 فقال قاض ان شاء الله ودخل الى بعض المدارس ولازم القراءة وسلك طريق الفضلاء
 فعظم صيته وشهر اسمه وعرف بالزهد والورع واتصلت أخباره بملك مصر واتفق ان توفي
 قاضي الاسكندرية وبها اذذاك الجمل الغفير من الفقهاء والعلماء وكلهم متشوفين للولاية وهو
 من بينهم لا يتشوف لذلك فبعث اليه السلطان بالتقليد وهو ظهير القضاء وأتاه البر يد بذلك

مقام رخصته أن ينادي في الناس من كانت له خصومة فليحضر لها وقعد للفصل بين الناس فاجتمع الفقهاء وسواهم إلى رجل منهم كانوا يظنون أن القضاء لا يتعداه وتفاوضوا في مراجعة السلطان في أمره ومخاطبته بأن الناس لا يرتضونه وحضر لذلك أحد الخذاق من المنجمين فقال لهم لا تفعلوا ذلك فاني عدلت طالع ولايته وحقته فظهر لي أنه يحكم أربعين سنة فأضر بواعما هموا به من المراجعة في شأنه وكان أمره على ما ظهر للمنجم. وعرف في ولايته بالعدل والنزاهة. ومنهم وجيه الدين الصنهاجي من قضاتها مشتهر بالعلم والفضل. ومنهم شمس الدين ابن بنت التنيسي فاضل شهير الذكر. ومن الصالحين بها الشيخ أبو عبد الله الفاسي من كبار أولياء الله تعالى يذكر أنه كان يسمع رد السلام عليه إذا سلم من صلاته ومنهم الامام العالم الزاهد الخاشع الورع (خليفة) صاحب المكاشفات — كرامة له — أخبرني بعض الثقات من أصحابه قال رأى الشيخ خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم في النوم فقال يا خليفة زرنا فرحل إلى المدينة الشريفة وأتى المسجد الكريم فدخل من باب السلام وحيا المسجد وسلم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وقعد مستنداً إلى بعض سوارى المسجد ووضع رأسه على ركبتيه وذلك يسمي عند المتصوفة الترفيق فلما رفع رأسه وجد أربعة أرغفة وآنية فيها لبن وطبقا فيه تمر فاكل هو وأصحابه وانصرف عائداً إلى الاسكندرية ولم ينج تلك السنة. ومنهم الامام العالم الزاهد الورع الخاشع برهان الدين الاعرج من كبار الزهاد وافراد العباد لقيته أيام مقامي بالاسكندرية وأقيمت في ضيافته ثلاثا

— ذكر كرامة له —

دخلت عليه يوما فقال لي أراك تحب السياحة والجولان في البلاد فقلت له نعم اني أحب ذلك ولم يكن حينئذ خطر بخاطري التوغل في البلاد القاصية من الهند والصين فقال لا بد لك ان شاء الله من زيارة أخي فريد الدين بالهند وأخي ركن الدين زكرياء بالسند وأخي برهان الدين بالصين فاذا بلغتهم فابلغهم مني السلام فعجبت من قوله وألقي في روعي التوجه إلى تلك البلاد ولم أزل أجول حتى لقيت الثلاثة الذين ذكرهم وأبلغتهم سلامه ولما وادعته زودني دراهم لم تنزل عندي محوطة ولم أحتج بعد إلى اتفاقها إلى أن سلبها مني كفار الهنود فيما سلبوه لي في البحر. ومنهم الشيخ ياقوت الحبشي من افراد الرجال وهو تلميذ أبي العباس المرسى وأبو العباس المرسى تلميذ ولي الله تعالى أبي الحسن الشاذلي الشهير ذي الكرامات الجليلة والمقامات العالية

— كرامة لأبي الحسن الشاذلي — أخبرني الشيخ ياقوت عن شيخه أبي العباس المرسى

ان أبا الحسن كان يحج في كل سنة ويجعل طريقه على صعيد مصر ويجاور بمكة شهر رجب وما بعده الى انقضاء الحج و يزور القبر الشريف و يعود على الدرب الكبير الى بلده فلما كان في بعض السنين وهي آخر سنة خرج فيها قال لخديمه استصحب فأسا وقفة وحنوطا وما يجهز به الميت فقال له الخديم ولمذا يا سيدي فقال له في حميثرا سوف ترى وحميثرا في صعيد مصر في صحراء عذاب و بها عين ماء زعاق وهي كثيرة الضباع فلما بلغا حميثرا اغتسل الشيخ أبو الحسن وصلى ركعتين وقبضه الله عز وجل في آخر سجدة من صلاته ودفن هناك و قد زرت قبره وعليه تبرية مكتوب فيها اسمه ونسبه متصلا بالحسن ابن علي رضي الله عنه

— ذكر حزب البحر المنسوب اليه — كان يسافر في كل سنة كما ذكرناه على صعيد مصر و يخرج دة فكان اذا ركب السفينة يقرؤه في كل يوم وتلامذته الى الآن يقرؤنه في كل يوم وهو هذا — يا الله يا على يا عظيم يا حلیم يا علیم أنت ربی . وعالمك حسبي . فنعم الرب ربی . ونعم الحسب حسبي . تنصر من تشاء وأنت العزيز الرحيم . نسالك العصمة في الحركات والسكنات والكلمات والارادات والخطرات من الشكوك والظنون والالهام الساترة للقلوب عن مطالعة الغيوب فقد ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا ليقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله الا غرورا فثبتنا وانصرنا وسخر لنا هذا البحر كما سخرت البحر لموسى عليه السلام وسخرت النار لابراهيم عليه السلام وسخرت الجبال والحديد لداود عليه السلام وسخرت الريح والشياطين والجن لسليمان عليه السلام وسخرنا كل بحر هولاك في الارض والسماء والملك والمملوك وبحر الدنيا وبحر الآخرة وسخرنا كل شيء يامن بيده مملوك كل شيء كهيص حم عسق انصرنا فانك خير الناصرين وافتح لنا فانك خير الفائزين واغفر لنا فانك خير الغافرين وارحمنا فانك خير الراحمين وارزقنا فانك خير الرازقين واهدنا ونجنا من القوم الظالمين وهب لنا ربحا طيبة كما هي في علمك وانشرها علينا من خزائن رحمتك واحملنا بها حمل الكرامة مع السلامة والعافية في الدين والدنيا والآخرة انك على كل شيء قدير اللهم يسر لنا أمورنا مع الراحة لقلوبنا وأبداننا والسلامة والعافية في ديننا ودنيانا وكن لنا صاحبا في سفرنا وخليفة في أهلنا واطمس على وجود أعدائنا وامسحهم على مكائنتهم فلا يستطيعون المضى ولا الهجيء اليها ولونشاء لطمسنا على أعينهم فاستبقوا الصراط فاني يبصرون ولونشاء لمسخناهم على مكائنتهم فما استطاعوا مضيا ولا يرجعون يس الى فهم لا يبصرون شاهت الوجوه وعنت الوجوه للحي القيوم وقد خاب من حمل ظلما طس طسم حم عسق مرج البحرين يلتقيان بينهما برزخ

ومما جرى بمدينة الاسكندرية سنة سبع وعشرين وبلغنا خبر ذلك بمكة شرفها الله
لانه وقع بين المسلمين وتجار النصارى مشاجرة وكان والى الاسكندرية رجلا يعرف
بالكركى فذهب الى حامية الروم وأمر بالمسلمين فحضروا بين فصيلي باب المدينة وأغلق
دونهم الابواب نكالا لهم فانكر الناس ذلك وأعظموه وكسروا الباب وثاروا الى منزل
الوالى فتحصن منهم وقتلهم من أعلاه وطير الحمام بالخبر الى الملك الناصر فبعث أميرا
يعرف بالجمالى ثم اتبعه أمير يعرف بطوغان جبار قاسى القلب متهم فى دينه يقال انه كان
يعبد الشمس فدخل الاسكندرية وقبضا على كبار أهلها وأعيان التجار بها كاولاد الكو بك
وسواهم وأخذ منهم الاموال الطائلة وجعلت فى عنق عماد الدين القاضى جامعة حديد ثم
ان الاميرين قتلا من أهل المدينة ستة وثلاثين رجلا وجعلوا كل رجل قطعتين وصلبوه
حشفيين وذلك فى يوم جمعة وخرج الناس على عادتهم بعد الصلاة لزيارة القبور وشاهدوا
مصارع القوم فعظمت حسرتهم وتضاعفت أحزانهم وكان فى جملة أولئك المصلوبين تاجر
كبير القدر يعرف بابن رواحة وكان له قاعة معدة للسلاح فمضى كان خوف أو قتال جهز منها
المائة والمائتين من الرجال بما يكفيهم من الاسلحة وبالمدينة قاعات على هذه الصورة لكثير
من أهلها فزل لسانه وقال للاميرين أنا أضمن هذه المدينة وكل ما يحدث فيها أطايب به
وأحوط على السلطان مرتبات العساكر والرجال فانكر الاميران قوله وقالوا انما تريد
الثورة على السلطان وقتلاه وانما كان قصده رحمه الله إظهار النصيح والخدمة للسلطان فكان
غيه حثفه . وكنت سمعت أيام اقامتي بالاسكندرية بالشيخ الصالح العابد المنقطع المنفق من
ذلكون أنى عبد الله المرشدي وهو من كبار الاولياء المكاشفين انه منقطع بمنية بنى مرشد

لهنا لك زواية هو منفرد فيها لا خديم له ولا صاحب ويقصده الامراء والوزراء وقائمه
الوفود من طوائف الناس في كل يوم فيطعمهم الطعام وكل واحد منهم ينوي أن يأكل
عنده طعاماً أو فاكهة أو حلوى فيأتي لكل واحد بما نواه وربما كان ذلك في غير ابانه ويأتيه
الفقهاء لطلب الخطبة فيولى ويعزل وذلك كله من أمره مستفيض متواتر وقد قصده الملك
الناصر مرات بموضعه فخرجت من مدينة الاسكندرية قاصداً هذا الشيخ نفعا الله به
ووصلت قرية تروجة (وضبطها بفتح التاء الفوقية والراء وواو وجيم مفتوحة) وهي على
مسيرة نصف يوم من مدينة الاسكندرية قرية كبيرة بها قاض ووال وناظر ولاهها سكارم
أخلاق ومروءة صحبت قاضيها صفي الدين وخطيبها خراالدين وقاضيا من أهلها يسمى بمبارك
وينعت بزين الدين ونزات بها على رجل من العباد الفضلاء كبير القدر يسمى عبد الوهاب
وأضافني ناظرها زين الدين بن الواعظ وسألني عن بلدي وعن مجباه فأخبرته ان مجباه
نحو اثني عشر ألفاً من دينار الذهب فمعجب وقال لي رأيت هذه القرية فان مجباه اثنيان
وسبعون ألف دينار ذهباً وانما عظمت مجابي ديار مصر لان جميع أملاكها لبيت المال
ثم خرجت من هذه القرية فوصلت مدينة دمنهور وهي مدينة كبيرة جبايتها كثيرة
ومحاسنها أثيرة أم مدن البحيرة بأسرها وقطبها الذي عليه مدار أمرها (وضبطها بدال
مهملة وميم مفتوحتين ونون ساكنة وهاء مضمومة وواو وراء) وكان قاضيها في ذلك
العهد فخر الدين بن مسكين من فقهاء الشافعية وتولى قضاء الاسكندرية لما عزل عنها
عماد الدين الكندي بسبب الواقعة التي قصصناها وأخبرني الثقة أن ابن مسكين أعطي خمسة
وعشرين ألف درهم وصرفها من دنانير الذهب ألف دينار على ولاية القضاء بالاسكندرية
ثم رحلنا الى مدينة فوا وهذه المدينة عجيبه المنظر حسنة الخبير بها البساتين الكثيرة
والقوائد الخطيرة الاثيرة) وضبطها بالقاء والواو المفتوحتين مع تشديد الواو) بها قبر
الشيخ الولي أبي النجاة الشهير الاسم خير تلك البلاد وراوية الشيخ أبي عبد الله المرشدي
الذي قصده بمقربة من المدينة يفصل بينها خليج هنالك فلما وصلت المدينة تعديتها
ووصلت الى زواية الشيخ المذكور قبل صلاة العصر وسلمت عليه ووجدت عنده الامير
سيف الدين يملك وهو من الخاصكية (وأول اسمه ياء آخر الحروف ولأمه الاولى
مسكنة والثانية مفتوحة مثل الميم والعامية تقول فيه الملك فيخطئون ونزل هذا الامير
بعسكره خارج الزاوية ولما دخلت على الشيخ رحمه الله قام الى وعانقني وأحضر طعاماً
فواكلني وكانت عليه جبة صوف سوداء فلما حضرت صلاة العصر قدمني للصلاة اماماً

وكذلك لكل ما حضر في عنده حين اقامتي معه من الصلاة. ولما أردت النوم قال لي اصعد الى سطح الزاوية فتم هنالك وذلك اوان القليظ فقلت للامير بسم الله فقال لي وما منا الا له مقام معلوم فصعدت السطح فوجدت به حصيرا ونظما وآنية للوضوء وجرة ماء وقدحا للشرب فتمت هنالك

— كرامة لهذا الشيخ — رأيت ليلتي تلك وأنا نائم بسطح الزاوية كأنني على جناح طائر عظيم بطير بي في سمت القبلة يتيامن ثم يشرق ثم يذهب في ناحية الجنوب ثم يبعد الطيران في ناحية الشرق وينزل في أرض مظلمة خضراء ويتركني بها فعجبت من هذه الرؤيا وقلت في نفسي ان كاشفني الشيخ برؤياي فهو كما يحكي عنه فلما بالاسرار غدوت لصلاة الصبح قدمني اماما له اسم آتاه الامير يملك فوادعه وانصرف ووادعه من كان هناك من الزوار وانصرفوا اجمعين من بعد أن زودهم كعيكات صفاراتهم سبحت سبحة الضحى ودعاني وكاشفني برؤياي فقصصتها عليه فقال سوف تحج وتزور النبي صلى الله عليه وسلم وتجول في بلاد اليمن والعراق وبلاد الترك وبلاد الهند وتبقى بها مدة طويلة وستلقى بها أخي دلشاد الهندي وتخلصك من شدة تقع فيها ثم زودني كعيكات ودراهم ووادعته وانصرفت ومنذ فارقه لم ألق في أسفاري الا خيرا وظهرت علي بركاته ثم لم ألق فيمن لقيته مثله الا الولي سيدي محمدا الموله بارض الهند ثم رحلنا الى مدينة النحرارية وهي رحبة الفناء حديثة البناء أسواقها حسنة الرؤيا (وضبطها بفتح النون وحاء مهمل مسكن وراءين) وأميرها كبير القدر يعرف بالسعدى وولده في خدمة ملك الهند وسند كره . وقاضيه صدر الدين سليمان المالكي من كبار المالكية سافر عن الملك الناصر الى العراق وولى قضاء البلاد الغربية وله هيئة جميلة وصورة حسنة. وخطيبها شرف الدين السخاوي من الصالحين. ورحلت منها الى مدينة ابيار وهي قديمة البناء أرجة الارحاء كثيرة المساجد ذات حسن زائد (وضبط اسمها بفتح الهمزة واسكان الباء الموحدة وياء آخر الحروف وألف وراء) وهي بمقربة من النحرارية ويفصل بينهما النيل وتصنع بآيسار ثياب حسان تعلو قيمتها بأشام والعراق ومصر وغيرها . ومن الغريب قرب النحرارية منها والثياب التي تصنع بها غبر معتبرة ولا مستحسنة عند أهلها . ولقيت بآيسار قاضيه اعز الدين المليحي الشافعي وهو كرم الشائل كبير القدر حضرت عنده مرة يوم الركبة . وهم يسمون ذلك يوم ارتقاب هلال رمضان وعادتهم فيه ان يجتمع فقهاء المدينة . ووجوها بعد العصر من اليوم التاسع والعشرين لشعبان بدار القاضى ويقف على الباب نقيب المتعممين وهو ذوشارة وهيئة حسنة فاذا أتى أحد الفقهاء أو الوجوه تلقاه ذلك

النقيب ومشى بين يديه قائلا بسم الله سيدنا فلان الدين فيسمع القاضي ومن معه فيقومون له ويجلسه النقيب في موضع يليق به فاذا تكاملوا هنالك ركب القاضي وركب من معه أجمعين وتبعهم جميع من بالمدينة من الرجال والنساء والصبيان وينتهون الى موضع مرتفع خارج المدينة وهو مرتقب الهلال عندهم وقد فرش ذلك الموضع بالبسط والفرش فينزل فيه القاضي ومن معه فيرتقبون الهلال ثم يعودون الى المدينة بعد صلاة المغرب وبين أيديهم الشمع والمشاعل والفوانيس ويوقد أهل الحوانيت بحوانيتهم الشمع ويصل الناس مع القاضي الى داره ثم ينصرفون هكذا فعلهم في كل سنة. ثم توجهت الى مدينة المحلة الكبير ذوهي جليلة المقدار حسنة الآثار كثير أهلها جامع بالحاسن شملها واسمها بسين ولهذه المدينة قاضي القضاة والى الولاية. وكان قاضي قضائها أيام وصولي اليها في فراش المرض ببستان له على مسافة فرسخين من البلد. وهو عز الدين بن الاشمرين فقصدت زيارته صحبة نائبه الفقيه أبي القاسم بن بنون المالكى التونسى وشرف الدين الدميرى قاضي محلة منوف وأقمنا عنده يوما وسمعت منه وقد جرى ذكر الصالحين ان على مسيرة يوم من المحلة الكبيرة بلاد البرلس ونسترو وهي بلاد الصالحين وبها قبر الشيخ مرزوق صاحب المكاشفات فقصدت تلك البلاد ونزلت بزاوية الشيخ المذكور وتلك البلاد كثيرة النخل والثمار والطير البحرية والحوت المعروف بالبورى ومد ينتهم تسمي ملطين وهي على ساحل البحيرة المجتمعة من ماء النيل وماء البحر المعروفة ببحيرة تنيس ونسترو بمقربة منها نزلت هنالك بزاوية الشيخ شمس الدين القلوي من الصالحين وكانت تنيس بلدا عظيما شهيرا وهى الآن خراب قال ابن جزى (تنيس بكسر التاء المثناة والنون المشددة وياء وسين مهملى) واليه ينسب الشاعر المجيد ابو الفتح بن وكيع وهو القائل في خليجها (بسيط)

قم فاسقني والخليج مضطرب * والريح ثني ذوائب القصب

كانها والرياح تعطفها * صب قنا سندسية العذب

والجو في حلة ممسكة * قد طرزتها البروق بالذهب

(ونستر وبفتح النون واسكان السين وراء مفتوحة وواو مسكن) — والبرلس بياء

موحدة وراء وآخره سين مهملة وقيد بعضهم بضم حروفه الاول الثلاث وتشديد اللام

وقيد ابو بكر بن نقطة بفتح الاولين — وهو على البحر. ومن غريب ما اتفق به ما حكاه

أبو عبد الله الرازى عن أبيه ان قاضي البرلس وكان رجلا صالحا خرج ليلة الى النيل فبينما

السبح الوضوء وصلى ماشاء ان يصلى اذ سمع قائلا يقول

لولا رجال لهم سرد يصومونا * وآخرون لهم ورد يقومونا
 لزلات أرضكم من تحتكم سحرا * لانكم قوم سوء لا تبالونا
 قال فتجوزت في صلاتي وأدرت طرفي فأرأيت احدا ولا سمعت حسا فعلمت ان ذلك زاجر
 من الله تعالى (رجع) ثم سافرت في أرض رملة الى مدينة دمياط وهي مدينة فسيحة
 الاقطار متنوعة الثمار عجيبه الترتيب آخذة من كل حسن بنصيب والناس يضبطون
 اسمها باعجام الدال وكذلك ضبطه الامام أبو محمد عبدالله بن علي الرشاطي وكان شرف الدين
 الامام العلامة أبو محمد عبد المؤمن بن خلف الدمياطي امام المحدثين يضبطها باهمال الدال
 ويتبع ذلك بان يقول خلاف الرشاطي وغيره وهو أعرف بضبط اسم بلده ومدينة
 دمياط على شاطئ النيل وأهل الدور الموالية له يستقون منه الماء بالدلاء وكثير من دورها
 بهادر كات ينزل فيها الى النيل وشجر الموز بها كثير يحمل ثمره الى مصر في المراكب
 وغنمها سائمة هملا بالليل والنهار ولهذا يقال في دمياط سورها حلوى وكلاهما غنم واذا
 دخلها أحد لم يكن له سبيل الى الخروج عنها الا بطابع الوالي فمن كان من الناس معتبرا طبع
 له في قطعة كاعد يستظهر به لحراس بابها وغيرهم يطبع على ذراعه فيستظهر به والطير
 البحري بهذه المدينة كثير متناهي السمن وبها الالبان الجاموسية التي لا مثل لها في عذوبة
 الطعم وطيب المذاق وبها الحوت البوري يحمل منها الى الشام وبلاد الروم ومصر وبخارجها
 جزيرة بين البحرين والنيل تسمى البرزخ بها مسجد وزاوية اقيمت بها شيخها المعروف بابن
 قفل وحضرت عنده ليلة جمعة ومعه جماعة من الفقراء الفضلاء المتعبدين الاخير قطعوا
 ليائتهم صلاة وقراءة وذكرنا. ودمياط هذه حديثة البناء والمدينة القديمة هي التي خربها
 الافرنج على عهد الملك الصالح وبها زاوية الشيخ جمال الدين الساوي قدوة الطائفة
 المعروفة بالقرندرية وهم الذين يحلقون لحاهم وحواجبهم ويسكن الزاوية في هذا العهد
 الشيخ فتح التكروري — حكاية —

يذكر ان السبب الداعي للشيخ جمال الدين الساوي الى خلق لحيته وحاجبيه انه كان جميل
 الصورة حسن الوجه فعلقته به امرأة من أهل ساوة وكانت ترأسه وتعارضه في الطرق
 وتدعوه لنفسها وهو يمتنع ويتهاون فلما أعياها أمره دست له عجز اتصدت له ازاء دار على
 طريقه الى المسجد ويدها كتاب مختوم فلما مربها قالت له ياسيدي أتحسن القراءة قال
 نعم قالت له هذا الكتاب وجهه الى ولدي واحب ان تقرأه على فقال لها نعم فلما فتح
 الكتاب قالت له ياسيدي ان لولدي زوجة وهي باسطوان الدار فلو تفضلت بقراءته بين

بابي الدار بحيث تسمعها فاجابها لذلك فلما توسط بين البابين غلقت العجوز الباب وخرجت المرأة وجوارها فتعلقن به وأدخلنه الى داخل الدار وراودته المرأة عن نفسه فلما رأى ان لا خلاص له قال لها اني حيث تريدن فاريني بيت الخلاء فارتته اياه فادخل معه الماء وكانت عنده موسى حديدة خالق لحيته وحاجبيه وخرج عليها فاستقبحت هيئته واستنكرت فعله وأمرت باخراجه وعصمه الله بذلك فبقى على هيئته فيما بعد وصار كل من يسلك طريقته يحلق رأسه ولحيته وحاجبيه

(كرامة لهذا الشيخ) يذكر انه لما قصد مدينة دمياط لزم مقبرتها وكان بها قاض يعرف بابن العميد فخرج يوما الى جنازة بعض الاعيان فرأى الشيخ جمال الدين بالمقبرة فقال له انت الشيخ المبتدع فقال له وانت القاضي الجاهل تمر بدايتك بين القبور وتعلم ان حرمة الانسان ميتا كحرمة حيا فقال له القاضي وأعظم من ذلك حلقك للحيتك فقال له ايبي تعني وزعق الشيخ ثم رفع رأسه فاذا هو ذو لحية سوداء عظيمة فعجب القاضي ومن معه ونزل اليه عن بغلته ثم زعق ثانية فاذا هو ذو لحية بيضاء حسنة ثم زعق ثالثة ورفع رأسه فاذا هو بلا لحية كهيئته الاولى فقبل القاضي يده وتلمذ له وبني له الرواية حسنة وصحبه ايام حياته ثم مات الشيخ فدفن بزوايته ولما حضرت القاضي وفاته أوصى أن يدفن بباب الزاوية حتي يكون كل داخل الى زيارة الشيخ يطأ قبره ويخرج دمياط المزار المعروف بشطا (بفتح الشين المعجمة والطاء المهملة) وهو ظاهر البردة يقصده أهل الديار المصرية وله أيام في السنة معلومة لذلك ويخرجها أيضا بين بساينها موضع يعرف بالمنية فيه شيخ من الفضلاء يعرف بابن النعمان قصدت زاويته وبت عنده وكان بدمياط أيام اقامتي بها وال يعرف بالمحسني من ذوى الاحسان والفضل بنى مدرسة على شاطي النيل بها كان نزولي في تلك الايام وتاكدت ببني وبينه مودة ثم سافرت الى مدينة فارسكور وهي مدينة على ساحل النيل (والكاف الذي في اسمها مضموم) ونزلت بخارجها ولحقني هنالك فارس وجهه الى الامير المحسني فقال لي ان الامير سال عنك وعرف بسيرتك فبعث اليك بهذه النفقة ودفع الى جملة دراهم جزاء الله خيرا ثم سافرت الى مدينة أشمون الرمان (وضبط اسمها بفتح الهمزة واسكان الشين المعجم) ونسبت الى الرمان لكثرة بها ومنها يحمل الى مصر وهي مدينة عتيقة كبيرة على خليج من خاج النيل ولها قنطرة خشب ترسو المراكب عندها فاذا كان العصر رفعت تلك الخشب وجازت المراكب صاعدة ومنحدرة وبهذه البلدة قاضي القضاة ووالي الولاية ثم سافرت عنها الى مدينة سمهود وهي على شاطيء

النيل كثيرة المراكب حسنة الاسواق وبينها وبين المحلة الكبيرة ثلاثة فراسخ (وضبط اسمها بفتح السين المهمل والميم وتشديد النون وضمها وواو ودال مهمل) ومن هذه المدينة ركبت النيل مصعدا الى مصر ما بين مدائن وقرى منتظمة متصل بعضها ببعض ولا يفتقر راكب النيل الى استئجار الزاد لانه مهما اراد النزول بالشاطئ نزل للوضوء والصلاة وشراء الزاد وغير ذلك والاسواق متصلة من مدينة الاسكندرية الى مصر ومن مصر الى مدينة أسوان من الصعيد ثم وصلت الى مدينة مصر هي أم البلاد وقرارة فرعون ذي الاوتاد ذات الاقاليم العريضة والبلاد الارضية المتناهية في كثرة العمارة المتباهية بالحسن والنضارة مجمع الوارد والصادر ومحط رحل الضعيف والقادر وبها ماشئت من عالم وجاهل وجاد وهازل وحليم وسفيه ووضيع ونبيه وشريف ومشروف ومنكر ومعروف تموج موج البحر بسكانها وتكاد تضيق بهم على سعة مكانها وامكانها شبابها يمد على طول العهد وكوكب تعديها لا يبرح عن منزل السعد قهرت قاهرتها الامم وتمكنت ملوكها نواصي العرب والعجم ولها خصوصية النيل التي جل خطرها وأغناها عن أن يستمد القطر قطرها وأرضها مسيرة شهر لمجد السير كريمة التربة مؤنسة لذوى الغربة قال ابن جزى وفيها يقول الشاعر

لعمرك ما مصر بمصر وانما * هي الجنة الدنيا لمن يتبصر
قاولادها الولدان والخور عينها * وروضتها الفردوس والنيل كوثر
وفيها يقول ناصر الدين بن تاهض

شاطيء مصر جنة * مامثلها من بلد
لاسيما مذخرفت * بنيلها المطرد
وللرياح فوقه * سوابغ من زرد
مسرودة مامسها * داودها بمبرد
سائلة هواؤها * يرعد عارى الجسد
والفلك كالافلاك بسين حادر ومصعد

(رجع) ويقال ان بمصر من السقائين على الجبال اثني عشر الف سقاء وان بها ثلاثين الف مكار وان بنيلها من المراكب ستة وثلاثين الفا للسلطان والرعية تمر صاعدة الى الصعيد ومنحدرة الى الاسكندرية ودمياط بانواع الخيرات والمرافق وعلي ضفة النيل

مما يواجهه مصر الموضع المعروف بالروضة وهو مكان النزهة والتفرج وبه البساتين الكثيرة الحسنة وأهل مصر ذو طرب وسرور ولهو شاهدت بها مرة فرجة بسبب براء الملك الناصر من كسر أصاب يده فزين كل أهل سوق سوقهم وعالقوا بحوائيتهم الحلل والحلى وثياب الحرير وبقوا على ذلك أياما

— ذكر مسجد عمرو بن العاص والمدارس والمارستانات والزوايا —

ومسجد عمرو بن العاص مسجد شريف كبير القدر شهير الذكرة تقام فيه الجمعة والطقس يعترضه من شرق إلى غرب وبشرقه الزاوية حيث كان يدرس الامام أبو عبد الله الشافعي وأما المدارس بمصر فلا يحيط أحد بحصرها لكثرتها — وأما المارستان الذي بين القصرين عند تربة الملك المنصور قلارون فيعجز الوصف عن محاسنة وقد أعد فيه من المرافق والادوية مالا يحصرو. يذكر أن مجباه الف دينار كل يوم — وأما الزوايا فكثيرة وهم يسمونها الخوانق واحدها خانقة والامراء بمصر يتنافسون في بناء الزوايا وكل زاوية بمصر معينة لطائفة من الفقراء وأكثرهم الاغنياء وهم اهل ادب ومعرفة بطريفة التصوف ولكل زاوية شيخ وحارس وترتيب امورهم عجيب * ومن عوائدهم في الطعام انه يأتي خديم الزاوية الى الفقراء صبا حافيعين له كل واحد ما يشتهي من الطعام فاذا اجتمعوا للاكل جعلوا لكل انسان خبزه ومرقه في اناء على حدة لا يشاركه فيه احد وطعامهم مرتان في اليوم ولهم كسوة الشتاء وكسوة الصيف ومرتب شهري من ثلاثين درهما للواحد في الشهر الى عشرين ولهم الحلاوة من السكر في كل ليلة جمعة والصابون لغسل أثوابهم والاجرة لدخول الحمام والزيت للاستصباح وهم أعزب وللمتزوجين زوايا على حدة ومن المشرط عليهم حضور الصلوات الخمس والمبيت بالزاوية واجتماعهم بقبة داخل الزاوية * ومن عوائدهم ان يجلس كل واحد منهم على سجادة مختصة به واذا صلوا صلاة الصبح قرأوا سورة الفتح وسورة الملك وسورة عم ثم يؤتى بنسخ من القرآن العظيم مجزأة فيأخذ كل فقير جزءا ويختمون القرآن ويذكرون ثم يقرأ القراء على عادة اهل المشرق ومثل ذلك يفعلون بعد صلاة العصر * ومن عوائدهم مع القادم انه يأتي باب الزاوية فيقف به مشدودا للوسط وعلى كاهله سجادة ويمناه العكاز ويسراه الابريق فيعلم البواب خديم الزاوية بمكانه فيخرج اليه ويساله من أي البلاد أنى وبأى الزوايا نزل في طريقه ومن شيخه فاذا عرف صحة قوله ادخله الزاوية وفرش له سجادته في موضع يليق به وأراه موضع الطهارة فيجدد الوضوء ويأتي الى سجادته فيحبل وسطه ويصلي ركعتين ويصافح الشيخ ومن حضر وبقية عدمهم * ومن عوائدهم أنهم اذا كان

يوم الجمعة أخذ الخادم جميع سجاجيدهم فيذهب بها الى المسجد ويفرشها لهم هنالك ويخرجون مجتمعين ومعهم شيخهم فيأتون المسجد ويصلي كل واحد على سجاده فاذا فرغوا من الصلاة قرؤوا القرآن على عادتهم ثم ينصرفون مجتمعين الى الزاوية ومعهم شيخهم

— ذكر قرافة مصر ومزاراتها —

ولمصر القرافة العظيمة الشأن في التبرك بها وقد جاء في فضلها أثر أخرجه القرطبي وغيره لانها من جملة الجبل المقطم الذي وعد الله أن يكون روضة من رياض الجنة وهم يبنون بالقرافة القباب الحسنة ويجعلون عليها الحيطان فتكون كالدور ويبنون بها البيوت ويرتبون القراء يقرؤن ليلا ونهارا بالاصوات الحسان ومنهم من يبني الزاوية والمدرسة الى جانب التربة ويخرجون في كل ليلة جمعة الى المبيت بها باولادهم ونسائهم ويطوفون على المزارات الشهيرة ويخرجون أيضا للمبيت بها ليلة النصف من شعبان ويخرج أهل الاسواق بصنوف المأكول . ومن المزارات الشريفة المشهد المقدس العظيم الشأن حيث رأس الحسين بن علي عليهما السلام وعليه رباط ضخم عجيب البناء على أبوابه حلق الفضة وصفاؤها أيضا كذلك وهو مو في الحق من الاجلال والتعظيم . ومنها تربة السيدة نفيسة بنت الحسن الانور بن زيد بن علي بن الحسين بن علي عليهم السلام وكانت حجابة الدعوة مجتهدة في العبادة وهذه التربة أنيقة البناء مشرقة الضياء عليها رباط مقصود . ومنها تربة الامام أبي عبد الله محمد بن ادريس الشافعي رضي الله عنه وعليها رباط كبير ولها جراية ضخمة وبها القبة الشهيرة البديعة الاتقان العجيبة البنيان المتناهيمة الاحكام المفرطة السمو وسعتها أزيد من ثلاثين ذراعا وبقرافة مصر من قبور العلماء والصالحين مالا يضببطه الحصر وبها عدد جرم من الصحابة وصدور السلف والخلف رضي الله تعالى عنهم مثل عبد الرحمن بن القاسم وأشهب بن عبد العزيز وأصمغ بن الفرج وابني عبد الحكم وأبي القاسم بن شعبان وأبي محمد عبد الوهاب لكن ليس لهم بها اشتهار ولا يعرفهم الا من له بهم عناية والشافعي رضي الله عنه ساعده الجدة في نفسه واتباعه وأصحابه في حياته ومماته فظهر من أمره بمصداق قوله (كامل)

الجديد في كل أمر شاسع * والجديد يفتح كل باب مغلق

— ذكر نيل مصر —

ونيل مصر يفضل أنهار الارض عذوبة مذاق واتساع قطرو عظم منفعة والمدن والقرى يصفته منتظمة ليس في المعمور مثلها ولا يعلم نهر يزدرع عليه ما يزدرع على النيل

وليس في الارض نهر يسمى بحرا غيره قال الله تعالى فاذا خفت عليه فالقيه في اليم فسماه يما
وهو البحر وفي الحديث الصحيح ان رسول الله صلى الله عليه وسلم وصل ليلة الاسراء
الى سدرة المنتهى فاذا في أصلها أربعة أنهار نهران ظاهرا ونهران باطنا فسال عنها
جبريل عليه السلام فقال اما الباطنان فنى الجنة وأما الظاهران فالنيل والفرات وفي
الحديث ايضا ان النيل والفرات وسيحون وجيحون كل من أنهار الجنة ومجري النيل
من الجنوب الى الشمال خلافا لجميع الانهار * ومن عجائبه ان ابتداء زيادته في شدة الحر
عند نقص الانهار وجفوفها وابتداء نقصه حين زيادة الانهر وفيضها ونهر السند مثله في
ذلك وسيأتى ذكره وأول ابتداء زيادته في حزيران وهو يونيه فاذا بلغت زيادته ستة
عشر ذراعا ثم خراج السلطان فان زاد ذراعا كان الخصب في العام والصلاح التام فان بلغ
ثمانية عشر ذراعا أضرب بالضياع وأعقب الوباء وان نقص ذراعا عن ستة عشر نقص
خراج السلطان وان نقص ذراعا عن استسقى الناس وكان الضرر الشديد والنيل أحد انهار
الدنيا الخمسة الكبار وهى النيل والفرات والدجلة وسيحون وجيحون وتماثلها انهار خمسة
أيضا نهر السند ويسمى ينج اب ونهر الهند ويسمى الكنك واليه تخرج الهندود واذا حرقوا
امواتهم رموا برمادهم فيه ويقولون هو من الجنة ونهر الجون بالهند ايضا ونهر اتل
بصحراء قفجق وعلى ساحله مدينة السرا ونهر السر وبارض الخطا وعلى ضفته مدينة
خان بالق ومنها ينحدر الى مدينة الخنسائم الى مدينة الزيتون بارض الصين وسيد كر
ذلك كله في مواضعه ان شاء الله والنيل يفترق بعد مسافة من مصر على ثلاثة أقسام ولا
يعبر نهر منها الا في السفن شتاء وصيفا وأهل كل بلد لهم خليجان تخرج من النيل فاذا مد
أترعها فاضت على المزارع

— ذكر الاهرام والبرابي —

وهي من المعجائب المذكورة على مر الدهور وللناس فيها كلام كثير وخوض في شأنها
وأولية بنائها ويزعمون ان جميع العلوم التي ظهرت قبل الطوفان أخذت عن هرمس
الاول الساكن بصعيد مصر الاعلى ويسمى اخنوخ وهو ادريس عليه السلام وانه أول
من تكلم في الحركات الفلكية والجواهر العلوية وأول من بنى الهياكل ومجد الله تعالى
فيها وانه انذر الناس بالطوفان وخاف ذهاب العلم ودروس الصنائع فبنى الاهرام والبرابي
وصور فيها جميع الصنائع والآلات ورسم العلوم فيها لتبقى مخلدة ويقال ان دار العلم
والملك بمصر مدينة منف وهى على بر يدمن القسطاط فلما بنيت الاسكندرية انتقل
الناس اليها وصارت دار العلم والملك الى ان أتى الاسلام فاختط عمرو بن العاص رضى الله

عنه مدينة القسطنطينية قاعدة مصر الى هذا العهد والاهرام بناء بالحجر الصلد المنحوت متناهى السمو مستدير متسع الاسفل ضيق الاعلى كالشكل المخروط ولا أبواب لها ولا تعلم كيفية بنائها . ومما يذكر في شأنها ان ملكا من ملوك مصر قبل الطوفان رأى رؤياها لته وأوجبت عنده انه بنى تلك الاهرام بالجانب الغربى من النيل لتكون مستودعا للعلوم ولجنة الملوك وانه سال المنجمين هل يفتح منها موضع فاخبروه انها تفتح من الجانب الشمالى وعينواله الموضع الذي تفتح منه ومبلغ الانفاق فى فتحه فامر أن يجعل بذلك الموضع من المال قدر ما أخبروه انه ينفق فى فتحه واشتد فى البناء قائمه فى ستين سنة وكتب عليها بنينا هذه الاهرام فى ستين سنة فليهدمها من يريد ذلك فى ستمائة سنة فان الهدم أيسر من البناء فلما أفضت الخلافة الى أمير المؤمنين المامون اراد هدمها فاشار عليه بعض مشايخ مصر أن لا يفعل فلج فى ذلك وأمر أن تفتح من الجانب الشمالى فكانوا يوقدون عليها النار ثم يرشونها بالخل ويرمونها بالمنجنيق حتى فتحت الثلمة التي بها الى اليوم ووجدوا بابا والنقب مالا أمر أمير المؤمنين بوزنه فحصر ما أنفق فى النقب فوجدوها سواء فطال عجبه من ذلك ووجدوا عرض الحائط عشرين ذراعا

— ذكر سلطان مصر —

وكان سلطان مصر على عهد دخولى اليها الملك الناصر ابو الفتح محمد بن الملك المنصور سيف الدين قلاوون الصالحى وكان قلاوون يعرف بالالفى لان الملك الصالح اشتراه بالف دينار ذهبا وأصله من قفجق وللملك الناصر رحمه الله السيرة الكريمة والفضائل العظيمة وكفاه شرفا ثمناؤه لخدمة الحرمين الشريفين وما يفعله فى كل سنة من افعال البر التي تعين الحجاج من الجبال التي تحمل الزاد والماء للمنقطعين والضعفاء وتحمل من تاخر اوضعف المشى فى الدربين المصرى والشامى وبنى زاوية عظيمة بسرياقص خارج القاهرة لكن الزاوية التي بناها مولانا أمير المؤمنين وناصر الدين وكهف الفقراء والمساكين خليفة الله فى ارضه القائم من الجهاد بنقله وفرضه أبو عتبان أيد الله امره وأظهره وسنى له الفتح المبين ويسره بخارج حضرته العلية المدينة البيضاء حرسها الله لا نظير لها فى المعمور فى اتقان الوضع وحسن البناء والنقش فى الجص بحيث لا يقدر أهل المشرق على مثله وسيأتى ذكر ما عمره أيد الله من المدارس والمرستان والزوايا ببلاده حرسها الله وحفظها بدوام ملكه

— ذكر بعض أمراء مصر —

منهم ساقى الملك الناصر وهو الأمير بكتمور (وضبط اسمها بضم الباء الموحدة وكاف مسكن وتاء معلوة مضمومة وآخره راء) وهو الذي قتله الملك الناصر بالسهم وسيدكر ذلك . ومنهم نائب الملك الناصر ارغون الدودار وهو الذى يلى بكتمور فى المنزلة (وضبط اسمه بفتح الهمزة واسكان الراء وضم الغين المعجمة) ومنهم طشط المعروف بمحمص أخضر (واسمه بطاء بين مهملين مضمومين وبينهما شين معجم) وكان من خيار الأمراء وله الصدقات الكثيرة على الأيتام من كبوة ونفقة وأجرة لمن يعلمهم القرآن وله الاحسان العظيم للحرافيش وهم طائفة كبيرة أهل صلابة وجاه ودعارة . وسجنه الملك الناصر مرة فاجتمع من الحرافيش آلاف ووقفوا بأسفل القلعة ونادوا بلسان واحد يا أعرج النحس يعنون الملك الناصر أخرجه فأخرجه من محبسه وسجنه مرة أخرى ففعل الأيتام مثل ذلك فاطلقه * ومنهم وزير الملك الناصر يعرف بالجمالى بفتح الجيم . ومنهم بدر الدين بن البابه . ومنهم جمال الدين نائب الكرك . ومنهم تقزدمور (واسمه بضم التاء المعلوة وضم القاف وزاء مسكن ثم دال مضموم وميم مثله وآخره راء) ودمور بالتركية الحديد . ومنهم بهادر الحجازى (واسمه بفتح الباء الموحدة وضم الدال المهمل وآخره راء) ومنهم قوصون (وسمه بفتح القاف وصاد مهمل مضموم) . ومنهم بشتك (واسمه بفتح الباء الموحدة واسكان الشين المعجم وتاء معلوة مفتوحة) وكل هؤلاء يتنافسون فى أفعال الخيرات وبناء المساجد والزوايا . ومنهم ناظر جيش الملك الناصر وكاتبه القاضى فخر الدين القبطى وكان نصرانيا من القبط فاسلم وحسن اسلامه وله المكارم العظيمة والفضائل التامة ودرجته من أعلى الدرجات عند الملك الناصر وله الصدقات الكثيرة والاحسان الجزيل . ومن عاداته أن يجلس عشى النهار فى مجلس له بأسطوان داره على النيل ويليه المسجد فإذا حضر المغرب صلى فى المسجد وعاد الى مجلسه وأوتى بالطعام ولا يمنع حينئذ أحد من الدخول كائنا من كان فمن كان ذا حاجة تكلم فيها فقصها له ومن كان طالب صدقة أمر مملوكه يدعى بدر الدين واسمه لوأوبان يصحبه الى خارج الدار وهناك خازنه معه صررا الدراهم فيعطيه ما قدر له ويحضر عنده فى ذلك الوقت الفقهاء ويقرأ بين يديه كتاب البخارى فإذا صلى العشاء الأخيرة انصرف الناس عنه

— ذكر القضاة بمصر فى عهد دخول إليها —

فمنهم قاضى القضاة الشافعية وهو اعلاهم منزلة وأكبرهم قدرا واليه ولاية القضاة بمصر وعزلهم وهو القاضى الامام العالم بدر الدين بن جماعة وابنه عز الدين هو الآن متولى ذلك

* ومنهم قاضى القضاة المالكية الامام الصالح تقي الدين الاخنائى * ومنهم قاضى القضاة الحنفية الامام العالم شمس الدين الحريرى وكان شديد السطوة لا تاخذه فى الله لومة لائم وكانت الامراء تخافه ولقد ذكرلى ان الملك الناصر قال يوما لجلسائه انى لا أخاف من أحد الا من شمس الدين الحريرى. ومنهم قاضى القضاة الحنبلية ولا أعرفه الآن الا انه كان يدعى بعز الدين

— حكاية —

كان الملك الناصر رحمه الله يقعد للنظر فى المظالم ورفع قصص المتشكين كل يوم اثنين وخميس ويقعد القضاة الاربعة عن يساره وتقرأ القصص بين يديه ويعين من يسأل صاحب القصة عنها وقد سلك مولانا أمير المؤمنين ناصر الدين أيده الله فى ذلك مسلكا لم يسبق اليه ولا مزيد فى العدل والتواضع عليه وهو سؤاله بذاته الكريمة اكل متظلم وعرضه بين يديه المستقيمة أبى الله ان يحضرها سواء أدام الله أيامه. وكان رسم القضاة المذكورين ان يكون أعلاهم منزلة فى الجلوس قاضى الشافعية ثم قاضى الحنفية ثم قاضى المالكية ثم قاضى الحنبلية فلما توفى شمس الدين الحريرى وولى مكانه برهان الدين بن عبد الحق الحنفى أشار الامراء على الملك الناصر بان يكون مجلس المالكي فوقه وذكروا ان العادة جرت بذلك قديما اذ كان قاضى المالكية زين الدين بن مخلوف يلى قاضى الشافعية تقي الدين بن دقيق العيد فامر الملك الناصر بذلك فلما علم به قاضى الحنفية غاب عن شهود المجلس أنفة من ذلك فانكر الملك الناصر مغيبه وعلم ما قصده فامر باحضاره فلما مثل بين يديه أخذ الحاجب بيده وأقعده حيث نفذ أمر السلطان مما يلى قاضى المالكية واستمر حاله على ذلك — ذكر بعض علماء مصر وأعيانها —

فمنهم شمس الدين الاصبهانى امام الدنيا فى المعقولات. ومنهم شرف الدين الزواوى المالكي. ومنهم برهان الدين بن بنت الشاذلى نائب قاضى القضاة بجامع الصالح ومنهم ركن الدين بن القوبع التونسى من الأئمة فى المعقولات ومنهم شمس الدين بن عدلان كبير الشافعية. ومنهم بهاء الدين بن عقيل فقيه كبير. ومنهم أثير الدين أبو حيان محمد بن يوسف بن حيان الغرناطى وهو أعلمهم بالنحو ومنهم الشيخ الصالح بدر الدين عبد الله المنوفى ومنهم برهان الدين الصفا قسى. ومنهم قوام الدين الكرمانى وكان سكنه باعلى سطح الجامع الازهر وله جماعة من الفقهاء والقراء يلزامونه ويدرس فنون العلم ويفتي فى المذاهب ولباسه عباءة صوف خشنة وعمامة صوف سوداء ومن عادته أن يذهب بعد صلاة العصر الى مواضع النرج والنزاهات منفردا عن أصحابه ومنهم السيد الشريف شمس الدين بن بنت الصاحب تاج الدين

ابن حناء . ومنهم شيخ شيوخ القراء . بديار مصر محمد الدين الاقصرائي نسبة الى اقصر من بلاد الروم ومسكنه سر يا قص . ومنهم الشيخ جمال الدين الخويزائي والحويزا على مسيرة ثلاثة أيام من البصرة ومنهم نقيب الاشراف بديار مصر السيد الشريف المعظم بدر الدين الحسيني . من كبار الصالحين . ومنهم وكيل بيت المال المدرس بقية الامام الشافعي محمد الدين بن حرمي . ومنهم المحتسب بمصر نجم الدين السهرقي من كبار الفقهاء وله بمصر رئاسة عظيمة وجاه

— ذكر يوم الحمل بمصر —

وهو يوم دوران الجمل يوم مشهود وكيفية ترتيبهم فيه أنه يركب فيه القضاة الاربعة ووكيل بيت المال والمحتسب وقد ذكرنا جميعهم ويركب معهم أعلام الفقهاء وأمناء الرؤساء وأرباب الدولة ويقصدون جميعا باب القلعة دار الملك الناصر فيخرج اليهم الحمل على جمل وأمامه الامير المعين لسفر الحجاز في تلك السنة ومعه عسكره والسقاؤون على جماهم ويجتمع لذلك أصناف الناس من رجال ونساء ثم يطوفون بالحمل وجميع من ذكرنا معه بمدينة القاهرة ومصر والحدادة يحدون أمامهم ويكون ذلك في رجب فعند ذلك تهيج العزمات وتنبعث الاشواق وتتحرك البواعث ويلقي الله تعالى العزيمة على الحج في قلب من يشاء من عباده فياخذون في التاهب لذلك والاستعداد ثم كان سفري من مصر على طريق الصعيد برسم الحجاز الشريف فبت ليلة خروجي بالرباط الذي بناه الصاحب تاج الدين بن حناء بدير الطين وهو رباط عظيم بناه علي مفاخر عظيمة وانار كريمة أودعها فيه وهي قطعة من قصعة رسول الله صلى الله عليه وسلم والميل الذي كان يكتحل به والدرفش وهو الاشفا الذي كان يخصف به نعله ومصحف امير المؤمنين علي بن أبي طالب الذي بخط يده رضى الله عنه ويقال ان الصاحب اشترى ما ذكرناه من الآثار الكريمة النبوية بمائة الف درهم وبني الرباط وجعل فيه الطعام للوارد والصادر والجراية لخدام تلك الآثار الشريفة نفقه الله تعالى بقصده المبارك . ثم خرجت من الرباط المذكور ومررت بمنية القائد وهي بلدة صغيرة علي ساحل النيل ثم سرت منها الى مدينة بوش (وضبطها بضم الباء الموحدة وآخرها شين معجم) وهذه المدينة أكثر بلاد مصر كتنا ومنها يجلب الى سائر الديار المصرية والى افريقية ثم سافرت منها فوصلت الى مدينة دلاص (وضبط اسمها بفتح الدال المهملة وآخره صاد مهمل) وهذه المدينة كثيرة الكتان أيضا كمثل التي ذكرنا قبلها ويحمل أيضا منها الى ديار مصر وافريقية ثم سافرت منها الى مدينة بيا (وضبط اسمها بياء بن موحدتين اولاهما مكسورة) ثم سافرت منها الى مدينة البهنسا وهي مدينة كبيرة وبساتينها كثيرة (وضبط

اسمها بفتح الموحدة واسكان الهاء وفتح النون والسين) وتصنع بهذه المدينة ثياب الصوف الحيدة ومن لقيته بها قاضيها العالم شرف الدين وهو كريم النفس فاضل ولقيت بها الشيخ الصالح أبا بكر العجمي ونزلت عنده وأضافني ثم سافرت منها الى مدينة منية ابن خصيب وهي مدينة كبيرة الساحة متسعة المساحة مبنية على شاطئ النيل وحق تحقيق لها على بلاد الصعيد التفضيل بها المدارس والمشاهد والزوايا والمساجد وكانت في القديم منية عامل مصر لخصيب — حكاية خصيب —

يذكر أن أحد الخلفاء من بني العباس رضى الله عنهم غضب على أهل مصر فآلى أن يولى عليهم أحقر عبده وأصغرهم شأنًا قصد الإرداهم والتنكيل بهم وكان خصيب أحقرهم إذ كان يتولى تسخين الحمام فخلع عليه وأمره على مصر وظنه أنه يسير فيهم سيرة سوء و يقصدهم بالاذية حسبا هو المعبود ممن ولى عن غير عهد بالعز فلما استقر خصيب بمصر سار في أهلها أحسن سيرة وشهر بالكرم والايثار فكان أقارب الخلفاء وسواهم يقصدونه فيجزل العطاء لهم ويعودون الى بغداد شاكرين لما أولاهم وإن الخليفة افتقد بعض العباسيين وغاب عنه مدة ثم أتاه فسأله عن مغيبه فاخبره أنه قصد خصيبا وذكر له ما أعطاه خصيب وكان عطاء جزيلًا فغضب الخليفة وأمر بسمل عيني خصيب وإخراجه من مصر الى بغداد وأن يطرح في أسواقها فلما ورد الأمر بالقبض عليه حيل بينه وبين دخول منزله وكانت بيده ياقوتة عظيمة الشأن فخباها عنده وخاطها في ثوب له ليلا وسملت عيناه وطرح في أسواق بغداد فمر به بعض الشعراء فقال له يا خصيب اني كنت قصدتك من بغداد الى مصر مادحا لك بقصيدة فوافقت انصرافك عنها وأحب ان تسمعها فقال كيف سمعها وأنا على ما تراه فقال انما قصدي سماعك لها وأما العطاء فقد أعطيت الناس واجزلت جزاك الله خيرا قال فافعل فانشده (كامل)

أنت الخصيب وهذه مصر * فتدفقا فكلما كما بحر
فلما أتى على آخرها قال له افتق هذه الخياطة ففعل ذلك فقال له خذ الياقوتة فأني فاقسم عليه أن ياخذها فاخذها وذهب بها الى سوق الجوهريين فلما عرضها عليهم قالوا له ان هذه لا تصلح الا للخليفة فرفعوا أمرها الى الخليفة فامر الخليفة باحضار الشاعر واستفهمه عن شأن الياقوتة فاخبره بخبرها فتأسف على ما فعله بخصيب وأمر بمثوله بين يديه واجزل له العطاء وحكمه فيما يريد فرغب ان يعطيه هذه المنية ففعل ذلك وسكنها خصيب الى ان توفى وأورثها عقبه الى أن انقرضوا وكان قاضي هذه المنية أيام دخولي اليها

نفر الدين النويري المالكي ووالهياشمس الدين امير خير كريم دخلت يوما الحمام بهذه البلدة فرأيت الناس بها لا يستترون فعظم ذلك على وأتيته فاعلمته بذلك فامرني أن لا أبرح وأمر باحضار المكثرين للحمامات وكتبت عليهم العقود انه متى دخل أحد الحمام دون منزه فانهم يؤاخذون علي ذلك واشتد عليهم اعظم الاشتداد ثم انصرفت عنه وسافرت من منية ابن خصيب الى مدينة منلوي وهي صغيرة مبنية على مسافة ميلين من النيل (وضبط اسمها بفتح الميم واسكان النون وفتح اللام وكسر الواو) وقاضيهما الفقيه شرف الدين الدميري (بفتح الدال المهمل وكسر الميم) الشافعي وكبارها قوم يعرفون ببني فضيل بني احدىهم جامعا انفق فيه صميم ماله وبهذه المدينة احدى عشرة معصرة للسكر ومن عوائدهم انهم لا يمنعون فقيرا من دخول معصرة منها فيأني الفقير بالخبرة الحارة فيطرحها في القدر التي يطبخ السكر فيها ثم يخرجها وقد امتلأت سكرافينصرف بها وسافرت من منلوي المذكورة الى مدينة منفلوط وهي مدينة حسن رواؤها مؤنق بناؤها على ضفة النيل شهيرة البركة (وضبط اسمها بفتح الميم واسكان النون وفتح الفاء وضم اللام وآخرها طاء مهمل) — حكاية — اخبرني اهل هذه المدينة ان الملك الناصر رحمه الله أمر بعمل منبر عظيم بحكم الصنعة بديع الانشاء برسم المسجد الحرام زاده الله شرفا وتعظيما فلما تم عمله أمر أن يصعد به في النيل ليجاز الى بحر جدة ثم الى مكة شرفها الله فلما وصل المركب الذي احتمله الى منفلوط وحاذى مسجدها الجامع وقف وامتنع من الجرى مع مساعدة الريح فعجب الناس من شانه اشد العجب واقاموا اياما لا ينهض بهم المركب فكتبوا يخبره الى الملك الناصر رحمه الله فامر ان يجعل ذلك المنبر بجامع مدينة منفلوط ففعل ذلك وقد عاينته بها ويضنح بهذه المدينة شبه العسل يستخرجونه من القمح ويسمونونه النيدا يباع بأسواق مصر وسافرت من هذه المدينة الى مدينة اسيوط وهي مدينة رفيعة اسواقها بديعة (وضبط اسمها بفتح الهمزة والسين المهملة والياء آخر الحروف وواو وطاء مهملة) وقاضيهما شرف الدين ابن عبد الرحيم الملقب (بحاصل ماثم) لقب شهر به واصله ان القضاة بديار مصر والشام بأيديهم الاوقاف والصدقات لا بناء السبيل فاذا اتى فقير لمدينة من المدن قصد القاضي بها فيعطيه ما قدر له فكان هذا القاضي اذا اتاه الفقير يقول له حاصل ماثم اى لم يبق من المال الحاصل شيء فللقب بذلك ولزمه ونها من المشايخ الفضلاء الصالح شهاب الدين بن الصباغ اضافني بزاويته وسافرت منها الى مدينة اخميم وهي مدينة عظيمة اصيلة البنيان عجيبة الشأن بها البرني المعروف باسمها وهو مبني بالحجارة في داخله نقوش وكتابة اللاوائل لانهم في

هذا العهد وصور الافلاك والكواكب ويزعمون انها بنيت والنسر الطائر يبرج العقرب وبها
صور الحيوانات وسواها وعند الناس في هذه الصور كاذيب لا يعرج عليها وكان باخميم رجل
يعرف بالخطيب أمر على هدم بعض هذه البرابي وابتنى بمحجارتها مدرسة وهو
رجل موسر معروف باليسار ويزعم حساده أنه استفاد ما بيده من المال من ملازمته لهذه
البرابي ونزلت من هذه المدينة زاوية الشيخ أبي العباس بن عبد الظاهر وبها تربة جده
عبد الظاهر وله من الاخوة ناصر الدين ومجد الدين وواحد الدين ومن عاداتهم ان يجتمعوا
جميعا بعد صلاة الجمعة ومعهم الخطيب نور الدين المذكور وأولاده وقاضي المدينة الفقيه
مخلص وسائر وجوه أهلها فيجتمعون للقرآن ويذكرون الله الى صلاة العصر فاذا صلوا
قرأوا سورة الكهف ثم انصرفوا وسافرت من اخميم الى مدينة (هو) مدينة كبيرة بساحل
النيل (وضبطها بضم الهاء) نزلت منها بمدرسة تقي الدين بن السراج ورأيتهم يقرأون بها في
كل يوم بعد صلاة الصبح حزباً من القرآن ثم يقرأون أو راد الشيخ أبي الحسن الشاذلي وحزب
البحر. وبهذه المدينة السيد الشريف أبو محمد عبد الله الحسني من كبار الصالحين (كرامة له)
دخلت الى هذا الشريف متبركا برؤيته والسلام عليه فسألني عن قصدي فاخبرته
أنني أريد حج البيت الحرام على طريق جدة فقال لي لا يحصل لك هذا في هذا الوقت
فارجع وإنما حج أول حجة على الدرب الشامي فانصرفت عنه ولم أعمل على كلامه ومضيت
في طريق حتي وصلت الى عيذاب فلم يتمكن لي السفر فعدت راجعا إلى مصر ثم الى الشام
وكان طريقي في أول حجاتي على الدرب الشامي حسبا أخبرني الشريف نفع الله به. ثم
سافرت الى مدينة قنا وهي صغيرة حسنة الاسواق (وضبط اسمها بقاف مكسورة ونون) وبها
قبر الشريف الصالح الولي صاحب البراهين العجيبة والكرامات الشهيرة عبد الرحيم القناوي
رحمة الله عليه ورأيت بالمدرسة السيفية منها حفيده شهاب الدين احمد وسافرت من هذا
البلد الى مدينة قوص (وهي بضم القاف) مدينة عظيمة لها خيرات عجيبة بساكنها مورقة
واسواقها موقنة ولها المساجد والكثيرة والمدارس الاثيرة وهي منزل ولاية الصعيد وبخارجها
زاوية الشيخ شهاب الدين بن عبد الغفار وزاوية الافرم وبها اجتماع الفقراء المتجردين في شهر
رمضان من كل سنة ومن علمائها القاضي جمال الدين بن السديد والخطيب بها فتج الدين بن
دقيق العيد أحد الفصحاء البلغاء الذين حصل لهم السبق في ذلك لم أر من يماثله الا خطيب
المسجد الحرام بهاء الدين الطبري وخطيب مدينة خوارزم حسام الدين الشاطي وسيقع
ذكرها ومنهم الفقيه بهاء الدين بن عبد العزيز المدرس بمدرسة المالكية ومنهم الفقيه برهان الدين

ابراهيم الأندلسي لزاوية عالية ثم سافرت الى مدينة الاقصر (وضبط اسمها بفتح الهمزة
 وضم الصاد المهمل) وهي صغيرة حسنة وبها قبر الصالح العابد أبي الحجاج الاقصرى وعليه
 زاوية. وسافرت منها الى مدينة أرمنت (وضبط اسمها بفتح الهمزة وسكون الراء وميم
 مفتوحة ونون ساكنة وتاء فوقية) وهي صغيرة ذات بساتين مبنية على ساحل النيل أضافني
 قاضيها وأنسيت اسمه ثم سافرت منها الى مدينة أسنا (وضبط اسمها بفتح الهمزة واسكان
 السين المهمل ونون) مدينة عظيمة متسعة الشوارع ضخمة المنافع كثيرة الزوايا والمدارس
 والجوامع لها أسواق حسان وبساتين ذات أفنان قاضيها قاضي القضاة شهاب الدين بن
 مسكين أضافني واكرمني وكتب الى نوابه باكرامي وبها من الفضلاء الشيخ الصالح نور
 الدين على والشيخ الصالح عبد الواحد المكناسي وهو علي هذا العهد صاحب زاوية بقوص
 ثم سافرت منها الى مدينه أدفو (وضبط اسمها بفتح الهمزة واسكان الدال المهمل وضم الفاء)
 وبينها وبين مدينة أسنا مسيرة يوم وليلة في صحراء ثم جزنا النيل من مدينة أدفو الى
 مدينة العطواني ومنها أكثر بنا الجمال وسافرنا مع طائفة من العرب تعرف بدغيم (بالعين
 المعجمة) في صحراء لا عماره بها الا أنها آمنة السبل وفي بعض منازلها نزلنا حميثرا حيث قبر
 ولي الله أبي الحسن الشاذلي وقد ذكرنا كرامته في أخباره انه يموت بها وأرضها
 كثيرة الضباع ولم نزل ليلة مبيتنا بها نحارب الضباع ولقد قصدت رحلي ضبع منها
 فزقت عدلا كان به واجترت منه حراب تمر وذهبت به فوجدناه لما أصبحنا ممزقا ما كولا
 معظم ما كان فيه ثم لما سرنا خمسة عشر يوما وصلنا الى مدينة عيذاب وهي مدينة كبيرة
 كثيرة الحوت والابن ويحمل اليها الزرع والتمر من صعيد مصر وأهلها البجاة وهم سود
 الالوان يلتحفون ملاحف صفراء ويشدون على رؤسهم عصائب يكون عرض العصاية منها
 أصبعا وهم لا يورتون البنات وطعامهم البان الابل ويركبون المهارى ويسمونهم الصهب وثلاث
 المدينة للملك الناصر وثلاثها للملك البجاة وهو يعرف بالحدربي (بفتح الحاء المهمل واسكان
 الدال وراء مفتوحة وباء موحدة وياء) وبمدينة عيذاب مسجد ينسب للقسطلاني شهير
 البركة رأيت به وتبركت به وبها الشيخ الصالح موسى والشيخ المسن محمد المراكشي زعماء به
 ابن المرتضى ملك مراکش وان سنه خمس وتسعون سنة لما وصلنا الى عيذاب وجدنا
 الحدربي سلطان البجاة بجارب الأتراك وقد خرق المراكب وهرب الترك امامه فتهذر سفرنا
 في البحر فبعنا ما كنا أعدناه من زاد وعدنا مع العرب الذين أكثرينا الجمال منهم الى
 صعيد مصر فوصلنا الى مدينة قوص التي تقدم ذكرها وانحدرتنا منها في النيل وكان أوان

مدته فوصلنا بعد مسيرة ثمان من قوص الى مصر فبت بمصر ليلة واحدة وقصدت بلاد الشام وذلك في منتصف شعبان سنة ست وعشرين فوصلت الى مدينة بلبس (وضبط اسمها بفتح للوحدة الاولى وفتح الثانية ثم ياء آخر الحروف مسكنة وسين مهملة) وهي مدينة كبيرة ذات بساتين كثيرة ولم ألق بها من يجب ذكره . ثم وصلت الى الصالحية ومنها دخلنا الرمال ونزلنا منازلها مثل السوادة والورادة والمطيلب والعريش والخروبة وبكل منزل منها فندق وهم يسمونه الخان ينزله المسافرون بدوا بهم وبخارج كل خان ساقية للسبيل وحانوت يشتري منها المسافر ما يحتاجه لنفسه ودابته ومن منازلها قطيا المشهورة وهي (بفتح القاف وسكون الطاء وياء آخر الحروف مفتوحة وألف) والناس يبتدلون ألفها هاء تانيث وبها تؤخذ الزكاة من التجار ونقتش أمتعتهم ويبحث عما لديهم أشد البحث وفيها الدواوين والعمال والكتاب والشهود ومجباها في كل يوم ألف دينار من الذهب ولا يجوز عليها أحد من الشام الا براءة من مصر ولا الى مصر الا براءة من الشام احتياطا على أموال الناس وتوقيا من الجواسيس العرافيين وطريقها في ضمان العرب قد وكلوا بحفظه فاذا كان الليل مسحوا على الرمل لا يبقى به أثر ثم يأتي الامير صباحا فينظر الى الرمل فان وجد به أثرا طالب العرب باحضار مؤثره فيذهبون في طلبه فلا يفوتهم فيأتون به الامير فيعاقبه بما شاء وكان بها في عهد وصولي اليها عز الدين استاذ الداراقماري من خيار الامراء أضافني وأكرمني واباح الجواز لمن كان معي وبين يديه عبد الجليل المغربي الوقاف وهو يعرف المغاربة وبلادهم فيسال من ورد منهم من أي البلاد هو لئلا يلبس عليهم فان المغاربة لا يعترضون في جوازهم على قطيا . ثم سرنا حتى وصلنا الى مدينة غزة وهي أول بلاد الشام مما يلي مصر متسعة الاقطار كثيرة العمارة حسنة الاسواق بها المساجد العديدة والاسوار عليها وكان بها مسجد جامع حسن والمسجد الذي تقام الآن به الجمعة فيها بناء الامير المعظم الجاولي وهوانيق البناء محكم الصنعة ومنبره من الرخام الابيض وقاضي غزة بدر الدين السلخني الحوراني ومدرسها علم الدين بن سالم وبنو سالم كبراء هذه المدينة . ومنهم شمس الدين قاضي القدس ثم سافرت من غزة الى مدينة الخليل صلى الله على نبينا وعليه وسلم تسليما وهي مدينة صغيرة الساحة كبيرة المقدار مشرقة الانوار حسنة المنظر عجيبة المخبر في بطن واد ومسجدها أنيق الصنعة محكم العمل بديع الحسن سامي الارتفاع مبني بالصخر المنحوت في أحد أركانها صخرة أحد أقطارها سبعة وثلاثون شبراو يقال ان سايمان عليه السلام أمر الجن ببناؤه وفي داخل المسجد الفار المكرم المقدس فيه قبرا ابراهيم واسحاق ويعقوب صلوات الله على

نبينا وعليهم ويقابلها قبور ثلاثة هي قبور أزواجهم وعن يمين المنبر بلصق جدار القبلة موضع
 يهبط منه على درج رخام محكمة العمل الى مسلك ضيق يفضي الى ساحة مفروشة بالرخام
 فيها صور القبور الثلاثة ويقال انها محاذية لها وكان هنالك مسلك الى الغار المبارك وهو
 الآن مسدود وقد نزلت بهذا الموضع مرات ومما ذكره أهل العلم دليلا على صحة كون
 القبور الثلاثة الشريفة هنالك ما نقلته من كتاب على بن جعفر الرازي الذي سماه المسفر
 للقلوب عن صحة قبر ابراهيم واسحاق ويعقوب أسند فيه الى ابي هريرة قال قال رسول الله
 صلي الله عليه وسلم لما أسرى بي الى بيت المقدس مر بي جبريل على قبر ابراهيم فقال انزل
 فصل ركعتين فان هنا قبر أبيك ابراهيم ثم مر بي على بيت لحم وقال انزل فصل ركعتين فان
 هنا ولد أخوك عيسى عليه السلام ثم أتى بي الى الصخرة وذكر بقية الحديث ولما لقيت بهذه
 المدينة المدرس الصالح المعمر الامام الخطيب برهان الدين الجعبري أحد الصالحاء المرضيين
 والائمة المشهرين سألته عن صحة كون قبر الخليل عليه السلام هنالك فقال لي كل من لقينته من
 أهل العلم يصححون أن هذه القبور قبور ابراهيم واسحاق ويعقوب على نبينا وعليهم السلام
 وقبور زوجاتهم ولا يطعن في ذلك الا أهل البدع وهو نقل الخلف عن السلف لا يشك
 فيه * ويذكر أن بعض الائمة دخل الى هذا الغار ووقف عند قبر سارة فدخل شيخ فقال له
 أي هذه القبور هو قبر ابراهيم فأشار له الى قبره المعروف ثم دخل شاب فسأله كذلك فأشار
 له اليه ثم دخل صبي فسأله أيضا فأشار له اليه فقال انفق فيه أشهد أن هذا قبر ابراهيم عليه السلام
 فلا شك ثم دخل الى المسجد فصلى به وارتحل من الغد و بداخل هذا المسجد أيضا قبر يوسف
 عليه السلام وبشرقي حرم الخليل ترربة لوط عليه السلام وهي على تل مرتفع يشرف منه
 غور الشام وعلى قبره أبنية حسنة وهو في بيت منها حسن البناء مبيض ولا ستور عليه وهنالك
 بحير لوط وهي أجاج يقال انها موضع ديار قوم لوط وبمقربة من ترربة لوط مسجد اليقين وهو
 على تل مرتفع له نور واشراق ليس لسواه ولا يجاوره الادار واحدة يسكنها قيمه وفي
 المسجد بمقربة من بابه موضع منخفض في حجر صلد قد هي في صورة محراب لا يسع الا
 مصليا واحدا ويقال ان ابراهيم سجد في ذلك الموضع شكراً لله تعالى عندهلاك قوم لوط
 فتحرك موضع سجوده وساخ في الارض قليلا وبالقرب من هذا المسجد مغارة فيها قبر
 فاطمة بنت الحسين بن علي عليهما السلام وباعلى القبر وأسفله لوحان من الرخام في احدهما
 مكتوب منقوش بخط بديع بسم الله الرحمن الرحيم لله العزة والبقاء وله ما ذرأ وبرأ وعلى
 خلفه كتب الفناء وفي رسول الله أسوة هذا قبر أم سلمة فاطمة بنت الحسين رضي الله عنه

وفي اللوح الآخر منقوش صنعه محمد بن أبي سهل النقاش بمصر وتحت ذلك هذه الايات
 أسكنت من كان في الاحشاء مسكنه بالرغم مني بين التراب والحجر
 يا قبر فاطمة بنت ابن فاطمة بنت الأئمة بنت الانجم الزهر
 يا قبر ما فيك من دين ومن ورع ومن عفاف ومن صون ومن خفر

ثم سافرت من هذه المدينة الى القدس فزرت في طريقي اليه تربة يونس عليه السلام وعليها
 بنية كبيرة ومسجد وزرت أيضا بيت لحم موضع ميلاد عيسى عليه السلام وبه اثر جذع
 النخلة وعليه عمارة كثيرة والنصارى يعظمونه أشد التعظيم ويضيفون من نزل به ثم وصلنا
 الى بيت المقدس شرفه الله ثالث المسجدين الشريفين في رتبة الفضل ومصعد رسول الله
 صلى الله عليه وسلم تسليما ومعرجه الى السماء والبلدة كبيرة منيفة مبنية بالصخر المنحوت
 وكان الملك الصالح الفاضل صلاح الدين بن أيوب جزاه الله عن الاسلام خيرا لما فتح
 هذه المدينة هدم بعض سورها ثم استنقض الملك الظاهر هدمه خوفا ان يقصدها الروم
 فيتمنعوا بها ولم يكن بهذه المدينة نهر فيما تقدم وجلب لها الماء في هذا العهد الامير سيف
 الدين تنكيزا ميردمشق

— ذكر المسجد المقدس —

وهو من المساجد العجيبة الرائقة الفائقة الحسن يقال انه ليس على وجه الارض مسجد
 أكبر منه وان طوله من شرق الى غرب سبعة مائة وثلثان وخمسون ذراعا بالذراع المالكية
 وعرضه من القبلة الى الجوف اربعة مائة ذراع وخمسة وثلاثون ذراعا وله ابواب كثيرة
 في جهاته الثلاث واما الجهة القبليّة منه فلا أعلم بها الا بابا واحدا وهو الذي يدخل منه
 الامام والمسجد كله فضاء غير مسقف الا المسجد الاقصى فهو مسقف في النهاية من احكام
 العمل واتقان الصنعة مموه بالذهب والاصبغة الرائقة وفي المسجد مواضع سواء مسقفة

— ذكر قبة الصخرة —

وهي من أعجب المباني وأتقنها واغربها شكلا قد توفر حظها من الحاسن وأخذت من كل
 بدعة بطرف وهي قائمة على نشز في وسط المسجد يصعد اليها في درج رخام ولها أربعة
 أبواب والدائر بها مفروش بالرخام أيضا محكم الصنعة وكذلك داخلها وفي ظاهرها وباطنها
 من انواع الزواقة ورائق الصنعة ما يمجز الواصف وأكثر ذلك مغشى بالذهب فهي
 تتلأ لا نورا وتلمع لمعان البرق يحاربصر متاملها في محاسنها ويقصر لسان رائيها عن تمثيلها
 وفي وسط القبة الصخرة الكريمة التي جاء ذكرها في الآثار فان النبي صلى الله عليه وسلم

عرج منها الى السماء وهى صخرة صماء ارتفاعها نحو قامة وتحتها مغارة فى مقدار بيت صغير ارتفاعها نحو قامة أيضا ينزل اليها على درج وهناك شكل محراب وعلى الصخرة شبا كان اثنان يحكما العمل يغلقان عليها أحدهما وهو الذى يلى الصخرة من حديد بديع الصنعة والثاني من خشب وفى القبة درقة كبيرة من حديد معلقة هناك والناس يزعمون انها درقة حمزة بن عبد المطلب رضى الله عنه

— ذكر بعض المشاهد المباركة بالقدس الشريف —

فمنها بعدوة الوادى المعروف بوادى جهنم فى شرقي البلد على تل مرتفع هناك بنية يقال انها مصعد عيسى عليه السلام الى السماء ومنها أيضا قبر رابعة البدوية منسوبة الى البادية وهى خلاف رابعة العدوية الشهيرة وفى بطن الوادى المذكور كنيسة يعظمها النصارى ويقولون ان قبر مريم عليها السلام بها وهناك أيضا كنيسة أخرى معظمة يحجها النصارى وهى التى يكذبون عليها ويعتقدون ان قبر عيسى عليه السلام بها وعلى كل من يحجها ضريبة معلومة للمسلمين وضروب من الالهانة يتحملها على رغم أنفه وهناك موضع مهد عيسى عليه السلام يتبرك به — ذكر بعض فضلاء القدس —

فمنهم قاضيه العالم شمس الدين محمد بن سالم الغزى (بفتح الغين) وهو من أهل غزة وكبرائها ومنهم خطيبه الصالح الفاضل عماد الدين النابلسى ومنهم المحدث المفتي شهاب الدين الطبرى ومنهم مدرس المالكية وشيخ الخانقا الكريمة أبو عبد الله محمد بن مثبت الغرناطى نزيل القدس ومنهم الشيخ الزاهد أبو على حسن المعروف بالحجوب من كبار الصالحين ومنهم الشيخ الصالح العابد كمال الدين المراغى ومنهم الشيخ الصالح العابد أبو عبد الرحيم عبد الرحمن بن مصطفى من أهل أرز الروم وهو من تلامذة تاج الدين الرفاعى صاحبته وابست منه خرقة التصوف ثم سافرت من القدس الشريف برسم زيارة ثغر عسقلان وهو خراب قد عادر سوما طامسة واطلالا دارسة وقل بلد جمع من الحاسن ما جمعه عسقلان اتقاناً وحسن وضع وأصالة مكان وجمعا بين مرافق البر والبحر وبها المشهد الشهير حيث كان رأس الحسين بن على عليه السلام قبل ان ينقل الى القاهرة وهو مسجد عظيم سامى العلوفيه جب للماء أمر ببنائه بعض العبيدين وكتب ذلك على بابه وفى قبلة هذا المزار مسجد كبير يعرف بمسجد عمر لم يبق منه الا حيطانه وفيه أساطين رخام لا مثل لها فى الحسن وهى ما بين قائم وحصيد ومن جملتها اسطوانة حمراء عجيبة يزعم الناس ان النصارى احتملوها الى بلادهم ثم فقدوها فوجدت فى موضعها بعسقلان وفى القبلة من هذا المسجد بئر تعرف ببئر ابراهيم عليه السلام ينزل اليها فى

درج متسعة ويدخل منها الى بيوت وفي كل جهة من جهاتها الاربع عين تخرج من أسراب مطوية بالحجارة وماؤها عذب وليس بالغزير ويذكر الناس من فضائلها كثيرا وبظاهر عسقلان وادي النمل ويقال انه المذكور في الكتاب العزيز وبجبانة عسقلان من قبور الشهداء والاولياء ما لا يحصر لكثرة أوقفنا عليهم قيم المزار المذكور وله جراية بحريها له ملك مصر مع ما يصل اليه من صدقات الزوار - ثم سافرت منها الى مدينة الرملة وهي فلسطين مدينة كبيرة كثيرة الخيرات حسنة الاسواق وبها الجامع الابيض ويقال ان في قبلته ثلاثمائة من الانبياء مدفونين عليهم السلام وفيها من كبار الفقهاء مجد الدين نابلسي ثم خرجت منها الى مدينة نابلس وهي مدينة عظيمة كثيرة الاشجار مطردة الانهار من أكثر بلاد الشام زيتونا ومنها يحمل الزيت الى مصر ودمشق وبها تصنع حلواء الخروب وتجلب الى دمشق وغيرها (وكيفية عملها) ان يطبخ الخروب ثم يعصر ويؤخذ ما يخرج منه من الرب فتصنع منه الحلواء ويجلب ذلك الرب أيضا الى مصر والشام وبها البطيخ المنسوب اليها وهو طيب عجيب والمسجد الجامع في نهاية من الاتقان والحسن وفي وسطه بركة ماء عذب - ثم سافرت منها الى مدينة عجلون (وهي بفتح العين المهملة) وهي مدينة حسنة لها أسواق كثيرة وقلعة خطيرة ويشقها نهر مأؤه عذب - ثم سافرت منها بقصد اللاذقية فررت بالغور وهو واد بين تلأل به قبر أبي عبيدة بن الجراح أمين هذه الامة رضى الله عنه زرناه وعليه زاوية فيها الطعام لا بناء السبيل - وبتنا هنا لك ليلة - ثم وصلنا الى القصير وبه قبر معاذ بن جبل رضى الله عنه تبركت أيضا بزيارته ثم سافرت على الساحل فوصلت الى مدينة عكة وهي خراب وكانت عكة قاعدة بلاد الفرنج بالشام ومرسى سفنهم وتشبه قسطنطينية العظمى وبشرقيها عين ماء تعرف بعين البقر يقال ان الله تعالى أخرج منها البقر لآدم عليه السلام وينزل اليها في درج وكان عليها مسجد بقي منه محرابه وبهذه المدينة قبر صالح عليه السلام - ثم سافرت منها الى مدينة صور وهي خراب وبخارجها قرية معمورة وأكثر اهلها أرفاض ولقد نزلت بها مرة على بعض المياه أريد الوضوء فأتى بعض اهل تلك القرية ليتوضأ فبدأ بغسل رجليه ثم غسل وجهه ولم يتمضمض ولا استنشق ثم مسح بعض رأسه فاخذت عليه في فعله فقال لي ان البناء انما يكون ابتداءه من الاساس ومدينة صور هي التي يضرب بها المثل في الحصانة والمنعة لان البحر يحيط بها من ثلاث جهاتها ولها بابان أحدهما للبر والثاني للبحر ولها الذي يشرع للبر أربعة فصلات كلها في ستائر محيطة بالباب وأما الباب الذي للبحر فهو بين برجين عظيمين وبنائها ليس في بلاد الدنيا أعجب ولا أغرب شانا

منه لان البحر محيط بهامن ثلاث جهاتها وعلى الجهة الرابعة سور تدخل السفن تحت السور وترسو هنا لك وكان فيما تقدم بين البرجين سلسلة حديد معترضة لا سبيل الى الداخل هناك ولا الى الخارج الا بعد حطها وكان عليها الحراس والامناء فلا يدخل داخل ولا يخرج خارج الا على علم منهم وكان لعكة أيضا ميناء مثلها ولكنها لم تكن تحمل الا السفن الصغيرة - ثم سافرت منها الى مدينة صيدا وهى على ساحل البحر حسنة كثيرة الفواكه يحمل منها التين والزبيب والزيت الى بلاد مصر نزلت عند قاضيها كمال الدين الاشعوني المصرى وهو حسن الاخلاق كريم النفس - ثم سافرت منها الى مدينة طبرية وكانت فيما مضى مدينة كبيرة ضخمة ولم يبق منها الا رسوم تنبىء عن ضخامتها وعظم شأنها وبها الحمامات العجيبة لها بيتان أحدهما للرجال والثانى للنساء ومأوها شديد الحرارة ولها البحيرة الشهيرة طولها نحو ستة فراسخ وعرضها ازيد من ثلاثة فراسخ وبطبرية مسجد يعرف بمسجد الانبياء فيه قبر شعيب عليه السلام وبنته زوجة موسى الكليم عليه السلام وقبر سليمان عليه السلام وقبر يهودا وقبر روييل صلوات الله وسلامه على نبيينا وعليهم وقصدنا منها زيارة الحب الذي ألقى فيه يوسف عليه السلام وهو فى صحن مسجد صغير وعليه زاوية والحب كبير عميق شربنا من مائه المجتمع من ماء المطر وأخبرنا قيمه ان الماء ينبع منه أيضا ثم سرنا الى مدينة بيروت وهى صغيرة حسنة الاسواق وجامعها يدعى الحسن وبجانب منها الى ديار مصر الفواكه والحديد وقصدنا منها زيارة أبى يعقوب يوسف الذى يزعمون انه من ملوك المغرب وهو بموضع يعرف بكرى نوح من بقاع العزيز وعليه زاوية يطعم بها الوارد والصادر ويقال ان السلطان صلاح الدين وقف عليها الاوقاف وقيل السلطان نور لدين وكان من الصالحين ويذكر انه كان ينسج الحصر ويقتات بثمنها

— حكاية أبى يعقوب يوسف المذكور —

يحكى انه دخل مدينة دمشق فرض بها مرضا شديدا واقام مطروحا بالاسواق فلما برىء من مرضه خرج الى ظاهر دمشق ليلتمس بستانا يكون حارسا له فاستؤجر لحراسة بستان للملك نور الدين واقام فى حراسته ستة اشهر فلما كان فى اوان الفاكهة أتى السلطان الى ذلك البستان وأمر وكيل البستان أبى يعقوب ان ياتي برمان يأكل منه السلطان فأتاه برمان فوجده حامضا فامر ان ياتي بغيره ففعل ذلك فوجده أيضا حامضا فقال له الوكيل انكوزنى حراسة هذا البستان منذ ستة اشهر ولا تعرف الحلوم الحامض فقال انما استأجرتنى على الحراسة لا على الاكل فأتى الوكيل الى الملك فاعلمه بذلك فبعث اليه الملك

وكان قد رأى في المنام انه يجتمع مع أبي يعقوب وتحصل له منه فائدة فتفرس انه هو فقال له أنت أبو يعقوب قال نعم فقام اليه وعانقه وأجلسه الى جانبه ثم احتمله الى مجلسه فاضافه بضيافة من الحلال المكتسب بكديمينه وأقام عنده أياماً ثم خرج من دمشق قاراً بنفسه في أو ان البرد الشديد فأتى قرية من قراها وكان بها رجل من الضعفاء فعرض عليه النزول عنده ففعل وصنع له مرققة وذبح دجاجة فاتاه بها وبخبز شعير فاكل من ذلك ودعا للرجل وكان عنده جملة أولاد منهم بنت قد آن بنساء زوجها عليها ومن عوائدهم في تلك البلاد ان البنت يجهزها أبوها ويكون معظم الجهاز أو اني النحاس و به يتفخرون و به يتباهون فقال أبو يعقوب للرجل هل عندك شيء من النحاس قال نعم قد اشتريت منه لتجهيز هذه البنت قال اثني به فاتاه به فقال له استعمر من جيرانك ما أمكنك منه ففعل وأحضر ذلك بين يديه فاوقد عليه النيران وأخرج صرة كانت عنده فيها الاكسیر فطرح منه على النحاس فعاد كله ذهباً وتركه في بيت مقفل وكتب كتاباً الى نور الدين ملك دمشق يعلمه بذلك وينبهه على بناء مارستان للمرضى من الغرباء و يوقف عليه الاوقاف و يبني الزوايا بالطرق و يرضى أصحاب النحاس و يعطي صاحب البيت كفايته وقال له في آخر الكتاب وان كان ابراهيم بن أدهم قد خرج عن ملك خراسان فانا قد خرجت من ملك المغرب وعن هذه الصنعة والسلام وفر من حينه وذهب صاحب البيت بالكتاب الى الملك نور الدين فوصل الملك الى تلك القرية واحتمل الذهب بعد ان أرضى أصحاب النحاس وصاحب البيت وطلب أبا يعقوب فلم يجد له أثراً ولا وقع له على خبر فعاد الى دمشق وبنى المارستان المعروف باسمه الذي ليس في المعمور مثله - ثم وصلت الى مدينة طرابلس وهي احدى قواعد الشام و بلادها الضخام تخرقها الأنهار . وتحفها البساتين والأشجار . ويكنفها البحر بمرافقه العميمه والبر بخيراته المقيمة . ولها الاسواق العجيبة . والمسارح الخصبية . والبحر على ميلين منها وهي حديثة البناء - وأما طرابلس القديمة فكانت على ضفة البحر وتملك الروم زماناً فلما استرجعها الملك الظاهر خربت واتخذت هذه الحديثة و بهذه المدينة نحو أربعين من أمراء الاتراك وأميرها طيلاق الحاجب المعروف بملك الاسراء ومسكنه منه بالدار المعروفة بدار السعادة ومن عوائده ان يركب في كل يوم اثنين وخميس ويركب معه الامراء والعساكر ويخرج الى ظاهر المدينة فاذا عاد اليها وقارب الوصول الى منزله ترحل الامراء ونزلوا عن دوابهم ومشوا بين يديه حتى يدخل منزله وينصرفون وتضرب الطبلخانة عند دار كل امير منهم بعد صلاة المغرب من كل يوم وتوقد المشاعل ومن كان بها من الاعلام كاتب السر بها

الدين بن غانم احد الفضلاء الحسباء معروف بالسخاء والكرم وأخوه حسام الدين هو شيخ
القدس الشريف وقد ذكرناه وأخوهما علاء الدين كاتب السر بدمشق. ومنهم وكيل بيت
المال قوام الدين بن مكين من أكابر الرجال. ومنهم قاضي قضاتها شمس الدين بن النقيب
من أعلام علماء الشام وبهذه المدينة حمامات حسان منها حمام القاضي القرمي وحمام سندمور
وكان سندمور أمير هذه المدينة ويذكر عنه أخبار كثيرة في الشدة على أهل الجنايات
منها ان امرأة شكت اليه بان أحد مماليكه الخواص تعدي عليها في ابن كانت تبذره
فشر به ولم تكن لها بيعة فامر به فوسط فخرج الابن من مصرانه. وقد اتفق مثل هذه الحكاية
للعترس أحد أمراء الملك الناصر أيام إمارته على عذاب واتفق مثلها للملك كبك سلطان
تركستان- ثم سافرت من طرابلس الى حصن الأكراد وهو بلد صغير كثير الأشجار والانهار
بالى تل وبه زاوية تعرف بزاوية الابراهيمي نسبة الى بعض كبراء الأمراء ونزلت عند
قاضيها ولا أحقق الآن اسمه- ثم سافرت الى مدينة حمص وهي مدينة مليحة أرجاؤها مونة
وأشجارها مورقة وأنهارها متدفقة واسواقها فسيحة الشوارع وجامعها متميز بالحسن
الجامع وفي وسطه بركة ماء وأهل حمص عرب لهم فضل وكرم وبخارج هذه المدينة قبر خالد
ابن الوليد سبف الله ورسوله وعليه زاوية ومسجد وعلى القبر كسوة سوداء وقاضي هذه
المدينة جمال الدين الشريشى من أجمل الناس صورة واحسنهم سيرة ثم سافرت منها الى
مدينة حماة احدي أمهات الشام الرفيعة ومداينها البديعة ذات الحسن الرائق والجمال
الفائق تحفها البساتين والجنات عليها النواعير كالأفلاك الدائرات يشقها النهر العظيم المسمى
بالعاصي ولها ربض سمي بالمنصورية اعظم من المدينة فيه الاسواق الحافلة والحمامات
الحسان وبجماة الفواكه الكثيرة ومنها المشمش الموزي اذا كسرت نواته وجدت في
داخلها لوزة حلوة قال ابن جزى وفي هذه المدينة ونهرها ونواعيرها وبساتينها يقول
الاديب الرحال نور الدين اوالحسن على بن موسى بن سعيد العنسى العماري الغرناطى
نسبة لعمار بن ياسر رضى الله عنه

(طویل)

حمى الله من شطى حماة مناظرا * وقفت عليها السمع والفكر والطرفا
تغني حمام أو تميل خمائل * وتزهي مباني تمنع الواصف الوصف
يلوموني أن أعصى الصون والنهي * وأطيع الكأس واللهو والقصف
اذا كان فيها النهر عاص فكيف لا * أحاكبه عصيانا وأشربها صرفا
وأشدولدى تلك النواعر شدوها * وأغلبها رقصاً وأشبهها غرقا

تَن وتذرى دمعها فكأنها * تهم بمرآها وتسالها العظفا

ولبعضهم في نواعيرها ذاهبا مذهب التورية (طويل)

وناعورة رقت لعظم خطيئتي * وقد عاينت قصدي من المنزل القاصي

بكيت رحمة لي ثم باحت بشجوها * وحسبك ان الخشب تبكى على العاصي

ولبعض المتأخرين فيها أيضا من التورية (كامل)

ياسادة سكنوا حماة وحقكم * ما حلت عن تقوي وعن اخلاصي

والطرف بعدكم اذا ذكر اللقا * يجري المدامع طائعا كالعاصي

(رجع) - ثم سافرت الى مدينة المعرفة التي ينسب اليها الشاعر أبو العلاء المعري وكثير سواه

من الشعراء قال ابن جزى وانما سميت بمعرفة النعمان لان النعمان بن بشير الانصاري

صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم توفي له ولد أيام امارته على حص فدفنه بالمعرفة

فعرفت به وكانت قبل ذلك تسمى ذات القصور وقيل ان النعمان جبل مطل عليها سميت به

(رجع) والمعرفة مدينة كبيرة حسنة أكثر شجرها التين والفستق ومنها يحمل الى مصر

والشام وبخارجها على فرسخ منها قبر أمير المؤمنين عمر بن عبدالعزيز ولا زاوية عليه ولا

خديم له * وسبب ذلك انه وقع في بلاد صنف من الرافضة ارجاس يبغضون العشرة من

الصحابية رضى الله عنهم ولعن مبغضهم ويبغضون كل من اسمه عمر وخصوصا عمر بن

عبد العزيز رضى الله عنه لما كان من فعله في تعظيم على رضى الله عنه - ثم سرنا منها الى مدينة

سرمين وهي حسنة كثيرة البساتين وأكثر شجرها الزيتون وبها يصنع الصابون الاجرى

ويجلب الى مصر والشام ويصنع بها أيضا الصابون المطيب لغسل الايدي ويصبغونه

بالحمرة والصفرة ويصنع بها ثياب قطن حسان تنسب اليها وأهلها سبابون يبغضون العشرة

ومن العجب أنهم لا يذكرون لفظ العشرة وينادى سمارتهم بالاسواق على السلع فاذا

بلغوا الى العشرة قالوا تسعة وواحد وحضر بها بعض الأتراك يوما فسمع سمسارا ينادى

تسعة وواحد فحضر به بالدبوس على رأسه وقال قل عشرة بالدبوس وبها مسجد جامع فيه

تسع قباب ولم يجعلوها عشرة قيا ما بمذهبهم القبيح - ثم سرنا الى مدينة حلب المدينة الكبرى

والقاعدة العظمى قال أبو الحسين بن جبير في وصفها قدرها خطير وذكرها في كل زمان

يطير خطابها من الملوك كثير ومحلها من النفوس أثير فكم حاجت من كفاح وسل

عليها من بيض الصفاح لها قلعة شهيرة الامتناع بائنة الارتفاع فزهت حصانة من ان

ترام أو تستطاع منحوتة الاجزاء موضوعة على نسبة اعتدال واستواء قد طاولت الايام

والاعوام ووسعت الخواص والعوام اين أمراؤها الحمدانيون وشعراؤها فني جميعهم
ولم يبق إلا بناؤها فيا عجبا لبلاد تبقي ويذهب ملاكها ويهلكون ولا يقضى هلاكها
وتخطب بعدهم فلا يتعذر املاكها وترام فيتيسر باهون شيء ادراكها هذه حلب كم
ادخلت ملوكها في خبركان ونسخت صرف الزمان بالمكان أنث اسمها فتحت بحلية
الغوان وانت بالعدر فيمن دان وانجالت عروسا بعد سيف دولتها ابن حمدان هيات
سيهرم شبابها ويعدم خطابها ويسرع فيها بعد حين خرابها وقلعة حلب تسمى الشهباء
وبداخلها جبلان ينبع منهما الماء فلا تخاف الظما ويطيف بها سوران وعليها خندق عظيم
ينبع منه الماء وسورها متداني الابراج وقد انتظمت بها العلالي العجيبة المفتحة الطيقان
وكل برج منها مسكون والطعام لا يتغير بهذه القلعة على طول العهد وبها مشهد يقصده
بعض الناس يقال ان الخليل عليه السلام كان يتعبد به وهذه القلعة تشبه قلعة رحبة مالك
ابن طوق التي علي الفرات بين الشام والعراق ولما قصد قازان طاغية التتر مدينة حلب
حاصر هذه القلعة اياما ونكص عنها خائبا قال ابن جزي وفي هذه القلعة يقول الخالدي شاعر
سيف الدولة

وخرقاء قد قامت على من يرومها * بمرقبها العالي وجانبها الصعب
يجر عليها الجواجيب غمامة * ويلبثها عقداً بانجمه الشهب
اذا ما سرى برق بدت من خلاله * كالأحت العذراء من خلل السحب
فكم من جنود قد أماتت بغصة * وذى سطوات قد أبانت على عقب

وفيه يقول أيضاً وهو من بديع النظم (بسيط)

وقلعة عائق العنقاء سافلها * وراز منطقة الجوزاء عاليها
لا تعرف القطر اذ كان الغمام لها * أرضاً توطا قطريه مواشيها
اذا الغمامة راحت غاض ساكنها * حياضها قبل ان تهمل عواليها
يعد من أنجم الافلاك مرقبها * لو انه كان يجري في مجاريها
ردت مكاييد أقوام مكايدها * ونصرت لدواهيهم دواهيها

وفيه يقول جمال الدين علي بن أبي المنصور (كامل)

كادت لبون سموها وعلوها * تستوقف الفلك المحيط الدائرا
وردت قواطنها المجرة منها * ورعت سوابقها النجوم زواها
ويظل صرف الدهر منها خائفا * رجلا فما يمسى لديها حاضرا

(رجع) و يقال في مدينة حلب حلب ابراهيم لان الخليل صلوات الله وسلامه على نبينا وعليه كان يسكنها وكانت له الغنم الكثيرة فكان يسقي الفقراء والمساكين والوارد والصادر من البانها فكانوا يجتمعون ويسالون حلب ابراهيم فسميت بذلك وهي من أعز البلاد التي لا نظير لها في حسن الوضع واتقان الترتيب واتساع الاسواق وانتظام بعضها ببعض وأسواقها مسقفة بالخشب فاهلها دائماً في ظل ممدود وقيساريته لا تماثل حسناً وكبراً وهي تحيط بمسجدها وكل سماط منها محاذ لباب من أبواب المسجد ومسجدها الجامع من أجل المساجد في صحنه بركة ماء و يطيف به بلاط عظيم الاتساع ومنبرها بدع العمل مرصع بال عاج والآبنوس وبقرب جامعها مدرسة مناسبة له في حسن الوضع واتقان الصنعة ينسب لامراء بني حمدان وبالبلد سواها ثلاث مدارس وبها مارستان وأما خارج المدينة فهو بسيط أفيح عريض به المزارع العظيمة وشجرات الاغاب منتظمة به والبساتين على شاطئ نهرها وهو النهر الذي يمر بحماة ويسمى العاصي وقيل انه سمي بذلك لانه يخيل لناظره ان جريانه من أسفل الى علو والنفس تجدد في خارج مدينة حلب انشراحاً وسروراً ونشاطاً لا يكون في سواها وهي من المدن التي تصلح للخلافة قال ابن جزى أطنبت الشعراء في وصف محاسن حلب وذكروا دخلها وخارجها وفيها يقول أبو عبادة البحتري (كامل)

يا برق أسفر عن فوق مطايي * حلب فاعلى النصر من بطاياس
عن منبت الورد المعصفر صبغة * في كل ضاحية ومجني الآس
أرض اذا استوحشتكم بتذكر * حشدت على فاكثرت ايناسي

وقال فيها الشاعر المجيد أبو بكر الصنوبري (متقارب)

سقى حلب المزن مغني حلب * فكم وصلت طرباً بالطرب
وكم مستطاب من العيش لذ * بها اذ بها العيش لم يستطاب
اذا نشر الزهر أعلامه * بها ومطارفه والعذب
غدا وحواشيه من فضة * زروق وأوساطه من ذهب

وقال فيها أبو العلاء المعري (خفيف)

حلب للوراد جنة عدن * وهي للغادرين ارسعير
والعظيم العظيم يكبر في عي * نيه منها قدر الصغير الصغير
فقويق في أنفاس القوم بحر * وحصاة منه مكان ثبير

وقال فيها أبو الفتيان بن جبوس

يا صاحبي اذا اعبا كما سقمي * فلقيناني نسيم الريح من حلب
من البلاد التي كان الصبا سكنا * فيها وكان الهوا العذرى من أربي
وقال فيها أبو الفتح كشاجم (مقارب)

وما أمتعت جارها بلدة * كما أمتعت حلب جارها
بها قد تجمع ما تشتهي * فزرها فطوبى لمن زارها
وقال فيها أبو الحسن علي بن موسى بن سعيد الغرناطي العنسي (خفيف)

حادي العيس كم تنيخ المطايا * سق بروحي من بعدهم في سياق
حلب انهم مقرر غرامى * ومرامى وقبلة الاشواق
لك خلا جوشن وبطياس والعبد * ومن كل وابل غيداق
كم بها مرتع لطرف وقلب * فيه سقى المني بكاس دهاق
وتغني طيورها لارتياح * وتذني غصونها للعنقاق
وعلو الشهباء حيث استدارت * أنجم الافق حولها كالنطاق

(رجع) و بحلب ملك الامراء أرغون الدوادار أكبر أمراء الملك الناصر وهو من الفقهاء
موصوف بالعدل لكنه بخيل والقضاة يحلب أربعة للمذاهب الاربعة فمنهم القاضي كمال
الدين بن الزمكاني شافعي المذهب عالي الهمة كبير القدر كريم النفس حسن الاخلاق متفنن
بالعلوم وكان الملك الناصر قد بعث اليه ليولي قضاء القضاة بحضرة ملكه فلم يقض له ذلك وتوفي
ببليديس وهو متوجه اليها ولما ولي قضاء حلب قصدته الشعراء من دمشق وسواها وكان فيمن
قصده شاعر الشام شهاب الدين أبو بكر محمد ابن الشيخ المحدث شمس الدين أبي عبد الله محمد بن
أبناة القرشي الاموي الفارقي فامتدحه بقصيدة طويلة حافلة اولها (كامل)

اسفت لفقديك جلق الفيحاء * وتباشرت لقدمك الشهباء
وعلا دمشق وقدر حلت كآبة * وعلا ربا حلب سنا وسناء
قد اشرقت دار سكنت فناءها * حتى غدت ولنورها لآلاء
ياسائر اسقى المنكارم والعلي * ممن يبخل عنده الكرماء
هذا كمال الدين لذ بجنابه * تنسم فثم الفضل والنعماء
قاضي القضاة اجل من ايامه * تغني بها الايتام والفقراء
قاض زكا اصلا وفرما فاعتلى * شرفت به الآباء والابناء
من الاله علي بنى حلب به * لله وضع الفضل حيث يشاء

كشف المعني فهمه وبيانه * فكأنما ذاك الذكاء ذكاء
ياحكم الأحكام قدرك سابق * عن أن تسرك رتبة شماء
أن المناصب دون همتك التي * في الفضل دون محلها الجوزاء
لك في العلوم فضائل مشهورة * كالصبح شق له الظلام ضياء
ومناقب شهد العدو بفضلها * والفضل ما شهدت به الأعداء

وهي أزيد من خمسين بيتا وأجازه عليها بكسوة ودراهم وانتقد عليه الشعراء ابتداءه
بلفظ أسفت قال ابن جزى وليس كلامه في هذه القصيدة بذلك وهو في المقطعات أجود
منه في القصائد واليه انتهت الرياسة في الشعر على هذا العهد في جميع بلاد المشرق وهو
من ذرية الخطيب أبي يحيى عبد الرحيم بن نباتة من مشي الخطب الشهيرة ومن بديع مقطعاته
في التورية قوله — كامل —

عاقبتها غيداء حالية العلى * تجنى على عقل الحب وقلبه
بخلت بلؤلؤ ثغرها عن لاثم * فغدت مطوقة بما بخلت به

(رجع) ومن قضاة حلب قاضي قضاة الحنفية الامام المدرس ناصر الدين بن العديم حسن
الصورة والسيرة أصيل مدينة حلب — كامل —

تراه اذا ما جئته متهللا * كانت تعطيه الذي أنت سائله

ومنهم قاضي قضاة المالكية لا أذكره كان من الموثقين بمصر وأخذ الخطة عن غير
استحقاق ومنهم قاضي قضاة الحنابلة لا أذكر اسمه وهو من أهل صالحية دمشق ونقيب
الإشراف بحلب بدر الدين بن الزهراء ومن فقائها شرف الدين بن العجمي وأقاربه هم
كبراء مدينة حلب - ثم سافرت منها إلى مدينة تيزين وهي على طريق قنسرين (وضبط
اسمها بقاء معلومة مكسورة وياء مدوزاى مكسورة وياء مدثانية ونون) وهي حديثة اتخذها
التركان وأسواقها حسان ومساجدها في نهاية من الاتقان وقاضيها بدر الدين العسقلاني
وكانت مدينة قنسرين قديمة كبيرة ثم خربت ولم يبق إلا رسومها ثم سافرت إلى مدينة
انطاكية وهي مدينة عظيمة أصلية وكان عليها سور محكم لا نظيره في أسوار بلاد الشام
فلما فتحها الملك الظاهر هدم سورها وانطاكية كثيرة العمارة ودورها حسنة البناء كثيرة
الأشجار والمياه وبخارجها نهر العاصي وبها قبر حبيب النجار رضى الله عنه وعليه زاوية
فيها الطعام للوارد والصادر شيخها الصالح المعمر محمد بن علي سنه ينيف على المائة وهو ممتنع
بقوته دخلت عليه مرة في بستان له وقد جمع خطبا ورفع على كاهله لياقي به منزله بالمدينة

ورأيت ابنة قد أناف على الثمانين الا انه محدودب الظهر لا يستطيع النهوض ومن يراها يظن
الوالد منهما ولدا والولد والد - ثم سافرت الى حصن بغراس (وضبط اسمه بباء موحدة
مضمومة وغين معجمة مسكنة وراء وآخره سين مهملة) وهو حصن منيع لا يرام عليه
البساتين والمزارع ومنه يدخل الى بلاد سيس وهي بلاد كفار الارمن وهم رعية الملك
الناصر يؤدون اليه مالا ودراهمهم فضة خالصة تعرف بالبغيلة وبها تصنع الثياب الدبزية
وأمر هذا الحصن صارم الدين بن الشيباني وله ولد فاضل اسمه علاء الدين وابن أخ اسمه
حسام الدين فاضل كريم يسكن الموضع المعروف بالرصاص (بضم الراء والصاد المهمل
الاول) ويحفظ الطريق الى بلاد الارمن

— حكاية —

شكا الارمن مرة الى الملك الناصر من الامير حسام الدين وزوروا عليه أموراً لا تليق
فنفذ أمره لامير الامراء بحلب ان يحنقه فلما توجه الامير بلغ ذلك صديقا له من كبار
الامراء فدخل على الملك الناصر وقال يا خوندان الامير حسام الدين هو من خيار الامراء
ينصح المسلمين ويحفظ الطريق وهو من الشجعان والارمن يريدون الفساد في بلاد
المسلمين فيمنعهم ويقهرهم وانما أرادوا اضعاف شوكة المسلمين بقتله ولم يزل به حتى أنفذ
أمراً ثانياً بسراجه والخنق عليه وردعه لموضعه ودعا الملك الناصر بر يديا يعرف بالافوش
وكان لا يبعث الا في مهم أمره بالاسراع والجدي السير فسار من مصر الى حلب في
خمس وهي مسيرة شهر فوجد امير حلب قد أحضر حسام الدين وأخرجه الى الموضع
الذي يحنق به الناس فخلصه الله تعالى وعاد الى موضعه ولقيت هذا الامير ومعه قاضي
بغراس شرف الدين الحموي بموضع يقال له العمق متوسط بين انطاكية ونيزين و بغراس
ينزله التريكان بمواشيهم لخصبه وسعته ثم سافرت الى حصن القصير تصغير قصر وهو حصن
حسن أميره علاء الدين الكردي وقاضيه شهاب الدين الارمني من أهل الديار المصرية
— ثم سافرت الى حصن الشجر بكاس (وضبط اسمه بضم الشين المعجم واسكان الغين
المعجم وضم الراء والباء الموحدة وآخره سين مهملة) وهو منيع في رأس شاهق أميره سيف
الدين الطنطاش فاضل وقاضيه جمال الدين بن شجرة من أصحاب ابن تيمية - ثم سافرت
الى مدينة صهيون وهي مدينة حسنة بها الانهار المطردة والاشجار المورقة ولها قلعة جيدة
واميرها يعرف بالابراهيمى وقاضيه محي الدين الحمصي وبخارجها زاوية في وسط بستان فيها
الطعام للوارد والصادر وهي على قبر الصالح العابد عيسى البدوي رحمه الله وقد زرت قبره
ثم سافرت منها فمرت بحصن القدموس (وضبط اسمه بفتح القاف واسكان الدال المهمل

وضع الميم وآخره سين مهمل) ثم بحصن المينقة (وضبط اسمه بفتح الميم واسكان الياء وفتح النون والقاف) ثم بحصن العليقة واسمه على لفظ واحدة العليق ثم بحصن مصياف (وصاده مهملة) ثم بحصن الكهف وهذه الحصون لطائفة يقال لهم الاسماعيلية ويقال لهم الفداوية ولا يدخل عليهم أحد من غيرهم وهم سهام الملك الناصر بهم بصيب من يعدو عنه من اعدائه بالعراق وغيرها ولهم المراتب واذا أراد السلطان ان يبعث احدهم الى اغتيال عدوله أعطاه دية فان سلم بعد ثأني ما يراد منه فهي له وان أصيب فهي لولده ولهم سكاكين مسمومة يضربون بها من بعثوا الى قتله وبما لم تصح حيلهم فقتلوا كما جرى لهم مع الامير قراسنقور فانه لما هرب الى العراق بعث اليه الملك الناصر جملة منهم فقتلوا ولم يقدروا عليه لا خذه بالحزم — حكاية —

كان قراسنقور من كبار الامراء ومن حضر قتل الملك الاشرف أخى الملك الناصر وشارك فيه ولما تمهد الملك للملك الناصر وقر به القرار واشتدت أواخى سلطانه جعل يتتبع قتلة اخيه فيقتلهم واحدا واحدا اظهرا الاخذ بثار اخيه وخوفا أن يتجاسروا عليه بما تجاسروا على أخيه وكان قراسنقور أمير الامراء بحلب فكتب الملك الناصر الى جميع الامراء أن ينفروا بعساكرهم وجعل لهم ميعاداً يكون فيه اجتماعهم بحلب ونزولهم عليها حتي يقبضوا عليه فلما فعلوا ذلك خاف قراسنقور على نفسه وكان له ثمانمائة مملوك فركب فيهم وخرج على العساكر صبا حافا خترقهم وأعجزهم سبقا وكانوا في عشرين ألفا وقصد منزل أمير العرب مهنا بن عيسى وسقوعلى مسيرة يومين من حلب وكان مهنا في قنص له فقصد بيته ونزل عن فرسه وألقى العمامة في عنق نفسه ونادى الجوار يا أمير العرب وكانت هناك أم الفضل زوج مهنا وبنت عمه فقالت له قد اجرناك وأجرنا من معك فقال انما أطالب اولادى ومالى فقالت له لك ماتحب فانزل في جوارنا ففعل ذلك واتي مهنا فاحسن نزله وحكمه في ماله فقال انما احب اهلى ومالى الذى تركته بحلب فدعا مهنا باخوته وبني عمه فشاورهم في امره ففهم من اجابه الى ما اراد ومنهم من قال له كيف نحارب الملك الناصر ونحن في بلاده بالشام فقال لهم مهنا اما نأفأفعل لهذا الرجل ما يريد وذهب معه الى سلطان العراق وفي أثناء ذلك ورد عليهم الخبر بان اولاد قراسنقور سيروا على البريد الى مصر فقال مهنا لقراسنقور اما اولادك فلاحيلة فيهم واما مالك فنجتهد في خلاصه فركب فيمن أطاعه من اهله واستنفر من العرب نحو خمسة وعشرين ألفا وقصدوا حلب فاحرقوا باب قلعتها وتغلبوا عليها واستخلصوا منها مال قراسنقور ومن بقى من أهله ولم

يتعدوا الى سوي ذلك وقصدوا ملك العراق وصحبهم أمير حصص الافرم ووصلوا الى الملك محمد خدابنده سلطان العراق وهو بموضع مصيفه المسمى قرا باغ (بفتح القاف والراء والباء الموحدة والغين المعجمة) وهو ما بين السلطانية وتبريز فاكرم نزلهم وأعطى مهناء عراق العرب وأعطى قرا سنقور مدينة مراغة من عراق العجم وتسمى دمشق الصغيرة وأعطى الافرم همدان وأقاموا عنده مدة مات فيها الافرم وعاد منها الى الملك الناصر بعد موافيق وعهود أخذها منه وبقى قرا سنقور على حاله وكان الملك الناصر يبعث له الفداوية مرة بعد مرة فمنهم من يدخل عليه داره فيقتل دونه ومنهم من يرمى بنفسه عليه وهو راكب فيضربه وقتل بسببه من الفداوية جماعة وكان لا يفارق الدرع أبدا ولا ينام الا في بيت العود والحديد فلما مات السلطان محمد وولى ابنه ابوسعيد وقع ما سنذكره من امر الجوابان كبير امرائه وفرار ولده الدمر طاش الى الملك الناصر ووقعت المراسلة بين الملك الناصر وبين ابى سعيد وانفقوا على ان يبعث ابوسعيد الى الملك الناصر برأس قرا سنقور ويبعث اليه الملك الناصر برأس الدمر طاش فبعث الملك الناصر برأس الدمر طاش الى ابى سعيد فلما وصله امر بحمل قرا سنقور اليه فلما عرف قرا سنقور بذلك اخذ خاتما كان له مجوفا في داخله سم ناقع فنزع فصه وامتنص ذلك السم فمات لحينه فعرف ابوسعيد بذلك الملك الناصر ولم يبعث له برأسه ثم سافرت من حصون الفداوية الى مدينة جبلة وهي ذات انهار مطردة واشجار والبحر على نحو ميل منها وبها قبر الولي الصالح الشهير ابراهيم بن ادهم رضى الله عنه وهو الذي نبذ الملك وانقطع الى الله تعالى حسبا شهر ذلك ولم يكن ابراهيم من بيت ملك كما يظنه الناس انما ورث الملك عن جده أبى أمه وأما أبوه أدهم فكان من الفقراء الصالحين السائحين المتعبدين الورعين المنقطعين

— حكاية أدهم —

يذكر انه مر ذات يوم ببساتين مدينة بخارى وتوضا من بعض الانهار التي تتخللها فاذا بتفاحة يحملها ماء النهر فقال هذه لا خطر لها فاكلها ثم وقع في خاطره من ذلك وسواس فعزم على ان يستحل من صاحب البستان فقرع باب البستان فخرجت اليه جارية فقال لها ادعى الى صاحب المنزل فقالت انه لا امرأة فقال استأذني لي عليها ففعلت فاخبر المرأة بخبر التفاحة فقالت له ان هذا البستان نصفه لى ونصفه للسلطان والسلطان يومئذ يبلغ وهي مسيرة عشرة من بخارى وأحلتها المرأة من نصفها وذهب الى بلخ فاعترض السلطان في موكبها فاخبره الخبر واستحلها فامره ان يعود اليه من الغد وكان للسلطان بنت بارعة الجمال قد

خطبها ابناء الملوك فتمنعت وحببت اليها العبادة وحب الصالحين وهي تحب أن تزوج من ورع زاهد في الدنيا فلما عاد السلطان إلى منزله أخبر بنته بخبر أدهم وقال سأرايت أوزع من هذا يأتي من بخارى إلى بلخ لأجل نصف تفاحة فرغبت في تزوجه فلما أتاه من الغد قال لأهلك إلا أن تزوج ببنتي فانقاد لذلك بعد استعصاء وتمنع فتزوج منها فلما دخل عليها وجدها متزينة والبيت مزين بالفرش وسواها فعمد إلى ناحية من البيت وأقبل على صلاته حتى أصبح ولم يزل كذلك سبع ليال وكان السلطان ما أحله قبل فبعث إليه أن يحله فقال لأهلك حتى يقع اجتماعك بزوجتك فلما كان الليل واقعها ثم اغتسل وقام إلى الصلاة فصاح صبيحة وسجد في مصلاه فوجد ميتا رحمه الله وحملت منه فوادت ابراهيم ولم يكن لجدده ولد فأسند الملك إليه وكان من تخليه عن الملك ما اشتهر وعلى قبر ابراهيم بن أدهم زاوية حسنة فيها بركة ماء وبها الطعام للصادر والوارد وخادمها ابراهيم الجمحي من كبار الصالحين والناس يقصدون هذه الزاوية ليلة النصف من شعبان من سائر أقطار الشام ويقيمون بها ثلاثا ويقوم بها خارج المدينة سوق عظيم فيه من كل شيء ويقدم الفقراء المتجردون من الآفاق بمحض ور هذا الموسم وكل من يأتي من الزوار لهذه التربة يعطي لخادمها شعبة فيجتمع من ذلك قناطير كثيرة وأكثر أهل هذه السواحل هم الطائفة النصيرية الذين يعتقدون أن علي بن أبي طالب إله وهم لا يصلون ولا يتطهرون ولا يصومون وكان الملك الظاهر ألزمهم بناء المساجد بقراهم فبنوا بكل قرية مسجدا بعيدا عن العمارة ولا يدخلونه ولا يعمرونه وربما آوت إليه مواشيهم ودوابهم وربما وصل الغريب اليهم فينزل بالمسجد ويؤذن للصلاة فيقولون له لا تنهق علفك ياتيك وعددهم كثير — حكاية —

ذكر لي أن رجلا مجحولا وقع ببلاد هذه الطائفة فادعى الهداية وتكاثروا عليه فوعدهم بتملك البلاد وقسم بينهم بلاد الشام وكان يعين لهم البلاد ويامرهم بالخروج إليها ويعطيهم من ورق الزيتون ويقول لهم استظفروا بها فانها كالا وامر لكم فاذا خرج احدهم إلى بلد أحضره أميرها فيقول له إن الامام المهدي أعطانى هذا البلد فيقول له أين الامر فيخرج ورق الزيتون فيضرب ويحبس ثم إنه أمرهم بالتجهيز لقتال المسلمين وإن يبدأوا بمدينة جبلة وأمرهم أن يأخذوا عوض السيوف قضبان الآس ووعدهم أنها تصير في أيديهم سيوفا عند القتال فغدروا مدينة جبلة وأهلها في صلاة الجمعة فدخلوا الدور وهاكوا الحريم ونار المسلمون من مسجدهم فاخذوا السلاح وقتلوهم كيف شاؤوا واتصل الخبر باللاذقية فاقبل أميرها بهادر عبد الله بعسكره وطيرت الحمام إلى طرابلس فأتى أمير الامراء

بعسا كره وأتبعوهم حتى قتلوا منهم نحو عشرين الفا وتحصن الباقون بالجبال وراسلوا ملك الامراء والزموا ان يعطوه دينارا عن كل رأس ان هو حاول ابقاءهم وكان الخبر قد طير به الحمام الى الملك الناصر وصدر جوابه ان يحمل عليهم السيف فراجعهم ملك الامراء وألقى له انهم عمال المسلمين في حراثة الارض وانهم ان قتلوا ضعف المسلمون لذلك فامر بالابقاء عليهم - ثم سافرت الى مدينة اللاذقية وهى مدينة عتيقة على ساحل البحر يزعمون انها مدينة الملك الذى كان ياخذ كل سفينة غصبا وكنت انما قصدتها لزيارة الولى الصالح عبد المحسن الاسكندرى فلما وصلتها وجدته غائبا بالحجاز الشريف فلقيت من أصحابه الشيخين الصالحين سعيد البجائى ويحيى السلاوي وهما بمسجد علاء الدين بن البهاء أحد فضلاء الشام وكبرائها صاحب الصدقات والمكارم وكان قد عمر لها زاوية بقرب المسجد وجعل بها الطعام للوارد والصادر وقاضيهما الفقيه العاضل جلال الدين عبد الحق المصرى المالكى فاضل كريم تعلق بطيلان ملك الامراء فولاه قضاءها

— حكاية —

كان باللاذقية رجل يعرف بابن المؤيد هجاء لا يسلم أحد من لسانه متهم في دينه مستخف يتكلم بالقبايح من الاحاد فعرضت له حاجة عند طيلان ملك الامراء فلم يقضها له فقصد مصر وتقول عليه أموراً شذيفة وعاد الى اللاذقية فكتب طيلان الى القاضى جلال الدين ان يتحيل في قتله بوجه شرعى فدعاه القاضى الى منزله وباحثه واستخرج كامن الحادة فتكلم بعظائم أيسرها يوجب القتل وقد أعد القاضى الشهود خلف الحجاب فكتبوا عقدا بمقاله وثبت عند القاضى وسجن واعلم ملك الامراء بقضيته ثم اخرج من السجن وخنق على بابيه ثم لم يلبث ملك الامراء طيلان ان عزل عن طرابلس وولياها الحاج قرطية من كبار الامراء ومن تقدمت له فيها الولاية وبينه وبين طيلان عداوة فجعل يتبع سقطاته وقام لديه اخوة ابن المؤيد شاكين من القاضى جلال الدين فامر به وبالشهود الذين شهدوا على ابن المؤيد فاحضروا وامر بخنقهم وأخرجوا الى ظاهر المدينة حيث يخنق الناس واجلس كل واحد منهم تحت مخنقه ونزعت عماثمهم ومن عادة امراء تلك البلاد انه متى امر احدهم بقتل احدهم من الناس يمر الحاكم من مجلس الامير سبقا على فرسه الى حيث الامور بقتله ثم يعود الى الامير فيكرر استئذانه يفعل ذلك ثلاثا فاذا كان بعد الثلاث انفذ الامر فلما فعل الحاكم ذلك قامت الامراء فى المرة الثالثة وكشفوا رؤسهم وقالوا انها الامير هذه سبة فى الاسلام يقتل القاضى والشهود فقبل الامير شفاعتهم وخصلى سيولهم

وبخارج اللاذقية الدير المعروف بدير الفاروص وهو أعظم دير بالشام ومصر يسكنه الرهبان ويقصده النصارى من الآفاق وكل من نزل به من المسلمين فالنصارى يضيفونه وطعامهم الخبز والخبز والزيتون والخل والكبر وميناء هذه المدينة عليها سلسلة بين برجين لا يدخلها أحد ولا يخرج منها حتى تحيط له السلسلة وهي من أحسن المراسى بالشام - ثم سافرت الى حسن المرقب وهو من الحصون العظيمة يماثل حصن الكرك وميناءه على جبل شامخ وخارجة روض ينزله الغرباء ولا يدخلون قلعة وافتتحه من أيدي الروم الملك المنصور قلاوون وعليه ولد ابنه الملك الناصر وكان قاضيه برهان الدين المصرى من أفاضل القضاة وكرمائمهم ثم سافرت الى الجبل الاقصر وهو أعلى جبل بالشام وأول ما يظهر منها من البحر وسكانه التركمان وفيه العيون والانهار وسافرت منه الى جبل لبنان وهو من أخصب جبال الدنيا فيه أصناف الفواكه وعيون الماء والظلال الوافرة ولا يخلو من المنقطعين الى الله تعالى والزهاد والصالحين وهو شهر بذلك ورأيت به جماعة من الصالحين قد انقطعوا الى الله تعالى ممن لم يشتهر اسمه

— حكاية —

أخبرني بعض الصالحين الذين لقيتهم به قال كنا بهذا الجبل مع جماعة من الفقراء أيام البرد الشديد فاوقدنا نارا عظيمة وأحدقنا بها فقال بعض الحاضرين يصلح لهذه النار ما يشوى فيها فقال أحد الفقراء ممن تزدرىه الاعين ولا يعبا به إني كنت عند صلاة العصر بمسجد ابراهيم بن ادهم فرأيت بمقربة منه حمار وحش قد أحدق الثلج به من كل جانب وأظنه لا يقدر على الحراك فلو ذهبتم اليه لقد رتم عليه وشويتم لحمه في هذه النار قال فقمنا اليه في خمسة رجال فلقيناه كما وصف الينا فقبضناه واتينا به أصحابنا وذبحناه واشويناه لحمه في تلك النار وطلبنا الفقير الذي نبه عليه فلم نجده ولا وقعنا له على أثر فطال عجبنا منه ثم وصلنا من جبل لبنان الى مدينة بعلبك وهي حسنة قديمة من أطيب مدن الشام تحديقها البساتين الشريفة والجنات المنيفة وتخرق أرضها الانهار الجارية وتضاهى دمشق في خيراتها المتناهية وبها من حب الملوك ما ليس في سواها وبها يصنع الدبس المنسوب اليها وهو نوع من الرب يصنعونه من العنب ولهم تربة يضعونها فيه فيجمد وتكسر القلة التي يكون بها فيبقى قطعة واحدة وتصنع منه الحلواء ويجعل فيها الفستق واللوز ويسمونها حلواء بالملبن ويسمونها أيضا بجلد الفرس وهي كثيرة الالبان وتجلب منها الى دمشق وبينهما مسيرة يوم للمجد وأما الرقاق فيخرجون من بعلبك فيبيتون ببلدة صغيرة تعرف بالزبداني كثيرة الفواكه ويغدون منها الى دمشق ويصنع بعلبك الثياب المنسوبة اليها من الاحرام وغيره ويصنع

بها أو انى الخشب وملاعقه التي لا نظير لها في البلاد وهم يسمون الصحف بالدسوت وربما صنعوا الصحيفة وصنعوا صحيفة أخرى تسع في جوفها وأخرى في جوفها الى أن يبلغوا العشرة يخيل لرأيها انها صحيفة واحدة وكذلك الملاعق يصنعون منها عشرة واحدة في جوف واحدة ويصنعون لها غشاء من جلد ويمسكها الرجل في حزامه واذا حضر طعاما مع أصحابه أخرج ذلك فيظن رأيها انها ملعقة واحدة ثم يخرج من جوفها تسعة. وكان دخولي ابعابك عشية النهار وخرجت منها بالغد ولقرط اشتياقي الى دمشق ووصلت يوم الخميس التاسع من شهر رمضان المعظم عام ستة وعشرين الى مدينة دمشق الشام فنزلت منها بمدرسة المالكية المعروفة بالشرايشية ودمشق هي التي تفضل جميع البلاد حسنا وتتقدمها جمالا وكل وصف وان طال فهو قاصر عن محاسنها ولا ابدع مما قاله ابو الحسين بن جبير رحمه الله تعالى في ذكرها قال وأما دمشق فهي جنة المشرق . ومطلع نورها المشرق . وخاتمة بلاد الاسلام التي استقريناها . وعروس المدن التي اجتليناها . قد تحلت بازاهير الرياحين . وتجلت في حلل سندسية من البساتين . وحلت : موضع الحسن بالمكان المكين . وتزينت في منصتها أجمل تزيين . وتشرفت بان آوي المسيح عليه السلام وأمه منها الى ربوة ذات قرار ومعين . ظل ظليل : وماء سلسبيل ، تنساب مذابحها انسياب الاراقم بكل سبيل . ورياض يحيي النفوس نسميها العليل : تتبرج لناظرها بمجتي صقيل . وتناديهم هلموا الى معرس للحسن ومقيل . وقد سئمت ارضها كثرة الماء . حتي اشتاقت الى الظماء . فتكاد تناديك بها الصم الصلاب . أركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب . وقد أهدت البساتين بها احداق الهالة بالقمر . والاكام بالثمر . وامتدت بشرقيها غوطتها الخضراء امتداد البصر . وكل موضع لحظت بجهاتها الاربع نظرت اليه اليا نعة قيد البصر . والله صدق القائلين عنها . ان كانت الجنة في الارض فدمشق لاشك فيها . وان كانت في السماء فهي تساميهما وتحاذيهما . قال ابن جزى وقد نظم بعض شعرائها في هذا المعنى فقال

(خفيف)

ان تكن جنة الخلود بارض * فدمشق ولا تكون سواها
أو تكن في السماء فهي عليها * قد أبدت هواءها وهواها
بلد طيب ورب غفور * فاغتنمها عشية وضحاها

وذكرها شيخنا المحدث الرحال شمس الدين ابو عبد الله محمد بن جابر بن حسان القيسي الوادي أشي نزيل تونس ونص كلام ابن جبير ثم قال ولقد أحسن فيما وصف

منها وأجاد . ونوق الانفس للتطاع على صورتها بما أفاد . هذا وان لم تكن له بها اقامة .
 فيعرب عنها بحقيقة علامة . ولا وصف ذهبيات أصيلا . وقد حان من الشمس غروبها
 ولا ازمان جفولها المنوعات . ولا أوقات سرورها المنبهات . وقد اختص من قال . الفيتها
 كما تصف الألسن . وفيها ما تشتهي به النفس وتلد الأعين . قال ابن جزي والذي قاله
 الشعراء في وصف محاسن دمشق لا يحصر كثرة وكان والدي رحمه الله كثيرا ما ينشد في
 وصفها هذه الايات وهي لشرف الدين بن محسن رحمه الله تعالى (طويل)

دمشق بناشوق اليها * وهرح * وان لج واش أو ألح عذول
 بلاد بها الحصباء در وترها * عبير وأنفاس الشمال شمول
 تسلسل فيها مأوها وهو مطاق * وصح نسيم الروض وهو عليل
 وهذا من النخط العالي من الشعر وقال فيها عرقلة الدمشقي الكلبى (كامل)
 الشام شامة وجنة الدنيا كما * انسان مقلتها الغضبيضة جاق
 من آسها لك جنة لا تنقضى * ومن الشقيق جهنم لا تحرق
 وقال أيضا فيها

أما دمشق فجنات معجزة * للطالبين بها الوئدان والخور
 ماصح فيها على أوتاره فمر * الا يغنيه قمرى وشحرور
 يا حبذا ودروع الماء تنسجها * أنامل الريح الا أنها زور
 وله فيها أشعار كثيرة سوى ذلك وقال فيها أبو الوحش سبع بن خلف الاسدي (رجز)

سقي دمشق الله غيثا حسنا * من مستهل ديمة دهاقها
 مدينة ليس يضاهي حسنها * في سائر الدنيا ولا آفاقها
 تود زوراء العراق انها * منها ولا تعزى الى عراقها
 فارضها مثل السماء بهجة * وزهرها كالزهر في أشراقها
 نسيم روضها متي ما قد سري * فك أخا الهموم من وثاقها
 قدر تبع الربيع في ربوعها * وسيقت الدنيا الى أسواقها
 لا تسام العيون والانوف من * رؤيتها يوما ولا استنشاقها

ومما يناسب هذا اللقاء الفاضل عبد الرحمن البيساني فيها من قصيدة وقد نسبت أيضا
 لابن المنير (كامل)

يا برق هل لك في احوال نحية * عذبت فصارت مثل مائك سلسلا

باكر دمشق بمشق الحيا * زهر الرياض مرصعا ومكلا
 واجرر بحIRON ذبولك واختصاص * مغنى تازر بالعللا وتسربلا
 حيث الحيا الربعى محلول الحيا * والوايل الربعى مفرى الكلا
 وقال فيها أبو الحسن على بن موسى بن سعد العنسي الغرناطي المدعو نور الدين (بسيط)
 دمشق منزلنا حيث النعيم بدا * مكلا وهو فى الآفاق مختصر
 القصب راقصة والطير صادحة * والزهر مرتفع والماء منحدر
 وقد نجلت من اللذات أوجها * لكنها بظلال الدوح تستتر
 وكل واد به موسى يفجره * وكل روض على حافته الخضر
 وقال ايضا فيها

خيم بجلق بين الكأس والوتر * فى جنة هى ملء السمع والبصر
 ومتع الطرف فى مرأى محاسنه * وروض الفكر بين الروض والنهر
 وانظر الى ذهبيات الاصيل بها * واسمع الى نغمات الطير فى الشجر
 وقل لمن لام فى لذاته بشرا * دعنى فانك عندى من سوقة البشر
 وقال فيها ايضا (كامل)

اما دمشق فجنة * ينسى بها الوطن الغريب
 لله ايام السبوت * بها ومنظرها العجيب
 انظر بعينك هل ترى * الاحبب اوحبيب
 فى موطن غنى الحمام * به على رقص القضيبي
 وغدت ازاهر روضه * تختال فى فرح وطيب
 واهل دمشق لا يعملون يوم السبت عملا انما يخرجون الى المتنزهات وشطوط الانهار
 ودوحات الاشجار بين البساتين النضرة والمياه الجارية فيكونون بها يومهم الى الليل وقد
 طال بنا الكلام فى محاسن دمشق فلنرجع الى كلام الشيخ ابى عبد الله

— ذكر جامع دمشق المعروف بجامع بني امية —

وهو اعظم مساجد الدنيا احتفا لا واتقنها صناعة وابدعها حسنا وبهجة وكالا ولا يعلم له
 نظير ولا يوجد له شبيه وكان الذى تولى بناءه واتقانه امير المؤمنين الوليد بن عبد الملك بن
 مروان ووجه الى ملك الروم بقسطنطينية يامر ان يبعث اليه الصناع فبعث اليه اثني عشر
 الف صانع وكان موضع المسجد كنيسة فلما افتتح المسلمون دمشق دخل خالد بن الوليد

رضي الله عنه من احدي جهاتها بالسيف فانتهى الى نصف الكنيسة ودخل أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه من الجهة الغربية صلحاً فانتهى الى نصف الكنيسة فصنع المسلمون من نصف الكنيسة الذي دخلوه عنوة مسجداً وبقي النصف الذي صالحو عليه كنيسة فلما عزم الوليد على زيادة الكنيسة في المسجد طلب من الروم ان يبيعوا منه كنيستهم تلك بما شاؤوا من عوض فابوا عليه فانزعها من أيديهم وكانوا يزعمون أن الذي يهدمها يحن فذكروا ذلك للوليد فقال انا اول من يحن في سبيل الله وأخذ الفأس وجعل يهدم بنفسه فلما رأى المسلمون ذلك تبايعوا على الهدم واكذب الله زعم الروم وزين هذا المسجد بفصوص الذهب المعروفة بالفسيخاء تخالطها أنواع الاصبغة الغريبة الحسن وذرع المسجد في الطول من الشرق الى الغرب مائتا خطوة وهي ثلاثمائة ذراع وعرضه من القبلة الى الجوف مائة وخمس وثلاثون خطوة وهي مائتا ذراع وعدد شمسات الزجاج الملونة التي فيه أربع وسبعون وبلاطاته ثلاثة مستطيلة من شرق الى غرب سعة كل بلاط منها ثمان عشرة خطوة وقد قامت على أربع وخمسين سارية وثماني ارجل حصية تتخللها وست ارجل مرخمة مرصعة بالرخام الملون قد صور فيها اشكال محارب وسواها وهي ثقيل قبة الرصاص التي امام المحراب المسماة بقبة النسر كأنهم شبهوا المسجد بنسرا طائرا والقبة رأسه وهي من أعجب مباني الدنيا ومن أي جهة استقبلت المدينة بدت لك قبة النسر ذاهبة في الهواء منيفة على جميع مباني البلد وتستدير بالصحن بلاطات ثلاثة من جهاته الشرقية والغربية والجوفية سعة كل بلاط منها عشر خطا وبها من السواري ثلاث وثلاثون ومن الارجل أربع عشرة وسعة الصحن مائة ذراع وهو من أجمل المناظر وأتمها حسنا وبها يجتمع أهل المدينة بالعشايا فنقارى ومحدث وذاهب ويكون انصرافهم بعد العشاء الاخيرة واذا التي أحد كبرائهم من الفقهاء وسواهم صاحباه اسرع كل منهما نحو صاحبه وحط رأسه وفي هذا الصحن ثلاث من القباب احداها في غربيه وهي اكبرها وتسمى قبة عائشة أم المؤمنين وهي قائمة على ثمان سوار من الرخام مزخرفة بالفصوص والاصبغة الملونة مسقفة بالرصاص يقال ان مال الجامع كان يخزن بها وذكروا أن فوائد مستغلات الجامع وجبايته نحو خمسة وعشرين الف دينار ذهباً في كل سنة والقبة الثانية من شرق الصحن على هيئة الاخرى الا انها اصغر منها قائمة على ثمان من سواري الرخام وتسمى قبة زين العابدين والقبة الثالثة في وسط الصحن وهي صغيرة مثمنة من رخام عجيب محكم الا لصاق قائمة على أربع سواري من الرخام الناصع وتحتها شباك حديد في وسطه أنبوب

نحاس يجمع الماء الى علو فيرتفع ثم ينثني كأنه قضيب لجين وهم يسمونهم قفص الماء ويستحسن
الناس وضع افواههم فيه للشرب وفي الجانب الشرقي من الصحن باب يفضي الى مسجد
بديع الوضع يسمى مشهد على بن أبي طالب رضى الله عنه ويقابله من الجهة الغربية حيث
يلتقي البلاطان الغربي والجنوبي موضع يقال ان عائشة رضى الله عنها سمعت الحديث هنا لك
وفي قبلة المسجد المقصورة العظمى التي يؤم فيها امام الشافعية وفي الركن الشرقي منها
ازاء المحراب خزانة كبيرة فيها المصحف الكريم الذي وجهه أمير المؤمنين عثمان بن عفان
رضي الله عنه الى الشام وتفتح تلك الخزانة كل يوم جمعة بعد الصلاة فيزدحم الناس على اثم
ذلك المصحف الكريم وهنا لك يحلف الناس غرامهم ومن ادعوا عليه شيئاً وعن يسار
المقصورة محراب الصحابة ويذكر اهل التاريخ انه اول محراب وضع في الاسلام وفيه
يؤم امام المالكية وعن يمين المقصورة محراب الحنفية وفيه يؤم امامهم و يليه محراب الحنابلة
وفيه يؤم امامهم ولهذا المسجد ثلاث صوامع احداها بشرقيها وهي من بناء الروم و باها
داخل المسجد وباسفلها مطهرة وبيوت للوضوء يغتسل فيها المعتكفون والملتزمون للمسجد
ويتوضؤون والصومعة الثانية بغربيه وهي أيضاً من بناء الروم والصومعة الثالثة بشماله وهي
من بناء المسلمين وعدد المؤذنين به سبعون مؤذناً وفي شرقي المسجد مقصورة كبيرة فيها
صهريج ماء وهي لطائفة الزياطة السودان وفي وسط المسجد قبر زكريا عليه السلام وعليه
تابوت معترض بين اسطوانتين مكسو بثوب حرير اسود معلم فيه مكتوب بالابيض
(يا زكريا انا نبشرك بغلام اسمه يحيى) وهذا المسجد شهر الفضل وقرأت في فضائل دمشق عن
سفيان الثوري ان الصلاة في مسجد دمشق بثلاثين ألف صلاة وفي الاثر عن النبي صلى
الله عليه وسلم انه قال يعبد الله فيه بعد خراب الدنيا اربعين سنة ويقال ان الجدار القبلي
منه وضعه نبي الله هو وعليه السلام وان قبره به وقدر أيت على مقربة من مدينة ظفار
اليمن بموضع يقال له الاحقاف بنية فيها قبر مكتوب عليه هذا قبر هود بن عابر صلى الله
عليه وسلم ومن فضائل هذا المسجد انه لا يخلو عن قراءة القرآن والصلاة الا قليلا من
الزمان كما سنده والناس يجتمعون به كل يوم اربع صلوات الصبح فيقرأون سبعاً من القرآن
ويجتمعون بعد صلاة العصر لقراءة تسمى الكوثرية يقرأون فيها من سورة الكوثر الى آخر
القرآن وللمجتمعين على هذه القراءة من ثبات تجري لهم وهم نحو ستائة انسان ويدور
عليهم كاذب الغيبة فمن غاب منهم قطع له عند دفع المرتب بقدر غيبته وفي هذا المسجد
جماعة كبيرة من المجاورين لا يخرجون منه مقبلون على الصلاة والقراءة والذكر لا يفترون

عن ذلك ويتوضئون من المطاهر التي بداخل الصومعة الشرقية التي ذكرناها وأهل البلد يعينونهم بالمطاعم والملابس من غير أن يسألوهم شيئاً من ذلك وفي هذا المسجد أربعة أبواب باب قبلي يعرف بباب الزيادة وباعلاه قطعة من الرمح الذي كانت فيه راية خالد بن الوليد رضي الله عنه ولهذا الباب دهليز كبير متسع فيه حوانيت السقاطين وغيرهم ومنه يذهب إلى دار الخيل وعن يسار الخارج منه سماط الصغارين وهي سوق عظيمة ممتدة مع جدار المسجد القبلي من أحسن أسواق دمشق وبموضع هذه السوق كانت دار معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه ودور قومه وكانت تسمى الخضراء فهدمها بنو العباس رضي الله عنهم وصار مكانها سوقاً وباب شرقي وهو أعظم أبواب المسجد ويسمى بباب جيرون وله دهليز عظيم يخرج منه إلى بلاط عظيم طويل أمامه خمسة أبواب لها ستة أعمدة طوال وفي جهة اليسار منه مشهد عظيم كان فيه رأس الحسين رضي الله عنه وبازائه مسجد صغير ينسب إلى عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه وبه ماء جار وقد انتظمت أمام البلاط درج ينحدر فيها إلى الدهليز وهو كالخندق العظيم يتصل بباب عظيم الارتفاع تحته أعمدة كالجدوع طوال وبجانبي هذا الدهليز أعمدة قد قامت عليها شوارع مستديرة فيها دكاكين البزازين وغيرهم وعليها شوارع مستطيلة فيها حوانيت الجوهريين والكتبيين وصناع إواني الزجاج العجيبة وفي الرحبة المتصلة بالباب الأول دكاكين لكبار الشهود ومنها دكانان للشافعية وسائر هالاحباب المذاهب يكون في الدكان منها الخمسة والستة من العدول والعاقدين للأنكحة من قبل القاضي وسائر الشهود مفترقون في المدينة وبمقربة من هذه الدكاكين سوق الوراقين الذين يبيعون الكاغد والأقلام والمداد وفي وسط الدهليز المذكور حوض من الرخام كبير مستدير عليه قبة لا سقف لها نقلها أعمدة رخام وفي وسط الحوض أنبوب نحاس يزعج الماء بقوة فيرتفع في الهواء أزيد من قامة الإنسان يسمونه الفوارة منظره عجيب وعن يمين الخارج من باب جيرون وهو باب الساعات غرفة لها هيئة طاق كبير فيه طيقان صغار مفتحة لها أبواب على عدد ساعات النهار والأبواب مصبوغ باطنها بالخضرة وظاهرها بالصفرة فإذا ذهبت ساعة من النهار انقلب الباطن الأخضر ظاهراً والظاهر الأصفر باطناً ويقال إن بداخل الغرفة من يتولى قلبها بيده عند مضي الساعات والباب الغربي يعرف بباب البر يدعون يمين الخارج منه مدرسة للشافعية وله دهليز فيه حوانيت للشماعين وسماط لبيع الفواكه وباعلاه باب يصعد إليه في درج له أعمدة سامية في الهواء وتحت الدرج سقايتان عن يمين وشمال مستديرتان والباب الجوي يعرف بباب النطفانيين وله دهليز عظيم وعن يمين الخارج

منه خانقاة تعرف بالشميعانية في وسطها صهر يجم ماء ولها مظاهر يجري فيها الماء ويقال انها كانت دار عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه وعلى كل باب من ابواب المسجد الاربعة دار وضوء يكون فيها نحو مائة بيت تجري فيها المياه الكثيرة

— ذكر الأئمة بهذا المسجد —

وأئمة ثلاثة عشر اماما أولهم امام الشافعية وكان في عهد دخولى اليها امامهم قاضي القضاة جلال الدين محمد بن عبد الرحمن القزويني من كبار الفقهاء وهو الخطيب بالمسجد وسكنه بدار الخطابة ويخرج من باب الحديد ازاء المقصورة وهو الباب الذي كان يخرج منه معاوية رضي الله عنه وقد تولى جلال الدين بعد ذلك قضاء القضاة بالديار المصرية بعد ان أدي عنه الملك الناصر نحو مائة الف درهم كانت عليه ديناً بدمشق واذا سلم امام الشافعية من صلاته أقام الصلاة امام مشهد على ثم امام مشهد الحسين ثم امام الكلاسة ثم امام مشهد أبي بكر ثم امام مشهد عمر ثم امام مشهد عثمان رضي الله عنهم أجمعين ثم امام المالكية وكان امامهم في عهد دخولى اليها الفقيه أبو عمر بن أبي الوليد بن الحاج التجيبي القرطبي الاصل الغرناطي المولد نزيل دمشق وهو يتناوب الامامة مع أخيه رحمهما الله ثم امام الحنفية وكان امامهم في عهد دخولى اليها الفقيه عماد الدين الحنفى المعروف بابن الرومى وهو من كبار الصوفية وله شياخة خانقاة الخاتونية وله أيضا خانقاة باشراف الاعلى ثم امام الحنابلة وكان في ذلك العهد الشيخ عبد الله الكفيف أحد شيوخ القراءة بدمشق ثم بعد هؤلاء خمسة أئمة لقضاء الفوائت فلا تزال الصلاة في هذا المسجد من أول النهار الى ثلث الليل وكذلك قراءة القرآن وهذا من مفاخر هذا الجامع المبارك

— ذكر المدرسين والمعلمين به —

ولهذا المسجد حلقات التدريس في فنون العلم والحدثون يقرؤون كتب الحديث على كراسى مرتفعة وقراء القرآن يقرؤون بالاصوات الحسنة صبا حاو مساء و به جماعة من المعلمين لكتاب الله يستند كل واحد منهم الى سارية من سوارى المسجد يلقن الصبيان و يقرئهم وهم لا يكتبون القرآن فى الألواح تنزيها لكتاب الله تعالى وانما يقرؤون القرآن تلقينا ومعلم الخط غير معلم القرآن يعلمهم بكتب الاشعار وسواها فينصرف الصبي من التعليم الى التكتيب وبذلك جاد خطه لان المعلم للخط لا يعلم غيره ومن المدرسين بالمسجد المذكور العالم الصالح رهان الدين بن الفركاح الشافعى ومنهم العالم الصالح نور الدين أبو اليسر بن الصائغ من المشتهرين بالفضل والصلاح ولما ولى القضاء بمصر جلال الدين الفوزي وجه

الى ابي اليسر الخليفة والامر بقضاء دمشق فامتنع من ذلك ومنهم الامام العالم شهاب الدين ابن جهيل من كبار العلماء هرب من دمشق لما امتنع أبو اليسر من قضائها خوفا من ان يقلد القضاء فاتصل ذلك بالملك الناصر فولى قضاء دمشق شيخ الشيوخ بالديار المصرية قطب العارفين لسان المتكلمين علاء الدين انقونوى وهو من كبار الفقهاء ومنهم الامام الفاضل بدر الدين على السخاوى المالكى رحمة الله عليهم أجمعين

— ذكر قضاة دمشق —

قد ذكرنا قاضى القضاة الشافعى بهاجلال الدين محمد بن عبد الرحمن القزوينى وأما قاضى المالكية فهو شرف الدين بن خطيب الفيوم حسن الصورة والهيئة من كبار الرؤساء وهو شيخ شيوخ الصوفية والنائب عنه فى القضاء شمس الدين بن القفصى ومجاس حكمه بالمدرسة الصمصامية وأما قاضى قضاة الحنفية فهو عماد الدين الحورانى وكان شديد السطوة واليه يتحاكم النساء وأزواجهن وكان الرجل اذا سمع اسم القاضى الحنفى أنصف من نفسه قبل الوصول اليه وأما قاضى الحنابلة فهو الامام الصالح عز الدين بن مسلم من خيار القضاة ينصرف على حمار له ومات بمدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما لما توجه للحجاز الشريف

— حكاية —

وكان بدمشق من كبار الفقهاء الحنابلة تقي الدين بن تيمية كبير الشام يتكلم فى الفنون الا ان فى عقله شيا وكان أهل دمشق يعظمونه أشد التعظيم ويعظمهم على المنبر وتكلم مرة بامر انكره الفقهاء ورفعوه الى الملك الناصر فامر باشخاصه الى القاهرة وجمع القضاة والفقهاء بمجلس الملك الناصر وتكلم شرف الدين الزواوى المالكى وقال ان هذا الرجل قال كذا وكذا وعدد ما أنكر على ابن تيمية وأحضر العقود بذلك ووضعها بين يدي قاضى القضاة وقال قاضى القضاة لا بن تيمية ما تقول قال لا اله الا الله فاعاد عليه فاجاب بمثل قوله فامر الملك الناصر بسجنه فسجن أعواما وصنف فى السجن كتابا فى تفسير القرآن سماه بالبحر المحيط فى نحو أربعين مجلدا ثم ان أمه تعرضت للملك الناصر وشكت اليه فامر باطلاقه الى ان وقع منه مثل ذاك ثانية وكنت اذ ذاك بدمشق فحضرت يوم الجمعة وهو يعظ الناس على منبر الجامع ويدكرهم فكان من جملة كلامه ان قال ان الله ينزل الى سماء الدنيا كنزولى هذا ونزل درجة من درج المنبر فعارضه فقيه مالكى يعرف بابن الزهراء وأنكر ما تكلم به فقامت العامة الى هذا الفقيه وضر به بالأيدي والنعال ضربا كثيرا حتى سقطت عمامته وظهر على رأسه شاشية حريرا فانكروا عليه لابسها واحتملوه الى دار عز الدين بن

مسلم قاضي الحنابلة فامر بسجنه وعزره بعد ذلك فانكر فقهاء المالكية والشافعية ما كان من تعزيره ورفعوا الامر الى ملك الامراء سيف الدين تنكيز وكان من خيار الامراء وصالحائهم فكتب الى الملك الناصر بذلك وكتب عقدا شرعيا على ابن تيمية بامور منكرة منها ان المطلق بالثلاث في كلمة واحدة لا تلزمه الا طليقة واحدة ومنها المسافر الذي ينوي بسفره زيارة القبر الشريف زاده الله طيبا لا يقصر الصلاة وسوى ذلك مما يشبهه وبعث العقدا الى الملك الناصر فامر بسجن ابن تيمية بالقلعة فسجن بها حتى مات في السجن

— ذكر مدارس دمشق —

اعلم أن للشافعية بدمشق جملة من المدارس أعظمها العادلية وبها يحكم قاضي القضاة وتقابلها المدرسة النظارية وبها قبر الملك الظاهر وبها جلوس نواب القاضي ومن نوابه نحر الدين التبطي كان والده من كتاب القبط وأسلم ومنهم جمال الدين بن جملة وقد تولى قضاء قضاة الشافعية بعد ذلك وعزل لأمير أو جب عزله

— حكاية —

كان بدمشق الشيخ الصالح ظهير الدين العجمي وكان سيف الدين تنكيز ملك الامراء يقتله و يعظمه فحضر يوما بدار العدل عنده ملك الامراء وحضر القضاة الاربعة فحكي قاضي القضاة جمال الدين بن جملة حكاية فقال له ظهير الدين كذبت فانف القاضي من ذاك وامتنع له فقال للامير كيف يكذبني بحضرتك فقال له الامير احكم عليه وسلمه اليه وظنه أنه يرضي بذلك فلا يناله بسوء فاحضره القاضي بالمدرسة العادلية وضر به مائتي سوط وطيف به على حمار في مدينة دمشق ومنادينادى عليه فتى فرغ من ندائه ضربه على ظهره ضربة وهكذا العادة عندهم فبلغ ذلك ملك الامراء فانكره أشد الانكار وأحضر القضاة والفقهاء فاجمعوا على خطأ القاضي وحكمه بغير مذهبه فان التعزير عند الشافعي لا يبلغ به الحد وقال قاضي القضاة المالكية شرف الدين قد حكمت بتفسيره فكتب الى الملك الناصر بذلك فعزله وللاحنفية مدارس كثيرة وأكبرها مدرسة السلطان نور الدين وبها يحكم قاضي القضاة الحنفية وللمالكية بدمشق ثلاث مدارس احداها الصمصامية وبها سكن قاضي القضاة المالكية وقعوده لاحكام والمدرسة النورية عمرها السلطان نور الدين محمود بن زنكي والمدرسة الشراشبية عمرها شهاب الدين الشراشبي التاجر وللحنابلة مدارس كثيرة أعظمها المدرسة النجمية

— ذكر أبواب دمشق —

ولمدينة دمشق ثمانية أبواب منها باب الفرديس ومنها باب الجابية ومنها الباب الصغير
وفيما بين هذين البابين مقبرة فيها العدد الجهم من الصحابة والشهداء فمن بعدهم قال محمد بن جزي
لقد أحسن بعض المتأخرين من أهل دمشق في قوله (رجز)

دمشق في أوصافها * جنة خلد راضيه
أما ترى أبوابها * قد جعلت ثمانية
— ذكر بعض المشاهد والمزارات بها —

فمنها بالمقبرة التي بين البابين باب الجابية والباب الصغير قبر أم حبيبة بنت أبي سفيان
أم المؤمنين وقبر أخيها أمير المؤمنين معاوية وقبر بلال مؤذن رسول الله صلى الله عليه وسلم
ورضى الله عنهم أجمعين وقبر أويس القرني وقبر كعب الاحبار رضى الله عنهما ووجدت
في كتاب المعلم في شرح صحيح مسلم للقرطبي ان جماعة من الصحابة صحبهم أويس القرني
من المدينة الى الشام وتوفي في أثناء الطريق في بركة لا عمارة فيها ولا ماء فتحيروا في أمره فنزلوا
فوجدوا حنوطا وكفنا وماء فمجبوا من ذلك وغسلوه وكنفوه وصلوا عليه ودفنوه ثم ركبوا
فقال بعضهم كيف نترك قبره بغير علامة فعادوا للموضع فلم يجدوا للقبور من أثر قال ابن جزي
ويقال ان أويسا قتل بصفين مع علي عليه السلام وهو الاصح ان شاء الله وبلى باب الجابية باب
شرقي عنده جنازة فيها قبر أبي كعب صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وفيها
قبر العابد الصالح أرسلان المعروف بالباز الاشهب

— حكاية في سبب تسميته بذلك —

يحكى أن الشيخ الوالي أحمد الرقاعي رضى الله عنه كان مسكنه بام عبيدة بمرقة من
مدينة واسط وكانت بين والي الله تعالى أبي مدين شعيب بن الحسين وبينه مؤاخاة ومراسلة
ويقال ان كل واحد منهما كان يسلم على صاحبه صباحاً ومساءً فيرد عليه الآخر وكانت
للشيخ أحمد نخیلات عند زاويته فلما كان في إحدى السنين جدها على عادته وترك عذقا
منها وقال هذا برسم أخي شعيب فحج الشيخ أبو مدين تلك السنة واجتمعوا بالموقف الكريم
بعرفة ومع الشيخ أحمد خديمه أرسلان فتفاوضا الكلام وحكى الشيخ حكاية العذق فقال
له أرسلان عن امرئك يا سيدي آتية به فاذن له فذهب من حينه وانه به ووضع بين
أيديهم ما فاخبر اهل الزاوية انهم رأوا عشيقة يوم عرفة باز الاشهب قد انقض على النخلة فقطع
ذلك العذق وذهب به في الهواء وبغربي دمشق جبانة تعرف بقبور الشهداء فيها اقربا بني الدرداء
وزوجة ام الدرداء وقبر فضالة بن عبيد وقبر وائلة بن الاسقع وقبر سهل بن حنظلة من

الذين بايعوا تحت الشجرة رضى الله عنهم اجمعين وبقرية تعرف بالمنيحة شرقي دمشق وعلى اربعة اميال منها قبر سعد بن عباد رضى الله عنه وعليه مسجد صغير حسن البناء وعلى رأسه حجر فيه مكتوب هذا قبر سعد بن عباد رأس الخزرج صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما وبقرية قبلي البلد وعلى فرسخ منها مشهد ام كلثوم بنت علي بن ابي طالب من فاطمة عليهم السلام ويقال ان اسمها زينب وكنياها النبي صلى الله عليه وسلم ام كلثوم لشبهها بالخاله ام كلثوم بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وعليه مسجد كريم وحوله مساكن وله اوقاف ويسميه اهل دمشق قبر الست ام كلثوم وقبر آخر يقال انه قبر سكينه بنت الحسين بن علي عليه السلام وبجامع النيرب من قرى دمشق في بيت بشريه قبر يقال انه قبر ام مريم عليها السلام وبقرية تعرف بداريا غربي البلد وعلى اربعة اميال منها قبر ابي مسلم الخولاني وقبر ابي سليمان الداراني رضى الله عنهما ومن مشاهد دمشق الشهيرة البركة مسجد الأقدام وهو في قبلي دمشق على ميلين منها على قارعة الطريق الأعظم الآخذ الى الحجاز الشريف والبيت المقدس وديار مصر وهو مسجد عظيم كثير البركة وله اوقاف كثيرة ويعظمه اهل دمشق تعظيما شديدا وأول الأقدام التي ينسب اليها هي اقدام مصورة في حجر هنالك يقال انها اثر قدم موسى عليه السلام وفي هذا المسجد بيت صغير فيه حجر مكتوب عليه كان بعض الصالحين يرى المصطفى صلى الله عليه وسلم في النوم فيقول له ها معنا قبر اخي موسى عليه السلام وبمقربة من هذا المسجد على الطريق موضع يعرف بالكثيب الاحمر وبمقربة من بيت المقدس وأريحاء موضع يعرف بالكثيب الاحمر تعظمه اليهود

— حكاية —

شاهدت ايام الطاعون الاعظم بدمشق في اواخر شهر ربيع الثاني سنة تسع واربعين من تعظيم اهل دمشق لهذا المسجد ما يعجب منه وهو ان ملك الامراء نائب السلطان ارغون شاه أمر مناديا ينادي بدمشق ان يصوم الناس ثلاثة أيام ولا يطبخ أحد بالسوق ما يؤكل نهارا واكثر الناس بها انما يأكلون الطعام الذي يصنع بالسوق فصام الناس ثلاثة أيام متوالية كان آخرها يوم الخميس — ثم اجتمع الامراء والشرفاء والفقهاء وسائر الطبقات على اختلافها في الجامع حتى غص بهم وباتوا ليلة الجمعة بهما بين مصل وذاكر وداع — ثم صلوا الصبح وخرجوا جميعا على اقدامهم وبايديهم المصاحف والامراء حفاة وخرج جميع اهل البلد ذكورا واناثا صغارا وكبارا وخرج اليهود بتوراتهم والنصارى بانجيلهم ومعهم النساء والولدان وجميعهم باكون متضرعون متوسلون الى الله بكتبته وأنبيائه

وقصدوا مسجد الاقدام وأقاموا به في تضرعهم ودعائهم الى قرب الزوال وعادوا الى البلد
فصلوا الجمعة وخفف الله تعالى عنهم ما انتهى عدد الموتى الى ألفين في اليوم الواحد وقد
انتهى عددهم بالقاهرة ومصر الى أربعة وعشرين ألفاً في يوم واحد وبالباب الشرقي من
دمشق منارة بيضاء يقال انها التي ينزل عيسى عليه السلام عندها حسبما ورد في صحيح مسلم
— ذكر أرباض دمشق —

وتدور بدمشق من جهاتها ما عدا الشرقية أرباض فسيحة الساحات ودواخلها املح من
داخل دمشق لاجل الضيق الذي في سككها وبالجهة الشمالية منهار بض الصالحية وهي
مدينة عظيمه لها سوق لا نظير لحسنه وفيها مسجد جامع ومارستان وبها مدرسة تعرف
بمدرسة ابن عمر موقوفه على من أراد أن يتعلم القرآن الكريم من الشيوخ والكهول
وتجربى لهم ولأن يعلمهم كفايتهم من الماء كل والملابس وبداخل البلد أيضاً مدرسة مثل
هذه تعرف بمدرسة ابن منجا وأهل الصالحية كلهم على مذهب الامام أحمد بن حنبل
رضي الله عنه — ذكر قاسيون ومشاهده المباركة —

وقاسيون جبل في شمال دمشق والصالحية في سفحه وهو شهر البركة لانه مصعد الانبياء
عليهم السلام ومن مشاهده الكريمة الغار الذي ولد فيه ابراهيم الخليل عليه السلام وهو
غار مستطيل ضيق عليه مسجد كبير وله صومعة عالية ومن ذاك الغار رأي الكوكب
والقمر والشمس حسبما ورد في الكتاب العزيز وفي ظهر الغار مقامه الذي كان يخرج
اليه وقد رأيت ببلاد العراق قرية تعرف ببرص (بضم الباء الموحدة وآخرها صاد مهملة)
ما بين الحلة وبغداد يقال ان مولداً ابراهيم عليه السلام كان بها وهي بمقربة من بلد ذي الكفل
عليه السلام وبها قبره ومن مشاهده باغرب منه مغارة الدم وفوقها بالجبل دم هابيل بن
آدم عليه السلام وقد أتى الله منه في الحجارة أثراً محمراً وهو الموضع الذي قتله أخوه به
واجتره الى المغارة وبذلك ان تلك المغارة صلى فيها ابراهيم وموسى وعيسى وأيوب ولوط
صلى الله عليهم أجمعين وعليها مسجد متقن البناء يصعد اليه على درج وفيه بيوت ومرافق
للسكنى ويفتح في كل يوم اثنين وخميس والشمع والسررج توقد في المغارة ومنها كهف
بأعلى الجبل ينسب لآدم عليه السلام وعليه بناء وأسفل منه مغارة تعرف بمغارة الجوع
يذكر انه آوى اليها سبعون من الانبياء عليهم السلام وكان عندهم رغيف فلم يزل يدور
عليهم وكل منهم يؤثر صاحبه به حتى ماتوا جميعاً صلى الله عليهم وعلى هذه المغارة مسجد
مبني والسررج توقد به ليلاً ونهاراً ولكل مسجد من هذه المساجد أوقاف كثيرة معينة

وبذكران فيما بين باب القراديس وجامع قاسيون مدفن سبعائة نبي وبعضهم يقول سبعين ألفا وخارج المدينة المقبرة العتيقة وهي مدفن الانبياء والصالحين وفي طرفها ممسا يلي البساتين أرض منخفضة غلب عليها الماء يقال انها مدفن سبعين نبيا وقد عادت قرارا للماء ونزعت من ان يدفن فيها أحد

— ذكر الربوة والقرى التي تواليها —

وفي آخر جبل قاسيون الربوة المباركة المذكورة في كتاب الله ذات القرار والمعين وماوى المسيح عيسى وأمه عليهما السلام وهي من اجمل مناظر الدنيا ومتنزهاتها وبها القصور المشيدة والمباني الشريفة والبساتين البديعة والمأوى المبارك دفاعة صغيرة في وسطها كالبيت الصغير وازاءها بيت يقال انه مصلي الخضر عليه السلام يبادر الناس الى الصلاة فيها وللمأوى باب حديد صغير والمسجد يدور به وله شوارع دائرية وسقاية حسنة ينزل لها الماء من علو وينصب في شاذروان في الجدار يتصل بحوض من رخام ويقع فيه الماء ولا نظير له في الحسن وغرابة الشكل وقرب ذاك مظاهر للوضوء يجري فيها الماء وهذه الربوة المباركة هي رأس بساتين دمشق وبها منابع مياهها وينقسم الماء الخارج منها على سبعة انهار كل نهر آخذ في جهة ويعرف ذلك الموضع بالمقاسم وأكبر هذه الانهار النهر المسمى بتورة وهو يشق تحت الربوة وقد نحت له مجري في الحجر الصلد كالغار الكبير وبما انعمس ذوا الجسارة من العوامين في النهر من اعلى الربوة واندفع في الماء حتي يشق مجراه ويخرج من أسفل الربوة وهي مخاطرة عظيمة وهذه الربوة تشرف على البساتين الدائرة بالبلد ولها من الحسن واتساع مسرح الابصار ما ليس لسواها وتلك الانهار السبعة تذهب في طرق شتى فتتجار الاعين في حسن اجتماعها وافتراقها واندفاعها وانصبابها وجمال الربوة وحسنها التام أعظم من ان يحيط به الوصف ولها الاوقاف الكثيرة من المزارع والبساتين والرماع تقام منها وظائفها للامام والمؤذن والصادر والوارد وبأسفل الربوة قرية النيرب وقد تكاثرت بساتينها وتكاثفت ظلالها وتداننت اشجارها فلا يظهر من بنائها الا ما سما ارتفاعه ولها حمام مليح ولها جامع بديع مفروش صحنه بفصوص الرخام وفيه سقاية ماء رائنة الحسن ومطهرة فيها بيوت عدة يجري فيها الماء وفي الغالب من هذه القرية المزة وتعرف بمزة كلب نسبة الى قبيلة كلب بن وبرة بن ثعلب ابن حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة وكانت اقطاء لهم واليها ينسب الامام حافظ الدنيا جمال الدين يوسف بن الزكي السكبي المزي وكثير سواه من العلماء وهي من اعظم

قرى دمشق بها جامع كبير عجيب وسقاية معينة وأكثر قرى دمشق فيها الحمامات والمساجد الجامعة والاسواق وسكانها كأهل الحاضرة في مناحيهم وفي شرقي البلد قرية تعرف ببית الالهية وكانت فيها كنيسة يقال ان أزركان ينحجب فيها الا صنم فيكسر ها الخليل عليه السلام وهي الآن مسجد جامع يدعى مزين بفصوص الرخام الملونة المنظمة بالعجب نظام وأزين التثام — ذكر الاوقاف بدمشق وبعض فضائل أهلها وعوائدهم —

والاوقاف بدمشق لا تحصر أنواعها ومصارفها لكثرتها فمنها أوقاف على العاجزين عن الحج يعطى لمن يحج عن الرجل منهم كفايته ومنها أوقاف على تجهيز البناب الى أزواجهن وهي اللواتي لا قدرة لاهلن على تجهيزهن ومنها أوقاف لفكك الأسارى ومنها أوقاف لأبناء السبيل يعطون منها ما ياكلون ويلبسون ويتزودون لبلادهم ومنها أوقاف على تعديل الطريق ورصفها لان أزقة دمشق لكل واحد منها رصيفان في جنبيه يمر عليهم! المترجلون ويمر الركبان بين ذلك ومنها أوقاف لسوى ذلك من أفعال الخير

— حكاية —

مررت يوما ببعض أزقة دمشق فرأيت به مملوكا صغيرا قد سقطت من يده صحيفة من الفخار الصيني وهم يسمونها الصحن فتكسرت واجتمع عليه الناس فقال له بعضهم اجمع شقفها واحملها معك لصاحب أوقاف الاواني فجمعها وذهب الرجل معه اليه فراه ياها فدفع له ما اشترى به مثل ذلك الصحن وهذا من أحسن الاعمال فان سيد الغلام لا بد له أن يضربه على كسر الصحن أو ينهره وهو أيضا ينكسر قلبه ويتغير لاجل ذلك فكان هذا الوقف جبوا للقلوب جزى الله خيرا من تسامت همته في الخير الى مثل هذا وأهل دمشق يتنافسون في عمارة المساجد والزوايا والمدارس والمشاهد وهم يحسنون الطن بالمغاربة ويطمئنون اليهم بالاموال والاهلين والاولاد وكل من انقطع بجهة من جهات دمشق لا بد أن يتأني له وجهه من المعاش من امانة مسجد أو قراءة بمدرسة أو ملازمة مسجد يحى اليه فيه رزقه أو قراءة القرآن أو خدمة مشهد من المشاهد المباركة أو يكون كجملة الصوفية بالخوانق تجرى له النفقة والكسوة فمن كان بها غريبا على خير لم يزل مصونا عن بذل وجهه محفو ظا عما يزرى بالمروءة ومن كان من اهل المهنة والخدمة فله أسباب أخر من حراسة بستان أو أمانة طاحونة أو كفالة صبيان يغدو معهم الى التعليم ويروح رمن أراد طلب العلم او التفرغ للعبادة وجد الاعانة التامة على ذلك ومن فضائل أهل دمشق أنه لا يفطر أحد منهم في ليالى رمضان وحده البتة فمن كان من الامراء والضمّة

والكبراء فانه يدعو أصحابه والفقراء يفطرون عنده ومن كان من التجار وكبار السوق صنع مثل ذلك ومن كان من الضعفاء والبادية فانهم يجتمعون كل ليلة في دار أحدهم أوفى مسجد ويأتى كل أحد بما عنده فيفطرون جميعا ولما وردت دمشق وقعت بيني وبين نور الدين السخاوي مدرس المالكية صحبة فرغب مني ان أفطر عنده في ليالي رمضان فعضرت عنده أربع ليالي ثم اصابني الحمى فغبت عنه فبعث في طلبي فاعتذرت بالمرض فلم يسعني عذرا فرجعت اليه وبت عنده فلما اردت الانصراف بالغد منعني من ذلك وقال لي احسب داري كأنها دارك أودار أبيك أو أخيك وأمر باحضار طبيب وان يصنع لي بداره كل ما يشتهيهِ الطبيب من دواء أو غذاء وأقمت كذلك عنده الى يوم العيد وحضرت المصلي وشفاني الله تعالى بمصاصيبي وقد كان ما عندي من النفقة نفد فعلم بذلك فاكثري لي جمالا وأعطاني الزاد وسواه وزادني دراهم وقال لي تكون لماعسى ان يعتريك من امرهم جزاه الله خيرا وكان بدمشق فاضل من كتاب الملك الناصر يسمي عماد الدين القيصراني من عاداته انه متى سمع ان مغربيا وصل الى دمشق يبحث عنه وأضافه وأحسن اليه فان عرف منه الدين والفضل امره بملازمته وكان يلزمه منهم جماعة وعلى هذه الطريقة ايضا كاتب السر الفاضل علاء الدين بن غانم وجماعة غيره وكان بها قاضل من كبرائها وهو الصاحب عز الدين القلانسي له مآثر ومكارم وفضائل وإيثار وهو ذو مال عريض وذكروا ان الملك الناصر لما قدم دمشق أضافه وجميع أهل دولته ومما ليكه وخواصه ثلاثة أيام فسماه اذ ذاك بالصاحب ومما يؤثر من فضائلهم ان أحد ملوكهم السالفين لما نزل به الموت أوصى ان يدفن بقبلة الجامع المكرم ويخفى قبره وعين أوقافا عظيمة لقراء يقرأون سبعا من القرآن الكريم في كل يوم إثر صلاة الصبح بالجهة الشرقية من مقصورة الصحابة رضى الله عنهم حيث قبره فصارت قراءة القرآن على قبره لا تنقطع أبدا ونقى ذلك الرسم الجميل بعده مخلدا ومن عادة أهل دمشق وسائر تلك البلاد انهم يخرجون بعد صلاة العصر من يوم عرفة فيقفون بصحون المساجد كبيت المقدس وجامع بني أمية وسواها ويقف بهم أنتمهم كاشفي رؤسهم داعين خاضعين خاشعين ملتزمين البركة ويتوخون الساعة التي يقف فيها وقد الله تعالى وحجاج بيته بعرفات ولا يزالون في خضوع وودعاء وابتهاال وتوسل الى الله تعالى بحجاج بيته الى ان تغيب الشمس فينفرون كما ينفرا الحاج باكين على ما حرموه من ذلك الموقف الشريف بعرفات داعين الى الله تعالى ان يوصلهم اليه -اولا يخيبهم من بركة القبول فيما فعلوه ولهم أيضا في اتباع الجنائز رتبة عجيبة وذلك انهم يمشون

امام الجنائز والقراء يقرؤون القرآن بالأصوات الحسنة والتلاخين المبكية التي تكاد النفوس تطير لها رقة وهم يصلون على الجنائز بالمسجد الجامع قبالة المقصورة فإن كان الميت من أئمة الجامع أو مؤذنيه أو خدامه أدخلوه بالقراءة إلى موضع الصلاة عليه وإن كان من سواهم قطعوا القراءة عند باب المسجد وأدخلوا الجنائز وبعضهم يجتمع له بالبلاط الغربي من الصحن بمقربة من باب البريد فيجلسون وامامهم ربعات القرآن يقرؤون فيها ويرفعون أصواتهم بالنداء لكل من يصل للعزاء من كبار البلدة وأعيانها ويقولون بسم الله فلان الدين من كمال وجمال وشمس وبدر وغير ذلك فإذا أتموا القراءة قام المؤذنون فيقولون افتكروا واعتبروا أصلا تحم على فلان الرجل الصالح العالم ويصفونه بصفات من الخير ثم يصلون عليه ويذهبون به إلى مدفنه ولاهل الهندرتبة عجيبة في الجنائز أيضا زائدة على ذلك وهي أنهم يجتمعون بروضة الميت صبيحة الثالث من دفنه وتفرش الروضة بالثياب الرفيعة ويكسي القبر بالاكسية الفاخرة وتوضع حوله الرياحين من الورد والندرين والياسمين وذلك النوار لا ينقطع عندهم ويأتون بأشجار الليمون والأترج ويجعلون فيها حبوبها إن لم تكن فيها ويجعل صيوان يظلل الناس نحوه ويأتي القضاة والامراء ومن يماثلهم فيقعدون ويقابلهم القراء ويؤتى بالربعات الكرام فيأخذ كل واحد منهم جزءا فإذا تمت القراءة من القراء بالأصوات الحسان يدعو القاضي ويقوم قائما ويخطب خطبة معدة لذلك ويذكر فيها الميت ويرثيه بآيات شعرويد كرا قاربه ويعزيم عنه ويذكر السلطان داعياله وعند ذكر السلطان يقوم الناس ويخطون رؤسهم إلى سمت الجهة التي بها السلطان ثم يقعد القاضي ويأتون بماء الورد فيصب على الناس صببا يبدأ بالقاضي ثم من يليه كذلك إلى أن يعم الناس أجمعين ثم يؤتى بأواني السكر وهو الجلاب محلولا بالماء فيسقون الناس منه ويبدؤون بالقاضي ومن يليه ثم يؤتى بالتنبول وهم يعظمونه ويكرمونه من يأتي لهم به فإذا أعطى السلطان أحدا منه فهو أعظم من إعطاء الذهب والخلع وأدامات الميت لم يأكل أهله التنبول إلا في ذلك اليوم فيأخذ القاضي أو من يقوم مقامه أوراقا منه فيعطيها لولي الميت فيأكلها وينصرفون حينئذ وسيأتي ذكر التنبول إن شاء الله تعالى

— ذكر سماعي بدمشق ومن أجازني من أهلها —

سمعت بحمام بني أمية عمره الله بذكره جميع صحيح الامام أبي عبد الله محمد بن اسمعيل الجعفي للبخاري رضي الله عنه على الشيخ المعمر رحلة الآفاق ملحق الاصاغر بالا كابر شهاب الدين احمد بن أبي طالب بن أبي النعم بن حسن بن علي بن بيان الدين

مقريء الصالحى المعروف بابن الشحنة الحجازى فى أربعة عشر مجلسا أولها يوم الثلاثاء
منتصف شهر رمضان المعظم سنة ست وعشرين وسبعمائة وآخرها يوم الاثنين الثامن
والعشرين منه بقراءة الامام الحافظ مؤرخ الشام علم الدين أبى محمد القاسم بن محمد بن
يوسف البرزالى الاشبلى الاصل الدمشقى فى جماعة كبيرة كتب أسماءهم محمد بن طغرل
ابن عبد الله بن الغزال الصيرفى بسماح الشيخ أبى العباس الحجازى لجميع الكتاب من الشيخ
الامام سراج الدين أبى عبد الله الحسين بن أبى بكر المبارك بن محمد بن يحيى بن على بن
المسيح بن عمران الربيعى البغدادى الزيدى الحنبلى فى أواخر شوال وأوائل ذى القعدة
من سنة ثلاثين وستمائة بالجامع المظفرى بسفح جبل قاسيون ظاهر دمشق وباجازته فى
جميع الكتاب من الشيخين أبى الحسن محمد بن أحمد بن عمر بن الحسين بن الخلف
القطيعى المؤرخ وعلى بن أبى بكر بن عبد الله بن روبة القلانسى العطار البغدادى ومن
باب غير النساء ووجدتهن الى آخر الكتاب من أبى المنجا عبد الله بن عمر بن على بن
زيد بن اللقى الخزاعى البغدادى بسماح أربعتهم من الشيخ سديد الدين أبى الوقت عبد
الاول بن عيسى بن شعيب بن ابراهيم السجزي الهروى الصوفى فى سنة ثلاث وخمسين
وخمسائة ببغداد قال اخبرنا الامام جمال الاسلام أبو الحسن عبد الرحمن بن محمد بن المظفر
ابن محمد بن داود بن أحمد بن معاذ بن سهل بن الحكم الدوادى قراءة عليه وأنا أسمع
ببوشنج سنة خمس وستين وأربعمائة قال اخبرنا أبو محمد عبد الله بن أحمد بن حوية بن
يوسف بن أيمن السرخسى قراءة عليه وأنا أسمع فى صفر سنة احدى وثمانين وثلاثمائة
قال اخبرنا عبد الله محمد بن يوسف بن مطرب بن صالح بن بشر بن ابراهيم الفربرى قراءة
عليه وأنا أسمع سنة ست عشرة وثلاثمائة بفريق قال اخبرنا الامام أبو عبد الله محمد بن
اسماعيل البخارى رضى الله عنه سنة ثمان وأربعين ومائتين بفريق ومرة ثانية بعدها سنة
ثلاث وخمسين وممن أجازنى من أهل دمشق اجازة عامة الشيخ أبو العباس الحجازى
المذكور سبق الى ذلك وتلفظ لى به - ومنهم الشيخ الامام شهاب الدين أحمد بن عبد الله
ابن أحمد بن محمد المقدسى ومولده فى ربيع الاول سنة ثلاث وخمسين وستمائة - ومنهم
الشيخ الامام الصالح عبد الرحمن بن محمد بن أحمد بن عبد الرحمن التجدى - ومنهم امام
الأئمة جمال الدين أبو الحاسن يوسف بن الزكى عبد الرحمن بن يوسف المزنى الكلى
حافظ . الحفاظ ومنهم الشيخ الامام علاء الدين على بن يوسف بن محمد بن عبد الله
انشافى والشيخ الامام الشريف محيى الدين يحيى بن محمد بن على العلوى . ومنهم الشيخ

الامام المحدث محمد الدين القاسم بن عبد الله بن أبي عبد الله بن المعلي الدمشقي ومولده سنة أربع وخمسين وستمائة . ومنهم الشيخ الامام العالم شهاب الدين أحمد بن ابراهيم بن فلاح بن محمد الاسكندر . ومنهم الشيخ الامام ولي الله تعالى شمس الدين بن عبد الله ابن تمام والشيخان الاخوان شمس الدين محمد وكال الدين عبد الله ابنا ابراهيم بن عبد الله بن أبي عمر المقدسي والشيخ العابد شمس الدين محمد بن أبي الزهراء بن سالم الهكاري . والشيخة الصالحة أم محمد عائشة بنت محمد بن مسلم بن سلامة الحراني . والشيخة الصالحة رحمة الدنيا زينب بنت كال الدين أحمد بن عبد الرحيم بن عبد الواحد بن أحمد المقدسي كل هؤلاء أجازني إجازة عامة في سنة ست وعشرين بدمشق ولما استهل شوال من السنة المذكورة خرج الراكب الحجازي الى خارج دمشق ونزلوا القرية المعروفة بالكسوة فاخذت في الحركة معهم وكان أمير الراكب سيف الدين الجوبان من كبار الامراء وقاضيه شرف الدين الاندلسي الحوراني وحج في ملك السنة مدرس المالكية صدر الدين الغماري وكان سفرى مع طائفة من العرب تدعي العجارمة أميرهم محمد بن رافع كبير المدر في الامراء وارتحلنا من الكسوة الى قرية تعرف بالصنمين عظيمة ثم ارتحلنا منها الى بلدة زرعة وهي صغيرة من بلاد حوران نزلنا بالقرب منها ثم ارتحلنا الى مدينة بصرى وهي صغيرة ومن عادة الراكب ان يقيم بها اربع ليال حتى يقيم من تخلف بدمشق لفضاء ما ربه الى بصرى وصل رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل البعث في تجارة خديجة وبها مبرك نافته قد بني عليه مسجد عظيم ويجتمع أهل حوران لهذه المدينة ويتزودا الحاج منها ثم يرحلون الى بركة زيرة (زيرا) ويقيمون عليها يومان ثم يرحلون الى اللجون وبها الماء الجاري ثم يرحلون الى حصن الكرك وهو من اعجب الحصون وأمنعها وأشهرها ويسمى بحصن الغراب والوادي يطيف به من جميع جهاته وله باب واحد قد نحت المدخل اليه في الحجر الصلد ومدخل دهليزه كذلك وبهذا الحصن يتحصن الملوك واليه يلجؤون في النوائب وله لجا الملك الناصر لانه ولي الملك وهو صغير السن فاستولى على التدبير مملوكه سلالر النائب عنه فظهر الملك الناصر انه يريد الحج ووافقه الامراء على ذلك فتوجه الى الحج فلما وصل عتبة أيلة لجا الى الحصن وأقام به اعواما الى ان قصده امراء الشام واجتمعت عليه الممالك وكان قد ولى الملك في تلك المدة بيبرس الششنكيري وهو أمير الطعام وتسمى بالملك المظفر وهو الذي بني الخانقاه البيبرسية بمقربة من خانقاة سعيد السعداء التي بناها صلاح الدين بن أيوب فقصده الملك الناصر بالعساكر ففر بيبرس الى الصحراء فتبعته العساكر وقبض عليه وأتي به الى الملك الناصر

قامر بقتله فقتل وقبض على سلا وحبس في جب حتى مات جوعا ويقال انه اكل جيفة من الجوع نعوذ بالله من ذلك واقام الركب بخارج الكرك أربعة أيام بموضع يقال له الثانية وتجهزوا لدخول البرية. ثم ارتحلنا الى معان وهو آخر بلاد الشام ونزلنا من عقبة الصوان الى الصحراء التي يقال فيها داخلها مفتود وخارجها مولود وبعد مسيرة يومين نزلنا ذات حرج وهي حسيان لا عمارة بها. ثم الى وادي بلدح ولأما به. ثم الى تبوك وهو الموضع الذي غزاه رسول الله صلى الله عليه وسلم وفيها عين ماء كانت تبض بشيء من الماء فلما نزلها رسول الله صلى الله عليه وسلم وتوضأ منها جادت بالماء المعين ولم يزل الى هذا العهد ببركة رسول الله صلى الله عليه وسلم. ومن عادة حجاج الشام اذا وصلوا منزل تبوك أخذوا اسلحتهم وجردوا سيوفهم وحملوا على المنزل وضربوا النخيل بسيوفهم ويقولون هكذا دخلها رسول الله صلى الله عليه وسلم وينزل الركب العظيم على هذه العين فيروي منها جميعهم ويقسمون أربعة أيام للراحة وإرواء الجمال واستعداد الماء للبرية المخوفة التي بين العلا وتبوك ومن عادة السقائين انهم ينزلون على جوانب هذه العين ولهم أحواض مصنوعة من جلود الجواميس كالصهاريج الضخام يسقون منها الجمال ويملؤون الروايا والقرب ولكل امير او كبير حوض يسقى منه جماله وجمال اصحابه ويملأ رواياهم وسواهم من الناس يتفق مع السقائين على سقى جماله وملء قربته بشيء معلوم من الدراهم ثم يرحل الركب من تبوك ويجدون السير ليلا ونهارا خوفا من هذه البرية وفي وسطها الوادي الاخضر كانه وادي جهنم اعادنا الله منها واصاب الحجاج به في بعض السنين مشقة بسبب ريح السموم التي نهب فانتشفت المياه وانتهت شربة الماء الى ألف دينار ومات مشتريها وبائعها وكتب ذلك في بعض صخر الوادي ومن هنالك ينزلون بركة المعظم وهي ضخمة نسبتها الى الملك المعظم من اولاد ايوب ويجتمع بها ماء المطر في بعض السنين وربما جف في بعضها وفي الخامس من ايام رحيلهم عن تبوك يصلون الى بئر الحجر حجر ثمود وهي كثيرة الماء ولكن لا يردها احد من الناس مع شدة عطشهم اقتداء بفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم حين مر بها في غزوة تبوك فاسرع براجلته وامر ان لا يسقى منها احد ومن عجن به اطعمه الجمال وهنالك دبار ثمود في جبال من الصخر الاحمر منحوتة لها عتب منقوشة يظن رائيها انها حديث الصنعة وعظامهم نخرة في داخل تلك البيوت ان في ذلك لعبرة ومبرك ناقة صالح عليه السلام بين جبليين هنالك وبينهما اثر مسجد يصلى الناس فيه وبين الحجر والعلا نصف يوم أو دونه والعلا قرية كبيرة حسنة لها بساتين

النخل والمياه المعينة يقيم بها الحجاج أربعا يتزودون و يغسلون ثيابهم ويدعون بها ما يكون عندهم من فضل زادو يستصحبون قدر الكفاية وأهل هذه القرية أصحاب أمانة واليها ينتهي تجار نصارى الشام لا يتعدونها و يبايعون الحجاج بها الزاد وسواه ثم يرحل الركب من العلا فينزلون في غدر حيلهم الوادي المعروف بالعطاس وهو شديد الحر تهب فيه السموم المهلكة هبت بعض السنين على الركب فلم يخلص منهم الا اليسير وتعرف تلك السنة سنة الامير الجاثي ومنه ينزلون هدية وهي حسيان ماء واد يحفرون به فيخرج الماء وهو زعاق وفي اليوم الثالث ينزلون بظاهر البلد المقدس الكريم الشريف

— طيبة مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم وشرف وكرم —

وفي عشي ذلك اليوم دخلنا الحرم الشريف وانتهينا الى المسجد الكريم فوقفنا بباب السلام مسلمين وصلينا بالروضة الكريمة بين القبر والمنبر الكريم واستلمنا القطعة الباقية من الجذع الذي حن الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهي ملصقة بعمود قائم بين القبر والمنبر عن يمين مستقبل القبلة وأدينا حق السلام على سيد الاولين والآخرين وشفيع العصاة والمذنبين الرسول النبي الهاشمي الاطحي محمد صلى الله عليه وسلم تسليما وشرف وكرم وحق السلام على ضجيعيه وصاحبيه أبي بكر الصديق وأبي حفص عمر الفاروق رضى الله عنهما وانصرفنا الى رحلنا مسرورين بهذه النعمة العظمى مستبشرين بنيل هذه المنة الكبرى حامدين الله تعالى على البلوغ الى معاهد رسوله الشريفة ومشاهدة العظيمة المنيفة داعين أن لا يجعل ذلك آخر عهدنا بها وان يجعلنا ممن قبلت زيارته وكتبت في سبيل الله سفرته

— ذكر مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وروضته الشريفة —

المسجد المعظم مستطيل تحفه من جهاته الاربع بلاطات دائرية ووسطه صحن مفروش بالحصى والرمل ويدور بالمسجد الشريف شارع مبسط بالحجر المنحوت والروضة المقدسة صلوات الله وسلامه على ساكنها في الجهة القبليّة مما يلي الشرق من المسجد الكريم وشكلها عجيب لا يتأتى تمثيله رمى مدورة بالرخام البديع النحت الرائق النعت قدعلاها تضميخ المسك والطيب مع طول الازمان وفي الصفحة القبليّة منها مسارفضة هوقباله الوجه الكريم وهنالك يقف الناس للسلام مستقبليين الوجه الكريم مستديرين القبلة فيسلمون وينصرفون يمينا الى وجه أبي بكر الصديق ورأس أبي بكر رضى الله عنه عند قدمي رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم ينصرفون الى عمر بن الخطاب ورأس عمر عند كفي أبي بكر رضى الله عنهما وفي

الجوفى من الروضة المقدسة رآها الله طيباً حوض صغير مرخم في قبلته شكل محراب يقال
لأنه كان بيت فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليماً ويقال أيضاً هو قبرها والله
أعلم وفي وسط المسجد الكريم دفنة مطبقة على وجه الأرض مقفلة على سرداب له درج
يفضى إلى دار أبي بكر رضى الله عنه خارج المسجد وعلى ذلك السرداب كان طريق بنته
عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها إلى داره ولا شك أنه هو الخوخة التي ورد ذكرها في
الحديث وأمر النبي صلى الله عليه وسلم تسليماً بابقائها وسد ما سواها وباراء دار أبي بكر
رضى الله عنه دار عمر ودار ابنه عبد الله بن عمر رضى الله عنهما وبشرقي المسجد الكريم
دار إمام المدينة أبي عبد الله مالك بن أنس رضى الله عنه وبمقربة من باب السلام سقاية
ينزل إليها على درج ماؤها معين وتعرف بالعين الزرقاء

— ذكر ابتداء بناء المسجد الكريم —

قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليماً المدينة الشريفة دار الهجرة يوم الاثنين
الثالث عشر من شهر ربيع الأول فنزل على بنى عمرو بن عوف وأقام عندهم ثنتين وعشرين
ليلة وقيل أربع عشرة ليلة وقيل أربع ليال ثم توجه إلى المدينة فنزل على بني النجار بدار
أبي أيوب الأنصاري رضى الله عنه وأقام عنده سبعة أشهر حتى بني مساكنة ومسجده
وكان موضع المسجد مر بد السهل وسهيل أنبي رافع بن أبي عمر بن عائد بن ثعلبة بن
غانم بن مالك بن النجار وهما يمان في حجر أسعد بن زرارة رضى الله عنهم أجمعين وقيل
كانا في حجر أبي أيوب رضى الله عنه فابتاع رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليماً ذلك
المربد وقيل بل أرضاهما أبو أيوب عنه وقيل أنهما وهبا لرسول الله صلى الله عليه وسلم
تسليماً فبنى رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليماً المسجد وعمل فيه مع أصحابه وجعل عليه
حائطا ولم يجعل له سقفا ولا أساطين وجعله مر بعاطول مائة ذراع وعرضه مثل ذلك
وقيل إن عرضه كان دون ذلك وجعل ارتفاع حائطه قدر المائة فلما اشتد الحر تكلم
أصحابه في تسقيفه فأقام له أساطين من جذوع النخل وجعل سقفه من جريدتها فلما
أمطرت السماء وكف المسجد فكلم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليماً رسول
الله صلى الله عليه وسلم في عمله بالطين فقال كلا عريش كعريش موسى أو ظلة كظلة
موسى والامر أقرب من ذلك قيل وما ظلة موسى قال صلى الله عليه وسلم كان إذا قام
أصاب السقف رأسه وجعل للمسجد ثلاثة أبواب ثم سد الجنوبي منها حين حوالت القبلة
وفي المسجد على ذلك حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليماً وحياة أبي بكر رضى الله

عنه فلما كانت أيام عمر بن الخطاب رضى الله عنه زاد في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما وقال لولا اني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما يقول ينبغى ان يزيد في المسجد ما زدت فيه فانزل أساطين الخشب وجعل مكانها أساطين اللبن وجعل الاساس حجارة الى القامة وجعل الابواب ستة منها في كل جهة ماعدا القبلة بابان وقال في باب منها ينبغى ان يترك هذا للنساء فاريء فيه حتى اتى الله عز وجل وقال لوزدنا في هذا المسجد حتى يبلغ الجبانة لم يزل مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأراد عمر ان يدخل في المسجد موضعا للعباس عم رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما ورضي عنهما فمنعه منه وكان فيه ميزان يصب في المسجد فنزعه عمر وقال انه يؤذى الناس فنأزعه العباس وحكما بينهما أبي بن كعب رضى الله عنهما فاتياداره فلم ياذن لهما الا بعد ساعة ثم دخلا اليه فقال كانت جاريتي تغسل رأسى فذهب عمر ليتكلم فقال له ابي دع أبا الفضل يتكلم لمكانه من رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما فقال العباس خطبة خطبها الى رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما وبنيتها معه وما وضعت الميزاب الا ورجلاى على عاتق رسول الله صلى الله عليه وسلم فجاء عمر فطرحه وأراد ادخالها في المسجد فقال أبي ان عنسدي من هذا علما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما يقول أراد داود عليه السلام أن يبني بيت الله المقدس وكان فيه بيت ليتيمين فراودها على البيع فابيا ثم رادها فباعاه ثم قاما بالغين فرد البيع واشتراه منهما ثم رداه كذلك فاستعظم داود الثمن فاوحى الله اليه ان كنت تعطى من شىء هلك فانت أعلم وان كنت تعطيهما من رزقنا فاعطيهما حتى يرصيا وان أغنى البيوت عن مظلمة بيت هولى وقد حرمت عليك بناءه قال يارب فاعطه سلیمان فاعطاه سلیمان عليه السلام فقال عمر من لى باز رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما قاله فخرج أبي الى قوم من الانصار فاثبتوا له ذلك فقال عمر رضى الله عنه أما اني لو لم أجد غيرك أخذت قولك ولكنى احببت ان اثبت . ثم قال للعباس رضى الله عنه والله لا ترد الميزاب الا وقد مالك على عاتقى ففعل العباس ذلك . ثم قال أما إذا أثبتت لى فهى صدقة لله فهدمها عمر وأدخلها في المسجد . ثم زاد فيه عثمان رضى الله عنه وبناءه بقوة وباشره بنفسه فكان يظل فيه نهارد ويبيضه وأنقن محله بالحجارة المنقوشة ووسعه من جهاته الاجهة الشرق منها وجعل له سوارى حجارة مثبثة باعمدة الحديد والرصاص وسقفه بالساج وصنع له محرابا وقيل ان مروان هو أول من بني المحراب وقيل عمر بن عبدالعزيز فى خلافة الوليد — ثم زاد فيه الوليد بن عبد الملك تولى ذلك عمر بن عبدالعزيز فوسعه

وحسنه وبالع في اتقانه وعمله بالرخام والساج المذهب وكان الوليد بعث الى ملك الروم اني
أريد ان ابني مسجد نبينا صلى الله عليه وسلم تسليما فاعنى فيه فبعث اليه الفعلة وتما نين الف
مئقال من الذهب وأمر الوليد بادخال حجر أزواج النبي صلى الله عليه وسلم تسليما فيه
فاشترى عمر من الدور ما زاده في ثلاث جهات من المسجد فلما صار الى القبلة امتنع عبيد الله
ابن عبد الله بن عمر من بيع دار حفصة وطال بينهما الكلام حتي ابتاعها عمر على أن لهم ما بقى
منها وعلى أن يخرجوا من باقيها طريقا الى المسجد وهي الخوخة التي في المسجد وجعل
عمر للمسجد اربع صوامع في أربعة أركانه وكانت إحداها مظلة على دار مروان فلما
حج سليمان بن عبد الملك نزل بها فاطل عليه المؤذن حين الاذان فامر بهدمها وجعل
عمر المسجد محرابا ويقال هو من أحدث المحراب . ثم زاد في المهدي بن ابي جعفر
المنصور وكان ابوهم بذلك ولم يقض له وكتب اليه الحسن بن زيد يرغبه في الزيارة
فيه من جهة الشرق ويقول انه إن زيد في شرقيه توسطت الروضة الكريمة المسجد الكريم
فاتهمه ابو جعفر بانه انما اراد هدم دار عثمان رضي الله عنه فكتب اليه اني قد عرفت
الذي اردت فاكفف عن دار عثمان وامر ابو جعفر ان يظل الصحن ايام القيظ
بستور تنشر على حبال ممدودة على خشب تكون في الصحن لتكن المصلين من الحر
وكان طول المسجد في بناء الوليد مائتي ذراع فبلغه المهدي الى ثلاثمائة ذراع وسوى
المقصورة بالارض وكانت مرتفعة عنها بمقدار ذراعين وكتب اسمه على مواضع من المسجد
ثم امر الملك المنصور قلاوون ببناء دار للوضوء عند باب السلام فتولى بناءها الامير
الصالح علاء الدين المعروف بالاقمر واقامها متسعة الفناء تستدير بها البيوت واجرى اليها
الماء واراد ان يبني بمكة شرفها الله تعالى مثل ذلك فلم يتم له فبناه ابنه الملك الناصر بين
الضفا والمروة وسيد كر ان شاء الله وبقلة مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما
بقلة قطع لانه صلى الله عليه وسلم تسليما اقامها وقيل اقامها جبريل عليه السلام وقيل كان
يشير جبريل له الى سمتها وهو يقيمها وروى ان جبريل عليه السلام اشار الى الجبال
فتواضعت فتنحت حتي بدت الكعبة فكان صلى الله عليه وسلم تسليما يبني وهو ينظر اليها
عيانا وبكل اعتبار فهي بقلة قطع وكانت القبلة أول ورود النبي صلى الله عليه وسلم تسليما
المدينة الى بيت المقدس ثم حوت الى الكعبة بعد ستة عشر شهرا و قيل بعد سبعة عشر شهرا

— ذكر المنبر الكريم —

وفي الحديث ان رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما كان ينحط الى جذع نخلة

بالمسجد فلما صنع له المنبر وتحول اليه حن الجند حنين الباقية الى حوارها وروي ان رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما نزل اليه فالتزمه فسكن وقال لو لم ألتزمه لحن الى يوم القيامة واختلفت الروايات فيمن صنع المنبر الكريم فروى ان تيمما الداري رضي الله عنه هو الذي صنعه وقيل ان غلاما للعباس رضي الله عنه صنعه وقيل غلام لامرأة من الانصار وورد ذلك في الحديث الصحيح وصنع من طرفاء الغابة وقيل من الائل وكان له ثلاث درجات فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتعد على علياهن ويضع رجله الكريمة في وسطاهن فلما ولي أبو بكر الصديق رضي الله عنه قعد علي وسطاهن وجعل رجله على أولاهن فلما ولي عمر رضي الله عنه جلس على أولاهن وجعل رجله على الأرض وفعل ذلك عثمان رضي الله عنه صدر من خلافته ثم ترقى الى الثالثة ولما ان صار الامر الى معاوية رضي الله عنه أراد نقل المنبر الى الشام فضج المسلمون وعصفت ريح شديدة وخسفت الشمس وبدت النجوم نهارا وأظلمت الأرض فكان الرجل يصادم الرجل ولا يتبين مسلك فلما رأى ذلك معاوية تركه وزاد فيه ست درجات من أسفله فبلغ تسع درجات

— ذكر الخطيب والامام بمسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم —

وكان الامام بالمسجد الشريف في عهد دخولى الى المدينة بهاء الدين بن سلامة من كبار أهل مصر وينوب عنه العالم الصالح الزاهد بغية المشايخ عز الدين الواسطي نفع الله به وكان يخطب قبله وبقضى بالمدينة الشريفة سراج الدين عمر المصري — حكاية — يذكر ان سراج الدين هذا أقام في خطة القضاء بالمدينة والخطابة بها نحو أربعين سنة ثم انه أراد الخروج بعد ذلك الى مصر فرأى رسول الله صلى الله عليه وسلم في النوم ثلاث مرات في كل مرة ينهيه عن الخروج منها وأخبره باقتراب أجله فلم ينته عن ذلك وخرج فمات بموضع يقال له سويس على مسيرة ثلاث من مصر قبل ان يصل اليها فعوذ بالله من سوء الخاتمة وكان ينوب عنه الفقيه ابو عبد الله محمد بن فرحون رحمه الله وأبناؤه الآن بالمدينة الشريفة ابو محمد عبد الله مدرس المالكية ونائب الحكم وأبو عبد الله محمد وأصلهم من مدينة تونس ولهم بها حسب واصالة وتولى الخطابة والقضاء بالمدينة الشريفة بعد ذلك جمال الدين الاسيوطي من أهل مصر وكان قبل ذلك قاضيا بحصن الكرك

— ذكر خدام المسجد الشريف والمؤذنين به —

وخدام هذا المسجد الشريف وسدنته فتیان من الاحابيش وسواهم وهم على هياتته

حسان وصور نظاف وملا بس ظراف وكبير هم يعرف بشيخ الخدام وهو في هيئة الامراء الكبار ولهم المرتبات بديار مصر والشام ويؤتي اليهم بها في كل سنة ورئيس المؤذنين بالحرم الشريف الامام المحدث الفاضل جمال الدين المطري من مطرية قرية بمصر وولده الفاضل عفيف الدين عبد الله والشيخ المجاور الصالح أبو عبد الله محمد بن محمد الغرناطي المعروف بالتراس قديم المجاورة وهو الذي جب نفسه خوفا من الفتنة — حكاية —

يذكران أبا عبد الله الغرناطي كان خديما لشيخ يسمى عبد الحميد العجمي وكان الشيخ حسن الطن به يطمئن اليه باهله وماله ويتركه متى سافر بداره فسافر مرة وتركه على عادته بمنزله فعلمت به زوجة الشيخ عبد الحميد وراودته عن نفسه فقال اني أخاف الله ولا أخزن من ائتمني على أهله وماله فلم تزل تراوده وتعارضه حتي خاف علي نفسه الفتنة فجب نفسه وغشي عليه ووجدته الناس على تلك الحالة فعالجوه حتي برى وصار من خدام المسجد الكريم ومؤذنيه ورأس الطائفتين وهو باق بقيد الحياة الى هذا العهد — ذكر المجاورين بالمدينة الشريفة —

منهم الشيخ الصالح الفاضل أبو العباس أحمد بن محمد مرزوق كثير العبادة والصوم والصلاة بمسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما صابرا محتسبا وكان رجا مجاور بمكة المعظمة رأيت بها في سنة ثمان وعشرين وهو كثير الناس طوافا كنت اعجب من ملازمته الطواف مع شدة الحر بالمطاف والمطاف ففروش بالحجارة السود وتصير بحر الشمس كأنها الصفائح المحماة ولقد رأيت السقائين يصبون الماء عليهما فلما يجاوزا الموضع الذي يصب فيه الا ويلتهب الموضع من حينه واكثر الطائفتين في ذلك الوقت يلبسون الجوارب وكان أبو العباس بن مرزوق يطرف حافي القدمين ورأيت يوما يطوف فاحبت ان أطوف معه فوصلت المطاف وأردت استلام الحجر الاسود فلحقني لهب تلك الحجارة وارتد الرجوع بعد تقبيل الحجر فمارصلته الا بعد جهد عظيم ورجعت فلم أطف وكنت أجعل يجادى على الارض وأمشي عليه حتى بلغت الرواق وكان في ذلك العهد بمكة وزير غرناطة وكبيرها أبو الفاسم محمد بن محمد بن الفقيه أبي الحسن سهل بن مالك الأزدي وكان يطوف كل يوم سبعين أسبوعا ولم يكن يطوف في وقت الفائلة لشدة الحر وكان ابن مرزوق يطوف في شدة القائلة زيادة عليه. ومن المجاورين بالمدينة كرمها الله الشيخ الصالح العابد سعيد المراكشي الكفيف. ومنهم الشيخ أبو مهدي عيسى بن حزون المكناسي — حكاية — جاور الشيخ أبو مهدي بمكة سنة ثمان وعشرين وخرج الى جبل حراء مع جماعة

من الجاورين فلما صعدوا الجبل ووصلوا لمتعبد النبي صلى الله عليه وسلم تسليما ونزلوا عنه
تاخر أبو مهدي عن الجماعة ورأى طريقا في الجبل فظنه قاصرا فسلك عليه ووصل
أصحابه الى أسفل الجبل فانتظروه فلم يأت فتطلعوا فيما حولهم فلم يروا له أثرا وظنوا أنه
سبقهم فمضوا الى مكة شرفها الله تعالى ومر عيسى علي طريقه فافضي به الى جبل آخر
وتاه عن الطريق وأجهده العطش والحر وتمزقت نعله فكان يقطع من ثيابه ويلف على
رجليه الى ان ضعف عن المشي واستظل بشجرة ام غيلان فبعث الله اعرابيا على جمل
حتى وقف عليه فاعلمه بحاله فاركبه وواصله الى مكة وكان على وسطه هميان فيه ذهب
فسلمه اليه واقام نحو شهر لا يستطيع القيام على قدميه وذهبت جلدتهما ونبتت لهما جلدة
أخري وقد جرى مثل ذلك لصاحب لي اذ كره ان شاء الله. ومن الجاورين بالمدينة الشريفة
أبو محمد الشروي من القراء الحسنيين وجاور بمكة في السنة المذكورة وكان يقرأ بها كتاب
الشفاء للقاضي عياض بعد صلاة الظهر وأمى التراويح بها ومن الجاورين الفقيه أبو العباس
القاسي مدرس المالكية بها وتزوج بنت الشيخ الصالح شهاب الدين الزرندى - حكاية -
يذكر ان أبا العباس القاسي تكلم يوما مع بعض الناس فأنهى به الكلام الى ان تكلم
بعظيمة ارتكب فيها بسبب جهله بعلم النسب وعدم حفظه للسانه مركبا صعبا عفا الله عنه
فقال ان الحسين بن علي بن أبي طالب عليهم السلام لم يعقب فبلغ كلامه الى أمير المدينة طفيل
ابن منصور بن جهم الحسني فانكر كلامه وبحق انكاره واراد قتله فحكم فيه فنفاه عن
المدينة ويزكر انه بعث من اغتاله والى الآن لم يظهر له أثر وهو ذاب الله من عثرات اللسان وزلله
— ذكر أمير المدينة الشريفة —

كان أمير المدينة كيش بن منصور بن جهم وكان قد قتل عمه مقبلا و يقال انه توضحاً
يدمه ثم ان كيشا خرج سنة سبع وعشرين الى الفلاة في شدة الحر ومعه أصحابا به فادر كتهم
القائلة في بعض الايام فتفرقوا تحت ظلال الاشجار فمراهم الا وابتداء مقبل في جماعة من
عبيدهم ينادون يا لثارات مقبل فقتلوا كيش بن منصور صبوا ولعنوا دمه وتولى بعده
أخوه طفيل بن منصور الذي ذكرنا أنه نفى أبا العباس القاسي

— ذكر بعض المشاهد الكريمة بخارج المدينة الشريفة —

فمنها بقيع الغرقد وهو شرقي المدينة المكرمة ويخرج اليه على باب يعرف بباب البقيع فاول
ما يلقي الخارج اليه على يساره عند خروجه من الباب قبر صفية بنت عبد المطلب رضى الله
عنها وهى عمه رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما وام الزبير بن العوام رضى الله عنه

وامامها قبر امام المدينة أبي عبد الله مالك بن انس رضى الله عنه وعليه قبة صغيرة مختصرة البناء وامامه قبر السلالة الطاهرة المقدسة النبوية الكريمة ابراهيم بن رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما وعليه قبة بيضاء وعن يمينها تربة عبد الرحمن بن عمر بن الخطاب رضى الله عنهما وهو المعروف بابي شحمة وبازائه قبر عقيل بن ابي طالب رضى الله عنه وقبر عبد الله بن ذى الجناحين جعفر بن أبي طالب رضى الله عنهما وبازائهم روضة يذكرون قبور أمهات المؤمنين بهار رضى الله عنهن ويليهما روضة فيها قبر العباس بن عبد المطلب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقبر الحسن بن علي بن أبي طالب عليهم السلام وهي قبة ذاهبة في الهواء بدعة الاحكام عن يمين الخارج من باب البقيع ورأس الحسن الى رجلى العباس عليهما السلام وقبراها مرتفعان عن الارض متسعان مغشيان بالواح بدعة الا لصاق مرصعة بصنفايح الصفر البديعة العمل وبالبقيع قبور المهاجرين والانصار وسائر الصحابة رضى الله عنهم الا انها لا يعرف أكثرها وفي آخر البقيع قبر أمير المؤمنين أبي عمر عثمان بن عفان رضى الله عنه وعليه قبة كبيرة وعلى مقربة منه قبر فاطمة بنت اسد بن هاشم ام علي بن ابي طالب رضى الله عنها وعن ابنها ومن المشاهد الكريمة قباء وهو قبلى المدينة على نحو ميلين منها والطريق بينهما فى حدائق الدخل وبه المسجد الذى اسس على التقوى والرضوان وهو مسجد مربع فيه صومعة بيضاء طويلة تطهر على البعدوى وسطه مبرك الناقية بالنبي صلى الله عليه وسلم تسليما يتبرك الناس بالصلاة فيه وفي الجهة القبالية من صحنه محراب على مسطبة هو اول موضع ركع فيه النبي صلى الله عليه وسلم تسليما وفي قبلى المسجد دار كانت لابي أيوب الا نصاري رضى الله عنه ويليهما دور تنسب لابي بكر وعمر وفاطمة وعائشة رضى الله عنهم وبازائه سراريس وهي التي عاد مأواها عذابا لما تفل فيه النبي صلى الله عليه وسلم تسليما بعد أن كان أجاجا وفيها وقع الخاتم الكريم من عثمان رضى الله عنه ومن المشاهد قبة حجر الزيت بخارج المدينة الشريفة يقال إن الزيت رشح من حجر هناك للنبي صلى الله عليه وسلم تسليما. والى جهة الشمال منه بئر بضاعة. وبازائها جبل الشيطان حيث صرخ يوم أحد وقال قتل نبيكم وعلى شفير الخندق الذى حفره رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما عند تحزب الاحزاب حصن خرب يعرف بحصن العزاب يقال ان عمر بناه لعزاب المدينة وامامه الى جهة الغرب بئر رومة التي اشترى أمير المؤمنين عثمان رضى الله عنه نصفها بعشرين الفا ومن المشاهد الكريمة أحد وهو الجبل المبارك الذي قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما إن أحدا جبل يحبنا ونحبه وهو مجوار

المدينة الشريفة على نحو فرسخ منها وبازائه الشهداء المكرهون رضى الله عنهم وهنالك قبر حمزة عم رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليماً ورضى الله عنه وحوله الشهداء المستشهدون في أحد رضى الله عنهم وقبورهم لقبلى أحد وفي طريق أحد مسجد ينسب لعلى بن أبى طالب رضى الله عنه ومسجد ينسب الى سلمان الفارسي رضى الله عنه ومسجد الفتح حيث أنزلت سورة الفتح على رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليماً وكانت اقامتنا بالمدينة الشريفة في هذه الوجهة أربعة أيام وفي كل ليلة نبيت بالمسجد الكريم والناس قد حلقوا في صحن حلقاً وأوقدوا الشمع الكثير وبينهم ربعات القرآن الكريم يتلونهم وبعضهم يذكر الله وبعضهم في مشاهدة التربة الطاهرة زادها الله طيباً والحدادة بكل جانب يترنمون بمدح رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليماً وهكذا دأب الناس في تلك الليالي المباركة ويجودون بالصدقات الكثيره على المجاورين والمحتاجين وكان في صحبتي في هذه الوجهة من الشام الى المدينة الشريفة رجل من أهلها فاضل يعرف بمنصور بن شكل واضافني لها واجتمعنا بعد ذلك بحاب وبخارى وكان في صحبتي أيضاً قاضى الزيدية شرف الدين قاسم بن سنان وصحبي أيضاً أحد الصالحاء الفقراء من أهل غرناطة يسمى على ابن حجر الاموى

— حكاية —

لما وصلنا الى المدينة كرمها الله على ساكنها أفضل الصلاة وأزكى السلام ذكر لي على بن حجر المذكور انه رأى ملك الليلة في النوم قائلاً يقول له اسمع مني واحفظ عني (طويل)

هنيئاً لكم يا زائرين ضريحه * أمتم به يوم المعاد من الرجس

وصلتم الى قبر الحبيب بطيبة * فطوبى لمن يضحى بطيبة أو يمسي

وجاور هذا الرجل بعد صحبه بالمدينة ثم رحل الى مدينة دهلي قاعدة بلاد الهند في سنة ثلاث وأربعين فنزل في جوارى وذكرت حكاية رؤياه بين يدي ملك الهند قاهر باحضاره فحضر بين يديه وحكى له ذلك فاعجبه واستحسنه وقال له كلاماً جميلاً بالفارسية وأمر بانزله وأعطاه ثلاثمائة تنكة من ذهب ووزن التنكة من دنانير المغرب ديناران ونصف دينار وأعطاه فرساً على المرج واللام والخلعة وعين له مرتباً في كل يوم وكان هنالك فقيه طيب من أهل غرناطة ومولده ببجاية يعرف هنالك ببجبال الدين المغربي فصحبه على بن حجر المذكور وواعده على أن يزوجه بنته وأنزله بدويرة خارج داره واشترى جارية وغلاماً وكان يترك الدنانير في مفرش ثيابه ولا يطمئن بها لاحد فاتفق الغلام والجارية على أخذ ذلك الذهب وأخذاه وهربا فلما اتى الدار لم يجد لها أثراً ولا

للذهب فامتنع من الطعام والشراب واشتد به المرض أسفا على ماجرى عليه فعرضت قضيتها بين يدي الملك فامر أن يخلف له ذلك فبعث ذلك اليه من يعلمه بذلك فوجده قد مات رحما الله تعالى وكان رحيلنا من المدينة نريد مكة شرفها الله تعالى فنزلنا بقرب مسجد ذي الخليفة الذي أحرم منه رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما وبالمدينة منه على خمسة أميال وهو منتهى حرم المدينة وباقرب منه وادي العتيق وهنالك تجردت من مخيط الثياب واغتسلت وليست ثوب احرامى وصليت ركعتين واحرمت بالحج مفرداً ولم أزل مليا في كل سهل وجبل وصعود وحنود والى أن أتيت شعب على عليه السلام وبه نزلت تلك الليلة - ثم رحلنا منه ونزلنا بالروحاء وبها برت تعرف بثمرات العلم ويقال ان عليا عليه السلام قاتل بها الجن - ثم رحلنا ونزلنا بالصفراء وهو واد معمر فيه ماء ونخل وبنيان وقصر يسكنه الشرفاء الحسنيون وسواهم وفيها حصن كبير وتواليه حصون كثيرة وقرى متصلة - ثم رحلنا منه ونزلنا ببدر حيث نصر الله رسوله صلى الله عليه وسلم تسليما وأجز وعده الكريم واستاصل صناديد المشركين وهي قرية فيها حدائق نخل متصلة وبها حصن منيع يدخل اليه من بطن وادي بن جبان وبدر عين فوارة جرى ماؤها وموضع القلب الذي سحب به أعداء الله المشركون هو اليوم بستان وموضع الشهداء رضى الله عنهم خلفه وجبل الرحمة الذي نزلت به الملائكة على يسار الداخل منه الى الصفراء وبازائه جبل الطبول وهو شبه كثيب الرمل ممتد ويزعم أهل تلك البلدة انهم يسمعون هنالك مثل أصوات الطبول في كل ليلة جمعة وموضع عريش رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي كان به يوم بدر ينشدر به جل وتعالى متصل بسفح جبل الطبول وموضع الوقعة امامه وعند نخل القلب مسجد يقال له مبارك ناقة النبي صلى الله عليه وسلم تسليما وبين بدر والصفراء نحو بر يدي وادي بن جبال تطرد فيه العيون وتتصل حدائق النخل ورحلنا من بدر الى الصفراء المعروفة بقاع البراء وهي قرية يضل بها الدليل . ويذهل عن خليله الخليل . مسيرة ثلاث وفي منتهى وادي رابغ يتكون فيه بالمطر غدران يتي بها الماء زمانا طويلا ومنه يحرم حجاج مصر والمغرب وهو دون الجحفة وسرنا من رابغ ثلاثا الى خليص ومررنا بعقبة السويق وهي على مسافة نصف يوم من خليص كثيرة الرمل والحجاج يقصدون شرب السويق بها ويستصحبونه من مصر والشام برسم ذلك ويسقونه الناس مخلط بالسكر والامراء يملؤون منه الاحواض ويسقونها الناس ويذكرون رسول الله صلى الله عليه وسلم مر بها ولم يكن مع اصحابه طعام فاخذ من رملها فاعطاهم اياه فشر به

سوي قائم نزلنا بركة خليص وهي في بسيط من الارض كثيرة حدائق النخل لها حصن مشيد في قنة جبل وفي البسيط حصن خرب و بها عين فوارة قد صنعت لها أخايد في الارض وسربت الى الضياع وصاحب خليص شريف حسنى النسب وعرب تلك الناحية يقيمون هنالك سوقا عظيمة يجلبون اليها الغنم والتمر والادام ثم رحلنا الى عسفان وهي في بسيط من الارض بين جبال وبها آبار ماء معين تنسب احداها الى عثمان بن عفان رضى الله عنه والمدرج المنسوب الى عثمان أيضا على مسافة نصف يوم من خليص وهو مضيق بين جبلين وفي موضع منه بلاط على صورة درج واثر عمارة قديمة وهنالك بئر تنسب الى على عليه السلام ويقال انه احدها وبسفان حصن عتيق وبرج مشيد قد اوهنه الخراب وبه من شجر المقل كثير ثم رحلنا من عسفان ونزلنا بطن مرو يسمى ايضا مر الظهران وهو واد مخصب كثير النخل ذو عين فوارة سيالة تسقى تلك الناحية ومن هذا الوادي تجلب الفواكه والخضر الى مكة شرفها الله تعالى ثم اذلجنا من هذا الوادي المبارك والنفوس مستبشرة ببلوغ آمالها مسرورة بحالها وما لها فوصلنا عند الصباح الى البلد الايمن مكة شرفها الله تعالى فوردنا منها على حرم الله تعالى ومبواخل خليله ابراهيم ومبعث صفيه محمد صلى الله عليه وسلم ودخلنا البيت الحرام الشريف الذي من دخله كان آمنا من باب بنى شيبة وشاهدنا الكعبة الشريفة زادها الله تعظيما وهي كالعروس تجلى على منصة الجلال وترفل في برود الجمال محفوفة بوفود الرحمان موصلة الى جنة الرضوان وطفنا بها طواف القدوم واستلمنا الحجر الكريم وصلينا ركعتين بمقام ابراهيم وتعلقنا باستار الكعبة عند المنزلة بين الباب والحجر الاسود حيث يستجاب الدعاء وشربنا من ماء زمزم وهو لما شرب له حسبا ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم تسليما ثم سعيننا بين الصفا والمروة ونزلنا هنالك بدار بمقربة من باب ابراهيم والحمد لله الذي شرفنا بالوفادة على هذا البيت الكريم وجعلنا ممن بلغته دعوة الخليل عليه الصلاة والسلام وامتع أعيننا بمشاهدة الكعبة الشريفة والمسجد العظيم والحجر الكريم وزمزم والحطيم ومن عجائب صنع الله تعالى انه طبع القلوب على النزوع الى هذه المشاهد المنيفة والشوق الى المثلول بمعاهدها الشريفة وجعل حبها متمكنا في القلوب فلا يحاها أحد الا أخذت بمجامع قلبه ولا يفارقها الا أسفا لفراقها متولها لبعاده عنها شديد الحنين اليها ناويا لتكرار الوفاة عليها فارضها المباركة نصب الاعين ومحبتها حشو القلوب حكمة من الله بالغة وتصديق الدعوة خليله عليه السلام والشوق يحضرها وهي نائبة ويمثلها وهي غائبة ويهون على قاصدها ما يلقاه من المشاق

ويعانيه من العناء وكمن من ضعيف يرى الموت عينا نادونها ويشاهد التلف في طريقها فإذا جمع الله بها شمله تلقاها مسرورا مستبشرا كأنه لم يذق لها مرارة ولا كابد محنة ولا نصباً انه لا مر إلهي وصنع رباني ودلالة لا يشوبها لبس ولا تغشاها شبهة ولا يطرقتها تمويه وتعزفي بصيرة المستبصرين وتبدو في فكرة المتفكرين ومن رزقه الله تعالى الحلول بتلك الأرجاء والمثول بذلك الفناء فقد انعم الله عليه النعمة الكبرى وخوله خير الدارين الدنيا والاخرة فحق عليه ان يكثر الشكر على ما خوله ويدبم الحمد على ما أولاه جعلنا الله تعالى ممن قبلت زيارته وربحت في قصدها تجارتها وكتبت في سبيل الله آثاره ومحيت بالقبول أوزاره بمنه وكرمه

— ذكر مدينة مكة المعظمة —

وهي مدينة كبيرة متصلة البنيان مستطيلة في بطن واد تحف به الجبال فلا يراها قاصدها حتي يصل اليها وتلك الجبال المطلة عليها ليست بمفرطة الشموخ والاخشبان من جبالها هاجبل أبي قيس وهو في جهة الجنوب منها وجبل قعيقعان وهو في جهة منها وفي الشمال منها الجبل الاحمر ومن جهة أبي قيس أجساد الاكبر وأجساد الاصغر وهما شعبان والخدمه وهي جبل وستذكر (والمناسك كلها مني وعرفة والمزدلفة) بشرقي مكة شرفها الله ولمكة من الابواب ثلاثة باب المعلى باعلاها وباب الشبيكة من أسفلها ويعرف ايضا بباب الزاهر وباب العمرة وهو الى جهة المغرب وعليه طريق المدينة الشريفة ومصر والشام وجدة ومنه يتوجه الى التنعيم وسيد كر ذلك وباب المسفل وهو من جهة الجنوب ومنه دخل خالد بن الوليد رضي الله عنه يوم الفتح ومكة شرفها الله كما اخبر الله في كتابه العزيز حاكيا عن نبيه الخليل بواد غير ذي زرع ولكن سبق لها الدعوة المباركة فكل طريقة تجلب اليها وثمرات كل شيء تجبي لها ولقد اكلت بها من الفواكه العنب والتين والخوخ والرطب مالا نظيره في الدنيا وكذلك البطيخ الجلوب اليها لا يماثله سواه طيبا وحلاوة واللحوم بها سمان لذيزات الطعوم وكل ما يفترق في البلاد من السلع فيها اجتماعه وتجلب لها الفواكه والخضر من الطائف ووادي نخلة وبطن مر لطفامن الله بسكان حرمه الامين ومجاوري بيته العتيق

— ذكر المسجد الحرام شرفه الله وكرمه —

والمسجد الحرام في وسط البلد وهو متسع الساحة طوله من شرق الى غرب ازيد من اربعمائة ذراع حكي ذلك الازرق وعرضه يقرب من ذلك والكعبة العظمى في وسطه

ومنظره بديع ومرآه جميل لا يتعاطى اللسان وصف بدائمه ولا يحيط الوصف بحسن كماله وارتفاع حيطانه نحو عشرين ذراعا وسقفه على أعمدة طوال مصطفة ثلاثة صفوف باتقن صناعة وأجملها وقد انتظمت بلاطاته الثلاثة انتظاما عجيبا كأنها بلاط واحد وعدد سواريه الرخامية أربع مائة واحد وتسعون سارية ماعدا الحصية التي في دار الندوة المزیدة في الحرم وهي داخلية في البلاط الآخذ في الشمال ويقابلها المقام مع الركن العراقي وفضاؤها متصل بدخل من هذا البلاط اليه ويتصل بجدار هذا البلاط مساطب تحت قسي حنايا يجلس بها المقرئون والنساخون والخياطون وفي جدار البلاط الذي يقابله مساطب تماثلها وسائر البلاطات تحت جداراتها مساطب بدون حنايا وعند باب ابراهيم مدخل من البلاط الغربي فيه سوارى جصية وللخليفة المهدي محمد بن الخليفة أبي جعفر المنصور رضي الله عنهما آثار كريمة في توسيع المسجد الحرام وإحكام بنائه وفي أعلى جدار البلاط الغربي مكتوب أمر عبد الله محمد المهدي أمير المؤمنين أصاحه الله بتوسعة المسجد الحرام لحاج بيت الله وعمارته في سنة سبع وستين ومائة

— ذكر الكعبة المعظمة الشريفة زادها الله تعظيما وتكريما —

والكعبة ماثلة في وسط المسجد وهي بنية مرتبة ارتفاعها في الهواء من الجهات الثلاث ثمان وعشرون ذراعا ومن الجهة الرابعة التي بين الحجر الاسود والركن اليماني تسع وعشرون ذراعا وعرض صفحتها التي من الركن العراقي الى الحجر الاسود أربعة وخمسون شبرا وكذلك عرض الصفحة التي تقابلها من الركن اليماني الى الركن الشامي وعرض صفحتها التي من الركن العراقي الى الركن الشامي من داخل الحجر ثمانية وأربعون شبرا وكذلك عرض الصفحة التي تقابلها من الركن الشامي الى الركن العراقي وأما خارج الحجر فانه مائة وعشرون شبرا والطواف انما هو خارج الحجر وبنائها بالحجارة الصم السمر قد ألصقت بأبدع الا لصاق وأحكامه وأشهده فلا تغيرها الايام ولا تؤثر فيها الا زمان وباب الكعبة المعظمة في الصفح الذي بين الحجر الاسود والركن العراقي وبينه وبين الحجر الاسود عشرة أشبار وذلك الموضع هو المسمي بالمتزم حيث يستجاب الدعاء وارتفاع الباب عن الارض أحد عشر شبرا ونصف شبر وسعته ثمانية أشبار وطوله ثلاثة عشر شبرا وعرض الحائط الذي ينطوى عليه خمسة أشبار وهو مصفح نصفان الفضة بديع الصنعة وعضاداتاه وعتبته العليا مصفحات بالفضة وله نقارتان كبيرتان من فضة عليهما قفل ويفتح الباب الدكر يمين في كل يوم جمعة بعد الصلاة ويفتح في يوم مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم تسايما ورسمهم في

فتحه ان يضعوا كرسيا شبه المنبر له درج وقوائم خشب لها أربع بكرات يجرى الكرسي عليها ويلصقونه الى جدار الكعبة الشريفة فيكون درجه الاعلى متصلا بالعتبة الكريمة ثم يصعد كبير الشيبين ويده المفتاح الكريم ومعه السدنة فيمسكون الستر المسبل على باب الكعبة المسمي بالبرقع بخلال ما يفتح رئيسهم الباب فاذا فتحه قبل العتبة الشريفة ودخل البيت وحده وسد الباب وأقام قدر ما يركع ركعتين ثم يدخل سائر الشيبين ويسدون الباب أيضا ويركعون ثم يفتح الباب ويبادر الناس بالدخول وفي أثناء ذلك يقفون مستقبلين الباب الكريم باصباح خاشعة وقلوب ضارعة وأيد مبسوطة الى الله تعالى فاذا فتح كبروا ونادوا اللهم افتح لنا أبواب رحمتك ومغفرتك يا أرحم الراحمين وداخل الكعبة الشريفة مفروش بالرخام المجزع وحيطانه كذلك وله أعمدة ثلاثة طوال مفرطة الطول من خشب الساج بين كل عمود منها وبين الآخر أربع خطا وهي متوسطة في الفضاء داخل الكعبة الشريفة يقابل الاوسط منها نصف عرض الصفح الذي بين الركنين العراقي والشامي وستور الكعبة الشريفة من الحرير الاسود مكتوب فيها بالابيض وهي تتلأأ عليها نورا واشراقا وتكسو جميعها من الاعلى الى الارض ومن عجائب الآيات في الكعبة الكريمة ان بابها يفتح والحرم غاص بأثم لا يحصيها الا الله الذي خلقهم ورزقهم فيدخلونها أجمعين ولا تضيق عنهم ومن عجائبها أنها لا تخلو عن طائف أبدا لا يلا ولا نهارا ولم يذكر أحد انه رآها قط دون طائف ومن عجائبها ان حمام مكة على كثرته وسواه من الطير لا ينزل عليها ولا يعلوها في الطيران وتجدها الحمام يطير على أعلى الحرم كله فاذا حاذى الكعبة الشريفة عرج عنها الى احدي الجهات ولم يعلها ويقال انه لا ينزل عليها طائرا الا اذا كان به مرض فاما ان يموت لحينه أو يبرأ من مرضه فسيحان الذي خصها بالتشريف والتكريم وجعل لها المهابة والتعظيم

— ذكر الميزاب المبارك —

والميزاب في أعلى الصفح الذي على الحجر وهو من الذهب وسعته شبر واحد وهو بارز بمقدار ذراعين والموضع الذي تحت الميزاب مظنة استجابة الدعاء وتحت الميزاب في الحجر هو قبر اسماعيل عليه السلام وعليه رخامة خضراء مستطيلة على شكل محراب متصلة برخامة خضراء مستديرة وكلتاها سعتها مقدار شبر ونصف شبر وكلتاها غريبة الشكل رائقة المنظر والى جانبه مما يلي الركن العراقي قبر أمه هاجر عليها السلام وعلامته رخامة خضراء مستدير سعتها مقدار شبر ونصف وبين القبرين سبعة اشبار

— ذكر الحجر الاسود —

وأما الحجر الاسود فارتفاعه عن الارض ستة أشبار فالطول من الناس يتطامن لتقبيله والصغير يتناول اليه وهو ملصق في الركن الذي الى جهة المشرق وسعته ثلثا شبر وطوله شبر وعقد ولا يعلم قدر ما دخل منه في الركن وفيه أربع قطع ملصقة ويقال ان القرمطي لعنه الله كسره وقيل ان الذي كسره سواه ضربه بدبوس فكسره وتبادر الناس الى قتله وقتل بسببه جماعة من المغاربة وجوانب الحجر مشدودة بصفيحة من فضة يلوح بياضها على سواد الحجر الكريم فتجتلي منه العيون حسنا باهرا وتقبيله لذة يتنعم بها القم وبودلائمه أن لا يفارق لثمه خاصية مودعة فيه وعناية ربانية به وكفى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم انه يمين الله في أرضه نفعا الله باستلامه رمصا فتمه واوفد عليه كل شيق اليه وفي القطعة الصحيحة من الحجر الاسود مما يلي جانبه الموالي ليمين مستلمه نقطة بيضاء صغيرة مشرقة كأنها خال في تلك الصحيفة البهية وتري الناس اذا طافوا بها يتساقط بعضهم على بعض ازدحاما على تقبيله فقلما يتمكن أحد من ذلك الا بعد المزاخرة الشديدة وكذلك يصنعون عند دخول البيت الكريم ومن عند الحجر الاسود ابتداء الطواف وهو أول الاركان التي يلقاها الطائف فاذا استلمه تقهقر عنه قليلا وجعل الكعبة الشريفة عن يساره ومضى في طوافه ثم يلقى هذه الركن العراقي وهو الى جهة الشمال ثم ياتي الركن الشامي وهو الى جهة الغرب ثم يلقى الركن اليماني وهو الى جهة الجنوب ثم يعود الى الحجر الاسود وهو الى جهة المشرق — ذكر المقام الكريم —

لأعلم ان بين باب الكعبة شرفها الله وبين الركن العراقي موضعا طوله اثنا عشر شبرا وعرضه نحو النصف من ذلك وارتفاعه نحو شبرين وهو موضع المقام في مدة ابراهيم عليه السلام ثم صرفه النبي صلى الله عليه وسلم الى الموضع الذي هو الآن مصلى وبقي ذلك الموضع شبه الحوض واليه ينصب ماء البيت الكريم اذا غسل وهو موضع مبارك يزدهم الناس للصلاة فيه وموضع المقام الكريم يقابل ما بين الركن العراقي والباب الكريم وهو الى الباب أميل وعليه قبة تحتها شباك حديد متجاف عن المقام الكريم قدر ما تصل أصابع الانسان اذا أدخل يده من ذلك الشباك الى الصندوق والشباك مقفل ومن ورائه موضع محوز قد جعل مصلى لركعتي الطواف وفي الصحيح ان رسول الله صلى الله عليه وسلم تساميا لما دخل المسجد أتى البيت فطاف به سبعا ثم أتى المقام فقرأ واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى وركع خلفه ركعتين وخلف المقام مصلى امام الشافعية في الحطيم الذي هنالك — ذكر الحجر والمطاف —

ودور جدار الحجر تسع وعشرون خطوة وهي أربعة وتسعون شبرا من داخل الدائرة وهو بالرخام البديع المجزع المحكم الا لصاق وارتفاعه خمسة أشبار ونصف شبر وسعته أربعة أشبار ونصف شبر وداخل الحجر بلاط واسع مفروش بالرخام المجزع المنظم المعجز الصنعة البديع الاتقان وبين جدار الكعبة الشريفة الذي تحت الميزاب وبين ما يقابل من جدار الحجر على خط استواء أربعون شبرا وللحجر مدخلان أحدهما بينه وبين الركن العراقي وسعته ستة أذرع وهذا الموضع هو الذي تركته قر يش من البيت حين بنته كما جاءت الآثار الصحاح والمدخل الآخر عند الركن الشامى وسعته أيضاً ستة أذرع وبين المدخلين ثمانية وأربعون شبرا وموضع الطواف مفروش بالحجارة السود محكمة الا لصاق وقد اتسعت عن البيت بمقدار تسع خطا الا في الجهة التي تقابل المقام الكريم فانها امتدت اليه حتى أحاطت به وسائر الحرم مع البلاطات مفروش برمل ابيض وطواف النساء في آخر الحجارة المفروشة — ذكر زمزم المباركة —

وقبة بئر زمزم تقابل الحجر الاسود وبينهما أربع وعشرون خطوة والمقام الكريم عن يمين القبة ومن ركنها اليه عشر خطا وداخل القبة مفروش بالرخام الابيض وتنور البئر المباركة في وسط القبة مائلا الى الجدار المقابل للكعبة الشريفة وهو من الرخام البديع الا لصاق مفروغ الرصاص ودوره أربعون شبرا وارتفاعه أربعة أشبار ونصف شبر وعمق البئر احدى عشرة قامة وهم يذكرون ان ماءها يتزايد في كل ليلة جمعة وباب القبة الى جهة الشرق وقد استدارت بداخل القبة سقاية سعتها شبر وعمقها مثل ذلك وارتفاعها عن الارض نحو خمسة أشبار تملأ ماء للوضوء وحولها مسطبة يقعد الناس عليها للوضوء ويلي قبة زمزم قبة الشراب المنسوبة الى العباس رضي الله عنه وبابها الى جهة الشمال وهي الآن يجعل بها ماء زمزم في قلال يسمونها الدوارق وكل دورق له مقبض واحد وتترك بها ليجرد فيها الماء فيشر به الناس وبها اختزان المصاحف الكريمة والكتب التي للحرم الشريف وبها خزانة تحتوي على تابوت مبسوط متسع فيه مصحف كريم بخط زيد بن ثابت رضي الله عنه منسوخ سنة ثمان عشرة من وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما واهل مكة اذا أصلبهم قحط او شدة اخرجوا هذا المصحف الكريم وفتحوا باب الكعبة الشريفة ووضعوه على العتبة الشريفة ووضعوه في مقام ابراهيم عليه السلام واجتمع الناس كاشفين رؤسهم داعين متضرعين متوسلين بالمصحف العزيز والمقام الكريم فلا ينفصلون الا وقد تداركهم الله برحمته وتغمدهم بلطفه ويلي قبة العباس رضي الله تعالى عنه

على انحراف منها القبة المعروفة بقبة اليهودية

﴿ ذكر أبواب المسجد الحرام وما دار به من المشاهد الشريفة ﴾
وأبواب المسجد الحرام شرفه الله تعالى تسعة عشر باباً وأكثرها مفتحة على أبواب كثيرة فمنها باب الصفا وهو مفتوح على خمسة أبواب وكان قديماً يعرف باب بني مخزوم وهو أكبر أبواب المسجد ومنه يخرج إلى المسمعي ويستحب للوافد على مكة أن يدخل المسجد الحرام شرفه الله من باب بني شيبه ويخرج بعد طوافه من باب الصفا جاعلاً طريقه بين الاسطوانتين اللتين أقامهما أمير المؤمنين المهدي رحمه الله علماً على طريق رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليماً إلى الصفا ومنها باب أجناد الاصغر مفتوح على بابين ومنها باب الخياطين مفتوح على بابين ومنها باب العباس رضي الله عنه مفتوح على ثلاثة أبواب ومنها باب النبي صلى الله عليه وسلم تسليماً مفتوح على بابين ومنها باب بني شيبه وهو في ركن الجدار الشرقي من جهة الشمال أمام باب الكعبة الشريفة متياسراً وهو مفتوح على ثلاثة أبواب وهو باب بني عبد شمس ومنه كان دخول الخلفاء ومنها باب صغير إزاء باب بني شيبه لا اسم له وقيل يسمى باب الرباط لأنه يدخل منه لرباط السدرة ومنها باب الندوة ويسمى بذلك ثلاثة أبواب اثنان منتظمان والثالث في الركن الغربي من دار الندوة ودار الندوة قد جعلت مسجداً شارعاً في الحرم مضافاً إليه وهي تقابل الميزاب ومنها باب صغير لدار العجلة محدث ومنها باب السدرة واحد ومنها باب العمرة واحد وهو من أجل أبواب الحرم ومنها باب إبراهيم واحد والناس مختلفون في نسبته فبعضهم ينسبه إلى إبراهيم الخليل عليه السلام والصحيح أنه منسوب إلى إبراهيم الخوزي من الأعاجم ومنها باب الحزرة مفتوح على بابين ومنها باب أجناد الأكرام مفتوح على بابين ومنها باب ينسب إليه مفتوح على بابين ويتصل لباب الصفا ومن الناس من ينسب إليها من هذه الأربعة المنسوبة لأجناد إلى الدقاقين * وصوامع المسجد الحرام خمس أحدها على ركن أبي قبيس عند باب الصفا والآخرى على ركن باب بني شيبه والثالثة على باب دار الندوة والرابعة على ركن باب السدرة والخامسة على ركن أجناد وبمقربة من باب العمرة مدرسة عمره السلطان المعظم يوسف بن رسول ملك اليمن المعروف بالملك المظفر الذي تنسب إليه الدراهم المظفريّة باليمن وهو كان يكسو الكعبة إلى أن غلبه على ذلك الملك المنصور قلاوون ونحارج باب إبراهيم زاوية كبيرة فيها دار إمام المالكية الصالح أبي عبد الله محمد بن عبد الرحمن المدعو بن خليل وعلى باب إبراهيم قبة عظيمة مفرطة السمو قد صنع في

داخلمن غرائب صنع الجص ما يعجز عنه الوصف وبازاء هذا الباب عن يمين الداخل اليه كان يقعد الشيخ العابد جلال الدين محمد بن احمد الافشهرى وخارج باب ابراهيم يرتسب كندسبته وعنده أيضا دار الشيخ الصالح دانيال العجمي الذي كانت صدقات العراق في أيام السلطان أبي سعيد تاتي علي يديه و بمقر به منه رباط الموفق وهو من أحسن الرباطات سكنته أيام مجاورتي بمكة المعظمة وكان به في ذلك العهد الشيخ الصالح أبو عبد الله الزواوي المغربي وسكن به أيضا الشيخ الصالح الطيار سعادة الجرائي ودخل يوما الى بيته بعد صلاة العصر فوجد ساجدا مستقبلا الكعبة الشريفة ميتا من غير مرض كان به رضي الله عنه وسكن به الشيخ الصالح شمس الدين محمد الشامي نحوا من أربعين سنة وسكن به الشيخ الصالح شعيب المغربي من كبار الصالحين دخلت عليه يوما فلم يقع بصري في بيته على شيء سوى حصير فقلت له في ذلك فقال لي أستر على ما رأيت . وحول الحرم الشريف دور كثيرة لها مناظر وسطوح يخرج منها الى سطح الحرم وأهلها في مشاهدة البيت الشريف على الدوام ودورها أبواب تقضى الى الحرم منها دار زبيدة زوج الرشيد أمير المؤمنين ومنها دار العجلة ودار الشرايبي وسواها ومن المشاهد الكريمة بمقر به من المسجد الحرام قبة الوحي وهي في دار خديجة أم المؤمنين رضى الله عنها بمقر به من باب النبي صلى الله عليه وسلم وفي البيت قبة صغيرة حيث ولدت فاطمة عليها السلام و بمقر به منها دار أبي بكر الصديق رضى الله عنه ويقابلها جدار مبارك فيه حجر مبارك بارز طرفه من الحائط يستلمه الناس ويقال انه كان يسلم على النبي صلى الله عليه وسلم و يذكر أن النبي صلى الله عليه وسلم تساميا جاء يوما الى دار أبي بكر الصديق ولم يكن حاضرا فنادى به النبي صلى الله عليه وسلم تساميا فنطق ذلك الحجر وقال يا رسول الله انه ليس بمحاضر — ذكر الصفا والمروة —

ومن باب الصفا الذي هو أحد أبواب المسجد الحرام الى الصفا ست وسبعون خطوة وسعة الصفا سبع عشرة خطوة وله أربع عشرة درجة عليها من كانها مسطبة وبين الصفا والمروة أربع مائة وثلاث وتسعون خطوة منها من الصفا الى الميل الا خضر ثلاث وتسعون خطوة ومن الميل الا خضر الى الميلين الا خضر خمس وتسعون خطوة ومن الميلين الا خضر الى المروة ثلاث مائة وخمس وعشرون خطوة والمروة خمس درجات وهي ذات قوس واحد كبير وسعة المروة سبع عشرة خطوة والميل الا خضر هو سارية خضراء مثبتة مع ركن الصومعة التي على الركن الشرقي من الحرم عن يسار الساعي الى المروة والميلان الا خضران هما ساريتان خضراوان ازاء باب على من ابواب الحرم أحدهما في جدار الحرم عن يسار

الخارج من الباب والاخرى تقابلها و بين الميل الاخضر والميلين الاخضر بن يكون الرمل ذاهباً وعائداً وبين الصفا والمروة مسيل فيه سوق عظيمة يباع فيها الحبوب واللحم والتمر والسمن وسواها من الفواكه والساعون بين الصفا والمروة لا يكادون يخلصون لزدحام الناس على حوانيت الباعة وليس بمكة سوق منتظمة سوى هذه الالبزازون والعطارون عند باب بني شيبه وبين الصفا والمروة دار العباس رضى الله عنه وهى الآن رباط يسكنه المجاورون عمره الملك الناصر رحمه الله وبني أيضا دار وضوء فيما بين الصفا والمروة سنة ثمان وعشرين وجعل لها بابين أحدهما فى السوق المذكور والاخر فى سوق العطارين وعليها ربيع يسكنه خدامها وتولى بناء ذلك الامير علاء الدين بن هلال وعن يمين المروة دار أمير مكة سيف الدين عطيفة بن أبي ندى وسند كره
— ذكر الجبانة المباركة —

وجبانة مكة خارجة باب المعلى ويعرف ذلك الموضع أيضاً بالحجون وياه عني الحارث ابن مضاض الجرهمي بقوله
— طويل —

كان لم يكن بين الحجون إلى الصفا * أنيس ولم يسمر بمكة سامر
بلى نحن كنا أهلها فأبادنا * صروف الليالى والجدود والعوائر

وبهذه الجبانة مدفون الجم الغفير من الصحابة والتابعين والعلماء والصالحين والاولياء الا أن مشاهدهم دثرت وذهب عن أهل مكة علمها فلا يعرف منها الا القليل فمن المعروف منها قبر أم المؤمنين ووزير سيد المرسلين خديجة بنت خويلد أم أولاد النبي صلى الله عليه وسلم تسليماً كلهم ماعدا ابراهيم وجدة السبطين الكر يمين صلوات الله وسلامه على النبي صلى الله عليه وسلم تسليماً وعائدهم أجمعين وبمقربة منه قبر الخليفة أمير المؤمنين أبي جعفر المنصور وعبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس رضى الله عنهم أجمعين وفيها الموضع الذى صلب فيه عبد الله بن الزبير رضى الله عنهما وكان به بنية هدمها أهل الطائف غيرة منهم لما كان يالحق حجاجهم المبير من اللعن وعن يمين مستقبل الجبانة مسجد خراب يقال انه المسجد الذى بايعت الجن فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليماً وعلى هذه الجبانة طريق الصاعد الى عرقات وطريق الذاهب الى الطائف والى العراق
— ذكر بعض المشاهد خارج مكة —

فمنها الحجون وقد ذكرناه ويقال أيضاً ان الحجون هو الجبل المطل على الجبانة ومنها الحصب وهو أيضاً الا بطح وهو بلى الجبانة المذكورة وفيه خيف بني كنانة الذى

نزل به رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما ومنها ذو طوي وهو واد يهبط على قبور المهاجرين التي بالحصصا دون ثنية كداء ويخرج منه الى الاعلام الموضوعة حجاز بين الحل والحرم وكان عبد الله بن عمر رضى الله عنه اذا قدم مكة شرفها الله تعالى يبيت بذي طوى ثم يغتسل منه ويغدو الى مكة ويذكر ان رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما فعل ذلك ومنها ثنية كدي (بضم الكاف) وهي باعلى مكة ومنها دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع الى مكة ومنها ثنية كداء (بفتح الكاف) و يقال لها الثنية البيضاء وهي باسفل مكة ومنها خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما عام الوداع وهي بين جبلين وفي مضيقها كوم حجارة موضوع على الطريق وكل من يمر به يرجه بحجر ويقال انه قبر أبي لهب وزوجه حمالة الخطب وبين هذه الثنية وبين مكة بسيط سهل ينزله الركب اذا صعدوا عن منى وبقرية من هذا الموضع على نحو ميل من مكة شرفها الله مسجد بازائه حجر موضوع على الطريق كأنه مسطبة يعلوه حجر آخر كان فيه نقش فذكر رسمه يقال ان النبي صلى الله عليه وسلم تسليما قعد بذلك الموضع مستريحا عند مجيئه من عمرته فيتبرك الناس بتقبيله ويستندون اليه ومنها التنعيم وهو على فرسخ من مكة ومنها يعتمر أهل مكة وهو أدنى الحل الى الحرم ومنها اعتمرت أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها حين بعثها رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما في حجة الوداع مع أخيها عبد الرحمن رضى الله عنه وأمره أن يعمرها من التنعيم وبنيت هنالك مساجد ثلاثة على الطريق تنسب كلها الى عائشة رضى الله عنها وطريق التنعيم طريق فسيح والناس يتجرون كذسه في كل يوم رغبة في الاجر والثواب لان من المعتمرين من يمشي فيه حافيا وفي هذا الطريق الآبار العذبة التي تسمى الشبيكة ومنها الزاهر وهو على نحو ميلين من مكة على طريق التنعيم وهو موضع علي جاني الطريق فيه أثر دور وبساتين وأسواق وعلي جانب الطريق دكان مستطيل تصف عاياه كيزان الشرب وأواني الوضوء يملؤها خديم ذلك الموضع من آبار الزاهر وهي بعيدة النهر جدا والخديم من الفقراء الجاورين وأهل الخير يعينونه على ذلك لما فيه من المرفقة للعتمرين من الغسل والشرب والوضوء وذو طوى يتصل بالزاهر — ذكر الجبال المطيفة بمكة —

فمنها جبل أبي قبيس وهو في جهة الجنوب والشرق من مكة حرسها الله وهو أحد الاخشين وادنى الجبال من مكة شرفها الله ويقابل ركن الحجر الاسود وبأعلاه مسجد وأثر باط وعمارة وكان الملك الظاهر رحمه الله أراد أن يعمره وهو مطلق على الحرم الشريف وعلى

جميع البلد ومنه يظهر حسن مكة شرفها الله وجمال الحرم واتساعه والكعبة المعظمة ويذكر
أن جبل أبي قبيس هو أول جبل خلقه الله تعالى وفيه استودع الحجر زمان الطوفان
وكانت قريش تسميه الاممين لأنه أدي الحجر الذي استودع فيه الى الخليل ابراهيم
عليه السلام ويقان إن قبر آدم عليه السلام به وفي جبل أبي قبيس موضع موقف النبي
صلى الله عليه وسلم حين انشق له القمر ومنها قيعقان وهو أحد الاخشبين ومنها الجبل
الاحمر وهو في جهة الشمال من مكة شرفها الله ومنها الخدمة وهو جبل عند الشعبين
المعروفين باجياد الاكبر واجياد الاصغر ومنها جبل الطير وهو على أربعة عن جهتي
طريق التنعيم يقال انها الجبال التي وضع عليها الخليل عليه السلام أجزاء الطير ثم دعاها
حسبما نص الله في كتابه العزيز وعليها أعلام من حجارة ومنها جبل حراء وهو في الشمال
من مكة شرفها الله تعالى على نحو فرسخ منها وهو مشرف على مني ذاهب في الهواء على
القنة وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتعبد فيه كثير اقبل المبعث وفيه أتاه الحق من
ربه وبدا الوحي وهو الذي اهتزت تحت رسول الله صلى الله عليه وسلم تسلياً فقال رسول الله
صلى الله عليه وسلم أثبت فما عليك الا نبي وصدوق وشهيد واختاف فيمن كان معه يومئذ
وروي ان العشرة كانوا معه وقد روي أيضاً أن جبل ثبير اهتز تحتها أيضاً ومنها جبل ثور
وهو على مقدار فرسخ من مكة شرفها الله تعالى على طريق اليمن وفيه الغار الذي آوى
اليه رسول الله صلى الله عليه وسلم تسلياً حين خروجه مهاجراً من مكة شرفها الله ومعه
الصديق رضي الله عنه حسبما ورد في الكتاب العزيز وذكر الازرق في كتابه أن الجبل
الذي كور نادى رسول الله صلى الله عليه وسلم تسلياً وقال الى يا محمد الى الى فقد
آويت قبلك سبعين نبياً فلما دخل رسول الله الغار وأطمأن به وصاحبه الصديق معه
نسجت العنكبوت من حينها على باب الغار وصنعت الحمامة عشاً وفرخت فيه باذن الله
تعالى فانتهي المشركون ومعهم قصاص الاثر الى الغار فقالوا لها هنا انقطع الاثرون وأول
العنكبوت قد نسج على فم الغار والحمام مفرخة فقالوا ما دخل احدها وانصرفوا فقال
الصديق يا رسول الله لو لجوا علينا منه قال كنا نخرج من هنا وأشار بيده المباركة الى
الجانب الآخر ولم يكن فيه باب فانفتح فيه باب للحين بقدرة الملك الوهاب والناس
يقصدون زيارة هذا الغار المبارك فيرومون دخوله من الباب الذي دخل منه النبي
صلى الله عليه وسلم تبركاً بذلك فمنهم من يتأق له ومنهم من لا يتأق له وينشب فيه حتي يتناول
بالجذب العنيف ومن الناس من يصلي أمامه ولا يدخله وأهل تلك البلاد يقولون انه من

كان لرشدة دخله ومن كان لزنية لم يقدر على دخوله ولهذا يتحاماه كثير من الناس
لانه مخجل فاضح قال ابن جزى اخبرني بعض أشياخنا الحجاج الاكياس ان سبب
صعوبة الدخول اليه هو ان بداخله مما يلي هذا الشق الذي يدخل منه حجرا كبيرا
معتزلاً فمن دخل من ذلك الشق منبطحاً على وجهه وصل رأسه الى ذلك الحجر فلم
يمكنه التولج ولا يمكنه ان ينطوى الى العلو ووجهه وصدره يليان الارض فذلك هو
الذي ينشب ولا يخلص الا بعد الجهد والجهد الى خارج ومن دخل منه مستلقياً على
ظهره امكنه لانه اذا وصل رأسه الى الحجر المعتز رفع رأسه واستوى قاعدا فكان
ظهره مستنداً الى الحجر المعتز وأوسطه في الشق ورجلاه من خارج الغار ثم يقوم
قائماً بداخل الغار (رجع) ﴿حكاية﴾

ومما اتفق بهذا الجبل لصاحبين من أصحابي أحدهما الفقيه المكرم أبو محمد عبد الله
ابن فرحان الافريقي التوزري والآخر أبو العباس أحمد الاندلسي الوادي آشي انهما
قصدا (الغار) في حين مجاورتهما بمكة شرفها الله تعالى في سنة ثمان وعشرين وسبع مائة
وذهبا منفردين لم يستصحباً دليلاً عارفاً بطريقه فناها وضلا طريق الغار وسلكا طريقاً
سواها منقطعة وذلك في اوان اشتداد الحروحي القبيظ فلما نفدا كان عندهما من الماء
وهما لم يصلا الى الغار اخذا في الرجوع الى مكة شرفها الله تعالى فوجدوا طريقاً فاتبعاه
وكان يقضي الى جبل آخر واشتد بهما الحر وأجهدهما العطش وعائنا الهلاك وعجز الفقيه
أبو محمد بن فرحان عن المشي جملة والقي بنفسه الى الارض ونجا الاندلسي بنفسه وكان
فيه فضل قوة ولم يزل يسلك تلك الجبال حتى أفضى به الطريق الى أجياذ فدخل الى
مكة شرفها الله تعالى وقصدني واعلمني بهذه الحادثة وبما كان من امر عبد الله التوزري
وانقطاعه في الجبل وكان ذلك في آخر النهار وعبد الله المذكور ابن عم اسمه حسن وهو
من سكان وادي نخلة وكان اذذاك بمكة فاعلمته بما جرى على ابن عمه وقصدت الشيخ
الصالح الامام ابا عبد الله محمد بن عبد الرحمن المعروف بن خليل امام المالكية نفع الله به
فعا علمته بخبره فبعث جماعة من أهل مكة عارفين بتلك الجبال والشعاب في طلبه وكان من
أمر عبد الله التوزري انه لما فارقه رفيقه لجأ الى حجر كبير فاستظل بظله وأقام على هذه
الحالة من الجهد والعطش والغربان تطير فوق رأسه وتنتظر موته فلما انصرم النهار
وأتى الليل وجد في نفسه قوة ونعشه برد الليل فقام عند الصباح على قدميه ونزل من
الجبل الى بطن واد حجبت الجبال عنه الشمس فلم يزل ماشياً الى أن بدت له دابة فقصد

فصدها فوجد خيمة للعرب فلما رآها وقع الى الارض ولم يستطع النهوض فرآته صاحبة الخيمة وكان زوجها قد ذهب الى ورد الماء فسقته ما كان عندها من الماء فلم يرو وجاء زوجها فسقاه قربة ماء فلم يرو وأركبه حماره وقدم به مكة فوصلها عند صلاة العصر من اليوم الثاني متغيرا كأنه قام من قبر

﴿ ذكر أمير مكة ﴾

وكانت امارة مكة في عهد دخولى اليها للشريفين الاجلين الاخوين أسد الدين رميثة وسيف الدين عطيفة ابني الأمير ابي ندى بن أبي سعد بن علي بن قتادة الحسينيين ورميثة أكبرها سنا ولكنه كان يقدم اسم عطيفة في الدعاء له بمكة لعدله ولرميثة من الاولاد أحمد وعجلان وهو أمير مكة في هذا العهد وتقية وسندو أم قاسم واعطيفة من الاولاد محمد ومبارك ومسعود ودار عطيفة عن يمين المروة ودار أخيه رميثة برباط الشرايبي عند باب بني شيبه هو تضرب الطبول على باب كل واحد منهما عند صلاة المغرب من كل يوم

— ذكر اهل مكة وفضائلهم —

ولا اهل مكة الافعال الجميلة والمكارم التامة والاخلاق الحسنة والايتار الى الضعفاء والمنقطعين وحسن الجوار للغرباء ومن مكارمهم أنهم متى صنع احدهم رمية يبدأ فيها باطعام الفقراء المنقطعين المجاورين ويستدعيهم بتلطف ورفق وحسن خلق ثم يطعمهم وأكثر المساكين المنقطعين يكونون بالافران حيث يطبخ الناس أخبازهم فاذا طبخ أحدهم خبز واحد حمله الى منزله فيتبعه المساكين فيعطى لكل واحد منهم ما قسم له ولا يردهم خائبين ولو كانت له خبزة واحدة فانه يعطى ثلثها أو نصفها طيب النفس بذلك من غير ضجر ومن افعالهم الحسنة ان الايتام الصغار يقعدون بالسوق ومع كل واحد منهم قفتان كبرى وصغرى وهم يسمون القفة مكتلا فيأتي الرجل من أهل مكة الى السوق فيشتري الحبوب واللحم والخضر ويعطى ذلك للصبي فيجعل الحبوب في احدى قفتيه واللحم والخضر في الاخرى ويوصل ذلك الى دار الرجل ليهبها له طعامه منها ويذهب الرجل الى طوافه وحاجته فلا يذكر ان احد من الصبيان خان الامانة في ذلك قط بل يؤدي ما حمل على أتم الوجوه ولهم على ذلك اجرة معلومة من فلوس وأهل مكة لهم ظرف ونظافة في الملابس وأكثر لباسهم البياض فتري شيئا بهم ابدا ناصعة ساطعة ويستعملون الطيب كثيرا ويكتحلون ويكثرون السواك بعيدان الاراك الاخضر ونساء مكة فائقات الحسن بارعات الجمال ذوات صلاح وعفاف وهن يكثرن التطيب حتى ان احداهن لتبيت طاوية وتشتري بقوتها طيبا وهن يقصدن الطواف

بالبيت في كل ليلة جمعة فيأتين في أحسن زى وتغلب على الحرم رائحة طيبهن وتذهب المرأة منهن فيبقى أثر الطيب بعد ذهابها عبقا ولاهل مكة عوائد حسنة في الموسم وغيره سند كرها ان شاء الله تعالى اذا فرغنا من ذكر فضلائها ومجاوريها

— ذكر قاضى مكة وخطيبها وامام الموسم وعلمائها واصلحائها —

قاضى مكة العالم الصالح العابد نجم الدين محمد ابن الامام العالم محي الدين الطبرى وهو فاضل كثير الصدقات والمواساة للمجاورين حسن الاخلاق كثير الطواف والمشاهدة للكعبة الشريفة يطعم الطعام الكثير في المواسم المعظمة وخصوصا في مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم تساميا فانه يطعم فيه شرفاء مكة وكبراءها وفقراءها وخدام الحرم الشريف وجميع المجاورين وكان ساطان مصر الملك الناصر رحمه الله يعظمه كثيرا وجميع صدقاته وصدقات امرائه تجرى على يديه وولده شهاب الدين فاضل وهو الآن قاضى مكة شرفها الله وخطيب مكة الامام بمقام ابراهيم عليه السلام الفصيح المصقع وحيد عصره بهاء الدين الطبرى وهو أحد الخطباء الذين ليس بالمعمور مثلهم بلاغة وحسن بيان وذكرى انه ينشئ لكل جمعة خطبة ثم لا يكررها فيما بعد وامام الموسم وامام المالكية بالحرم الشريف هو الشيخ الفقيه العالم الصالح الخاشع الشهير ابو عبد الله محمد ابن الفقيه الامام الصالح الورع ابي زيد عبد الرحمن وهو المشتهر بنخليل نفع الله به وأمتع ببقائه وأهله من تلاد الجريد من افريقية ويعرفون بها بنى حيون وهم من كبارها ومولده ومولد أبيه بمكة شرفها الله وهو أحد الكبار من أهل مكة بل واحدا وقطبها باجماع الطوائف على ذلك مستغرق العبادة في جميع أوقاته حي كريم النفس حسن الاخلاق كثير الشفقة لا يرد من ساله خائبا

— حكاية مباركة —

رأيت أيام مجاورتي بمكة شرفها الله وأنا اذ ذاك ساكن منها بالمدرسة المظفرية رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما في النوم وهو قاعد بمجلس التدريس من المدرسة المذكورة بجانب الشباك الذى تشاهد منه الكعبة الشريفة والناس يبايعونه فكنت أرى الشيخ أبا عبد الله المدعو بنخليل قد دخل وقعد القرفصاء بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما وجعل يده في يد رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال أبايعك على كذا وكذا وعدد أشياء منها وأن لا أرد من يبتى مسكينا خائبا وكان ذلك آخر كلامه فكنت أعجب من قوله وأقول في نفسى كيف يقول هذا ويقدر عليه مع كثرة فقراء مكة واليمن والزيالة والعراق والعجم ومصر والشام وكنت أراه حين ذلك لا بساجبة بيضاء قصيرة من ثياب القطن المدعوة

بالقبطان كان يلبسها في بعض الاوقات فلما صليت الصبح غدوت عليه واعلمته برؤياي
فسر بها وبكى وقال لي تلك الجبة أهداها بعض الصالحين لجدى قانا ألبسها تبركا ومارأيت
بعد ذلك يرد سائلا خائبا وكان يامر خدامه يخبزون الخبز ويطبخون الطعام ويأتون به
الى بعد صلاة العصر من كل يوم وأهل مكة لا ياكلون في اليوم الامرة واحدة بعد العصر
ويقتصرون عليها الى مثل ذلك الوقت ومن أراد الاكل في سائر النهار أكل التمر ولذلك
صحّت أبدانهم وقلت فيهم الامراض والعاهات وكان الشيخ خليل متزوجا بنت القاضي نجم
الدين الطبري فشك في طلاقها وفارقها وتزوجها بعده الفقيه شهاب الدين النويري من
كبار المجاورين وهو من صعيد مصر وأقامت عنده أعواما وسافرها الى المدينة الشريفة
ومعها أخوها شهاب الدين فحدثت في يمين بالطلاق ففارقها على ضمانته بها وراجعها الفقيه
خليل بعد سنين عدة ومن أعلام مكة امام الشافعية شهاب الدين بن البرهان ومنهم امام
الحنفية شهاب الدين أحمد بن علي من كبار أئمة مكة وفضلائها يطعم المجاورين وأبناء
السبيل وهو أكرم فقهاء مكة ويدار في كل سنة أربعين ألف درهم وخمسين ألفا فيؤديها
الله عنه وامراء الأتراك يعظمونه ومحسنون الطن به لانه امامهم ومنهم امام الحنابلة المحدث
الفاضل محمد بن عثمان البغدادى الاصل المكي المولد وهو نائب القاضي نجم الدين والمحتسب
بعد قتل تقي الدين المصرى والناس بها بونه لسطوته — حكاية —

كان تقي الدين المصرى محتسبا بمكة وكان له دخول فيما يعنيه وفيما لا يعنيه فاتفق في بعض
السنين ان أتى أمير الحاج بصبي من ذوى الدعارة بمكة قد سرق بعض الحجاج فامر بقطع يده
فقال له تقي الدين ان لم نقطعها بحضرتك والاغلب أهل مكة خدامك عليه فاستنقذوه منهم
وخلصوه فامر بقطع يده في حضرته فقطعت وحقدها لتقي الدين ولم يزل يتربص به الدوائر
ولا قدرة له عليه لانه حسب من الاميرين رمية وعطيفة والحسب عندهم ان يعطى أحدهم
هدية من عمامة او شاشية بمحضرة الناس تكون جوار المن اعطيته ولا نزول حرمتها معه حتى
يريد الرحلة والتحول عن مكة فاقام تقي الدين بمكة أعواما ثم عزم على الرحلة وودع
الاميرين وطاف طواف الوداع وخرج من باب الصفا فلقيه صاحبه الاقطع وتشكى له
ضعف حاله وطلب منه ما يستعين به على حاجته فانتهره تقي الدين وزجره فاستل خنجره
يعرف عندهم بالجنبية وضربه ضربة واحدة كان فيها حتفه ومنهم الفقيه الصالح زين الدين
الطبري شقيق نجم الدين المذكور من أهل الفضل والاحسان المجاورين ومنهم الفقيه المبارك
محمد بن فهد القرشى من فضلاء مكة وكان ينوب عن القاضي نجم الدين بعد وفاة الفقيه

محمد بن عثمان الحنبلي ومنهم العدل الصالح محمد بن البرهان زاهد ورع مبتلى بالوسواس رأيته يوما يتوضا من بركة المدرسة المظفرية فيغسل ويكرر ولما مسح رأسه أعاد مسحه مرات ثم يقنعه ذلك فغطس رأسه في البركة وكان إذا أراد الصلاة ربما صلى الإمام الشافعي وهو يقول نويت نوبت نوب فيصلي مع غيره وكان كثير الطواف والاعمار والذكر — ذكر المجاورين بمكة —

فمنهم الإمام العالم الصالح الصوفي المحقق العابد عفيف الدين عبد الله بن أسعد النخعي الشافعي الشهير بالشافعي كثير الطواف آناه الليل وأطراف النهار وكان إذا طاف من الليل يصعد إلى سطح المدرسة المظفرية فيقعد مشاهدا للكعبة الشريفة إلى أن يغلبه النوم فيجعل تحت رأسه حجرا وينام بسيرته ثم يجدد الوضوء ويعود لحاله من الطواف حتى يصلي الصبح وكان متزوجا ببنت الفقيه العابد شهاب الدين بن البرهان وكانت صغيرة السن فلا تزال تشكو إلى أبيها حالها فيأمرها بالصبر فقامت معه على ذلك سنين ثم فارقتهم ومنهم الصالح العابد نجم الدين الأصفوي كان قاضيا ببلاد الصعيد فانتطع إلى الله تعالى وجاور بالحرم الشريف وكان يعتمر في كل يوم من التمتع ويعتمر في رمضان مرتين في اليوم اعتمادا على ما في الخبر عن النبي صلى الله عليه وسلم تسليما أنه قال عمرة في رمضان تعدل حجة معي ومنهم الشيخ الصالح العابد شمس الدين محمد الحلي كثير الطواف والتلاوة من قدماء المجاورين مات بمكة شرفها الله ومنهم الصالح أبو بكر الشيرازي المعروف بالصامت كثير الطواف أقام بمكة أعواما لا يتكلم فيها ومنهم الصالح خضر العجمي كثير الصوم والتلاوة والطواف ومنهم الشيخ الصالح برهان الدين العجمي الواعظ كان ينصب له كرسي تجاه الكعبة الشريفة فيعظ الناس ويدكرهم بلسان فصيح وقلب خاشع يأخذ بهجامع القلوب ومنهم الصالح المجود برهان الدين إبراهيم المصري مقرئ مجيد ساكن رباط السدرة ويقصده أهل مصر والشام بصدقاتهم ويعلم الإيتام كتاب الله تعالى ويقوم بهمؤنهم ويكسوهم ومنهم الصالح العابد عر الدين الواسطي من أصحاب الأموال الطائلة يحمل إليه من بلده المال الكثير في كل سنة فيبتاع الحبوب والتمر ويفرقها على الضعفاء والمساكين ويتولى حملها إلى بيوتهم بنفسه ولم يزل ذلك ذابا به إلى أن توفي ومنهم الفقيه الصالح الزاهد أبو الحسن علي بن رزق الله الانجري من أهل قطر طنجة من كبار الصالحين جاور بمكة أعواما وبها وفاته كانت بينه وبين والدي صحبة قديمة وهي أني بلادنا طنجة نزل عندنا وكان له بيت بالمدرسة المظفرية يعلم فيها نهارا وياوي بالليل إلى مسكنه برباط ربيع وهو من أحسن

الرباطات بمكة بداخله بئر عذبة لاتماثلها بئر بمكة وسكانه الصالحون وأهل ديار الحجاز يعظمون هذا الرباط تعظيما شديدا وينذرون له النذور وأهل الطائف ياتونه بانقواكه ومن عادتهم ان كل من له بستان من النخيل والعنب والفرسك وهو الخوخ والتين وهم يسمونه الخنط يخرج منه العشر لهذا الرباط ويوصلون ذلك اليه على جمالهم ومسيرة ما بين مكة والطائف يومان ومن لم يف بذلك نقصت فواكه في السنة الآتية وأصابها الجوارح

— حكاية في فضله —

أتى يوما غلمان الامير أبي نمي صاحب مكة الى هذا الرباط ودخلوا بنخيل الامير وسقوها من تلك البئر فلما عادوا بالنخيل الى مراتبها أصابها الاوجاع وضربت بانفسها الارض وبرؤسها وأرجلها واتصل الخبر بالامير أبي نمي فأتى باب الرباط بنفسه واعتذر الى المساكين الساكنين به واستصحب واحدا منهم فمسح على بطون الدواب بيده فارقت ما كان في أجوافها من ذلك الماء وبرئت مما أصابها ولم يتعرضوا بعدها للرباط الا بالخير ومنهم الصالح المبارك أبو العباس الغماري من أصحاب أبي الحسن بن رزق الله وسكن رباط ربيع ووفاته بمكة شرفها الله ومنهم الصالح أبو يعقوب يوسف من بادية سبتة كان خديما للشيخين المذكورين فلما توفيا صار شيخ الرباط بعدها ومنهم الصالح السائح السالك أبو الحسن علي بن فرغوس التلمساني ومنهم الشيخ سعيد الهندي شيخ رباط كلاله

— حكاية —

كان الشيخ سعيد قد قصد ملك الهند محمد شاه فاعطاه مالا عظيما قدم به مكة فسجنه الامير عطيفة وطلبه باداء المال فامتنع فعذب بعصر رجليه فاعطى خمسة وعشرين ألف درهم نقرة وعاد الى بلاد الهند ورأيت به ونزل بدار الامير سيف الدين غدا بن هبة الله بن عيسى بن مهني أمير عرب الشام وكان غدا ساكنا ببلاد الهند متزوجا باخت ملكها وسيد كرامه فاعطى ملك الهند للشيخ سعيد جملة مال وتوجه صحبة حاج يعرف بوشل من ناس الامير غدا وجهه الامير المذكور لياتيه ببعض ناسه ووجه معه أموالا وتحفا منها الخلعة التي خلعها عليه ملك الهند ليلة زفافه باخته وهي من الحرير الازرق مزر كشة بالذهب ومرصعة بالجواهر بحيث لا يظهر لونها الغلبة الجواهر عليها وبعث معه خمسين ألف درهم ليشتري له الخيل العتاق فساقر الشيخ سعيد صحبة وشل واشترى سلعا بما عندهما من الاموال فلما وصلا جزيرة سقطرة المنسوب اليها الصبر السقطري خرج عليهما لصوص الهند في مراكب كثيرة فقاتلوهم قتالا شديدا مات فيه من الفريقين جملة وكان وشل راميا فقتل

عنهم جماعة ثم تغلب السراق عليهم وطعنوا وشلا طعنة مات منها بعد ذلك وأخذوا ما كان عندهم وتركوا لهم مركبهم بألة سفره وزاده فذهبوا إلى عدن ومات بها وشل وعادة هؤلاء السراق أنهم لا يقتلون أحدا إلا حين القتال ولا يغرقونه وإنما يأخذون ماله ويتركونه يذهب بمركبه حيث شاء ولا يأخذون المماليك لأنهم من جنسهم وكان الحاج سعيد قد سمع من ملك الهند أنه يريد اظهار الدعوة العباسية ببلده كمثل ما فعله ملوك الهند ممن تقدمه مثل السلطان شمس الدين الممش واسمه « بفتح اللام الاولى واسكان الثانية وكسر الميم وشين معجم » وولده ناصر الدين ومثل السلطان جلال الدين فيروز شاه والسلطان غياث الدين بلبن وكانت الخلع تأتي اليهم من بغداد فلما توفي وشل قصد الشيخ سعيد إلى الخليفة أبي العباس ابن الخليفة أبي الربيع سليمان العباسي بمصر وأعلمه بالامر فكتب له كتابا بخطه بالنيابة عنه ببلاد الهند فاستصحب الشيخ سعيد الكتاب وذهب إلى اليمن واشترى بها ثلاث خلع سودا وركب البحر إلى الهند فلما وصل كنبات وهي على مسيرة أربعين يوما من دهلي حضرة ملك الهند كتب صاحب الخبر إلى الملك يعلمه بقدوم الشيخ سعيد وأن معه أمر الخليفة وكتابه فورد الأمر ببعثه إلى الحضرة مكرما فلما قرب من الحضرة بعث الأمراء والقضاة والفقهاء لتلقيه ثم خرج هو بنفسه لتلقيه فتلقاه وعانقه ودفع له الأمر فقبله ووضع على رأسه ودفع له الصندوق الذي فيه الخلع فاحتمله الملك على كاهله خطوات ولبس إحدى الخلع وكسا الأخرى الأمير غياث الدين محمد بن عبد القادر بن يوسف ابن عبد العزيز بن الخليفة المنتصر العباسي وكان مقاما عنده وسيد كر خبره وكسا الخلعة الثلاثة الأمير قبوله الملقب بالملك الكبير وهو الذي يقوم على رأسه ويشرد عنه الذباب وأمر السلطان فخلع على الشيخ سعيد ومن معه وأركبه على الفيل ودخل المدينة كذلك والسلطان أمامه على فرسه وعن يمينه وشماله الأميران اللذان كساها الخلعين العباسيتين والمدينة قد زينت بأنواع الزينة وصنع بها إحدى عشرة قبة من الخشب كل قبة منها أربع طبقات في كل طبقة طائفة من المغنيين رجالا ونساء والراقصات وكلهم مما إيك السلطان والقبة مزينة بثياب الحرير المذهب أعلاها وأسفلها وداخلها وخارجها وفي وسطها ثلاثة أحواض من جلود الجواميس مملوءة ماء قد حل فيه الجلاب يشرب به كل وارد وصادر لا يمنع منه أحد وكل من يشرب منه يعطى بعد ذلك خمس عشرة ورقة من أوراق التنبول والفوفل والنورة فياكلها فتطيب نكهته وتزيد في حمرة وجهه ولثاته وتقمع عنه الصفراء وتهضم ما أكل من الطعام ولما ركب الشيخ سعيد على الفيل فرشت له ثياب الحرير بين يدي الفيل

يطو عليها الفيل من باب المدينة الى دار السلطان وأنزل بدار تقرب من دار الملك وبعث له أموالاً طائلة وجميع الاثواب المعلقة والمفروشة بالقباب والموضوعة بين يدي الفيل لا تعود الى السلطان بل يأخذها أهل الطرب وأهل الصناعات الذين يصنعون القباب وخدام الاحواض وغيرهم وهكذا فعلهم متى قدم السلطان من سفر وأمر الملك بكتاب الخليفة ان يقرأ على المنبر بين الخطبتين في كل يوم جمعة وأقام الشيخ سعيد شهراً ثم بعث معه الملك هدايا الى الخليفة فوصل كتباً يت وأقام بها حتى تيسرت أسباب حركته في البحر وكان ملك الهند قد بعث أيضاً من عنده رسولا الى الخليفة وهو الشيخ رجب البرقي أحد شيوخ الصوفية وأصله من مدينة القرم من صحراء قبجق وبعث معه هدايا للخليفة منها حجر ياقوت قيمته خمسون ألف دينار وكتب له يطلب منه أن يعقد له النياية عنه ببلاد الهند والسند وبعث لها سواد من يظهر له هكذا نص عليه كتابه اعتقاداً منه في الخلافة وحسن نية وكان للشيخ رجب أخ يدعى بالامير سيف الدين الكاشف فلما وصل رجب الى الخليفة أبى أن يقرأ الكتاب ويقبل الهدية الا يحضر الملك الصالح اسماعيل ابن الملك الناصر فأشار سيف الدين على أخيه رجب ببديع الحجر فباعه واشترى بثمانين وهو ثلاثمائة ألف درهم أربعة أبحار وحضر بين يدي الملك الصالح ودفع له الكتاب وأحد الأبحار ودفع سائرها لامرائه واتفقوا على أن يكتب الملك الهند بما طلبه فوجهوا الشهود الى الخليفة واشهد على نفسه انه قدمه نائباً عنه ببلاد الهند وما يليها وبعث الملك الصالح رسولا من قبله وهو شيخ الشيوخ بمصر ركن الدين العجمي ومعه الشيخ رجب وجماعة من الصوفية وركبوا بحر فارس من الابل الى هرمز وسلطانها يومئذ قطب الدين تمتن طوران شاه فأكرم متواهم وجهاز لهم مركبا الى بلاد الهند فوصلوا مدينة كتباً يت والشيخ سعيد بها وأميرها يومئذ مقبول التلتي أحد خواص ملك الهند فاجتمع الشيخ رجب بهذا الامير وقال له ان الشيخ سعيد انما جاءكم بالازوير والخلع التي ساقها انما اشتراها بعدن فينبغي أن تثقفوه وتبعثوه لخدمته وهو السلطان فقال له الامير الشيخ سعيد معظم عند السلطان فما يفعل به هذا الا بأمره ولكني أبعثه معكم ليري فيه السلطان رأيه وكتب الامير بذلك كله الى السلطان وكتب به أيضاً صاحب الاخبار فوقع في نفس السلطان تغير وانقبض عن الشيخ رجب لكونه تكلم بذلك على رؤس الاشهاد بعد ما صدر من السلطان للشيخ سعيد من الاكرام ما صدر فمنع رجب من الدخول عليه وزاد في اكرام الشيخ سعيد ولما دخل شيخ الشيوخ على السلطان قام اليه وعانقه وأكرما

وكان متي دخل اليه يقوم له وبقى الشيخ سعيد المذكور بارض الهند معظمها مكرما وبها تركته سنة ثمان وأربعين وكان بمكة ايام مجاورتي بها حسن المغربي المجنون وأمره غريب وشانه عجيب وكان قبل ذلك صحيح العقل خديما لولي الله تعالى نجم الدين الاصبهاني ايام حياته — حكايته — كان حسن المجنون كثير الطواف بالليل وكان يرى في طوافه بالليل فقيراً يكثر الطواف ولا يراه بالنهار فلقية ذلك الفقير ليلة وساله عن حاله وقال له يا حسن ان أمك تبكي عليك وهي مشتاقة الى رؤيتك وكانت من اماء الله الصالحات أفتحب أن تراها قال له نعم ولكني لا قدرة لي على ذلك فقال له نجتمع ها هنا في الليلة المقبلة ان شاء الله تعالى فلما كانت الليلة المقبلة وهي ليلة الجمعة وجده حيث واعدته فطافا بالبيت ماشاء الله ثم خرج وهو في أثره الى باب المعلي فامرته أن يسد عينيه ويمسك بثوبه ففعل ذلك ثم قال بعد ساعة أتعرف بلدك قال نعم قال ها هو هذا ففتح عينيه فاذا به على دار أمه فدخل عليها ولم يعلمها بشيء مما جرى واقام عندها نصف شهر وأظن أن بلده مدينة أسفي ثم خرج الى الجبالة فوجد الفقير صاحبه فقال له كيف أنت فقال ياسيدي اني اشتقت الى رؤية الشيخ نجم الدين وكنت خرجت على عادتي وغبت عنه هذه الايام واحب ان تردني اليه فقال له نعم وواعدته الجبالة ليلا فلما وافاه بها امره أن يفعل كفعله في مكة شرفها الله من تغميض عينيه والامساك بذيله ففعل ذلك فاذا به في مكة شرفها الله وأوصاه ان لا يحدث نجم الدين بشيء مما جرى ولا يحدث به غيره فلما دخل على نجم الدين قال له أين كنت يا حسن في غيبتك قاي أن يخبره فعزم عليه فأخبره بالحكاية فقال أرني الرجل قاي معه ليلا وأتى الرجل على عادته فلما امر بهما قال له ياسيدي هو هذا فسمعه الرجل فضرب بيده على فمه وقال أسكت أسكتك الله فخرس لسانه وذهب عقله وبقى بالحرم مولها يطوف بالليل والنهار من غير وضوء ولا صلاة والناس يتبركون به ويكسونه واذا جاع خرج الى السوق التي بين الصفا والمروة فيقصد حانوتا من الحوانيت فيأكل منها ما احب لا يصدده أحد ولا يمنعه بل يسر كل من أكل له شيئا وتظهر له البركة والنماء في بيعه وربحه ومتى أتى السوق تناول أهلها باعناقهم اليه كل منهم يحرص علي ان يأكل من عنده لما جربوه من بركته وكذلك فعله مع السقائين متى أحب ان يشرب ولم يزل دأبه كذلك الى سنة ثمان وعشرين فخرج فيها الامير سيف الدين يملك فاستصحبه معه الى ديار مصر فاقطع خبره نفع الله تعالى به — ذكر عادة أهل مكة في صلواتهم ومواضع أئمتهم —

فمن عادتهم أن يصلي أول الأئمة امام الشافعية وهو المقدم من قبل أولى الامر وصلاته

خلف المقام الكريم مقام ابراهيم الخليل عليه السلام في حطيم له هنالك بديع وجمهور الناس بمكة على مذهبه والخطيم خشبتان موصول ما بينهما باذرع شبه السلم تقابلها خشبتان على صفتها وقد عقدت على أرجل مجصصة وعرض على أعلى الخشب خشبة أخرى فيها خطاطيف حديد يعلق منها قناديل زجاج فاذا صلى الامام الشافعي صلى بعده امام المالكية في محراب قبالة الركن اليماني ويصلي امام الحنبلية معه في وقت واحد مقابلا ما بين الحجر الاسود والركن اليماني ثم يصلي امام الحنفية قبال الميزاب المكرم تحت حطيم له هنالك ويوضع بين ايدي الائمة في محاريبهم الشمع وترتيبهم هكذا في الصلوات الاربع وأما صلاة المغرب فانهم يصلونها في وقت واحد كل امام يصلي بطائفته ويدخل على الناس من ذلك سهو وتخليط فربما ركع المالكي ركوع الشافعي وسجد الحنفي بسجود الحنبلي وتراهم مصيحين كل واحد الى صوت المؤذن الذي يسمع طائفته لتلايدخل عليه السهو

— ذكر عاداتهم في الخطبة وصلاة الجمعة —

وعاداتهم في يوم الجمعة أن يلصق المنبر المبارك الى صفح الكعبة الشريفة فيما بين الحجر الاسود والركن العراقي ويكون الخطيب مستقبلا المقام الكريم فاذا خرج الخطيب أقبل لا بساوثب سواد معتما بعمامة سوداء و عليه طيلسان اسود كل ذلك من كسوة الملك الناصر و عليه الوقار والسكينة وهو يتهادى بين رايتين سوداوين يتمسكهما رجلان من المؤذنين وبين يديه أحد القومة في يده الفرقة وهي عود في طرفه جلد رقيق مفتول ينقضه في الهواء فيسمع له صوت عال يسمعه من بداخل الحرم وخارجه فيكون اعلاما بخروج الخطيب ولا يزال كذلك الى ان يقرب من المنبر فيقبل الحجر الاسود ويدعو عنده ثم يقصد المنبر والمؤذن الزمزمي وهو رئيس المؤذنين بين يديه لا بسا السواد وعلى عاتقه السيف ممسكاه بيده وتركز الرايتان عن جانبي المنبر فاذا صعد أول درج من درج المنبر قلده المؤذن السيف فيضرب بنصل السيف ضربة في الدرج يسمع بها الحاضرين ثم يضرب في الدرج الثاني ضربة ثم في الثالث أخرى فاذا استوى في عليا الدرجات ضرب ضربة رابعة ووقف داعيا بدعاء خفي مستقبلا الكعبة ثم يقبل على الناس فيسلم عن يمينه وشماله ويرد عليه الناس ثم يقعد ويؤذن المؤذنون في أعلى قبة زمزم في حين واحد فاذا فرغ الاذان خطب الخطيب خطبة يكثر بها من الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ويقول في أثنائها اللهم صلى على محمد وعلى آل محمد ما طاف بهذا البيت طائف ويشير باصبعه الى البيت الكريم اللهم صلى على محمد وعلى آل محمد ما رقف بعرفة واقف وبترضى عن الخلفاء

الاربعة وعن سائر الصحابة وعن عمي النبي صلى الله عليه وسلم وسبطيه وأمهما وخديجة جدتهما على جميعهم السلام ثم يدعو للملك الناصر ثم للسلطان المجاهد نور الدين علي ابن الملك المؤيد داود ابن الملك المظفر يوسف بن علي بن رسول ثم يدعو للسيد بن الشريفين الحسينيين أميرى مكة سيف الدين عطيفة وهو أصغر الأخوين ويقدم اسمه لعدله واسد الدين رميثة ابني أبي نمي بن أبي سعد بن علي بن قتادة وقد دعا السلطان العراق مرة ثم قطع ذلك فاذا فرغ من خطبته صلى وانصرف والرايتان عن يمينه وشماله والفرقة امامه اشعارا بانقضاء الصلاة ثم يعاد المنبر الى مكانه ازاء المقام الكريم — ذكر عاداتهم في استهلال الشهور —

وعاداتهم في ذلك ان يأتي أمير مكة في اول يوم من الشهر وقواده يحفون به وهو لا بس البياض معتم متقلد سيفا وعليه السكينة والوقار فيصلى عند المقام الكريم ركعتين ثم يقبل الحجر ويشرع في طواف اسبوع ورئيس المؤذنين على اعلى قبة زمزم فعند ما يكل الأمير شوطا واحدا ويقصد الحجر لتقبيله يندفع رئيس المؤذنين بالدعاء له والتهنئة بدخول الشهر رافعا بذلك صوته ثم يذکر شعرا في مدحه ومدح سلفه الكريم ويفعل به هكذا في السبعة اشواط فاذا فرغ منها ركع عند الملتزم ركعتين ثم ركع خلف المقام ايضا ركعتين ثم انصرف ومثل هذا سواء يفعل اذا أراد سفرا واذا قدم من سفر ايضا — ذكر عاداتهم في شهر رجب —

واذا هل هلال رجب امر أمير مكة بضرب الطبول والبوقات اشعارا بدخول الشهر ثم يخرج في اول يوم منه راكبا ومعه أهل مكة فرسانا ورجالا على ترتيب عجيب وكلهم بالاسلحة يلعبون بين يديه والفرسان يجولون ويجرون والرجالة يتواثبون ويرمون بحراهم الى الهواء ويلقفونها والأمير رميثة والأمير عطيفة معهما اولادها وقوادها مثل محمد بن ابراهيم وعلي واحمد ابني صبيح وعلي بن يوسف وشداد بن عمر وعامر الشرق ومنصور بن عمر وموسى المزرق وغيرهم من كبار أولاد الحسن ووجوه القواد وبين ايديهم الرايات والطبول والدفادب وعليهم السكينة والوقار ويصيرون حتى ينتهوا الى الميقات ثم ياخذون في الرجوع على معهود ترتيبهم الى المسجد الحرام فيطوف الأمير بالبيت والمؤذن الزمزمي باعلى قبة زمزم يدعو له عند كل شوط على ما ذكرناه من عاداته فاذا طاف صلى ركعتين عند الملتزم وصلى عند المقام وتمسح به وخرج الى المسعى فسعى راكبا والقواد يحفون به والحراة بين يديه ثم يسير الى منزله وهذا اليوم عندهم عيد من الاعيادو يلبسون فيه أحسن

وأهل مكة يحتفلون لعمرة رجب الاحتفال الذي لا يعهد مثله وهي متصلة ليلا ونهارا وأوقات الشهر كله معمورة بالعبادة وخصوصا أول يوم منه ويوم خمسة عشر والسابع والعشرين فانهم يستعدون لها قبل ذلك بأيام شاهدتهم في ليلة السابع والعشرين منه وشوارع مكة قد غصت بالهوادج عليها كساء الحرير والكتان الرفيع كل أحد يفعل بقدر استطاعته والجمال مزينة مقلدة بقلائد الحرير واستار الهوادج ضافية تكاد تمس الأرض في كلقباب المضروبة ويخرجون الى ميقات التنعيم فتسيل أباطح مكة تلك الهوادج والنيران مشعلة بجنتي الطريق والشمع والمشاغل أمام الهوادج والجبال تجيب بصدها إلهال المهالين فترق النفوس وتنهمل الدموع فاذا قضوا العمرة وطافوا بالبيت خرجوا الى السعي بين الصفا والمروة بعد مضي شيء من الليل والمسعى متقد السرج غاص بالناس والساعات في هوادجهم والمسجد الحرام يتلألأ نوراً وهم يسمون هذه العمرة بالعمرة الاكمية لانهم يحرمون بها من أكمة أمام مسجد عائشة رضي الله عنها بمقدار غلوة على مقربة من المسجد المنسوب الى علي رضي الله عنه والاصل في هذه العمرة ان عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما لما فرغ من بناء الكعبة المقدسة خرج ماشيا حافيا معتمرا ومعه أهل مكة وذلك في اليوم السابع والعشرين من رجب وانتهى الى الاكمة فاحرم منها وجعل طريقه على ثنية الحجون الى المعلى من حيث دخل المسلمون يوم الفتح فبقيت تلك العمرة سنة عند أهل مكة الى هذا العهد وكان يوم عبد الله منذ كورا أهدي فيه بدنا كثيرة واهدي اشراف مكة وأهل الاستطاعة منهم وأقاموا اياما يطعمون ويطعمون شكر الله تعالى على ما وهبهم من التيسير والمعونة في بناء بيته الكريم على الصفة التي كان عليها في أيام الخليل صلوات الله عليه ثم لما قتل ابن الزبير نقض الحجاج الكعبة وردّها الى بنائها في عهد قريش وكانوا قد اقتصروا في بنائها وأبقاها رسول الله صلى الله عليه وسلم على ذلك لحدثان عهدهم بالكفر ثم اراد الخليفة أبو جعفر المنصور ان يعيدها الى بناء ابن الزبير فنهاه مالك رحمه الله عن ذلك وقال يا أمير المؤمنين لا تجعل البيت ملعبة للملوك متى أراد أحدكم أن يغير دفعه فتركه على حاله سد الذريعة وأهل الجهات الموالية لمكة مثل بجيلة وزهران وغامد يبادرون لحضور عمرة رجب ويحلبون الى مكة الحبوب والسمن والعسل والزبيب والزيت واللوز فترخص الاسعار بمكة ويرغد عيش أهلها وتعمهم المرافق ولولا أهل هذه البلاد لكان أهل مكة في شظف من العيش وبذكر انهم متى أقاموا ببلادهم ولم يأتوا بهذه الميرة أجذبت بلادهم

ووقع الموت في مواشيهم وميتي أوصلوا الميرة أخصبت بلادهم وظهرت فيها البركة ونمت أموالهم فهم اذا حان وقت ميرتهم وأدركهم كسل عنها اجتمعت نساؤهم فاخرجتهم وهذا من لطائف صنع الله تعالى وعنايته ببلده الامين وبلاد السرو التي يسكنها بجيلة وزهران وغامد وسواهم من القبائل مخصبة كثيرة الاعناب وافرة الغلات وأهلها وصحاء الالسن لهم صدق نية وحسن اعتقاد وهم اذا طافوا بالكعبة يتطارحون عليها لائذين بجوارها متعلقين باستارها داعين بادعية تصعد لرقمها القلوب وتدمع العيون الجامدة فترى الناس حولهم باسطي أيديهم مؤمنين على أدعيتهم ولا يتمكن لغيرهم الطواف معهم ولا استلام الحجر - نراحهم على ذلك وهم شجعان انجاد ولباسهم الجلود واذا وردوا مكة هابت اعراب الطريق مقدمهم وتجنبوا اعتراضهم ومن صحبهم من الزوار حمد صحبتهم وذكر ان النبي صلى الله عليه وسلم ذكرهم وأثنى عليهم خيرا وقال عاموهم الصلاة يعلموكم الدعاء وكفاهم شرفا دخولهم في عموم قوله صلى الله عليه وسلم الايمان يمان والحكمة يمانية وذكر ان عبد الله بن عمر رضى الله عنهما كان يتحرى وقت طوافهم ويدخل في جملتهم تبركا بدعائهم وشانهم عجيب كله وقد جاء في أثر زاحوهم في الطواف فان الرحمة تنصب عليهم صبيا — ذكر عاداتهم في ليلة النصف من شعبان —

وهذه الليلة من الليالي المعظمة عند أهل مكة يبادرون فيها الى أعمال البر من الطواف والصلاة جماعات وأفرادا والاعمار ويجتمعون في المسجد الحرام جماعات لكل جماعة امام وبوقدون السرج والمصابيح والمشاعل ويقابل ذلك ضوء القمر يتلأل الأرض والسماء نورا ويصلون مائة ركعة يقرؤون في كل ركعة بام القرآن وسورة الاخلاص يكررونها عشرا وبعض الناس يصلون في الحجر منفردين وبعضهم يطوفون بالبيت الشريف وبعضهم قد خرجوا للاعمار

— ذكر عاداتهم في شهر رمضان المعظم —

واذا أهل هلال رمضان تضرب الطبول والدادب عند أمير مكة ويقع الاحتفال بالمسجد الحرام من تجديد الحصر وتكثير الشمع والمشاعل حتى يتلأل الحرم نورا ويسطع بهجة واشراقا وتنفرد الأئمة فقارهم الشافعية والحنفية والحنبلية والزيدية وأما المالكية فيجتمعون على أربعة من القراء يتناوبون القراءة ويوقدون الشمع ولا تبقى في الحرم زاوية ولا ناحية الا وفيها قارئ يصلي بجماعته فيرتج المسجد لاصوات القراء وترق النفوس وتحضر القلوب وتهمل الاعين ومن الناس من يقتصر على الطواف والصلاة في

الحجر منفردا والشافعية أكثر الأئمة اجتهادا وعاداتهم انهم اذا اكملوا التراويح المعتادة وهي عشرون ركعة يطوف امامهم وجماعته فاذا فرغ من الاسبوع ضربت الفرقة التي ذكرنا أنها تكون بين يدي الخطيب يوم الجمعة كان ذلك اعلاما بالعودة الى الصلاة ثم يصلي ركعتين ثم يطوف أسبوعا هكذا الى ان يتم عشرين ركعة أخرى ثم يصلون الشفع والوتر وينصرفون وسائر الأئمة لا يزيدون على العادة شيئا واذا كان وقت السحور يتولى المؤذن الزمزمي التمسحير في الصومعة التي بالركن الشرقي من الحرم فيقوم داعيا ومذكرا ومحرضا على السحور والمؤذنون في سائر الصوامع فاذا تكلم أحد منهم أجابه صاحبه وقد نصبت في أعلى كل صومعة خشبة على رأسها عود معترض قد علق فيه قنديلان من الزجاج كبيران يقدان فاذا قرب الفجر ووقع الاذان بالقطع مرة بعد مرة حط القنديلان وابتدأ المؤذنون بالاذان وأجاب بعضهم بعضا ولديار مكة شرفها الله سطوح فمن بعدت داره بحيث لا يسمع الاذان يبصر القنديلين المذكورين فيتمسحرح حتى اذا لم يبصرهما ألقع عن الكل وفي كل ليلة وتر من ليالي العشر الاواخر من رمضان يختمون القرآن ويحضر الختم القاضي والفقيه والكبراء ويكون الذي يختم بهم أحد أبناء كبراء أهل مكة فاذا ختم نصب له منبر مزين بالحريرواوقد الشمع وخطب فاذا فرغ من خطبته استدعى أبوه الناس الى منزله فاطعمهم الاطعمة الكثيرة والحلاوات وكذلك يصنعون في جميع ليالي الوتر وأعظم تلك الليالي عندهم ليلة سبع وعشرين واحتفالهم لها أعظم من احتفالهم لسائر الليالي ويختم بها القرآن العظيم خلف المقام الكريم وتقام ازاء حطيم الشافعية خشب عظام توصل بالخطيم وتعرض بينها ألواح طوال وتجعل ثلاث طبقات وعليها الشمع وقنديل الزجاج فيكاد يغشى الابصار شعاع الانوار ويتقدم الامام فيصلي فريضة العشاء الآخرة ثم يبتدىء قراءة سورة القدر واليهما يكون انتهاء قراءة الأئمة في الليلة التي قبلها وفي تلك الساعة يسك جميع الأئمة عن التراويح تعظيما لختمه المقام ويحضرونها متبركين فيختم الامام في تسليميتين ثم يقوم خطيبا مستقبلا المقام فاذا فرغ من ذلك عاد الأئمة الى صلاتهم وانقض الجمع ثم يكون الختم ليلة تسع وعشرين في المقام المالكى في منظر مختصر وعن المباهاة منزله موقر فيختم ويخطب

— ذكر عاداتهم في شوال —

ومادتهم في شوال وهو مفتتح أشهر الحج المعلومات أن يوقدوا المشاعل ليلة استهلاله ويسرجون المصابيح والشمع على نحو فعلهم في ليلة سبع وعشرين من رمضان وتوقد السرج في الصوامع من جميع جهاتها ويوقد سطح الحرم كله وسطح المسجد الذي بأعلى

أبي قبيس و يقيم المؤذنون ليالتهم تلك في تهليل و تكبير و تسبيح و الناس ما بين طواف
 وصلاة و ذكر و دعاء فإذا صلوا صلاة الصبح أخذوا في أهبة العيد و لبسوا أحسن ثيابهم
 و بادروا لاخذ بحا السهم بالحرم الشريف به يصلون صلاة العيد لانه لا موضع أفضل منه
 و يكون أول من يبكر الى المسجد الشيبون فيفتحون باب الكعبة المقدسة و يقعد كبيرهم
 في عتبتها و سائرهم بين يديه الى ان ياتي أمير مكة فيتلقونه و يطوف بالبيت أسبوعا و المؤذن
 الزمزمي فوق سطح قبة زمزم على العادة رافعا صوته بالثناء عليه و الدعاء له و لآخيه كما
 ذكر ثم ياتي الخطيب بين الرايتين السوداوين و الفرقة أمامه وهو لا بس السواد فيصلي
 خلف المقام الكريم ثم يصعد المنبر و يخطب خطبة بليغة ثم اذا فرغ منها أقبل الناس بعضهم
 على بعض بالسلام و المصافحة و الاستغفار و يقصدون الكعبة الشريف فيدخلونها أفواجا
 ثم يخرجون الى مقبرة باب المعلي تبركا بمن فيها من الصحابة و صدور السلف ثم ينصرفون

— ذكر احرام الكعبة —

وفي اليوم السابع و العشرين من شهر ذي القعدة نشمر أستار الكعبة الشريف زادة الله
 تعظيما الى نوار تقاع و نصف من جهاتها الاربع صوباها من الايدي أن تذهبها
 و يسمون ذلك احرام الكعبة وهو يوم مشهود بالحرم الشريف و لا تفتح الكعبة المقدسة
 من ذلك اليوم حتي تنقضي الوقفة بعرفة

— ذكر شعائر الحج و أعماله —

و اذا كان في أول يوم شهر ذي الحجة تضرب الطبول و الدبادب في أوقات الصلوات
 بكرة و عشية اشعارا بالموسم المبارك و لا تنزال كذلك الى يوم الصعود الى عرفات فإذا كان
 اليوم السابع من ذي الحجة خطب الخطيب اثر صلاة الظهر خطبة بليغة يعلم الناس فيها
 مناسكهم و يعلمهم بيوم الوقفة فإذا كان اليوم الثامن بكر الناس بالصعود الى منى و أمراء
 مصر و الشام و العراق و أهل العلم يبيتون تلك الليلة بمنى و تقع المباهاة و المفاخرة بين أهل
 مصر و الشام و العراق في ايقاد الشمع و لكن الفضل في ذلك لأهل الشام دائما فإذا كان اليوم
 التاسع رحلوا من منى بعد صلاة الصبح الى عرفة فيمرون في طريقهم بوادي محسر و يهرولون
 وذلك سنة و وادي محسر هو الحد ما بين مزدلفة و منى و مزدلفة بسيط من الارض فسيح
 بين جبلين و حولها مصانع و صهاريج الماء مما ينتهز بيده ابنة جعفر بن أبي جعفر المنصور
 زوجة أمير المؤمنين هارون الرشيد و بين منى و عرفة خمسة أميال و كذلك بين منى
 و مكة ايضا خمسة أميال و لعرفة ثلاثة أسماء و هي عرفة و جمع و المشعر الحرام و عرفات

بسيط من الارض فسيح افيح تحديق به جبال كثيرة وفي آخر بسيط عرفات جبل الرحمة وفيه الموقف وفيما حوله والعلمان قبله بنحو ميل وها الحدا بين الحل والحرم وبمقربة منهما مما يلي عرفة بطن عرنة الذي أمر النبي صلى الله عليه وسلم بالارتفاع عنه ويجب التحفظ منه ويجب أيضاً الامساك عن النفور حتي يتمكن سقوط الشمس فان الجمالين ربما استحثوا كثيراً من الناس وحذروهم الزحام في النفور واستدرجوهم الى أن يصلوا بهم بطن عرنة فيبطل حجهم وجبل الرحمة التي ذكرناه قائم في وسط بسيط جمع منقطع عن الجبال وهو من حجارة منقطع بعضها عن بعض وفي أعلاه قبة تنسب الى أم سلمة رضي الله عنها وفي وسطها مسجد يتزاحم الناس للصلاة فيه وحوله سطح فسيح يشرف على بسيط عرفات وفي قبله جدار فيه محاريب منصوبة يصلي فيه الناس وفي أسفل هذا الجبل عن يسار المستقبل للكعبة دار عتيقة البناء تنسب الى آدم عليه السلام وعن يسارها الصخرات التي كان موقف النبي صلى الله عليه وسلم عندها وحول ذلك صهاريج وجباب للماء وبمقربة منه الموضع الذي يقف فيه الامام ويخطب ويجمع بين الظهر والعصر وعن يسار العلين للمستقبل أيضاً وادي الاراك وبه أراك أخضر يمتد في الارض امتداداً طويلاً واذا حان وقت النفرا أشار الامام المالكى بيده ونزل عن موقفه فدفع الناس بالنفرا دفعة ترتج لها الارض وترجف الجبال فياله موقفاً كريماً ومشهداً عظيماً ترجو النفوس حسن عقباه وتطمح الآمال الى تفحات رحماء جعلنا الله ممن خصه فيه برضاه وكانت وقفتى الاولى يوم الخميس سنة ست وعشرين وأمير الركب المصرى يومئذ أرغون الدوانار نائب الملك الناصر وحجت في تلك السنة ابنة الملك الناصرو هي زوجة أبي بكر بن أرغون المذكور وحجت فيها زوجة الملك الناصر المسماة بالخونده وهي بنت السلطان المعظم محمد اوزبك ملك السراوخوارزم وأمير الركب الشامي سيف الدين الجوبان ولما وقع النفرا بعد غروب الشمس وصلنا مزدلفة عند العشاء الآخرة فصلينا بها المغرب والعشاء جمعا بينهما حسبما جرت سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولما صلينا الصبح بمزدلفة غدونا منها الى منى بعد الوقوف والدعاء بالمسعر الحرام ومزدلفة كلها موقف الا وادي محسرفيه تقع الهرولة حتى يخرج عنه ومن مزدلفة يستصحب أكثر الناس حصيات الجمار وذلك مستحب ومنهم من يلقطها حول مسجد الخيف والامر في ذلك واسع ولما انتهى الناس الى منى بادروا لرمي جمرة العقبة ثم نحروا وذبحوا ثم حلقوا وحلوا من كل شيء الا النساء والطيب حتى يطوفوا طواف الافاضة ورمى هذه الجمرة عند طلوع الشمس من يوم النحر ولما

رموها توجه أكثر الناس بعد أن ذبحوا وحلقوا إلى طواف الأفاضة ومنهم من أقام إلى اليوم الثاني وفي اليوم الثاني رمى الناس عند زوال الشمس بالجرة الأولى سبع حصيات وبالوسطى كذلك ووقفوا للدعاء بهاتين الجرتين اقتداء بفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ولما كان اليوم الثالث تعجل الناس الانحدار إلى مكة شرفها الله بعد أن كل لهم رمي تسع وأربعين حصاة وكثير منهم أقام اليوم الثالث بعد يوم النحر حتى رمي سبعين حصاة — ذكر كسوة الكعبة —

وفي يوم النحر بعثت كسوة الكعبة الشريفة من الركب المصري إلى البيت الكريم فوضعت في سطحه فلما كان اليوم الثالث بعد يوم النحر أخذ الشيبليون في أسبالها على الكعبة الشريفة وهي كسوة سوداء حالكة من الحرير مبطن بالكتان وفي أعلاها طراز مكتوب فيه بالياض جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً الآية وفي سائر جهاتها طرز مكتوب بالياض فيها آيات من القرآن وعليها نور لأنح مشرق من سوادها ولما كسيت شمرت لذيها صونا من أيدي الناس والملك الناصر هو الذي يتولى كسوة الكعبة الكريمة ويبعث هراتيات القاضي والخطيب والأئمة والمؤذنين والفراشين والقومة وما يحتاج له الحرم لتشريف من الشمع والزيت في كل سنة وفي هذه الأيام تفتح الكعبة الشريفة في كل يوم لعراقيين وأخراسانيين وسواهم ممن يصل مع الركب العراقي وهم يقيمون بمكة بعد سفر الركبين الشامي والمصري أربعة أيام فيكثرون فيها الصدقات على المجاورين وغيرهم ولقد شاهدتهم يطوفون بالحرم ليلاً فن لقوه في الحرم من المجاورين أو المكيين أعطوه الفضة والثياب وكذلك يعطون للمشاهدين الكعبة الشريفة وربما وجدوا أناساً نائمًا فجعلوا في فيه الذهب والفضة حتى يفيق ولما قدمت معهم من العراق سنة ثمان وعشرين فعلوا من ذلك كثيراً وأكثروا الصدقة حتى رخص سوم الذهب بمكة وانتهى صرف المثلقال إلى ثمانية عشر درهما نقرة لكثرة ما تصدقوا به من الذهب وفي هذه السنة ذكر اسم السلطان أبي سعيد ملك العراق على المنبر وقبة زمزم

— ذكر الاتصال عن مكة شرفها الله تعالى —

وفي الموفى عشرين لذي الحجة خرجت من مكة صحبة أمير ركب العراق البهلوان محمد الخويج بحاءين مهملين وهو من أهل الموصل وكان بلى إمارة الحاج بعد موت الشيخ شهاب الدين قلندر وكان شهاب الدين سخياً فاضلاً عظيم الحرمه عند سلطانه يخلق لحيته وحاجبيه على طريقة القلندرية ولما خرجت من مكة شرفها الله تعالى في صحبة الأمير

للبهلولان المذكور ا كترى لى شقة محارة الى بغداد ودفع اجارتها من ماله وأنزلني في
 جواره وخرجنا بعد طواف الوداع الى بطن مر في جمع من العراقيين والخراسانيين
 والفارسيين والا عا جم لا يحصى عديدهم توجهم الارض موجا ويسرون سير السحاب
 المتراكم فمن خرج عن الركب حاجة ولم تكن له علامة يستدل بها على موضعه ضل
 عنه لكثرة الناس وفي هذا الركب نواضح كثيرة لآبناء السبيل يستقون منها الماء وجمال
 لرفع الزاد للصدقة ورفع الادوية والاشربة والسكر لمن يصيبه مرض واذا نزل الركب
 طبخ الطعام في قدور نحاس عظيمة تسمى الدسوت وأطعم منها أبناء السبيل ومن لا زاد
 معه وفي الركب جملة من الجمال يحمل عليهما من لا قدرة له على المشى كل ذلك من صدقات
 السلطان أبي سعيد ومكارمه قال ابن جزى كرم الله هذه الكنية الشريفة فما أعجب أمرها في
 الكرم وحسبك بمولا نابحر المكارم ورافع رايات الجود الذي هو آية في الندى والفضل أمير
 المسلمين أبي سعيد ابن مولا تاقامع الكفار والآخذ للاسلام بالثار أمير المسلمين أبي يوسف
 قدس الله أرواحهم الكريمة وأبقى الملك في عقبهم الطاهر الى يوم الدين (رجع) وفي هذا
 الركب الاسواق الحافلة والمراق العظيمة وانواع الاطعمة والفواكه وهم يسرون بالليل
 ويوقدون المشاعل امام القطار والمحارات فتري الارض تتلألأ نوارا والليل قد عاد نهارا
 ساطعا ثم رحلنا من بطن مر الى عسفان ثم الى خليص ثم رحلنا أربع مراحل ونزلنا
 وادي السمك ثم رحلنا خمساً ونزلنا في بدر وهذه المراحل ثنتان في اليوم احدهما بعد
 الصبح والاخري بالعشي ثم رحلنا من بدر فنزلنا الصفراء وأقمنا بها يوما مستريحين ومنها الى
 المدينة الشريفة مسيرة ثلاث ثم رحلنا فوصلنا الى طيبة مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم
 وحصلت لنا زيارة رسول الله صلى الله عليه وسلم ثانياً وأقمنا بالمدينة كرمها الله تعالى ستة
 أيام واستصحبنا منها الماء لمسيرة ثلاث ورحلنا عنها فنزلنا في الثالثة بوادي العروس فتزودنا
 منه الماء من حسيات يحفرون عليها في الارض فينبطون ماء عذبا معينا ثم رحلنا من وادي
 العروس ودخلنا أرض نجد وهو بسيط من الارض مد البصر فتنسمننا نسيمة الطيب
 الأرج ونزلنا بعد أربع مراحل على ماء يعرف بالعسيلة ثم رحلنا عنه ونزلنا ماء
 يعرف بالقررة فيه آثار مصانع كالصهاريج العظيمة ثم رحلنا الى ماء يعرف بالقارورة
 وهي مصانع مملوءة بماء المطر مما صنعت زبدة ابنة جعفر رحما الله ونفعها وهذا الموضع
 هو وسط أرض نجد فسيح طيب النسيم صحيح الهواء نقي التربة معتدل في كل فصل ثم
 رحلنا من القارورة ونزلنا بالحاجر وفيه مصانع للماء وربما جفت فحفر عن الماء في الجفار

ثم رحلنا ونزلنا سميرة وهي أرض غائرة في بسيط فيه شبه حصن مسكرين وماؤها كثير في أبار الانه زعاق ويأتي عرب تلك الارض بالغنم والسمن واللبن فيبيعون ذلك من الحجاج بالثياب الخام ولا يبيعون بسوى ذلك ثم رحلنا ونزلنا بالجبل المخروق وهو في بيدا من الارض وفي أعلاه ثقب نافذ تخرقه الريح ثم رحلنا منه الى وادى الكروشن ولما به به ثم أسرنا ليلالا وصبحنا حصن فيدوهو حصن كبير في بسيط من الارض يدور به سور وعليه روض وساكنوه عرب يتعيشون مع الحاج في البيع والتجارة وهناك يترك الحجاج بعض أزوادهم حين وصولهم من العراق الى مكة شرفها الله تعالى فاذا عادوا وجدوه وهو نصف الطريق من مكة الى بغداد ومنه الى الكوفة مسيرة اثني عشر يوما في طريق سهل به المياه في المصانع ومن عادة الركبان يدخلوا هذا الموضع على تعبئة وأهبة للحرب ارهابا للعرب المجتمعين هنالك وقطعا لا طماعهم عن الركب وهنالك لقينا أميري العرب وهما فياض وحيار واسمه (بكسر الحاء واهماله وياه آخر الحروف) وهما أبناء الأمير مهني بن عيسى ومعهما من خيل العرب ورجالهم من لا يحصون كثرة فظهر منهما الحافطة على الحاج والرحال والحوطة لهم وأتى العرب بالجمال والغنم فاشترى منهم الناس ما قدروا عليه ثم رحلنا ونزلنا الموضع المعروف الا جفرو يشتهر باسم العاشقين جميل وبشينة ثم رحلنا ونزلنا بالبيداء ثم أسرنا ونزلنا زرود وهي بسيط من الارض فيه رمال منهالة وبه دور صغار قد اداروها شبه الحصن وهنالك آبار ماء ليست بالعذبة ثم رحلنا ونزلنا الثعلبية ولها حصن خرب بازائه مصنع هائل ينزل اليه في درج وبه من ماء المطر ما يعي الركب ويجمع من العرب بهذا الموضع جمع عظيم فيبيعون الجمال والغنم والسمن واللبن ومن هذا الموضع الى الكوفة ثلاث مراحل ثم رحلنا فنزلنا ببركة المرجوم وهو مشهد على الطريق عليه كوم عظيم من حجارة وكل من مر به رحمه وبذكران هذا المرجوم كان رافضيا فسا فر مع الركب يريد الحج فوقع بينه وبين اهل السنة من الاتراك مشاجرا فسب بعض الصحابة فقتلوه بالحجارة وبهذا الموضع بيوت كثيرة للعرب ويقصدون الركب بالسمن واللبن وسوى ذلك وبه مصنع كبير يعي جميع الركب مما بنته زبيدة رحمة الله عليهم وكل مصنع أو بركة أو بئر بهذه الطريق التي بين مكة وبغداد فهي من كريم آثارها جزاه الله خيرا ووفي لها أجرها ولولا عنايتها بهذه الطريق ما سلكها أحد ثم رحلنا ونزلنا موضعه يعرف بالمشقوق فيه مصنعان بهما الماء العذب الصافي وأراق الناس ما كان عندهم من الماء وتزودوا منهما ثم رحلنا ونزلنا موضعا يعرف بالتنانير وفيه مصنع ممتلئ بالماء ثم أسرنا من

واجتزا ضحوة بزماله وهي قرية معمورة بها قصر للعرب ومصنعان للماء وآبار كثيرة وهي من مناهل هذا الطريق ثم رحلنا فنزلنا الهيثمين وفيه مصنعان للماء ثم رحلنا فنزلنا دون العقبة المعروفة بعقبة الشيطان وصعدنا العقبة في اليوم الثاني وليس بهذا الطريق وعرسواها على أنها ليست بصعبة ولا طائلة ثم نزلنا موضعاً يسمى واقصة فيه قصر كبير ومصانع للماء معمور بالعرب وهو آخر مناهل هذا الطريق وليس فيما بعده إلى الكوفة منهل مشهور الأشارع بماء الفرات وبه يتلقى كثير من أهل الكوفة الحاج ويأتون بالدقيق والخبز والتمر والفواكه ويهني الناس بعضهم بعضاً بالسلامة ثم نزلنا موضعاً يعرف بلورة فيه مصنع كبير للماء ثم نزلنا موضعاً يعرف بالمساجد فيه ثلاث مصانع ثم نزلنا موضعاً يعرف بمنارة القرون وهي منارة في بيداء من الأرض بآنية الارتفاع مجللة بقرون الغزلان ولا عمارة حولها ثم نزلنا موضعاً يعرف بالعذيب وهو واد مخصب عليه عمارة وحوله فلاة خصبة فيها مسرح ثم نزلنا القادسية حيث كانت الوقعة الشهيرة على الفرس التي أظهر الله فيها دين الإسلام وأذل الجوس عبدة النار فلم تهم بعدهم قائمة واستأصل الله شأفتهم وكان أمير المسلمين يومئذ سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه وكانت القادسية مدينة عظيمة افتتحها سعد رضي الله عنه وخربت فلم يبق منها الآن إلا مقدار قرية كبيرة وفيها حدائق النخل وبها أشارع من ماء الفرات ثم رحلنا منها فنزلنا مدينة مشهد على بن أبي طالب رضي الله عنه بالنجف وهي مدينة حسنة في أرض فسيحة صلبة من أحسن مدن العراق وأكثرها ناساً وأتقنها بناء ولها أسواق حسنة نظيفة دخلناها من باب الحضرة فاستقبلنا سوق البقالين والطباخين والخبازين ثم سوق الفاكهة ثم سوق الخياطين والقساريين ثم سوق العطارين ثم باب الحضرة حيث القبر الذي يزعمون أنه قبر علي عليه السلام وبازائه المدارس والزوايا والخوانق معمورة أحسن عمارة وحيطانها بانقاشاني وهو شبه الزليج عندنا لكن لونه أشرق ونقشه أحسن — ذكر الروضة والقبور التي بها —

ويدخل من باب الحضرة إلى مدرسة عظيمة يسكنها الطلبة والصوفية من الشيعة ولكل وارد عليها ضيافة ثلاثة أيام من الخبز واللحم والتمر مرتين في اليوم ومن تلك المدرسة يدخل إلى باب القبة وعلى بابها الحجاب والنقباء والطواشية فعند ما يصل الزائر يقوم إليه أحدهم أو جميعهم وذلك على قدر الزائر فيقفون معه على العتبة ويستأذنون له ويقولون عن أمر كرم أمير المؤمنين هذا العبد الضعيف يستأذن على دخوله للروضة العلية فإن أذنت له والارجع فإن لم يكن أهلاً لذلك فاتم أهل المكارم والستر ثم يأمرونه بتقبيل العتبة وهي من الفضة وكذلك

العضادتان ثم يدخل القبة وهي مفروشة بأنواع البسط من الحرير وسواه وبها قناديل الذهب والفضة منها الكبير والصغار وفي وسط القبة مسطبة مربعة مكسوة بالخشب عليه صفائح الذهب المنقوشة المحككة العمل مسطرة بمسامير الفضة قد غلبت على الخشب بحيث لا يظهر منه شيء وارتفاعها دون القامة وفوقها ثلاثة من القبور يزعمون ان أحدها قبر آدم عليه الصلاة والسلام والثاني قبر نوح عليه الصلاة والسلام والثالث قبر علي رضي الله تعالى عنه وبين القبور طسوت ذهب وفضة فيها ماء الورد والمسك وأنواع الطيب يغمس الزائر يده في ذلك ويدهن به وجهه تبركا وللقبة باب آخر عتبتها أيضاً من الفضة وعليه ستور من الحرير الملون يفضي الى مسجد مفروش بالبسط الحسان مستورة حيطانه وسقفه يستور الحرير وله أربعة أبواب عتباتها فضة وعليها ستور الحرير وأهل هذه المدينة كلهم رافضية وهذه الروضة ظهرت لها كرامات ثبت بها عندهم أن بها قبر علي رضي الله عنه فمنها ان في ليلة السابع والعشر بن من رجب وتسمى عندهم ليلة الحيا يؤتى الى تلك الروضة بكل مقعد من العراقيين وخراسان وبلاد فارس والروم فيجتمع منهم الثلاثون والاربعون ونحو ذلك فاذا كان بعد العشاء الآخرة جعلوا فوق الضريح المقدس والناس ينتظرون قيامهم وهم مابين مصل وذا كروتال ومشاهد للروضة فاذا مضى من الليل نصفه أو ثلثاه أو نحو ذلك قام الجميع اصحاء من غير سوء وهم يقولون لا اله الا الله محمد رسول الله على ولي الله وهذا أمر مستفيض عندهم سمعته من الثقة ولم أحضر تلك الليلة لكني رأيت بمدرسة الضياف ثلاثة من الرجال أحدهم من أرض الروم والثاني من أصبهان والثالث من خراسان وهم مقعدون فاستخبرتهم عن شأنهم فاخبروني انهم لم يدركوا ليلة الحيا وانهم منتظرون أو انها من عام آخر وهذه الليلة يجتمع لها الناس من البلاد وقيمون سوقاً عظيمة مدة عشرة أيام وليس بهذه المدينة مغرم ولا مكاس ولا وال وإنما يحكم عليهم نقيب الاشراف وأهلها تجار يسافرون في الاقطار وهم أهل شجاعة وكرم ولا يضام جارهم صحبتهم في الاسفار فخدمت صحبتهم لكنهم غلوا في علي رضي الله عنه ومن الناس في بلاد العراق وغيرها من يصيبه المرض فينذر للروضة نذرا اذا برى ومنهم من يمرض رأسه فيصنع رأساً من ذهب أو فضة ويأتي به إلى الروضة فيجعل النقيب في الخزانة وكذلك اليد والرجل وغيرها من الاعضاء وخزانة الروضة عظيمة فيها من الاموال ما لا يضبط لكثرة

— ذكر نقيب الاشراف —

ونقيب الاشراف مقدم من ملك العراق ومكانه عنده مكين ومنزله رفيعة وله ترتيب

الامراء الكبار في سفره وله الاعلام والاطبال وتضرب الطبليخانة عند بابيه مساء وصباحا
واليه حكم هذه المدينة ولا والى بها سواه ولا مغرم فيها للسلطان ولا لغيره وكان النقيب
في عهد دخولي اليها نظام الدين حسين بن تاج الدين الآوى نسبة الى بلدة آوة من عراق
العجم أهلها رافضة وكان قبله جماعة يلى كل واحد منهم بعد صاحبه منهم جلال الدين
ابن الفقيه ومنهم قوام الدين بن طاووس ومنهم ناصر الدين مطهر بن الشريف الصالح
شمس الدين محمد الاوهرى من عراق العجم وهو الآن بارض الهند من ندماء ملكها
ومنهم أبو غرة بن سالم بن مهني بن جمار بن شيحة الحسيني المدني — حكاية —

كان الشريف أبو غرة قد غلب عليه في أول أمره العبادة وتعلم العلم واشتهر بذلك وكان
ساكنا بالمدينة الشريفة كرمها الله في جوار ابن عمه منصور بن جمار أمير المدينة ثم إنه
خرج عن المدينة واستوطن العراق وسكن منها بالحللة فمات النقيب قوام الدين بن طاووس
فاتفق أهل العراق على تولية أبي غرة نقابة الاشراف وكتبوا بذلك الى السلطان أبي
سعيد فامضاه ونقله الى ريغ وهو الظهير بذلك وبعثت له الخلعة والاعلام والطبول
على عادة النقباء ببلاد العراق فغلبت عليه الدنيا وترك العبادة والزهد وتصرف في الاموال
تصرفا قبيحا فرفع أمره الى السلطان فلما علم بذلك أعمل السفر مظهرا انه يريد
خراسان قاصدا زيارة قبر علي بن موسى الرضا بطوس وكان قصده الفرار فلم ازار قبر
علي بن موسى قدم هراة وهي آخر بلاد خراسان وأعلم أصحابه أنه يريد بلاد الهند فرجع
أكثرهم عنه وتجاوز هو أرض خراسان الى السند فلما جاز وادي السند المعروف ببنيج آب
ضرب طبوله وانفاره فراع ذلك أهل القرى وظنوا أن التتر أتوا للاغارة عليهم وأجفلوا
الى المدينة المسماة بأوجا وأعلموا أميرها بما سمعوه فركب في عساكره واستعد للحرب
وبعث الطلائع فرأوا نحو عشرة من الفرسان وجماعة من الرجال والتجار ممن صاحب
الشريف في طريقه معهم الاطبال والاعلام فسالوهم عن شأنهم فأخبروهم ان الشريف
نقيب العراق أتى وافدا على ملك الهند فرجع الطلائع الى الامير وأخبروه بكيفية الحال
فاستضعف عقل الشريف لرفعه العلامات وضر به الطبول في غير بلاده ودخل الشريف
مدينة أوجا وأقام بهامدة تضرب الاطبال على باب داره غدوة وعشيا وكان مولعا بذلك
ويذكر أنه كان في أيام نقابة بال عراق تضرب الاطبال على رأسه فاذا أمسك النصارى عن الضرب
يقول له زد نقرة يا نصارى حتى لقب بذلك وكتب صاحب مدينة أوجا الى ملك الهند بنحير
الشريف وضر به الاطبال بالطريق وعلى باب داره غدوة وعشيا ورفع الاعلام وعادة أهل

الهند أن لا يرفع علما ولا يضرب طبلا الا من أعطاه الملك ذلك ولا يفعله الا في السفر وأما في حال الإقامة فلا يضرب الطبل الا على باب الملك خاصة بخلاف مصر والشام والعراق فان الطبول تضرب على أبواب الامراء فلما بلغ خبره ملك الهند كره فعله وأنكره وفعّل في نفسه ثم خرج الامير الى حضرة الملك وكان الامير كشلي خان والخان عندهم أعظم الامراء وهو الساكن بملتان كرسى بلاد السند وهو عظيم القدر عند ملك الهند يدعو به بالملك لانه كان ممن أعان أباه السلطان غياث الدين تغلق شاه على قتال السلطان ناصر الدين خسرو شاه قد قدم على حضرة ملك الهند فخرج الملك الى لقائه فاتفق ان كان وصول الشريف في ذلك اليوم وكان الشريف قد سبق الامير باميال وهو على حاله من ضرب الاطبال فلم يرعه الا السلطان في موكبته فتقدم الشريف الى السلطان فسلم عليه وسأله السلطان عن حاله وما الذي جاء به فاخبره ومضى السلطان حتى اتى الامير كشلي خان وعاد الى حضرته ولم يلتفت الى الشريف ولا أمر له بانزال ولا غيره وكان الملك عازما على السفر الى مدينة دولة آباد وتسمي أيضاً بالكتكة (بفتح الكافين والتاء المعلقة التي بينهما) وتسمي أيضاً بالدويجر (دو كير) وهي على مسيرة أربعين يوما من مدينة دهلي حضرة الملك فلما شرع في السفر بعث الى الشريف بخمسمائة دينار دراهم وصرفها من ذهب انغرب مائة وخمسة وعشرون ديناراً وقال لرسوله اليه قل له ان أراد الرجوع الى بلاده فهذا زاده وان أراد السفر معنا فهي نفقته في الطريق وان أراد الإقامة بالحضرة فهي نفقته حتى نرجع فاغتم الشريف لذلك وكان قصده ان يجزل له العطاء كما هي عادته مع أمثاله واختار السفر صحبة السلطان وتعلق بالوزير احمد بن اياس المدعو بالخواجه جهان وبذلك سباه الملك وبه يدعو هو وبه يدعو سائر الناس فان من عادتهم انه متى سمي الملك احداً باسمه مضاف الى الملك من عماد اوثقه او قطب او باسم مضاف الى جهان من صدر وغيره فبذلك يخاطبه الملك وجميع الناس ومن خاطبه بسوى ذلك لزمته العقوبة فأكدت المودة بين الوزير والشريف فاحسن اليه ورفع قدره ولاطف الملك حتى احسن فيه رأيه وأمر له بقر يتين من قرى دولة آباد وأمره ان تكون اقامته بها وكان هذا الوزير من أهل الفضل والمروءة ومكارم الاخلاق والمحبة في الغرباء والا حسان اليهم وفعل الخير واطعام الطعام وعمارة الزوايا فاقام الشريف يستغل القريتين ثمانية أعوام وحصل من ذلك مالا عظيماً ثم أراد الخروج فلم يمكنه فانه من خدم السلطان لا يمكنه الخروج الا باذنه وهو محب في الغرباء فقليل ما ياذن لاحد منهم في السراح فاراد الفرار

من طريق الساحل فرد منه وقدم الحضرة ورغب من الوزير أن يحاول قضية انصرافه فتلطف الوزير في ذلك حتى اذن له السلطان في الخروج عن بلاد الهند واعطاه عشرة آلاف دينار من دراهمهم و صرفها من ذهب المغرب الفان وخمسمائة دينار فأتى بها في بدرة فجعلها تحت فراشه ونام عليها لحبته في الدنانير وفرحه بها وخوفه أن يتصل لاحد من اصحابه شيء منها فانه كان بخيلا قاصدا به وجع في جنبه بسبب رقاده عليها ولم يزل يترايد به وهو آخذ في حركة سفره الى أن توفي بعد عشرين يوما من وصول البدرة اليه واوصى بذلك المال للشریف حسن الجرائي فتصدق بجملة على جماعة من الشيعة المقيمين بدهلي من أهل الحجاز والعراق وأهل الهند لا يورثون بيت المال ولا يتعرضون لمسال الغرباء ولا يسألون عنه ولو بلغ ما عسى أن يبلغ وكذلك السودان لا يتعرضون لمسال الا بيض ولا يأخذونه انما يكون عند الكبار من أصحابه حتى يأتي مستحقه وهذا الشریف أبو غرة له أخ اسمه قاسم سكن غرناطة مدة وبها تزوج بنت الشریف أبي عبد الله بن ابراهيم الشهير بالملك ثم انتقل الى جبل طارق فسكنه الى ان استشهد بوادی كرة من نظر الجزيرة الخضراء وكان بهمة من البهم لا يصطلي بناره خرق المعتاد في الشجاعة وله فيها أخبار شهيرة عند الناس وترك ولدين هما في كفالة ربيهما الشریف الفاضل أبي عبد الله محمد ابن أبي القاسم بن نفيس الحسيني الكر بلائي الشهير ببلاد المغرب بالعراقي وكان تزوج أمهما بعد موت أبيهما وهو محسن لهما جزاه الله خيرا

ولما تحصلت لنا زيارة أمير المؤمنين على عليه السلام سافر الركب الى بغداد وسافرت الى البصرة صحبة رفيقة كبيرة من عرب خفاجة وهم أهل تلك البلاد ولهم شوكة عظيمة وبأس شديد ولا سبيل للسفر في تلك الاقطار الا في صحبتهم فاكترت جملا على يد أمير تلك القافلة شامر بن دراج الخفاجي وخرجناه من مشهد على عليه السلام فنزلنا الخورنق موضع سكني النعمان بن المنذر وآبائه من ملوك بني ماء السماء وبه عمارة وبقايا قباب ضخمة في فضاء فسيح على نهر يخرج من الفرات ثم رحلنا عنه فنزلنا موضعا يعرف بقائم الائق وبه أثر قرية خربة ومسجد خرب لم يبق منه الا صومعته ثم رحلنا عنه آخذين مع جانب الفرات بالموضع المعروف بالعدارو هو غابة قصب في وسط الماء يسكنها اعراب يعرفون بالمعادي وهم قطاع الطريق رافضية المذهب خرجوا على جماعة من الفقراء تاخروا عن رفقتنا فسلبواهم حتى النعال والكشاكل وهم يتحصنون بتلك الغابة ويمتنعون بها ممن يريد السباع بها كثيرة ورحلنا مع هذا الغدار ثلاث مراحل ثم وصلنا مدينة واسط

— مدينة واسط —

وهي حسنة الاقطار كثيرة البساتين والاشجار بها اعلام يهدي الخير شاهدم وتهدي الاعتبار مشاهدم وأهلها من خيار أهل العراق بل هم خير هم على الاطلاق أكثرهم يحفظون القرآن الكريم ويجيدون تجويده بالقراءة الصحيحة واليهم يأتي أهل بلاد العراق برسم تعلم ذلك وكان في القافلة التي وصلنا فيها جماعة من الناس أتوا برسم تجويد القرآن على من هم من الشيوخ وبها مدرسة عظيمة حافلة فيها نحو ثلاثمائة خلوة ينزلها الغرباء القادمون لتعلم القرآن عمرها الشيخ تقي الدين عبدالحسن الواسطي وهو من كبار أهلها وفقهاؤها ويعطي لكل متعلم بها كسوة في السنة ويجري له نفقته في كل يوم ويقعد هو وأخوانه وأصحابه لتعليم القرآن بالمدرسة وقد لقينته وأضافني وزودني تمرا ودرهما ولما نزلنا مدينة واسط أقامت القافلة ثلاثا بخارجها للتجارة فسنح لي زيارة قبر الولي أبي العباس أحمد الرقاعي وهو بقرية تعرف بام عبيدة على مسيرة يوم من واسط فطلبت من الشيخ تقي الدين أن يبعث معي من يوصلني اليها فبعث معي ثلاثة من عرب بني أسد وهم قطان تلك الجهة واركني فرسالة وخرجت ظهرا فبت تلك الليلة بحوش بني اسد ووصلنا في ظهرا اليوم الثاني الى الرواق وهو رباط عظيم فيه آلاف من الفقراء وصادقنا به قدوم الشيخ أحمد كوجك حفيد ولي الله أبي العباس الرقاعي الذي قصدنا زيارته وقد قدم من موضع سكنائه من بلاد الروم برسم زيارته قبر جده واليه انتهت الشياخة بالرواق ولما انقضت صلاة العصر ضربت الطبول والدفوف وأخذ الفقراء في الرقص ثم صلوا المغرب وقدموا السباط وهو خبز الارز والسمك واللبن والتمر فاكلوا الناس ثم صلوا العشاء الآخرة وأخذوا في الذكر والشيخ أحمد قاعد على سجادة جده المذكور ثم أخذوا في السماع وقد أعدوا احمالا من الخطب فاججوها ناراً ودخلوا في وسطها برقصون ومنهم من يتمرغ فيها ومنهم من ياكلها بقمه حتى أطفئوها جميعها وهذا دأبهم وهذه الطائفة الاحمدية مخصوصون بهذا وفيهم من ياخذ الحية العظيمة فيعض بأسنانه على رأسها حتي يقطعه — حكاية —

كنت مررت بموضع يقال له أفقا نبور من عمالة هزار مروها وبيتها وبين دهلي حضرة الهند مسيرة خمس وقد نزلنا بها على نهر يعرف بنهر السرور وذلك في أوان الشكال والشكال عندهم هو المطر وينزل في إبان القيظ وكان السيل ينحدر في هذا النهر من جبال قراجيل فكل من يشرب منه من انسان أو بهيمة يموت لنزول المطر على الحشائش المسمومة فاقمنا على النهر أربعة أيام لا يقربه أحد ووصل الى هنالك جماعة من الفقراء في أعناقهم

أطواق الحديد وفي أيديهم وكبيرهم جل أسود حالاك اللون وهم من الطائفة المعروفة بالحيدرية فباتوا عندنا ليلة وطلب مني كبيرهم أن آتية بالخطب ليوقدوه عند رقصهم فكلفت والى تلك الجهة وهو عزيز المعروف بالخممار (وسياتى ذكره) أن يأتى بالخطب فوجه منه نحو عشرة اجمال فاضرموا فيه النار بعد صلاة العشاء الآخرة حتى صارت جمرا واخذوا فى السماع ثم دخلوا فى تلك النار فما زالوا يرقصون ويتمرغون فيها وطلب مني كبيرهم قميصاً فاعطيتهم قميصاً فى النهاية من الرقة فلبسه وجعل يتمرغ به فى النهار و بضر بهما بكلامه حتى طفئت تلك النار وحدث وجاء الى بالقميص والنار لم تؤثر فيه شياً البتة فطال عجبى منه ولما حصلت لى زيارة الشيخ أنى العباس الرفاعي نفع الله به عدت الى مدينة واسط فوجدت الرفقة التي كنت فيها قد رحلت فلحقتهما فى الطريق ونزلنا ما يعرف بالهضيب ثم رحلنا ونزلنا بوادي الكراع وليس به ماء ثم رحلنا ونزلنا موضعاً يعرف بالمشيرب ثم رحلنا منه ونزلنا بالقرب من البصرة ثم رحلنا فدخلنا ضحوة النهار الى مدينة البصرة

— مدينة البصرة —

فزلنا بهارباط مالك بن دينار وكنت رأيت عند قدمي عليها على نحو ميلين منها بناء عال ياء مثل الحصن فسأت عنه فقل له هو مسجد على بن أبي طالب رضى الله عنه وكانت البصرة من اتساع الخطة وانفساح الساحة بحيث كان هذا المسجد فى وسطها وبينه الآن وبينها ميلان وكذلك بينه وبين السور الاول المحيط بها نحو ذلك فهو متوسط بينهما ومدينة البصرة احدي أمهات العراق الشهيرة الذ كرى الآفاق الفسيحة الارحاء المؤنقة الافاء ذات البساتين الكثيرة والفواكه الانيرة توفر قسمها من النضارة والخصب لما كانت مجمع البحرين الاجاج والمعذب وليس فى الدنيا أكثر نخلا منها في باع التمر فى سوقها بحساب أربعة عشر رطلا عراقية بدرهم ودرهمهم ثلث النقرة ولقد بعث الى قاضيها حجة الدين بقوصرة تمر يحملها الرجل على تكلف فاردت بيعها فبيعت بتسعة دراهم أخذ الجمال منها ثلثها عن أجرة حملها من المنزل الى السوق ويصنع بها من التمر عسل يسمى السيلان وهو طيب كانه الجلاب والبصرة ثلاث محلات احدها محلة هذيل وكبيرها الشيخ الفاضل علاء الدين بن الاثير من الكرماء الفضلاء أضافنى وبعث الى بثياب ودرهم والمحلة الثانية محلة بنى حرام كبيرها السيد الشريف مجد الدين موسى الحسنى ذو مكارم وفواضل أضافنى وبعث الى التمر والسيلان والدرهم والمحلة الثالثة محلة المعجم كبيرها جمال الدين ابن اللوكى وأهل البصرة لهم مكارم أخلاق وايناس للغريب وقيام بحقه فلا يستوحش فيما بينهم غريب

وهم يصلون الجمعة في مسجد أمير المؤمنين على رضي الله عنه الذي ذكرته ثم يسد فلا يأتونه الا في الجمعة وهذا المسجد من أحسن المساجد وصحنه متناهي الانفساح مفروش بالحصباء الحمراء التي يؤتى بها من وادي السباع وفيه المصحف الكريم الذي كان عثمان رضي الله عنه يقرأ فيه لما قتل وأثر تغييره الدم في الورقة التي فيه قوله تعالى (فسيكفئكم الله وهو السميع العليم) — حكاية اعتبار —

شهدت مرة بهذا المسجد صلاة الجمعة فلما قام الخطيب به الى الخطبة وسردها لحن فيها لحننا كثيرا جلينا فعجبت من أمره وذكرت ذلك للقاضي حجة الدين فقال لي ان هذا البلد لم يبق به من يعرف شيئا من عالم النحو وهذه عبرة لمن تفكر فيها سبحان مغير الاشياء ومقلب الامور هذه البصرة التي الى أهلها انتهت رئاسة النحو وفيها أصله وفرعه ومن أهلها امامه الذي لا ينكر سبقه لا يقم خطيبها خطبة الجمعة على دؤبه عليها ولهذا المسجد سبع صوامع احداها الصومعة التي تتحرك بزعمهم عند ذكر علي بن أبي طالب رضي الله عنه صعدت اليها من أعلى سطح المسجد ومعى بعض أهل البصرة فوجدت في ركن من أركانها مقبض خشب مسمرافها كأنه مقبض مملسة البناء فجعل الرجل الذي كان معي يده في ذلك المقبض وقال بحق رأس أمير المؤمنين على رضي الله عنه تحركى وهز المقبض فتحركت الصومعة فجعلت انا يدي في المقبض وقلت له وأنا أقول بحق رأس أبي بكر خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم تحركى وهزرت المقبض فتحركت الصومعة فعجبوا من ذلك وأهل البصرة على مذهب السنة والجماعة ولا يخاف من يفعل مثل فعلي عندهم ولو جري مثل هذا بمشهد على أو مشهد الحسين أو بالحلة أو بالبحرين أو قم أو قاشان أو ساوة أو آوة أو طوس لهلك قاعله لانهم رافضة غالية قال ابن جزى قد عاينت بمدينة برشانة من وادي المنصورة من بلاد الاندلس حاطها الله صومعة تهتز من غير أن يذكر لها أحد من الخلفاء أو سواهم وفي صومعة المسجد الأعظم بها وبنائها ليس بالقديم وهي كاحسن ما أنت راء من الصوامع حسن منظر واعتدالا وارتفاعا لا ميل فيها ولا زيبغ صعدت اليها مرة ومعى جماعة من الناس فاخذ بعض من كان معي بجوانب جامورها وهزوها فاهتزت حتى أشرت اليهم أن يكفوا فكفوا عن هزها (رجع)

— ذكر المشاهد المباركة بالبصرة —

فمنها مشهد طلحة بن عبيد الله أحد العشرة رضي الله عنهم وهو بداخل المدينة وعليه قبة ومسجد وزاوية فيها الطعام للوارد والصادر وأهل البصرة يعظمونه تعظيما شديدا

وحق له ومنها مشهد الزبير بن العوام حواري رسول الله صلى الله عليه وسلم وابن عمته رضى الله عنهما وهو بخارج البصرة ولاقبة عليه وله مسجد وزاوية فيها الطعام لا بناء السبيل ومنها قبر حليلة السعدية أم رسول الله صلى الله عليه وسلم من الرضاعة رضى الله عنها والي جانبها قبر ابنها رضيع رسول الله صلى الله عليه وسلم ومنها قبر أبي بكر صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وعليه قبة وعلى ستة أميال منها بقرب وادي السباع قبر أنس بن مالك خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا سبيل لزيارته الا في جمع كثير لكثرة السباع وعدم العمران ومنها قبر الحسن بن أبي الحسن البصري سيد التابعين رضى الله عنه ومنها قبر محمد بن سيرين رضى الله عنه ومنها قبر محمد بن واسع رضى الله عنه ومنها قبر عتبة الغلام رضى الله عنه ومنها قبر مالك بن دينار رضى الله عنه ومنها قبر حبيب العجمي رضى الله عنه ومنها قبر سهل بن عبد الله التستري رضى الله عنه وعلي كل قبر منها قبة مكتوب فيها اسم صاحب القبر ووقاته وذلك كله داخل السور القديم وهي اليوم بينها وبين البلد نحو ثلاثة أميال وبها سوى ذلك قبور الجمل الغفير من الصحابة والتابعين المستشهدين يوم الجمل وكان أمير البصرة حين ورودى عليها يسمى بركن الدين العجمي التوريزي أضافني فاحسن الى والبصرة على ساحل الفرات والدجلة وبها المد والجزر كمثله ما هو بوادي سلا من بلاد المغرب وسواه والخليج المالح الخارج من بحر فارس على عشرة أميال منها فاذا كان المد غلب الماء المالح على العذب واذا كان الجزر غلب الماء الحلو على المالح فيستسقي أهل البصرة الماء لدورهم ولذلك يقال ان ماءهم زعاق قال ابن جزي وبسبب ذلك كان هواء البصرة غير جيد وألوان أهلها مصفرة كاسفة حتى ضرب بهم المثل وقال بعض الشعراء وقد أحضرت بين يدي الصاحب اترجة (سريع)

لله أترج غدا بيننا * معبرا عن حال ذي عبرة

لما كسا الله ثياب الضنا * أهل الهوى وساكني البصرة

(رجع) ثم ركبت من ساحل البصرة في صنبوق وهو القارب الصغير الى الابلّة وبينها وبين البصرة عشرة أميال في بساتين متصلة ونخيل مظلة عن اليمين واليسار والبياعة في ظلال الاشجار يديمون الخبز والسّمك والتمر واللبن والقواكه وفيما بين البصرة والابلّة متعبد سهل بن عبد الله التستري فاذا حاذاه الناس بالسفن تراهم يشرّبون الماء مما يحاذيه من الوادي ويدعون عند ذلك تبركا بهذا الولي رضى الله عنه والنواتية يحرفون في هذه البلاد وهم قيام وكانت الابلّة مدينة عظيمة يقصدها تجار الهند وفارس فخرت وهي الآن

قرية بها آثار قصور وغير هادالة على عظمها ثم ركبنا في الخليج الخارج من بحر فارس في مركب صغير لرجل من أهل الابله يسمى بمغامس وذلك فيما بعد المغرب فصباحنا عبادان وهي قرية كبيرة في سبخة لا عمارة بها وفيها مساجد كثيرة ومتعبدات وورباطات للصالحين وبينها وبين الساحل ثلاثة أميال قال ابن جزى عبادان كانت المدافيا تقدم وهي بحرية لا زرع بها وإنما يجلب اليها والماء أيضا قليل وقد قال فيها بعض الشعراء (سر يع)

من مبالغ اندلسا اني * حلت عبادان أقصى الثرا
أوحش ما أبصرت لكنني * قصدت فيها ذكرها في الوري
الخبر فيها يتهدونه * وشربة الماء بها تشتري

(رجع) وعلى ساحل البحر منها رابطة تعرف بالنسبة الى الخضر والياس عليهما السلام وبازائها زاوية يسكنها أربعة من الفقراء بأولادهم يخدمون الرابطة والزاوية ويتعيشون من فتوحات الناس وكل من يمر بهم يتصدق عليهم وذكركم أهل هذه الزاوية ان عبادان عابدا كبير القدر ولا أنيس له يأتي هذا البحر مرة في الشهر فيصطاد فيه ما يقوته شهران لا يري الا بعد تمام شهر وهو على ذلك منذ أعوام فلما وصلنا عبادان لم يكن لي شأن الا طلبه فاشتغل من كان معي بالصلاة في المساجد والمتعبدات وانطلقت طالبا له فجيئت مسجدا خربا فوجدته يصلي فيه فجلست في جانبه فاجز في صلاته ولما سلم أخذ بيدي وقال لي بلغك الله مرادك في الدنيا والآخرة فقد بلغت بحمد الله مرادي في الدنيا وهو السياحة في الارض وبلغت من ذلك ما لم يبلغه غيري فيما أعلمه وبقيت الاخري والرجاء قومي في رحمة الله وتجاوزته وبلوغ المراد من دخول الجنة ولما أتيت أصحابي أخبرتهم خبر الرجل وأعلمتهم بموضعه فذهبوا اليه فلم يجدوه ولا وقعوا له على خبر فعمجوا من شأنه وعدنا بالعيش الى الزاوية فبتنا بها ودخل علينا أحد الفقراء الاربعة بعد صلاة العشاء الآخرة ومن عادة ذلك الفقير أن يأتي عبادان كل ليلة فيسرج السرج بمساجدها ثم يعود الى زاوية فلما وصل الى عبادان وجد الرجل العابد فاعطاه سمكة طرية وقال له اوصل هذه الى الضيف الذي قدم اليوم فقال لنا الفقير عند دخوله علينا من رأى منكم الشيخ اليوم فقلت له أنا رأيتاه فقال يقول لك هذه ضيافتك فشكرت الله على ذلك وطبخ لنا الفقير تلك السمكة فاكلنا منها اجمعون وما أكلت قط سمكا أطيب منها وهجس في خاطري الاقامة بقية العمر في خدمة ذلك الشيخ ثم صرفتني النفس الاجوج عن ذلك ثم ركبنا البحر عند الصبح بقصد بلدة ماجول ومن عادتي في سفري أن لا أعود على طريق

سلكتها ما أمكنني ذلك وكنت احب قصد بغداد العراق فاشار على بعض أهل البصرة بالسفر الى أرض اللور ثم الى عراق العجم ثم الى عراق العرب فعملت بمقتضى اشارته ووصلنا بعد أربعة أيام الى بلدة ماجول على وزن قاعول وجيمها معقودة وهي صغيرة على ساحل هذا الخليج الذي ذكرنا انه يخرج من بحر فارس وأرضها سبخة لاشجر فيها ولا نبات ولها سوق عظيمة من أكبر الاسواق وأقيمت بها يوما واحدا ثم اكثرت دابة لركوبي من الذين يجلبون الحبوب من رامز الى ماجول وسرنا ثلاثا في صحراء يسكنها الاكراد في بيوت الشعر ويقال ان أصلهم من العرب ثم وصلنا الى مدينة رامز وأول حروفها (راء وآخرها زاي وميمها مكسورة) وهي مدينة حسنة ذات فواكه وأنهار ونزلنا بها عند القاضي حسام الدين محمود ولقيت عنده رجلا من أهل العلم والدين والورع هندی الاصل يدعي بهاء الدين ويسمي اسماعيل وهو من أولاد الشيخ بهاء الدين أبي زكريا الملتساني وقرأ على مشايخ توريث وغيرها وأقيمت بمدينة رامز ليلة واحدة ثم رحلنا منها ثلاثا في بسيط فيه قرى يسكنها الاكراد وفي كل مرحلة منها زاوية فيها للوارد الخبز واللحم والحلواء وحلواؤهم من رب العنب مخلوط بالذقيق والسمن وفي كل زاوية الشيخ والامام والمؤذنون والخدام للفقراء والعبيد والخدم يطبخون الطعام ثم وصلت الى مدينة تستر وهي آخر البسيط من بلاد اتاك وأول الجبال مدينة كبيرة رائقة نظرة وبها البساتين الشريفة والرياض المنيفة ولها الحاسن البارعة والاسواق الجامعة وهي قديمة البناء افتتحها خالد بن الوليد ووالى هذه المدينة ينسب سهل بن عبد الله ويحيط بها النهر المعروف بالازرق وهو عجيب في نهاية من الصفا شديد البرودة في أيام الحر ولم أر كزرقته الا نهر بلخشان ولها باب واحد للمسافرين يسمى دروازة دسبول والدروازة عندهم الباب ولها ابواب غيره شائعة الى النهر وعلى جانبي النهر البساتين والدوايب والنهر عميق وعلى باب المسافرين منه جسر على القوارب كجسر بغداد والحلة قال ابن جزي وفي هذا النهر يقول بعضهم

(كامل)

انظر لاشاذر وان تستر واعجب * من جمعه ماء لرى بلاده

كيت قوم جمعت امواله * فغدا يفرقه على اجناده

والفواكه بتستر كثيرة والخيرات متيسرة غزيرة ولا مثل لاسواقها في الحسن وبخارجها تربة معظمة يقصدها أهل تلك الاقطار للزيارة وينذرون لها النذور ولها زاوية بها جماعة من الفقراء وهم يزعمون انها تربة زين العابدين على بن الحسين بن علي بن أبي طالب وكان

نزولى من مدينة تستر في مدرسة الشيخ الامام الصالح المتفنن شرف الدين موسى ابن الشيخ الصالح الامام العالم صدر الدين سليمان وهو من ذرية سهل بن عبد الله وهذا الشيخ ذو مكارم وفضائل جامع بين العلم والدين والصلاح والايتار وله مدرسة وزاوية وخدامها فتيان له اربعة سنبل وكافور وجوهر وسرور اخدمهم موكل باوقاف الزاوية والثاني متصرف فيما يحتاج اليه من النفقات في كل يوم والثالث خديم السماط بين ايدي الواردين ومرتب الطعام لهم والرابع موكل بالطباخين والسقائين والفراشين فمقت عنده ستة عشر يوماً فلم أرا عجب من ترتيبه ولا أرغد من طعامه يقدم بين يدي الرجل ما يكفي الاربعة من طعام الارز المفاقل المطبوخ في السمن والدجاج المقلّى والخبز واللحم والحلواء وهذا الشيخ من أحسن الناس صورة وأقومهم سيرة وهو يعظ الناس بعد صلاة الجمعة بالمسجد الجامع ولما شاهدت مجالسه في الوعظ صغر لدي كل واعظ رأيته قبله بالحجاز والشام ومصر ولم ألق فيمن لقيتهم مثله حضرت يوماً عنده ببستان له على شاطئ النهر وقد اجتمع فقهاء المدينة وكبرائها وأتى القراء من كل ناحية فاطعم الجميع ثم صلى بهم صلاة الظهر وقام خطيباً وواعظاً بعد أن قرأ القراء امامه بالتلاحين المبكية والنعيمات المحركة المهيجة وخطب خطبة بسكينة ووقار وتصرف في فنون العلم من تفسير كتاب الله وإيراد حديث رسول الله والتكلم على معانيه ثم ترامت عليه الرقاع من كل ناحية ومن عادة الاعاجم أن يكتبوا المسائل في رقاع ويرمونها الى الواعظ فيجيب عنها فلما رمي اليه بتلك الرقاع جمعها في يده وأخذ يجيب عنها واحدة بعد واحدة بابدع جواب واحسنه وحان وقت صلاة العصر فصلى بالقوم وانصرفوا وكان مجلسه مجلس علم ووعظ وبركة وتبادر التائبون فاخذ عليهم العهد وجزوا صبيهم وكانوا خمسة عشر رجلاً من الطلبة قدموا من البصرة برسم ذلك وعشرة رجال من عوام تستر

— حكاية —

لما دخلت هذه المدينة أصابني مرض الحمى وهذه البلاد يحم داخلها في زمان الحركما يعرض في دمشق وسواها من البلاد الكثيرة المياه والفواكه وأصابني الحمى أصحابي أيضاً فمات منهم شيخ اسمه يحيى الخراساني وقام الشيخ بتجهيزه من كل ما يحتاج اليه الميت وصلى عليه وتركت بها صاحبا لي يدعى بهاء الدين الخثني فمات بعد سفرى وكنت حين مرضى لا أشتهى الا طعمته التي تصنع لي بمدرسته فذكر لي الفقيه شمس الدين السندی من طلبتها طعاماً فاشتهيته ودفعت له دراهم وطبج لي ذلك الطعام بالسوق وأتى به الى فاكلت منه وبلغ ذلك الشيخ فشق عليه وأتى الى وقال لي كيف تفعل هذا وتطبخ الطعام

في السوق وهـ لا أمرت الخدم أن يصنعوا لك ما اشتيتته ثم أحضر جميعهم وقال لهم جميع ما يطلب منكم من أنواع الطعام والسكر وغير ذلك فاتوا اليه به وأطبخوا له ما يشاءه وأكدها لهم في ذلك أشد التاكيد جزاء الله خيراً ثم سافرنا من مدينة تستر ثلاثاً في جبال شاذة وبكل منزل زاوية كما تقدم ذكر ذلك ووصلنا إلى مدينة إبدج (وضبط اسمها بكسر الهمزة و ياء مدّ وذال معجم مفتوح وجيم) وتسمى أيضاً مال الأمير وهي حضرة السلطان أتابك وعند وصولي إليها اجتمعت بشيخ شيوخها العالم الورع نور الدين الكرمانى وله النظر في جميع الزوايا وهم يسمونها المدرسة والسلطان يعظمه ويقصد زيارته وكذلك أرباب الدولة وكبراء الحضرة يزورونه غدوً وأرغشياً فأكرمني وأضافني وأنزلني زاوية تعرف باسم الدينورى وأقيمت بها أياماً وكان وصولي في أيام القيظ وكنا نصلّى صلاة الليل ثم ننام بأعلى سطوحها ثم نزل إلى الزاوية ضحوة وكان في صحبتي اثنا عشر فقيراً منهم إمام وقارئان مجيدان وخادم ونحن على أحسن ترتيب

— ذكر ملك إبدج وتستر —

وملك إبدج في عهد دخولي إليها السلطان أتابك افراسياب ابن السلطان أتابك أحمد وأتابك عندهم سمة لكل من يلي هذه البلاد من ملك وتسمى هذه البلاد بلاد اللور وولى هذه السلطان بعد أخيه أتابك يوسف وولى يوسف بعد أبيه أتابك أحمد وكان أحمد المذكور ملكاً صالحاً سمعت من الثقة ببلاده أنه عمر أربعاً وستين زاوية ببلاده منها بحضرة إبدج أربع وأربعون وقسم خراج بلاده اثلاثاً فالثلث منه لنفقة الزوايا والمدارس والثلث منه لمرتب العساكر والثلث لنفقته ونفقة عياله وعبيده وخدامه وبيعته منه هدية لملك العراق في كل سنة وربما وفد عليه بنفسه وشاهدت من آثاره الصالحة ببلاده أن أكثرها في جبال شاذة وقد نحتت الطرق في الصخور والحجارة وسويت ووسعت بحيث تصعد بها الدواب بأحمالها وطول هذه الجبال مسيرة سبعة عشر في عرض عشرة وهي شاهقة متصل بعضها ببعض تشققها الأنهار وشجرها البلوط وهم يصنعون من دقيقه الخبز وفي كل منزل من منازلها زاوية يسمونها المدرسة فإذا وصل المسافر إلى مدرسة منها أتى بما يكفيه من الطعام والعلف لدابته سواء طلب ذلك أو لم يطلبه فإن عادتهم أن يأتي خادم المدرسة فيعد من نزل به آمن الناس ويعطى كل واحد منهم قرصين من الخبز ولحماً وحلواء وكل ذلك من أوقاف السلطان عليها وكان السلطان أتابك أحمد زاهداً صالحاً كما ذكرناه يلبس تحت ثيابه مما يلي جسده ثوب شعر

— حكاية —

قدم السلطان أتابك أحمد مرة على ملك العراق أبي سعيد فقال له بعض خواصه ان
 أتابك يدخل عليك وعليه الدرع وظن ثوب الشعر الذي تحت ثيابه درعا فامرهم باختبار
 ذلك على جهة من الانبساط ليعرف حقيقته فدخل عليه يوما فقام اليه الامير الجوبان
 عظيم أمراء العراق والامير سويته أمير ديار بكر والشيخ حسن الذي هو الآن سلطان
 العراق وامسكوا ثيابه كأنهم يمازحونه ويضاحكونه فوجدوا تحت ثيابه ثوب الشعر ورآه
 السلطان أبو سعيد وقام اليه وعانقه وأجلسه الى جانبه وقال له سن آطا ومعناه بالتركية
 أنت أبي وعوضه عن هديته باضعافها وكتب له البرليغ وهو الظهير أن لا يطالبه بهدية بعدها
 هو ولا أولاده وفي تلك السنة توفي وولى ابنه أتابك يوسف عشرة أعوام ثم ولى أخوه
 أفراسياب ولما دخلت مدينة إبدج أردت رؤية السلطان أفراسياب المذكور فلم يأت لي ذلك
 بسبب أنه لا يخرج الا يوم الجمعة لادمانه على الخمر وكان له ابن هو ولى عهده وليس له سواء
 فرض في تلك الايام ولما كان في إحدى الليالي أتاني أحد خدامه وسألني عن حالي فعرفته
 وذهب عني ثم جاء بعد صلاة المغرب ومعه طيفوران كبيران أحدهما بالطعام والآخر
 بالفاكهة وخربطة فيهما دراهم ومعه أهل السماع بالآلاتهم فقالوا عملوا السماع حتى يرهج
 الفقراء ويدعون لابن السلطان فقلت له ان أصحابي لا يدرون بالسماع ولا بالرقص ودعونا
 نلسلطان ولولده وقسمت الدراهم على الفقراء ولما كان نصف الليل سمعنا الصراخ والنواح وقد
 مات المريض المذكور ولما كان من الغد دخل علي شيخ الزاوية وأهل البلد وقالوا ان كبراء المدينة
 من القضاة والفقهاء والاشراف والامراء قد ذهبوا الى دار السلطان للعزاء فينبغي لك ان تذهب
 في جملتهم فاييت عن ذلك فعزموا على فلم يكن لي بد من المسير فسررت معهم فوجدت مشوردار
 السلطان ممتلئ رجالا وصبيانا من المالك وأبناء الملوك والوزراء والاجناد وقد لبسوا التلايس
 وجلال الدواب وجعلوا فوق رؤسهم التراب والتبن وبعضهم قد جزنا صيته وانقسموا
 فرقتين فرقة باعلى المشور وفرقة بأسفله وتزحف كل فرقة الى جهة الاخرى وهم ضاربون
 بأيديهم على صدورهم قائلون خوندكار ما ومعناه مولاي أنا (مولانا) فرأيت من ذلك أمرا
 هائلا وسنظر افضيه ألم أعهد مثله

— حكاية —

ومن غريب ما اتفق لي يؤمئذ اني دخلت فرأيت القضاة والخطباء والشرقاء قد استندوا
 الى حيطان المشور وهو غاص بهم من جميع جهاته وهم بين بك ومتباك ومطرق وقد
 لبسوا فوق ثيابهم ثيابا خامة من غليظ القطن غير محكمة الخياطة بطائنها الى أعلى ووجوها
 محايلى أجسادهم وعلي رأس كل واحد منهم قطعة خرقة أو منزر أسود وهكذا يكون

فجعلهم الى تمام اربعين يوما وهي نهاية الحزن عندهم وبعدها يبعث السلطان لكل من فعل ذلك كسوة كاملة فلما رأيت جهات المشور غاصة بالناس نظرت يمينا وشمالا أرتاد موضعا لجلوسى فرأيت هنالك سقيفة مرتفعة عن الارض بمقدار شبر وفي احدي زواياها رجل منفرد عن الناس قاعد عليه ثوب صوف شبه اللبد يلبسه بتلك البلاد ضعفاء الناس أيام المطر والثلج وفي الاسفار فتقدمت الى حيث الرجل وانقطع عني أصحابي لما رأوا اقدامي نحوهم وعجبوا مني وانا لا علم عندي بشيء من حاله فصعدت السقيفة وسلمت على الرجل فرد على السلام وارتفع عن الارض كأنه يريد القيام وهم يسمون ذلك نصف القيام وقعدت في الركن المقابل لهم نظرت الى الناس وقد رموني ببصارهم جميعا فعمجبت منهم ورأيت الفقهاء والمشايخ والاشراف مستندين الى الحائط تحت السقيفة وأشار الى أحد القضاة ان انحط الى جانبه فلم أفعل وحينئذ استشعرت انه السلطان فلما كان بعد ساعة أتني شيخ المشايخ نور الدين الكرمانى الذي ذكرناه قبل فصعد الى السقيفة وسلم على الرجل فقام اليه وجلس فيما بيني وبينه فحينئذ علمت ان الرجل هو السلطان ثم جىء بالجنائزة وهي بين أشجار الاترج والليمون والمارنج وقد ملؤا أغصانها بثمارها والأشجار بأيدي الرجال فكان الجنائزة تمشى في بستان والمشاعل في رماح طوال بين يديها والشمع كذلك فصلى عليها وذهبت الناس معها الى مدفن الملوك وهو بموضع يقال له هلا فيحان على أربعة أميال من المدينة وهنالك مدرسة عظيمة يشقها النهر وبداخلها مسجد تقام فيه الجمعة وبخارجها حمام ويحف بها بستان عظيم وبها الطعام للوارد والصادرون لم أستطع ان أذهب معهم الى مدفن الجنائزة لبعدي الموضع فعدت الى المدرسة فلما كان بعد أيام بعث الى السلطان رسوله الذي أتاني بالضيافة أولا يدعوني اليه فذهبت معه الى باب يعرف بباب السر وصعدنا في درج كثيرة الى ان انتهينا الى موضع لافرش به لاجل ما هم فيه من الحزن والسلطان جالس فوق مخدة وبين يديه آيتان قد غطيتا احدهما من الذهب والاخرى من الفضة وكانت بالمجلس سجادة خضراء ففرشت لى بالقرب منه وقعدت عليها وليس بالمجلس الا حاجبه الفقيه محمود ونديمه لا أعرف اسمه فسألني عن حالى وبلادى وسألني عن الملك الناصر وبلاد الحجاز فاجبته عن ذلك ثم جاء فقيه كبير هو رئيس فقهاء تلك البلاد فقال لى السلطان هذا مولانا فضيل والفقيه ببلاد الاعاجم كلها انما يخاطب بمولانا وبذلك يدعو السلطان وسواه ثم أخذ في الثناء على الفقيه المذكور وظهر لى ان السكر غالب عليه وكنت قد عرفت لإدمانه على الخمر ثم قال لى باللسان العربى وكان بحسنه تكلم

فقلت له ان كنت تسمع مني أقول لك أنت من أولاد السلطان أنا بك أحمد المشهور
بالصلاح والزهد وليس فيك ما يقدح في سلطنتك غير هذا وأشارت الى الآيتين فخجل
من كلامي وسكت وأردت الانصراف فامرني بالجلوس وقال لي الاجتماع مع امثالك
رحمة ثم رأيته يتمايل ويريد النوم فانصرفت وكنت تركت نعلي بالباب فلم أجده فنزل
الفقيه محمود في طلبه وصعد الفقيه فضيل يطلبه في داخل المجلس فوجده في طاق هنالك
فأتى الى به فاخجلني بره واعتذرت اليه فقبل نعلي حينئذ ووضع نعلي على رأسه وقال لي
بارك الله فيك هذا الذي قلته لسلطاننا لا يقدر أحد أن يقول له غيرك والله اني لارجو
أن يؤثر ذلك فيه ثم كان رحيلي من حضرة إيدج بعد أيام فنزلت بمدرسة السلاطين التي
بها قبورهم وأقيمت بها أياما وبعث الى السلطان بجملة دنائير وبعث بمثلها لاصحابي وسافرنا
في بلاد هذا السلطان عشرة أيام في جبال شاذة وفي كل ليلة ننزل بمدرسة فيها الطعام
فمنها ما هو في العمارة ومنها ما لا عمارة حوله ولكن يجلب اليها جميع ما تحتاج اليه وفي اليوم
العاشر نزلنا بمدرسة تعرف بمدرسة كر يوالرخ وهي آخر بلاد هذا الملك وسافرنا منها
في بسيط من الارض كثير المياه من عمالة مدينة أصفهان ثم وصلنا الى بلدة أشتركان
(وضبط اسمها بضم الهمزة واسكان الشين المعجم وضم التاء المعلو واسكان الراء وآخره
نون) وهي بلدة حسنة كثيرة المياه والبساتين ولها مسجد يدعى يشقه النهر ثم رحلنا منها
الى مدينة فيروزان واسمها كانه ثمانية فيروز وهي مدينة صغيرة ذات أنهار وأشجار وبساتين
وصلنا بها بعد صلاة العصر فرأينا أهلها قد خرجوا لتشييع جنازة وقد أوقدوا خلفها
وأمامها المشاعل واتبعوها بالزامير والمغنيين بأنواع الاغاني المطربة فعجبنا من شأنهم وبقنا
بها ليلة ومررنا بالغد بقرية يقال لها نبلان وهي كبيرة على نهر عظيم والى جانبه مسجد
في النهاية من الحسن يصعد اليه في درج وتحفه البساتين وسرنا يومنا فيما بين البساتين والمياه
والقرى الحسان الكثيرة أبراج الحمام ووصلنا بعد العصر الى مدينة أصفهان من عراق
العجم (واسمها يقال بالفاء الخالصة ويقال بالفاء المعقودة المفخمة) ومدينة أصفهان من كبار
المدن وحسانها الآن قد خرب أكثرها بسبب الفتنة التي بها بين أهل السنة
والروافض وهي متصلة بينهم حتي الآن فلا يزالون في قتال وبها القواكة الكثيرة ومنها
المشمش الذي لا نظير له يسمونه بقمر الدين وهم يبيسونه وبدخرونه ونواه ينكسر عن لوز حلو
ومنها السفرجل الذي لا مثل له في طيب المظم وعظم الجرم والاعناب الطيبة والبطيخ
العجيب الشأن الذي ليس في الدنيا مثله الا ما كان من بطيخ بخاري وخوارزم وقشره

أخضر وداخله أحمر ويدخر كما تدخر الشريحة بالمغرب وله حلاوة شديدة ومن لم يكن ألف
أكله فانه في أول أمره يسهله وكذلك اتفق لي لما أكلته بأصفهان وأهل أصفهان حسان الصور
والوانهم بيض زاهرة مشوبة بالحمرة والغالب عليهم الشجاعة والنجدة وفيهم كرم وتنافس
عظيم فيما بينهم في الاطعمة تؤثر عنهم فيه أخبار غريبة وربما دعا أحدهم صاحبه فيقول له
اذهب معي لنا كل نان وماس والنان بلسانهم الخبز والماس اللبن فاذا ذهب معه أطعمه
أنواع الطعام العجيب مباهايه بذلك وأهل كل صناعة يقدمون على انفسهم كبيراً منهم
يسمونه الكلو وكذلك كبار المدينة من غير أهل الصناعات وتكون الجماعة من الشبان
الاعزاب وتفاخر تلك الجماعات ويضيف بعضهم بعضاً مظهرين لما قدروا عليه من الامكان
محتفلين في الاطعمة وسواها الاحتفال العظيم ولقد ذكر لي ان طائفة منهم أضاعت أخرى
فطبخوا طعامهم بنار الشمع ثم أضافتها الاخرى فطبخوا طعامهم بالحرير وكان نزولي بأصفهان
في زاوية تنسب للشيخ علي بن سهل تلميذ الجنيد وهي معظمة بقصد ها أهل تلك الآفاق
ويتبركون بزيارتها وفيها الطعام للوارد والصادر وها حمام عجيب مفروش بالرخام وحيطانه
بالقاشاني وهو موقوف في السبيل لا يلزم أحد في دخوله شيء وشيخ هذه الزاوية
الصالح العابد الورع قطب الدين حسين ابن الشيخ الصالح ولي الله شمس الدين محمد بن
محمود بن علي المعروف بالرجاء واخوه العالم المفتي شهاب الدين أحمد أقمت عند الشيخ
قطب الدين بهذه الزاوية الرابعة عشر يوماً فرأيت من اجتهاده في العبادة وحبسه في
الفقر والمساكين وتواضعه لهم ما قضيت منه العجب وبالغ في اكرامي واحسن ضيافتي
وكساني كسوة حسنة وساعة وصولي الزاوية بعث الى بالطعام وبثلاث بطيخات من البطيخ
الذي وصفناه آنفاً ولم اكن رأيت قبل ولا اكلته — كرامة لهذا الشيخ —

دخل على يوماً بموضع نزولي من الزاوية وكان ذلك الموضع يشرف على بستان للشيخ
وكانت ثيابه قد غسلت في ذلك اليوم ونشرت في البستان ورأيت في حملتها جبة بيضاء مبطنة
تدعى عندهم هزرميخي فاعجبته وقلت في نفسي مثل هذه كنت اريد فلما دخل على الشيخ
نظر في ناحية البستان وقال لبعض خدامه ائتني بذلك الثوب الهزرميخي فاتوا به فكساني اياه
فاهويت الى قدميه اقبلهما وطلبت منه ان يلبسني طاقية من رأسه ويجزني في ذلك بما
اجازه والده عن شيوخه قال بسني اياه في الرابع عشر لجمادى الاخرة سنة سبع
وعشرين وسبع مائة بزاويته المذكورة كما لبس من والده شمس الدين ولبس والده من
أبيه تاج الدين محمود ولبس محمود من أبيه شهاب الدين على الرجاء ولبس على من الامام

شهاب الدين أبي حفص عمر بن محمد بن عبد الله السهروردي وليس عمر من الشيخ
الكبير ضياء الدين أبي النجيب السهروردي ولبس أبو النجيب من عمه الامام وحيد
الدين عمر وليس عمر من والده محمد بن عبد الله المعروف بعمويه وليس محمد من الشيخ
أخي فرج الزنجاني وليس أخو فرج من الشيخ أحمد الدينوري وليس أحمد من الامام
ممشاد الدينوري وليس ممشاد من الشيخ المحقق علي بن سهل الصوفي وليس علي من
أبي القاسم الجنيد وليس الجنيد من سري السقطي وليس سري السقطي من داود
الطائي وليس داود من الحسن بن أبي الحسن البصري وليس الحسن بن أبي الحسن
البصري من أمير المؤمنين علي بن أبي طالب قال ابن جزى هكذا ورد الشيخ أبو عبد الله
هذا السند والمعروف فيه أن سريا السقطي صاحب معروف الكرخي وصاحب معروف
داود الطائي وكذلك داود الطائي بنو الحسن حبيب العجمي وأخو فرج
الزنجاني إنما المعروف أنه صاحب أبا العباس النهاوندي وصاحب النهاوندي أبا عبد الله بن
خفيف وصاحب ابن خفيف أبا محمد روبا وصاحب روبا أبا القاسم الجنيد وأما محمد بن عبد الله
عمويه فهو الذي صاحب الشيخ أحمد الدينوري الأسود وليس بينهما أحد والله أعلم والذي
صاحب أخو فرج الزنجاني هو عبد الله بن محمد بن عبد الله والدا أبي النجيب (رجع) ثم سافرا من
أصفهان بقصد زيارة الشيخ محمد الدين بشيراز وبينهما مسيرة عشرة أيام فوصلنا إلى بلدة
كليل (وضبطها بفتح الكاف وكسر اللام وياء مد) وبينهما وبين أصفهان مسيرة ثلاثة وهي
بلدة صغيرة ذات أنهار وبساتين وفواكه رأيت التفاح يباع في سوقها خمسة عشر رطلا عرافية
بدرهم ودرهم ثلث النقرة ونزلنا منها بزاوية عمرها كبير هذه البلدة المعروف بخواجه كافي
وله مال عريض قد أعانه الله على انفاقه في سبيل الخيرات من الصدقة وعمارة الزوايا وإطعام
الطعام لا بناء السبيل ثم سرنا من كليل يومين ووصلنا إلى قرية كبيرة تعرف بصوماء وبها
زاوية فيها الطعام للوارد والصادر عمرها خواجه كافي المذكور ثم سرنا منها إلى يزد
(وضبط اسمها بفتح الياء آخر الحروف واسكان الزاي وضم الدال المهمل وخاء معجم
وألِف وصاد مهمل) بلدة صغيرة متقنة العمارة حسنة السوق والمسجد الجامع بها عجيب مبنى
بالحجارة مسقف بها والبلدة على ضفة خندق فيه بساتينها ومياها ونجارها رباط ينزل
به المسافرون عليه باب حديد وهو في النهاية من الحصانة والمنعة وبداخله حوانيت يباع فيها
كل ما يحتاجه المسافرون وهذا الرباط عمره الأمير محمد شاه ينجو والد السلطان أبي اسحاق
ملك شيراز في يزد خاص يصنع الجين اليزد خاصي ولا نظيره في طيبة وزن الجينة منه

من اوقيتين الى اربع ثم سرنا منها على طريق دشت الروم وهي صحراء يسكنها الاتراك
ثم سافرنا الى ماين (واسمها بياض مسفواتين اولاهما مكسورة) وهي بلدة صغيرة
كثيرة الانهار والبساتين حسنة الاسواق وأكثر أشجارها الجوز ثم سافرنا منها الى مدينة
شيراز وهي مدينة أصلية البناء فسيحة الارعاء شهيرة الذكر منيفة القدر لها البساتين
المونقة والانهار المتدفقة والاسواق البديعة والشوارع الرفيعة وهي كثيرة العمارة متقنة
المباني عجيبة الترتيب وأهل كل صناعة في سوقها لا يخالطهم غيرهم وأهلها حسنة الصور
نظاف الملابس وليس في المشرق بلدة تداني مدينة دمشق في حسن أسواقها وبساتينها
وأنهارها وحسن صورساكنيها إلا شيراز وهي في بساط من الارض تحف بها البساتين
من جميع الجهات وتشققها خمسة أنهار أحدها النهر المعروف بركن آباد وهو عذب الماء
شديد البرودة في الصيف سخن في الشتاء فينبعث من عين في سفح جبل هنالك يسمى
القليلة ومسجدها الاعظم يسمى بالمسجد العتيق وهو من أكبر المساجد مساحة وأحسنها
بناء وصحنه متسع مفروش بالمرمر يغسل في أوان الحركل ليلة ويجتمع فيه كبار أهل
المدينة كل عشية ويصلون به المغرب والعشاء وبشماله باب يعرف بباب حسن يفضى الى
سوق الفاكه وهي من أبداع الاسواق وأنا أقول بتفضيلها على سوق باب البر بد من دمشق
وأهل شيراز أهل صلاح ودين وعفاف وخصوصا نساؤها وهن يلبسن الخفاف ويخرجن
ملتحفات متبرعات فلا يظهر منهن شيء ولهن الصدقات والايثار ومن غريب حالهن انهن
يجتمعن لسماح الواعظ في كل يوم اثنين وخميس وجمعة بالجامع الاعظم فرما اجتمع منهن
الالف والالفان بأيديهن المراوح يروحن بها على انفسهن من شدة الحر ولم ار اجتماع
النساء في مثل عددهن في بلدة من البلاد وعند دخولي الى مدينة شيراز لم يكن لي هم
الا قصد الشيخ القاضي الامام قطب الاولياء فريد الدهر ذي الكرامات الظاهرة مجد
الدين اسماعيل بن محمد بن خداد ومعنى خداد عطية الله فوصلت الى المدرسة الجديدة
المنسوبة اليه وبها سكناء وهي من عمارته فدخلت اليه رابع أربع من أصحابي ووجدت
الفقهاء وكبار أهل المدينة في انتظاره فخرج الى صلاة العصر ومعه حب الدين وعلاء الدين
ابنا أخيه شقيقه روح الدين أحدهما عن يمينه والآخر عن شماله وهما نائبا في القضاء لضعف
بصره وكبر سنه فسلمت عليه وعانقني وأخذ بيدي الى أن وصل الى مصلاه فأرسل يدي
وأوماً الى أن أصلي الى جانبه ففعلت وصلى صلاة العصر ثم قرأ بين يديه من كتاب
المصابيح وشوارق الانوار للصاغاني وطالعا نائبا بما جرى لديهما من القضاء ياوتقدم كبار

المدينة للسلام عليه وكذلك عاداتهم معه صباحاً ومساءً ثم سألني عن حالى وكيفية قدومي
 هو سألني عن المغرب ومصر والشام والحجاز فأخبرته بذلك وأمر خدامه فانزلوني بدويرة
 صغيرة بالمدرسة وفي غد ذلك اليوم وصل اليه رسول ملك العراق السلطان أبي سعيد
 وهو ناصر الدين الدرقي من كبار الامراء خراساني الاصل فعند وصوله اليه نزع
 شاشيته عن رأسه وهم يسمونها الكلا وقبل رجل القاضي وقعد بين يديه ممسكا اذن
 نفسه بيده وهكذا فعل أمراء التتر عند ملوكهم وكان هذا الامر قد قدم في نحو خمسمائة
 فارس من مماليكه وخدامه وأصحابه ونزل خارج المدينة ودخل الى القاضي في خمسة نفر
 ودخل مجلسه وحده منفرداً نادياً

— حكاية هي السبب في تعظيم هذا الشيخ وهي من الكرامات الباهرة —

كان ملك العراق السلطان محمد خدا بنده قد صحبه في حال كفره فقيه من الروافض الامامية
 يسمى جمال الدين بن مطهر فلما أسلم السلطان المذكور وأسلمت باسلامه التتر زاد في تعظيم
 هذا الفقيه فزبن له مذهب الروافض وفضله على غيره وشرح له حال الصحابة والخلافة
 وقرر لديه ان أبا بكر وعمر كانا وزيران لرسول الله وان علياً ابن عمه وصهره فهو وارث
 الخلافة ومثل لذلك بما هو وما ألوف عنده من ان الملك الذي بيده انما هو ارث عن
 أجداده وأقاربه مع حدثان عهد السلطان بالكفر وعدم معرفته بقواعد الدين فأمر
 السلطان بحمل الناس على الرفض وكتب بذلك الى العراقيين وفارس واذر بيجان واصفهان
 وكرمان وخراسان وبعث الرسل الى البلاد فكان أول بلاد وصل اليها ذلك بغداد وشيراز
 واصفهان فأما أهل بغداد فامتنع أهل باب الازج منهم وهم أهل السنة وأكثرهم على
 مذهب الامام أحمد بن حنبل وقالوا لا نسمع ولا طاعة وأتوا المسجد الجامع يوم الجمعة في
 السلاح و به رسول السلطان فلما صعد الخطيب المنبر قاموا اليه وهم نحو اثني عشر ألفاً في
 سلاحهم وهم حمة بغداد والمشار اليهم فيها فخلفوا له انه ان غير الخطبة المعتادة أوزاد فيها
 أو نقص منها فانهم قاتلوه وقاتلو رسول الملك ومستسلمون بعد ذلك لما شاءه الله وكان
 السلطان أمراً بأن تسقط أسماء الخلفاء وسائر الصحابة من الخطبة ولا يذكر الا اسم علي
 ومن تبعه كعمار رضى الله عنهم تخاف الخطيب من القتل وخطب الخطبة المعتادة وفعل
 أهل شيراز واصفهان كفعل أهل بغداد فرجعت الرسل الى الملك فاخبروه بما جرى في
 ذلك فأمر أن يؤتي بقضاة المدن الثلاث فكان أول من أتى به منهم القاضي مجد الدين
 قاضي شيراز والسلطان اذذاك في موضع يعرف بقرباغ وهو موضع مصيفه فلما وصل

القاضي أمر أن يرمي به الى الكلاب التي عنده وهي كلاب ضخام في أعناقها السلاسل
معدة لا كل بني آدم فاذا أوتى بمن يسلط عليه الكلاب جعل في رحبة كبيرة مطلقا غير
مقيد ثم بعثت تلك الكلاب عليه فيفر امامها ولا مفرله فتدركه فتمزقه وتاكل لحمه فلما
أرسلت الكلاب على القاضي مجد الدين ووصلت اليه بصبغت اليه وحركت أذناها بين
يديه ولم تهجم عليه بشيء فبلغ ذلك السلطان فخرج من داره حافي القدمين فاكب على
رجلي القاضي يقبلهما وأخذ بيده وخلع عليه جميع ما كان عليه من الثياب وهي أعظم
كرامات السلطان عندهم واذا خلع ثيابه كذلك علي أحد كانت شرفا له ولبنيه وأعقابه
فتوارثونه مادامت تلك الثياب أوشى منها وأعظمها في ذلك السراويل ولما خلع السلطان
ثيابه على القاضي مجد الدين أخذ بيده وأدخله الى داره وأمر نساءه بتعظيمه والتبرك به
ورجع السلطان عن مذهب الرفض وكتب الى بلادده ان يقر الناس على مذهب أهل
السنة والجماعة وأجزل العطاء للقاضي وصرفه الى بلاده مكرما معظما وأعطاه في جملة
عطاياه مائة قرية من نرى جمكان وهو خندق بين جبلين طوله أربعة وعشرون فرسخا
يشقه نهر عظيم والقرى منتظمة بجانبه وهو أحسن موضع بشيراز ومن قرأه العظيمة
التي تضاهي المدن قرية ميمن وهي للقاضي المذكور ومن عجائب هذا الموضع المعروف
بجمكان ان نصفه مما يلي شيراز وذلك مسافة اثني عشر فرسخا شديد البرد وينزل فيه
الثلج وأكثر شجره الجوز والنصف الآخر مما يلي بلاد هنج وبال وبلاد اللار في طريق
هرمز شديد الحر وفيه شجر النخيل وقد تكرر لي لقاء القاضي مجد الدين ثانية حين
خروجه من الهند قصدته من هرمز متبركا بلقائه وذلك سنة ثمان وأربعين وبين هرمز
وشيراز مسيرة خمسة وثلاثين يوما فدخلت عليه وهو قد ضعف عن الحركة فسلمت
عليه فعرفني وقام الى فعا نقى ووقعت يدي على مرفقه وجلده لاصق بالعظم لالحم بينهما
وأنزلي بالمدرسة حيث أنزلي أول مرة وزرته يوما فوجدت ملك شيراز السلطان أبا
اسحاق وسيقع ذكره قاعدا بين يديه ممسكا باذن نفسه وذلك هو غاية الادب عندهم
ويفعله الناس اذا قعدوا بين يدي الملك وأتيته مرة أخرى الى المدرسة فوجدت بابها مسدودا
فسالت عن سبب ذلك فاخبرت ان أم السلطان وأخته نشأت بينهما خصومة في ميراث
فصرهما الى القاضي مجد الدين فوصلتا اليه الى المدرسة وتحاكتا عنده وفصل بينهما بواجب
الشرع وأهل شدعونه ازالا يير بالقاضي وانما يقولون له مولانا أعظم وكذلك يكتبون في
التسجيلات والعقود التي تفتقر الى ذكر اسمه فيها وكان آخر عهدى به في شهر ربيع

الثاني من عام ثمانية وأربعين وسبعمائة ولاحت على أنواره وظهرت لى بركانه نفع الله به وبأمثاله
— ذكر سلطان شيراز —

وسلطان شيراز فى عهد قدومى عليها الملك الفاضل أبواسحاق بن محمد شاه ينجو سماه أبوه
باسم الشيخ أبى اسحاق الكازرونى نفع الله به وهو من خيار السلاطين حسن الصورة
والسيرة والهيئة كرم النفس جميل الاخلاق متواضع صاحب قوة وملك كبير وعسكره
ينيف على خمسين ألفا من الترك والاعاجم ويطا ئته الادنون اليه أهل اصفهان وهو لا ياتمن
أهل شيراز على نفسه ولا يستخدمهم ولا يقربهم ولا يبيع لاحد منهم حمل السلاح لانهم
أهل نجدة وبأس شديد وجراءة على الملوك ومن وجسد بيده السلاح منهم عوقب ولقد
شهدت مرة رجلا تجره الجنادة وهم الشرط الى الحاكم وقد ربطوه فى عنقه فسالت عن
شانه فاخبرت انه وجدت فى يده قوس بالليل فذهب السلطان المذكور الى قهر أهل
شيراز وتفضيل الاصفهانيين عليهم لانه يخافهم على نفسه وكان ابود محمد شاه ينجو واليا على
شيراز من قبل ملك العراق وكان حسن السيرة محببا الى أهلها فلما توفى ولى السلطان
ابوسعيد مكانه الشيخ حسينا وهو ابن الجوبان امير الامراء وسياقى ذكره وبعث معه
العساكر الكثيرة فوصل الى شيراز وملكها وضبط مجاييها وهى من أعظم بلاد الله
محبى ذكر لى الحاج قوام الدين الطمغنجي وهو والى المجي بها انه ضممها بعشرة آلاف
دينار دراهم فى كل يوم وصرفها من ذهب المغرب الفان وخمسمائة دينار ذهبا وأقام بها
الامير حسين مدة ثم أراد القدوم على ملك العراق فقبض على أبى اسحاق بن محمد
شاه ينجو وعلى أخويه ركن الدين ومسعود بك وعلى والدته طاش خاتون واراد حملهم
الى العراق ليطلبوا باموال ابيهم فلما توسطوا السوق بشيراز كشفت طاش خاتون وجهها
وكانت متبرقة حياء ان ترى فى تلك الحال فان عادة نساء الاتراك أن لا يغطين وجوههن
واستغاثت بأهل شيراز وقالت أهكذبا أهل شيراز أخرج من بينكم وأنا فلانة زوجة
فلان فقام رجل من التجارين يسمى بهلو ان محود قد رأيت بالسوق حين قدومى على
شيراز فقال لا نتركها تخرج من بلدنا ولا نرضي بذلك فتابعه الناس على قوله وثارَت عامتهم
ودخلوا فى السلاح وقتلوا كثير من العسكر واخذوا الاموال وخلصوا المرأة وأولادها
وفرا الامير حسين ومن معه وقدم على السلطان أبى سعيد مهزوما فاعطاه العساكر الكثيفة
وأمره بالمواد الى شيراز والتحكم فى أهلها بما شاء فلما بلغ أهلها ذلك علموا انهم لا طاقة
لهم به فقصدوا القاضي مجد الدين وطلبوا منه ان يحقن دماء الفريقين ويوقع الصلح فخرج الى

الامير حسن فترجل له الامير عن فرسه وسلم عليه ووقع الصلح ونزل الامير حسين ذلك اليوم خارج المدينة فلما كان من الغد برز أهلها للقائه في اجل ترتيب وزينوا البلد واوقدوا الشمع الكثير ودخل الامير حسين في ابهة وحفل عظيم وسار فيهم باحسن سيرة فلما مات السلطان ابوسعيدوا انقرض عقبه وتغلب كل امير على ما بيده خافهم الامير حسين على نفسه وخرج عنهم وتغلب السلطان ابواسحاق عليها وعلى اصفهان وبلاد فارس وذلك مسيرة شهر ونصف شهر واشتدت شوكته وطمحت همته الى تملك ما يليه من البلاد فبدأ بالاقرب منها وهي مدينة يزدمدينة حسنة نظيفة عجيبة الاسواق ذات أنهار مطردة وأشجار نضيرة وأهلها تجار شامعية المذهب فحاصرها وتغلب عليها ومحصن الامير مظفر شاه ابن الامير محمد شاه ابن مظفر بقلعة على ستة أميال منها منيعة تحرق بها الرمال فحاصره بها فظهر من الامير مظفر من الشجاعة ما خرق المعتاد ولم يسمع بمثله فكان يضرب على عسكر السلطان أبي اسحاق ليلا ويقتل ماشاء ويحرق المضارب والفساطيطو يعود الى قلعته فلا يقدر على النيل منه وضرب ليلة على دوار السلطان وقتل هنالك جماعة وأخذ من عتاق خيله عشرة وعاد الى قلعته فامر السلطان أن تتركب في كل ليلة خمسة آلاف فارس ويصنعون له الكائن ففعلوا ذلك وخرج على عادته في مائة من اصحابه فضرب على العسكر وأحاطت به الكائن وتلاحقت العساكر فقاتلهم وخلص الى قلعته ولم يصب من اصحابه الا واحد اتي به الى السلطان أبي اسحاق فخلع عليه وأطلقه وبعث معه أمانا لمظفر لينزل اليه فابي ذلك ثم وقعت بينهما المراسلة ووقعت له محبة في قلب السلطان أبي اسحاق لما رأى من شجاعته فقال أر يد أن أراه فاذا رأيته انصرفت عنه فوقف السلطان في خارج القلعة ووقف هو ببابها وسلم عليه فقال له السلطان انزل على الامان فقال له مظفر اني عاهدت الله أن لا أنزل اليك حتى تدخل أنت قلعتي وحينئذ أنزل اليك فقال له اعمل ذلك فدخل اليه السلطان في عشرة من اصحابه الخواص فلما وصل باب القلعة ترجل مظفر وقبل ركابه ومشى بين يديه مترجلا فادخله داره وأكل من طعامه ونزل معه الى الحلة راكبا فاجلسه السلطان الى جانبه وخلع عليه ثيابه وأعطاه مالا عظيما ووقع الاتفاق بينهما ان تكون الخطبة باسم السلطان أبي اسحاق وتكون البلاد لمظفر وأبيه وعاد السلطان الى بلاده وكان السلطان ابواسحاق طمع ذات مرة الى بناء ايوان كابوان كسرى وأمر أهل شيراز ان يتولوا حفر اساسه فاخذوا في ذلك وكان أهل كل صناعة يباهون كل من عداهم فاتهموا في المباهاة الى ان صنعوا القفاف لنقل التراب من الجلد وكسوها ثياب الحرير المزرکش وفعلوا

نحو ذلك في براذع الدواب واخراجها وصنع بعضهم الفؤس من الفضة وأوقدوا الشمع الكثير وكانوا حين الحفر يلبسون أجمل ثيابهم ويربطون فوط الحرير على أوساطهم والسلطان يشاهد أفعالهم من منظره له وقد شاهدت هذا المبنى وقد ارتفع عن الأرض نحو ثلاثة أذرع ولما بني أساسه رفع عن أهل المدينة التخديم فيه وصارت الفعلة تخدم فيه بالاجرة ويحشر لذلك آلاف منهم وسمعت والى المدينة يقول ان معظم مجباها ينفق في ذلك البناء وقد كان الموكل به الامير جلال الدين بن الفلكي التوريزي وهو من الكبار كان أبوه نائباً عن وزير السلطان أبي سعيد المسمي على شاه جيلان ولهذا الامير جلال الدين الفلكي أخ فاضل اسمه هبة الله ويلقب بهاء الملك وقد على ملك الهند حين وفودى عليه ووفد معنا شرف الملك أمير نخت فخلع ملك الهند علينا جميعاً وقدم كل واحد في شغل يليق به وعين لنا المرتب والاحسان وسند كذا ذلك وهذا السلطان أبو اسحاق يريد التشبه بملك الهند المذكور في الايثار واجزال العطايا واسكن أين الثريا من الثري او اعظم ما تعرفنا من عطيات أبي اسحاق انه اعطى الشيخ زاده الخراساني الذي أتاه رسولا عن ملك هراة سبعين ألف دينار وأما ملك الهند فلم يزل يعطى اضعاف ذلك لمن لا يحصى كثرة من أهل خراسان وغيرهم

— حكاية —

ومن عجيب فعل ملك الهند مع الخراسانيين انه قدم عليه رجل من فقهاء خراسان هروى الدار من سكان خوارزم يسمى بالامير عبد الله بعثته الخاتون ترابك زوج الامير قطلود مور صاحب خوارزم بهدية الى ملك الهند المذكور فقبلها وكافاً عنها باضعافها وبعث ذلك اليها واختار رسولها المذكور الإقامة عنده فصيرته في ندمائه فلمّا كان ذات يوم قال له ادخل الى الخزانة فارفع منها قدر ما تستطيع ان تحمله من الذهب فذهب الى داره فاتي بثلاث عشرة خريطة وجعل في كل خريطة قدر ما وسعته وربط كل خريطة بعضو من أعضائه وكان صاحب قوة وقام بها فلما خرج عن الخزانة وقع ولم يستطع النهوض فامر السلطان بوزن ما خرج به فكان جملة ثلاثة عشر مناجمان دهلي والمن الواحد منها خمسة وعشرون رطلاً مصرية فامر ان ياخذ جميع ذلك فاخذه وذهب به

— حكاية تناسبها —

اشتكى مرة امير نخت الملقب بشرف الملك الخراساني وهو الذي تقدم ذكره آنفاً بمحضرة ملك الهند فاتاه الملك عائد اولاً دخل عليه اراد القيام فحلف له الملك أن لا ينزل عن كتفه والكت هو السرير ووضع للسلطان متكأة يسمونها المورة فقعدها عليها ثم دعا بالذهب والميزان فجيء بذلك وأمر المريض ان يقعد في احدى كفتي الميزان فقال ياخوند عالم

لوعلمت انك تفعل هذا للبت على ثيابا كثيرة فقال له البس الآن جميع ما عندك من الثياب فلبس ثيابه المعدة للبرد المحشوة بالقطن وقعد في كفة الميزان ووضع الذهب في الكفة الاخرى حتى رجحه الذهب وقال له خذ هذا فتصدق به على رأسك وخرج عنه — حكاية تناسبها — وقد عليه الفقير عبد العزيز الاردوبلى وكان قد قرأ علم الحديث بدمشق وتفقّه فيه فجعل مرتبه مائة دينار دراهم في اليوم وصرف ذلك خمسة وعشرون دينار اذهبها وحضر مجلسه يوما فساله السلطان عن حديث فسرده له أحاديث كثيرة في ذلك المعنى فاعجبه حفظه وحلف له برأسه أنه لا يزول من مجلسه حتى يفعل معه ما يراه ثم نزل الملك عن مجلسه فقبل قدميه وامر باحضار صينية من ذهب وهي مثل الطيفور الصغير وامر ان ياتي فيها الف دينار من الذهب واخذها السلطان بيده فصمها عليه وقال هي لك من الصينية * ووفد عليه مرة رجل خراساني يعرف بابن الشيخ عبد الرحمن الاسفرايني وكان أبوه نزل بغداد فأعطاه خمسين الف دينار دراهم وخيلا وعبيدا وخلعا * وسند ذكر كثير آمن أخبار هذا الملك عند ذكر بلاد الهند وانما ذكرنا هذا لما قدمنا من ان السلطان أبا إسحق يريد التشبه به في العطايا وهو وان كان كرما فاضلا فلا يباحق بطبقة ملاك الهند في الكرم والسخاء — ذكر بعض المشاهد بشيراز —

فمنها مشهد أحمد بن موسى أخى على الرضا بن موسى بن جعفر بن محمد بن على بن الحسين ابن على بن أبي طالب رضى الله تعالى عنهم وهو مشهد معظم عند أهل شیراز يتبركون به ويتوسلون الى الله تعالى بفضله وبنت عليه طاش خاتون أم السلطان أبي اسحاق مدرسة كبيرة وزاوية فيها الطعام للوارد والصادر والقراء يقرؤون القرآن على الترتيب دائما ومن عادة الخاتون أنها تاتي الى هذا المشهد في كل ليلة اثنين ويجمع في تلك الليلة القضاة والعقهاء والشرفاء وشيراز من أكثر بلاد الله شرفاء سمعت من الثقات ان الذين لهم بها المراتب من الشرفاء الف وأربعمائة ونيف بين صغير وكبير ونقيبهم عضد الدين الحسيني فاذا حضر القوم بالمشهد المبارك المذكور ختموا القرآن قراءة في المصاحف وقرأ القراء بلا صوات الحسنة وأنى بالطعام والقواكه والحلواء فاذا أكل القوم وعظوا وعظوا ويكون ذلك كله من بعد صلاة الظهر الى العشي والخاتون في غرفة مظلة على المسجد لها شباك ثم تضرب الطبول والنفار والبوقات على باب التربة كما يفعل عند أبواب الملوك * ومن المشاهد بها مشهد الامام القطب الولى أبي عبد الله بن خفيف المعروف عندهم الشيخ وهو قدوة بلاد فارس كلها ومشهده معظم عندهم يأتون اليه بكرة وعشيا فيتمسحون به وقد رأيت القاضي مجد الدين أتاها زائرا واستلمه وتاتي الخاتون الى هذا المسجد

في كل ليلة جمعة وعليه زاوية ومدرسة ويجتمع به القضاة والعقهاء ويفعلون به كفعا لهم في مشهد
أحمد بن موسى وقد حضرت الموضوعين جميعاً وتربة الأمير محمد شاه ينجو والد السلطان أبي اسحاق
متصلة بهذه التربة والشيخ أبو عبد الله بن خفيف كبير القدر في الاولياء شهير الذكر وهو الذي
أظهر طريق جبل سرنديب بحزرة سيلان من أرض الهند

— كرامة لهذا الشيخ —

يحكى أنه قصد مرة جبل سرنديب ومعه نحو ثلاثين من الفقراء فاصابتهم مجاعة في طريق
الجبل حيث لا عمارة وتأهوا عن الطريق وطلبوا من الشيخ ان يأذن لهم في القبض على
بعض الفيلة الصغار وهي في ذلك المحل كثيرة جداً ومنه نحمل الى حضرة ملاك الهند
فنهاهم الشيخ عن ذلك فغلب عليهم الجوع فتعدوا قول الشيخ وقبضوا على فيل صغير
منها وذكوه وأكلوا لحمه وامتنع الشيخ من أكله فلما ناموا تلك الليلة اجتمعت الفيلة
من كل ناحية وأنت اليهم فكانت تشم الرجل منهم وتفتله حتى أنت على جميعهم وشمّت
الشيخ ولم تتعرض له وأحذه فيل منها ولف عليه خرطوميه ورمى به على ظهره وأتى
به الموضوع الذي فيه العمارة فلما رآه أهل تلك الناحية عجبوا منه واستقبلوه ليتعرفوا
امره فلما قرب منهم أمسكه الفيل بخرطوميه ووضعته عن ظهره الى الأرض بحيث يرويه
فجؤا اليه وتمسحوا به وذهبوا به الى ملكهم فعرفوه خبره وهم كفار وأقام عندهم أياما
وذلك الموضوع على خور يسمى خور الخيزران والخور هو النهر وبذلك الموضوع مغاص
الجوهر ويذكر ان الشيخ غاص في بعض تلك الايام بمحض مملكهم وخرج وقد ضم يديه
معا وقال للمالك اختر ما في احدهما فاختر ما في اليمنى فرمي اليه بما فيها وكانت ثلاثة أحجار
من الياقوت لا مثل لها وهي عند ملوككم في التاج يتوارثونها وقد دخلت جزيرة سيلان
هذه وهم مقيمون على الكفر الا أنهم يعظمون فقراء المسلمين ويؤدونهم الى دورهم
ويطعمونهم الطعام ويكونون في بيوتهم بين أهليهم وأولادهم خلافا لسائر كفار الهند قانهم
لا يقربون المسلمين ولا يطعمونهم في آنيتهم ولا يسقونهم فيها مع انهم لا يؤذونهم ولا
يهجونهم واقدر كنا نضطر الى ان يطبخ لنا بعضهم اللحم فيأتون به في قدورهم ويقعدون
على بعد منا ويأتون باوراق الموز فيجعلون عليها الارز وهو طعامهم ويصبون عليه الكوشان
وهو الادام ويذهبون فناء كل منه وما فضل علينا تاكله الكلاب والطيروان أكل منه
الولد الصغير الذي لا يعقل ضربوه وأطعموه روث البقر وهو الذي يطهر ذلك في زعمهم ومن
المشاهد بها مشهد الشيخ الصالح القطب روز جهان القبلى من كبار الاولياء وقبره في مسجد

جامع يخطب فيه وبذلك المسجد يصلي القاضي مجد الدين الذي تقدم ذكره رضي الله عنه وبهذا المسجد سمعت عليه كتاب مسند الامام أبي عبد الله محمد بن ادريس الشافعي قال أخبرتنا به وزيرة بنت عمر بن المنجا قالت اخبرنا ابو عبد الله الحسين بن أبي بكر بن المبارك الزبيدي قال أخبرنا ابو زرعة طاهر بن محمد بن طاهر المقدسي قال أخبرنا ابو الحسن المكي ابن محمد بن منصور بن علان العرضي قال أخبرنا القاضي ابو بكر احمد بن الحسن الحرشي عن أبي العباس بن يعقوب الاصم عن الربيع بن سليمان المرادي عن الامام أبي عبد الله الشافعي وسمعت أيضا عن القاضي مجد الدين بهذا المسجد المذكور كتاب مشارق الانوار الامام رضي الدين أبي الفضائل الحسن بن محمد بن الحسن الصاغاني بحق سماعه له من الشيخ جلال الدين أبي هاشم محمد بن محمد بن أحمد الهاشمي الكوفي بروايته عن الامام نظام الدين محمود بن محمد بن عمر الهروي عن المصنف ومن المشاهد بها مشهد الشيخ الصالح زركوب وعليه زاوية لطعام الطعام وهذه المشاهد كلها بداخل المدينة وكذلك معظم قبور أهلها فان الرجل منهم يموت ولده أو وزوجه فيتخذ له تربة من بعض بيوت داره ويدفنه هناك ويفرش البيت بالحصر والبسط ويجعل الشمع الكثير عند رأس الميت ورجليه ويصنع للميت بابا الى ناحية الزقاق وشباك حديد يدخل منه القراء يقرؤون بالا صوات الحسان وليس في معدور الارض أحسن أصواتا بالقرآن من أهل شيراز ويقوم أهل الدار بالتربة ويفرشونها ويوقدون السرج بها فكان الميت لم يبرح وذكري انهم يطبخون في كل يوم نصيب الميت من الطعام ويتصدقون به عنه

— حكاية —

مررت يوما ببعض أسواق مدينة شيراز فرأيت بها مسجدا متقن البناء جميل الفرش وفيه مصاحف موضوعة في خرائط حرير موضوعة فوق كرسي وفي الجهة الشمالية من المسجد زاوية فيها شباك مفتوح الى جهة السوق وهناك شيخ جميل الهيئة واللباس وبين يديه مصحف يقرأ فيه فسلمت عليه وجلست اليه فسا لني عن مقدمي فاخبرته وسالته عن شان هذا المسجد فاخبرني انه هو الذي عمره ووقف عليه اوقافا كثيرة للقراء وسواهم وان تلك الزاوية التي جلست اليه فيها هي موضع قبره ان قضى الله موته بتلك المدينة ثم رفع بساطا كان تحته والقبر مغطى عليه الواح خشب وأراني صندوقا كان بازائه فقال في هذا الصندوق كفن وحنوطي ودرهم كنت استاجرت بها نفسي في حفر بئر لرجل صالح فدفع لي هذه الدراهم فتركتها لتكون نفقة مواردتي وما فضل منها يتصدق بها فعجبت من شانه وأردت الانصراف فخلف على وأضافني بذلك الموضع ومن المشاهد بخارج شيراز قبر الشيخ الصالح المعروف بالسعدي

وكان أشعر أهل زمانه باللسان الفارسي وربما ألمع في كلامه بالعربي وله زاوية كان قد عمرها بذلك الموضع حسنة بداخلها بستان مليح وهي بقرب رأس النهر الكبير المعروف بركن آباد وقد صنع الشيخ هنالك أحواضا صغارا من المرمر لغسل الثياب فيخرج الناس من المدينة لزيارته وياكلون من سباطه ويغسلون ثيابهم بذلك النهر وينصرفون وكذلك فعلت عنده رحمه الله وبمقربة من هذه الزاوية زاوية أخرى تتصل بهامدرسة مبنية على قبر شمس الدين السمناني وكان من الامراء الفقهاء ودفن هنالك بوصية منه بذلك وبمدينة شیراز من كبار الفقهاء الشريف مجيد الدين وأمره في الكرم عجيب وربما جاد بكل ما عنده وبالثياب التي كانت عليه ويلبس مرقعة له فدخل عليه كبراء المدينة فيجدونه على تلك الحال فيكسونه ومرتبته في كل يوم من السلطان خمسون دينارا درهم ثم كان خروجي من شیراز برسم زيارة قبر الشيخ الصالح أبي اسحاق الكازروني بكازرون وهي على مسيرة يومين من شیراز فنزلنا أول يوم ببلاذ الشول وهم طائفة من الاعاجم يسكنون البرية وفيهم الصالحون — كرامة لبعضهم —

كنت يوما ببعض المساجد بشیراز وقد قعدت أتلو كتاب الله عز وجل إثر صلاة الظهر فخطر ب خاطر لي انه لو كان لي مصحف كريم لتلوت فيه فدخل علي في اثناء ذلك شاب وقال لي بكلام قوي خذ فرغت رأسي اليه فالتقي في حجرى مصحفا كريما وذهب عني نخمته ذلك اليوم قراءة وانتظرته لارده فلم يعد الى فسات عنه فقبل لي ذلك بهلول الشولى ولم أره بعد ووصلنا في عشي اليوم الثاني الى كازرون فقصدنا زاوية الشيخ أبي اسحاق نفع الله به وبتنا بها تلك الليلة ومن عاداتهم أن يطعموا الوارد كائنا من كان من الهريسة المصنوعة من اللحم والقمح والسمن وتؤكل بالرقاق ولا يتركون الوارد عليهم للسفر حتى يقيم في الضيافة ثلاثة أيام ويعرض على الشيخ الذي بالزاوية حوائجه ويذكرها الشيخ للفقراء الملازمين للزاوية وهم يزيدون على مائة منهم المتزوجون ومنهم الاعزاب المتجردون فيختمون القرآن ويذكرون الذكروا ويدعون له عند ضريح الشيخ أبي اسحاق فتقضي حاجته باذن الله وهذا الشيخ أبو اسحق معظم عند أهل الهند والصين ومن عادة ركاب بحر الصين انهم اذا تغير عليهم الهواء وخافوا اللصوص نذروا لابي اسحاق نذورا وكتب كل منهم على نفسه ما نذره فاذا وصلوا بالسلامة صعد خدام الزاوية الى المركب واخذوا الزمام وقبضوا من كل ناذر نذره وما من مركب يأتي من الصين او الهند الا وفيه آلاف من الدنانير فيأتي الوكلاء من جهة خدام الزاوية فيقبضون ذلك ومن الفقراء من يأتي طالبا

صدقة الشيخ فيكتب له أمر بها وفيه علامة الشيخ منقوشة في قالب من الفضة فيضعون القالب في صبيغ أحمر ويلصقونه بالأمر فيبقى اثر الطابع فيه ويكون مضمنا ان من عنده نقد للشيخ أبي اسحق فليعط منه لفلان كذا فيكون الأمر بالالف والمائة وما بين ذلك ودونه على قدر الفقير فاذا وجد من عنده شيء من النذر قبض منه وكتب له رسما في ظهر الأمر بما قبضه واقد نذر ملك الهند مرة للشيخ أبي اسحق بعشرة آلاف دينار فبلغ خبرها الى فقراء الزاوية فاتي أحد هم الى الهند وقبضها وانصرف بها الى الزاوية ثم سافروا من كازرون الى مدينة الزيد بن وسميت بذلك لان فيها قبر زيد بن ثابت وقبر زيد بن أرقم الانصاريين صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما ورضي الله عنهما وهي مدينة حسنة كثيرة البساتين والمياه مليحة الاسواق عجيبة المساجد ولا هاهنا صلاح وأمانة وديانة ومن أهلها القاضي نور الدين الزيداني وكان ورد على أهل الهند فولى القضاء منها بديعة المهمل وهي جزائر كثيرة ملكها جلال الدين بن صلاح الدين صالح وتزوج باخت هذا الملك وسياتي ذكره وذكر بنته خديجة التي تولى الملك بعده بهذه الجزائر وبها توفي القاضي نور الدين المذكور ثم سافروا منها الى الحويزاء بالزاي وهي مدينة صغيرة يسكنها العجم بينها وبين البصرة مسيرة أربع و بينها وبين الكوفة مسيرة خمس ومن أهلها الشيخ الصالح العابد جمال الدين الحويزاني شيخ خانقاه سعيد السعداء بالقاهرة ثم سافروا منها قاصدين الكوفة في برية لأماء بها الاف موضع واحد يسمى الطرفاوى وردناه في اليوم الثالث من سفرنا ثم وصلنا بعد اليوم الثاني من ورودنا عليه الى مدينة الكوفة

— مدينة الكوفة —

وهي إحدى مهابات البلاد العراقية المتميزة فيها بفضل المزية مثوى الصحابة والتابعين ومنزل العلماء والصالحين وحضرة على بن أبي طالب أمير المؤمنين الا ان الخراب قد استولى عليها بسبب أيدي العدو ان التي امتدت اليها وفسادها من عرب خفاجة المجاورين لها فانهم يقطعون طريقها ولا سور عليها وبنائها بالآجر وأسواقها حسان وأكثربا يباع فيها التمر والسمنك وجامعها الأعظم جامع كبير شريف بلاطانه سبعة قائمة على سوارى حجارة ضخمة منحوتة قد صنعت قطعاً ووضع بعضها على بعض وأفرغت بالرصاص وهي مفرطة الطول وبهذا المسجد آثار كريمة فمنها بيت ازاء المحراب عن يمين مستقبل القبلة يقال ان الخليل صلوات الله عليه كان له مصلي بذلك الموضع وعلى مقربة منه محراب محلق عليه باعواد الساج مرتفع وهو محراب على بن أبي طالب رضي الله عنه وهناك ضربه

الشقي ابن ملجم والناس يقصدون الصلاة به وفي الزاوية من آخر هذا البلاط مسجد صغير
 محلق عليه ايضا باعواد الساج يذكر أنه الموضع الذي فار منه التنور حين طوفان نوح
 عليه السلام وفي ظهره خارج المسجد بيت يزعمون أنه بيت نوح عليه السلام وازاءه بيت
 يزعمون أنه متعبد ادريس عليه السلام و يتصل بذلك فضاء متصل بالجدار القبلي من
 المسجد يقال انه موضع لإنشاء سفينة نوح عليه السلام وفي آخر هذا الفضاء دار علي بن
 أبي طالب رضي الله عنه والبيت الذي غسل فيه ويتصل به بيت يقال ايضا انه بيت نوح
 عليه السلام والله أعلم بصحة ذلك كله وفي الجهة الشرقية من الجامع بيت مرتفع يصعد
 اليه فيه قبر مسلم بن عقيل بن أبي طالب رضي الله عنه و بمقر به منه خارج المسجد قبر
 عائكة وسكينة بنت الحسين عليه السلام وأما قصر الامارة بالكوفة الذي بناه سعد بن
 أبي وقاص رضي الله عنه فلم يبق منه الا أساسه والفرات من الكوفة على مسافة نصف فرسخ
 في الجانب الشرقي منها وهو منتظم بحدائق النخل الملتفة المتصل بعضها ببعض ورأيت بغربي
 جبانة الكوفة موضعا مسودا شديد السواد في بسيط ابيض فاخبرت انه قبر الشقي ابن ملجم
 وان اهل الكوفة ياتون في كل سنة بالخطب الكثير فيوقدون النار على موضع قبره سبعة
 ايام وعلى قرب منه قبة اخبرت انها على قبر المختار بن ابي عبيد ثم رحلنا ونزلنا بئر ملاحه
 وهي بلدة حسنة بين حدائق نخل ونزات بخارجها وكرهت دخولها لان اهلها روافض
 ورحلنا منها الصبح فنزلنا مدينة الحلة وهي مدينة كبيرة مستطيلة مع الفرات وهو شرقيها
 ولها اسواق حسنة جامعة للمرافق والصناعات وهي كثيرة العمارات وحدائق النخل
 منتظمة بها داخلا وخارجا ودورها بين الحدائق ولها جسر عظيم معقود على مراكب
 متصلة منتظمة فيما بين الشطين تحف بها من جانبها سلاسل من حديد مر بوظة في كلا
 الشطين الى خشبة عظيمة مثبتة بالساحل وأهل هذه المدينة كلها إمامية اثنا عشرية
 وهم طائفتان احدهما تعرف بالاكراد والاخرى تعرف باهل الجامعين والفتنة بينهم متصلة
 والقتال قائم ابداء بمقر به من السوق الاعظم بهذه المدينة مسجد على بابها ستر حرير مسدول
 وهم يسمونه مشهد صاحب الزمان ومن عاداتهم أنه يخرج في كل ليلة مائة رجل من اهل
 المدينة عليهم السلاح وبايديهم سيوف مشهورة فياتون امير المدينة بعد صلاة العصر
 خياخذون منه فرسا مسرجا ملجما او بغلة كذلك وبضربون الطبول والافار والبوقات
 امام تلك الدابة ويتقدمها خمسون منهم ويتبعها مثلهم ويمشي آخرون عن يمينها وشمالها
 و ياتون مشهد صاحب الزمان فيقفون بالباب ويقولون باسم الله يا صاحب الزمان باسم الله

ماخرج قد ظهر الفساد وكثر الظلم وهذا أوان خروجك فبفرق الله بك بين الحق والباطل ولا يزالون كذلك وهم يضربون الابواق والاطبال والانفار الى صلاة المغرب وهم يقولون ان محمد بن الحسن العسكري دخل ذلك المسجد وغاب فيه وانه سيخرج وهو الامام المنتظر عندهم وقد كان غلب على مدينة الحلة بعد موت السلطان أبي سعيد الامير أحمد بن رميثة بن أبي نمي أمير مكة وحكمها أعواما وكان حسن السيرة بحمده أهل العراق الى أن غلب عليه الشيخ حسن سلطان العراق فعذبه وقتله وأخذ الأموال والذخائر التي كانت عنده ثم سافرنا منها الى مدينة كربلاء مشهد الحسين بن علي عليهما السلام وهي مدينة صغيرة تحفها حدائق النخل ويسقيها ماء الفرات والروضة المقدسة داخلها وعليها مدرسة عظيمة وزاوية كريمة فيها الطعام للوارد والصادر وعلى باب الروضة الحجاب والقومة لا يدخل أحد الا عن إذنهم فيقبل العتبة الشريفة وهي من الفضة وعلى الضريح المقدس قناديل الذهب والفضة وعلى الابواب أستار الحرير وأهل هذه المدينة طائفتان أولاد رخيرك وأولاد فائز ويدهما القتال ابدا وهم جميعا امامية يرجعون الى أب واحد ولاجل فتنتهم تحررت هذه المدينة ثم سافرنا منها الى بغداد.

— مدينة بغداد —

مدينة دار السلام . وحضرة الاسلام . ذات القدر الشريف . والفضل المنيف . مئوي الخلفاء . ومقر العلماء . قال أبو الحسين بن حبير رضي الله عنه وهذه المدينة العتيقة وان لم تزل حضرة الخلافة العباسية . ومثابة الدعوة الامامية القرشية . فقد ذهب رسمها . ولم يبق الا اسمها . وهي بالاضافة الى ما كانت عليه قبل انحاء الحوادث عليها والتفات أعين النوائب اليها كالطلل الدارس . أو تمثال الخيال الشاخص . فلا حسن فيها يستوقف البصر ويستدعي من المستوفز الغفلة والنظر . الا دجلتها التي هي بين شرقيها وعربيها كالمرآة المجلوة بين صفحتين . أو العقد المنتظم بين لبنتين . فهي تردها ولا نظماً . وتتطلع منها في مرآة صقيلة لاتصدأ . والحسن الحريرى بن هوائها ومائها ينشأ . قال ابن جزى وكان أبا تمام حبيب بن أوس اطلع على ما آل اليه أمرها حين قال فيها

لقد أقام على بغداد ناعمها * فليبكها لخراب الدهر باكيها
كانت على مائها والحرب موقدة * والنار تطفأ حسناً في نواحيها
ترجى لها عودة في الدهر صالحة * فالآن أضمر منها الياس راجيها
مثل العجوز التي ولت شببتها * وبان عنها جمال كان يحظيها

وقد نظم الناس في مدحها وذكر بحاسنها - فاطنبوا * ووجدوا مكان القول ذاسعة فاطلوا
وأطابوا * وفيها قال الامام القاضي أبو محمد عبد الوهاب بن علي بن نصر المالكى البغدادي
وأشده فيه والدى رحمه الله مرات (بسيط)

طيب الهواء ببغداد يشوقني * قربا اليها وان عاقت مقادير
وكيف أرحل عنها اليوم اذ جمعت * طيب الهواء ينمدود ومقصود
وفيها يقول أيضا رحمه الله تعالى ورضي عنه (طويل)

سلام على بغداد في كل موطن * وحق لها مني السلام المضاعف
فوالله ما فارقتها عن قلبي لها * واني بشطى جانبيها لعارف
ولكنها ضاقت على برحبها * ولم تكن الأقدار فيها تساعف
وكانت كخيل كنت أهوى دنوه * وأخلاقه تنائي به وتخالف
وفيها يقول أيضا مغاضبا لها وأشده فيه والدى رحمه الله غير مامرة (بسيط)

بغداد دار لا أهل المال واسعة * وللصعاليك دار الضنك والضيق
ظلمات أمشي مضافا في أزقتها * كاني مصحف في بيت زنديق
وفيها يقول القاضي أبو الحسن علي بن الزبير من قصيدة (خفيف)
آنست بالعراق بدرأ منيرا * فطوت غيبتها وخاضت هجيرا
واستطابت ريانا نسائم بغداد * دفكادت لولا البري ان تطيرا
ذكرت من مسارح الكرخ روضا * لم يزل ناضرا وماء نسييرا
واجتنت من ربا المحول نورا * واجتلت من مطالع التاج نورا
ولبعض نساء بغداد في ذكرها (كامل)

أما على بغدادها وعراقها * وظبائنها والسحر في احداقها
ومجالها عند الفرات باوجه * تبدو أهلتها على أطواقها
متبخترات في النعيم كأنما * خلق الهوى العذري من اخلاقها
نفس الفداء لها قاي محاسن * في الدهر تشرق من سنا اشراقها
(رجع) ولبغداد جسران اثنان معقودان على نحو الصفة التي ذكرناها في جسر مدينة الحلة
والناس يعبرونهما ليلا ونهارا رجالا ونساء فهم في ذلك في نزهة متصلة وببغداد من المساجد
التي يخطب فيها وتقام فيها الجمعة أحد عشر مسجدا منها بالجانب الغربي ثمانية وبالجانب
الشرقي ثلاثة والمساجد سواها كثيرة جدا وكذلك المدارس إلا أنها خربت وحمامات بغداد

كثيرة وهي من أبداع الحمامات وأكثرها مطلية بالقار مسطحة به فيخيل لرأيه انه رخام اسود
وهذا القار يجلب من عين بين الكوفة والبصرة تنبع أبداه ويصير في جوانبها كالصلصال
فيجرف منها ويحلب الى بغداد وفي كل حمام منها خلوات كثيرة كل خلوة منها مفروشة
بالقار مطلى نصف حائطها مما يلي الأرض به والنصف الأعلى مطلى بالجنس الأبيض الناصع
فالضدان بها مجتمعان متقابل حسنهما وفي داخل كل خلوة حوض من الرخام فيه انبوبان
أحدهما يجري بالماء الحار والآخر بالماء البارد فيدخل الانسان الخلوة منها متفردا لا يشاركه
أحد الا ان أراد ذلك وفي زاوية كل خلوة أيضاً حوض آخر للاغتسال فيه أيضاً انبوبان
يجريان بالحار والبارد وكل داخل يعطى ثلاثاً من القوط احداها يتربها عند دخوله
والاخرى يتربها عند خروجه والاخرى ينشف به الماء عن جسده ولم أر هذا الا تقان
كله في مدينة سوى بغداد وبعض البلاد تقار بها في ذلك

— ذكر الجانب الغربي من بغداد —

الجانب الغربي منها هو الذي عمر أولاً وهو الآن خراب أكثره وعلى ذلك فقد بقي منه
ثلاث عشرة محلة كل محلة كانها مدينة بها الحمامان والثلاثة وفي ثمان منها المساجد الجامعة ومن
هذه المحلات محلة باب البصرة وبها جامع الخليفة أبي جعفر المنصور رحمه الله والمارستان
فيما بين محلة باب البصرة ومحلة الشارع على الدجلة وهو قصر كبير خرب بقيت منه
الآثار وفي هذا الجانب الغربي من المشاهد قبر معروف الكرخي رضي الله عنه وهو في محلة
باب البصرة وبطريق باب البصرة مشهد حافل البناء في داخله قبر متسع السنام عليه مكتوب
هذا قبر عون من أولاد علي بن أبي طالب وفي هذا الجانب قبر موسى الكاظم بن جعفر
الصادق والد علي بن موسى الرضا والى جانبه قبر الجواد والقبران داخل الروضة عليهما
دكانة ملبسة بالخشب عليه ألواح الفضة

— ذكر الجانب الشرقي منها —

وهذه الجهة الشرقية من بغداد حافلة الاسواق عظيمة الترتيب وأعظم أسواقها سوق
يعرف بسوق الثلاثاء كل صناعة فيها على حدة وفي وسط هذا السوق المدرسة النظامية
العجيبة التي صارت الامثال تضرب بحسنها وفي آخره المدرسة المستنصرية ونسبتها الى أمير
المؤمنين المستنصر بالله أبي جعفر ابن أمير المؤمنين الظاهر ابن أمير المؤمنين الناصر وبها
المذاهب الأربعة لكل مذهب إمامان فيه المسجد وموضع التدريس وجلس المدرس في
قبة خشب صغيرة على كرسي عليه البسط وبقعد المدرس وعليه السكينة والوقار لا بسا ثياب

السواد معتماً وعلى يمينه و يساره معيدان يعيدان كل ما يليه وهكذا ترتيب كل مجلس من هذه المجالس الاربعة وفي داخل هذه المدرسة الحمام للطلبة ودار الوضوء وبهذه الجهة الشرقية من المساجد التي تقام فيها الجمعة ثلاثة أحدها جامع الخليفة وهو المتصل بقصور الخلفاء ودورهم وهو جامع كبير فيه سقايات ومطاهر كثيرة للوضوء والغسل لفيت بهذا المسجد الشيخ الامام العالم الصالح مسند العراق سراج الدين أبا حفص عمر بن علي بن عمر القزويني وسمعت عليه فيه جميع مسند أبي محمد عبد الله بن عبد الرحمن ابن الفضل بن بهرام الدارمي وذلك في شهر رجب الفرد عام سبعة وعشرين وسبعمائة قال أخبرتنا به الشيخة الصالحة المسندة بنت الملوك فاطمة بنت العدل تاج الدين أبي الحسن علي ابن علي بن أبي البدر قالت أخبرنا الشيخ أبو بكر محمد بن مسعود بن بهروز الطيب المارستاني قال أخبرنا أبو الوقت عبد الاول بن شعيب السنجري الصوفي قال أخبرنا الامام أبو الحسن عبد الرحمن بن محمد بن المظفر الداودي قال أخبرنا أبو محمد عبد الله بن أحمد بن حمويه السرخسي عن أبي عمران عيسى بن عمر بن العباس السمرقندي عن أبي محمد عبد الله ابن عبد الرحمن بن الفضل الدارمي والجامع الثاني جامع السلطان وهو خارج البلد وتصل به قصور تنسب للسلطان والجامع الثالث جامع الرصافة وبينه وبين جامع السلطان نحو الميل — ذكر قبور الخلفاء ببغداد وقبور بعض العلماء والصالحين بها —

وقبور الخلفاء العباسيين رضي الله عنهم بالرصافة وعلى كل قبر منها اسم صاحبه فمنهم قبر المهدي وقبر الهادي وقبر المؤمنين وقبر المعتصم وقبر الواثق وقبر المتوكل وقبر المنتصر وقبر المستعين وقبر المعتز وقبر المهدي وقبر المعتمد وقبر المعتضد وقبر المكتفي وقبر المقتدر وقبر القاهر وقبر الرازي وقبر المتقي وقبر المستكفي وقبر المطيع لله وقبر الطائع وقبر القائم وقبر القادر وقبر المستظهر وقبر المسترشد وقبر الراشد وقبر المكتفي وقبر المستنجد وقبر المستضيء وقبر الناصر وقبر الظاهر وقبر المستنصر وقبر المستعصم وهو آخرهم وعليه دخل التتر ببغداد بالسيف وذبحوه بعد أيام من دخولهم وانقطع من بغداد اسم الخلافة العباسية وذلك في سنة أربع وخمسين وستمائة وبقرب الرصافة قبر الامام أبي حنيفة رضي الله عنه وعليه قبة عظيمة وزاوية فيها الطعام للوارد والصادر وائس بمدينة بغداد اليوم زاوية يطعم الطعام فيها ما عدا هذه الزاوية فسبحان مبيد الاشياء ومغيرها وبالقرب منها قبر الامام أبي عبد الله أحمد بن حنبل رضي الله عنه ولاقبة عليه ويذكر انها بنيت على قبره مراراً فتمدمت بقدرة الله تعالى وقبره عند أهل بغداد معظم وأكثرهم على مذهبه وبالقرب منه قبر أبيه

بكر الشبلي من أئمة المتصوفة رحمه الله وقبر سري السقطي وقبر بشر الحافي وقبر داود الطائي وقبر أبي القاسم الجنيد رضي الله عنهم أجمعين وأهل بغداد لهم يوم في كل جمعة لزيارة شيخ من هؤلاء المشايخ ويوم لشيخ آخر يليه هكذا إلى آخر الأسبوع وبغداد كثير من قبور الصالحين والعلماء رضي الله تعالى عنهم وهذه الجهة الشرقية من بغداد ليس بها فواكه وإنما يجلب إليها من الجهة الغربية لأن فيها البساتين والحدائق ووافق وصولي إلى بغداد كون ملك العراق بها فلنذكره ها هنا

— ذكر سلطان العراق وخراسان —

وهو السلطان الجليل أبو سعيد بها درخان و خان عندهم الملك (وبهادر بفتح الباء الموحدة وضم الدال المهمل وآخره راء) ابن السلطان الجليل محمد خذا بنده وهو الذي أسلم من ملوك التتر وضبط اسمه مختلف فيه فمنهم من قال أن اسمه خذا بنده (بخاء معجمة مضمومة وذال معجم مفتوح) وبنده لم يختلف فيه (وهو بياء موحدة مفتوحة ونون مسكنة وذال مهمل مفتوح وهاء استراحة) وتفسيره على هذا القول عبد الله لأنه خذا بالفارسية اسم الله عز وجل وبنده غلام أو عبد أو ماني معناه ما وقيل أنما هو خربنده (بفتح الخاء المعجم وضم الراء المهمل) وتفسير آخر بالفارسية الحمار فعناه على هذا غلام الحمار فشذ ما بين القولين من الخلاف على أن هذا الأخير هو المشهور وكان الأول غيره إليه من تعصب وقيل أن سبب تسميته بهذا الأخير هو أن التتر يسمون المولود باسم أول داخل على البيت عند ولادته فلما ولد هذا السلطان كان أول داخل الزمال وهم يسمونه خربنده فسمي به وأخو خربنده هو قازغان الذي يقول فيه الناس قازان وقازغان هو القدر وقيل سمي بذلك لأنه لما ولد دخلت الجارية ومعها القدر وخذا بنده هو الذي أسلم وقد مناقصته وكيف أراد أن يحمل الناس لما أسلم على الرفض وقصة القاضي محمد الدين معه ولما مات ولي الملك ولده أبو سعيد بها درخان وكان ملكاً فاضلاً كريماً ملكاً وهو صغير السن ورأيت ببغداد وهو شاب أجمل خلق الله صورة لانبات بعرضيه ووزيرها ذلك الأمير غياث الدين محمد بن خواجه رشيد وكان أبوه من مهاجرة اليهود واستوزره السلطان محمد خذا بنده والد أبي سعيد رأيتهما يوماً بحرافة في الدجلة وتسمى عندهم الشيارة وهي شبه سلورة وبين يديه دمشق خواجه ابن الأمير جويان المتغلب على أبي سعيد وعن يمينه وشماله شبارتان فيهما أهل الطرب والغناء ورأيت من مكارمه في ذلك اليوم أنه تعرض لجماعة من العميان فشكوا ضعف حاهم قامر لكل واحد منهم بكسوة وغلام يقوده

وثقة تجري عليه ولما ولي السلطان أبو سعيد وهو صغير كما ذكرناه استولى على أمره
 أمير الأمراء الجوبان وحجر عليه التصرفات حتى لم يكن بيده من الملك الا الاسم
 وبذلك رانه احتاج في بعض الاعياد الى نفقة يتفقها فلم يكن له سبيل اليها فبعث الى أحد
 التجار فاعطاه من المال ما أحب ولم يزل كذلك الى ان دخلت عليه يوما زوجة أبيه دنيا خاتون
 فقالت له لو كنا نحن الرجال ما تركنا الجوبان وولده على ما هما عليه فاستفهمها عن مرادها
 بهذا الكلام فقالت له لقد انتهت أمر دمشق خوارج بن الجوبان أن يفتك بحرم أبيك
 وانه بات البارحة عند طغى خاتون وقد بعث الى وقال لي الليلة أبيت عندك وما الرأي
 إلا أن نجمع الأمراء والعساكر فاذا صعد الى القلعة مخفيا برسم المبيت أمكنك القبض
 عليه وابوه يكفي الله أمره وكان الجوبان اذذاك غائبا بخراسان فغلبته الغيرة وبات يدبر
 أمره فلما علم أن دمشق خواجه بالقلعة أمر الأمراء والعساكر أن يطيقوا بها من كل
 ناحية فلما كان بالغدو خرج دمشق ومعه جندي يعرف بالحاج المصري فوجد سلسلة
 معرضة على باب القلعة وعليها قفل لم يمكنه الخروج راكبا فضرب الحاج المصري السلسلة
 بسيفه فقطعها وخرج معها فاحاطت بهما العساكر ولحق أمير من الأمراء الخاصكية يعرف
 بعصر خواجه وفي يعرف بأؤلود دمشق خواجه فقتلاه وأتى الملك أبو سعيد برأسه فرموا به
 بين يدي فرسه وتلك عادتهم ان يفعلوا برأس كبار أعدائهم وأمر السلطان بنهب داره
 وقتل من قاتل من خدامه ومما ليكه واتصل الخبر بابيه الجوبان وهو بخراسان ومعه أولاده
 أمير حسن وهو الأكبر وطاش وجلوخان وهو أصغرهم وهو ابن أخت السلطان أبي سعيد
 أمه ساطي بك بنت السلطان خذابنده ومعه عساكر التتر وحاميتها فانفقوا على قتال
 السلطان أبي سعيد وزحفوا اليه فلما التقى الجمعان هرب التتر الى سلطانهم وأفردوا الجوبان
 فلما رأى ذلك نكص على عقبيه وفر الى صحراء سجستان وأوغل فيها وأجمع على اللحاق
 بملك هراة غياث او لدين مستجير ابيه ومتحصنا بمد ينته و كانت له عليه ايدسا بقة فلم يوافق
 ولده حسن وطاش على ذلك وقال له انه لا يفي بالعهد وقد غدر فيروز شاه بعد ان لجأ
 اليه وقتله فابى الجوبان الا ان يلحق به فقارقه ولداه وتوجه ومعه ابنة الاصغر جلوخان
 فخرج غياث الدين لاستقباله ورجل له وادخله المدينة على الامان ثم غدره بعد ايام وقتله
 وقتل ولده وبعث برأسيهما الى السلطان أبي سعيد وأما حسن وطاش فانهما قصدوا خوارزم
 وتوجها الى السلطان محمد أوزبك فاكرم مشواهما وأنزلهما الى ان صدر منهما ماوجب
 قتلهما فقتلتهما وكان للجوبان ولد رابع اسمه الدمير طاش فهرب الي ديار مصر فاكرمه

الملك الناصر واعطاه الاسكندرية فابي من قبولها وقال انما اريد العساكر لا قاتل اباسعيد وكان متي بعث اليه الملك الناصر بكسوة أعطى هو للذي يوصلها اليه أحسن منها ازراء على الملك الناصر وأظهر أمورا أوجبت قتله فقتله وبعث برأسه الى أبي سعيد وقد ذكرنا قصته وقصة قراسنقور فيما تقدم ولما قتل الجوبان جىء به وبولده ميتين فوقف بهما على عرفات وحملوا الى المدينة ليدفنا في التربة التي اتخذها الجوبان بالقرب من مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم فنع من ذلك ودفن بالبقيع والجوبان هو الذي جلب الماء الى مكة شرفها الله تعالى ولما استقل السلطان أبوسعيد بالملك أراد أن يتزوج بنت الجوبان وكانت تسمى بغداد خاتون وهي من اجمل النساء وكانت تحت الشيخ حسن الذي تغلب بعد موت أبي سعيد على الملك وهو ابن عمته فامر به فنزل عنها وتزوجها أبوسعيد وكانت احظى النساء لديه والنساء لدى الاثراك والتر لهن حظ عظيم وهم اذا كتبوا امرا يقولون فيه عن أمر السلطان والخواتين ولكل خاتون من البلاد والولايات والحجابي العظيمة واذا سافرت مع السلطان تكون في محلة على حدة وغلبت هذه الخاتون على أبي سعيد وفضلها على سواها وأقامت على ذلك مدة أيام ثم انه تزوج امرأة تسمى بد لشاد فاحبها حبسا شديدا وهجر بغداد خاتون فغارت لذلك وسمته في منديل مسحته به بعد الجماع فمات وانقرض عقبه وغلبت أمراؤه على الجهات كما سنذكره ولما عرف الامراء ان بغداد خاتون هي التي سمته اجمعوا على قتلها وبدر لذلك الفتى الرومى خوواجه لؤاؤ وهو من كبار الامراء وقد مائهم فاتاها وهي في الحمام فضربها بدبوسه وقتلها وطرحته هنالك أياما مستورة العورة بقطعة تليس واستقل الشيخ حسن بملك عراق العرب وتزوج دلشاد امرأة السلطان أبي سعيد كمثل ما كان أبوسعيد فعلمه من تزوج امرأته

— ذكر المتغلبين على الملك بعد موت السلطان أبي سعيد —

فمنهم الشيخ حسن ابن عمته الذي ذكرناه آتفا تغلب على عراق العرب جميعا ومنهم ابراهيم شاه ابن الامير سنيته تغلب على الموصل وديار بكر ومنهم الامير ارتنا تغلب على بلاد التركمان المعروفة ايضا ببلاد الروم ومنهم حسن خوواجه بن الدمراطاش بن الجوبان تغلب على تبريز والسلطانية وهمدان وقم وقاشان والرى ورامين وفرغان والكرج ومنهم الامير طغيتمور تغلب على بعض بلاد خراسان ومنهم الامير حسين ابن الامير غياث الدين تغلب على هراة ومعظم بلاد خراسان ومنهم ملك دینار تغلب على بلاد مكران وبلاد كنج ومنهم محمد شاه ابن مظفر تغلب على يزد وكرمان وورقو ومنهم الملك قطب الدين تمهن تغلب على هرمز

وكيش والقطيف والبحر بن وقلبات ومنهم السلطان أبو اسحاق الذي تقدم ذكره تغلب على شيراز واصفهان وملك فارس وذلك مسيرة خمس وأربعين ومنهم السلطان افراسياب أتاك تغلب على ايندج وغيرهما من البلاد وقد تقدم ذكره ﴿ولنعدا الى ما كنا بسبيله﴾ ثم خرجت من بغداد في محلة السلطان أبي سعيد وغرضي أن أشاهد ترتيب ملك العراق في رحيله ونزوله وكيفية تنقله وسفره وعادتهم انهم يرحلون عند طلوع الفجر وينزلون عند الضحى وترتيبهم ان يأتي كل امير من الامراء بعسكره وطبوله وأعلامه فيقف في موضع لا يتعداه قد عين له إمانيه الميمنة أو الميسرة فاذا توافوا جميعا وتكاملت صفوفهم ركب الملك وضربت طبول الرحيل وبوقاته وأنفاره وأتى كل امير منهم فسلم على الملك وعاد الى موقفه ثم يتقدم أمام الملك الحجاب والنقباء ثم يليهم أهل الطرب وهم نحو مائة رجل عايمهم الثياب الحسنة وتحتمهم مراكب السلطان وأمام أهل الطرب عشرة من الفرسان قد تقلدوا عشرة من الطبول وخمسة من الفرسان لديهم خمس صرنايات وهي تسمى عندنا بالغيطات فيضربون تلك الاطبال والصرنايات ثم يمسكون ويغني عشرة من أهل الطرب نوبتهم فاذا قضوها ضربت تلك الاطبال والصرنايات ثم أمسكوا وغني عشرة آخرون نوبتهم هكذا الى أن تتم عشر نوبات فعند ذلك يكون النزول ويكون عن يمين السلطان وشماله حين سيره كبار الامراء وهم نحو خمسين ومن ورائه أصحاب الاعلام والاطبال والانفار والبوقات ثم مما يليك السلطان ثم الامراء على مراتبهم وكل امير له اعلام وطبول وبوقات ويتولى ترتيب ذلك كله أمير جند روله جماعة كبيرة وعقوبة من تخلف عن فوحه وجماعته ان يؤخذ تماقه فيملا رملا ويلقى في عنقه ويمشي على قدميه حتى يبلغ المنزل فيؤتى به الى الامير فيبطح على الارض ويضرب خمساً وعشرين مفرقة على ظهره سواء كان رفيعاً أو وضعياً لا يحاشون من ذلك احداً واذا نزلوا ينزل السلطان ومما يليكه في محلة على حدة وتنزل كل خاتون من خواتينه في محلة على حدة ولكل واحدة منهن الامام والمؤذنون والقراء والسوق وينزل الوزراء والكتاب وأهل الاشغال على حدة وينزل كل امير على حدة ويأتون جميعاً الى الخدمة بعد العصر ويكون انصرافهم بعد العشاء الاخيرة والمشاعل بين أيديهم فاذا كان الرحيل ضرب الطبل الكبير ثم يضرب طبل الخاتون الكبرى التي هي الملكة ثم اطبال سائر الخواتين ثم طبل الوزير ثم اطبال الوزراء دفعة واحدة ثم يركب أمير المقدمة في عسكره ثم يتبعه الخواتين ثم انقال السلطان وزاملته وأنفال الخواتين ثم أمير ثان في عسكره يمنع الناس من الدخول فيما بين الاثقال والخواتين ثم سائر الناس وسافرت في هذه المحلة عشرة ايام ثم صحبت الامير علاء الدين محمد الى بلدة تبريز وكان من الامراء الكبار الفضلاء فوصلنا بعد

عشرة أيام الى مدينة تبريز ونزلنا بخارجها في موضع يعرف بالشام وهنالك قبر قازان ملك العراق وعليه مدرسة حسنة وزاوية فيها الطعام للوارد والصادر من الخبز واللحم والارز المطبوخ بالسمن والحلواء وأنزاني الأمير بتلك الزاوية وهي ما بين أنهار متدفقة وأشجار مورقة وفي غد ذلك اليوم دخلت المدينة على باب يعرف بباب بغداد ووصلنا الى سوق عظيمة تعرف بسوق قازان من أحسن سوق رأيتها في بلاد الدنيا كل صناعة فيها على حدة لا تخالطها أخرى واجتزت بسوق الجواهريين فخار بصرى مما رأيت من أنواع الجواهر وهي بأيدي مماليك حسان الصور عليهم الثياب الفاخرة وأوساطهم مشدودة بمناديل الحرير وهم بين أيدي التجار يعرضون الجواهر على نساء الأتراك وهن يشتريه كثيرا ويتنافسن فيه فرأيت من ذلك كله فتنة يستعاذ بالله منها ودخلنا سوق العنبر والمسك فرأينا مثل ذلك أو أعظم ثم وصلنا الى المسجد الجامع الذي عمره الوزير على شاه المعروف بجيـلان وبخارجـه عن يمين مستقبل القبلة مدرسة وعن يساره زاوية وصحنه مفروش بالمرمر وحيطانه بالقاشاني وهو شبه لزليج ويشقه نهر ماء وبه أنواع الأشجار ودوا الى العنب وشجر ياسمين ومن عاداتهم انهم يقرأون بكل يوم سورة يس وسورة الفتح وسورة عم بعد صلاة العصر في صحن المسجد ويجتمع لذلك أهل المدينة وبتنا ليلة بتبريز ثم وصلنا بغداد أمر السلطان أبي سعيد الى الأمير علاء الدين بأن يصل اليه فعدت معه ولم ألق بتبريز احد من العلماء ثم سافرنا الى أن وصلنا محلة السلطان فأعلمه الأمير المذخور بمكانى وادخلني عليه فسالني عن بلادى وكسانى وأركبني وأعلمه الأمير انى أريد السفر الى الحجاز الشريف فامرلى بالزاد والركوب فى السبيل مع الحمل وكتبلى بذلك الى أمير بغداد خواجه معروف فعدت الى مدينة بغداد واستوفيت ما أمرلى به السلطان وكان قد بقي لا وان سفر الركب أزيد من شهرين فظهرلى ان اسافر الى الموصل وديار بكر لا شاهد لك البلاد واعدوا الى بغداد فى حين سفر الركب فأوجه الى الحجاز الشريف فخرجت من بغداد الى منزل على نهر دجيل وهو يتفرع عن دجلة فيسقى قرى كثيرة ثم نزلنا بعد يومين بقرية كبيرة تعرف بحربة مخصبة فسيحة ثم رحلنا فنزلنا موضعا على شط دجلة بالقرب من حصن يسمى المعشوق وهو مبنى على الدجلة وفى العدو الشرقية من هذا الحصن مدينة سرمن رأى وتسمى أيضا سامرا ويقال لها سامراء ومعناه بالفارسية طريق ساموراء هو الطريق وقد استولى الخراب على هذه المدينة فلم يبق منها الا القليل وهى معتدلة الهواء رائقة الحسن على بلادها ودروس معالمها وفيها أيضا مشهد صاحب الزمان كما بالحلة ثم سرنا منها مرحلة ووصلنا الى مدينة تكريت وهى مدينة كبيرة فسيحة الأرجاء مليحة الاسواق

كثيرة المساجد وأهلها موصوفون بحسن الاخلاق والدجلة في الجهة الشمالية منها ولها قلعة حصينة على شط الدجلة والمدينة عتيقة البناء عليها سور يطيف بها ثم رحلنا منها مرحلتين ووصلنا الى قرية تعرف بالعقر على شط الدجلة وباعلاها ربوة كان بها حصن وباسفلها الخان المعروف بخان الحديد له أبراج وبنائوه حافل والقرى والعمارة متصلة من هنالك الى الموصل ثم رحلنا ونزلنا موضعا يعرف بالقيارة بمقربة من دجلة وهنالك أرض سوداء فيها عيون تنبع بالقار ويصنع له أحواض ويجمع فيها فتراه شبه الصلصال على وجه الارض حالك اللون صقيلا رطبا وله رائحة طيبة وحول تلك العيون بركة كبيرة سوداء يعلوها شبه الطحلب الرقيق فتقذفه الى جوانبها فيصير أيضا قارا وبمقربة من هذا الموضع عين كبيرة فاذا أرادوا نقل القار منها أوقدوا عليها النار فتتشف النار ما هنا لك من رطوبة مائية ثم يقطعونه قطعاً وينقلونه وقد تقدم لنا ذكر العين التي بين الكوفة والبصرة على هذا النحو ثم سافرنا من هذه العيون مرحلتين ووصلنا بعدها الى الموصل

— مدينة الموصل —

وهي مدينة عتيقة كثيرة الخصب وقلعتها المعروفة بالحدباء عظيمة الشأن شهيرة الامتناع عليها سور محكم البناء مشيد البروج وتنصل بهادور السلطان وقد فصل بينها وبين البلد شارع متسع مستطيل من أعلي البلد الى اسفله وعلى البلد سوران اثنان وثيقان ابراجهما كثيرة متقاربة وفي باطن السور بيوت بعضها على بعض مستديرة بجداره قد تمكن فتحها فيه لسعته ولم أرفى اسوار البلاد مثله الا السور الذي على مدينة دهلي حضرة ملك الهند وللموصل ربض كبير فيه المساجد والحمامات والفنادق والاسواق وبه مسجد جامع على شط الدجلة تدور به شبائيك حديد وتتصل به مساطب تشرف على دجلة في النهاية من الحسن والاتقان وامامه مارستان وبداخل المدينة جامعان احدهما قديم والآخر حديث وفي صحن الحديث منهما قبة في داخلها خصة رخام مشعنة مرتفعة على سارية رخام يخرج منها الماء بقوة وانزاج فيرتفع مقدار القامة ثم ينعكس فيكون له مرأى حسن وقيسارية الموصل مليحة لها ابواب حديد ويدور بهادكا كين وبيوت بعضها فوق بعض متقنة البناء وبهذه المدينة مشهد جرجيس النبي عليه السلام وعليه مسجد والقبر في زاوية منه عن يمين الداخل اليه وهو فيما بين الجامع الجديد وباب الجسر وقد حصلت لنا زيارته والصلاة بمسجده والحمد لله تعالى وهنا لك تل يونس عليه السلام وعلى نحو ميل منه العين المنسوبة اليه يقال انه أمر قومه بالتطهير فيها ثم صعدوا التل ودعوا ودعوا فكشف الله عنهم العذاب

و بمقربة منه قرية كبيرة يقرب منها خراب يقال انه موضع المدينة المعروفة ببنوى مدينة
يونس عليه السلام وأثر السور المحيط بها ظاهر ومواضع الابواب التي هي متبينة وفي التل
نابا عظيم ورباط فيه بيوت كثيرة ومقاصرو ومطاهرو وسقايات يضم الجميع باب واحد وفي
نوسط الرباط بيت عليه ستر حرير وله باب مرصع يقال انه الموضع الذي به موقف يونس
عليه السلام ومحراب المسجد الذي بهذا الرباط يقال انه كان بيتا متعبده عليه السلام
وأهل الموصل يخرجون في كل ليلة جمعة الى هذا الرباط يتعبدون فيه وأهل الموصل لهم
مكارم أخلاق وابن كلام وفضيلة ومحبة في الغريب واقبال عليه وكان أميرها حين قدومي
عليها السيد الشريف الفاضل علاء الدين على بن شمس الدين محمد الملقب بحيدر وهو من
الكرماء الفضلاء أنزاني بداره وأجرى على الاتفاق مدة مقامي عنده وله الصدقات والاثار
المعروف وكان السلطان أبو سعيد يعظمه وفوض اليه امر هذه المدينة وما يليها ويركب في
موكب عظيم من مماليكه وأجناده ووجوه أهل المدينة وكبرائها ياتون للسلام عليه غدواً
وعشيا وله شجاعة ومهابة وولده في حين كتب هذا في حضرة فاس مستقر الغرباء ومأوى
الفرق ومحط رحال الوفود زادها الله بسعادة أيام مولانا أمير المؤمنين بهجة واشراقا
وحرس أرجاءها ونواحيها ثم رحلنا من الموصل ونزلنا قرية تعرف بعين الرصد وهي
على نهر عليه جسر مبنى وبها خان كبير ثم رحلنا ونزلنا قرية تعرف بالمويلحه ثم رحلنا
منها ونزلنا جزيرة ابن عمرو وهي مدينة كبيرة حسنة محيط بها الوادى ولذلك سميت
جزيرة أكثرها خراب ولها سوق حسنة ومسجد عتيق مبنى بالحجارة بحكم العمل
وسورها مبنى بالحجارة أيضاً وأهلها فضلاء لهم محبة في الغرباء ويوم نزلنا بها رأينا جبل
الجودى المذكور في كتاب الله عز وجل الذي استوت عليه سفينة نوح عليه السلام وهو
جبل عال مستطيل ثم رحلنا منها مرحلتين ووصلنا الى مدينة نصيبين وهي مدينة عتيقة
متوسطة قد خرب أكثرها وهي في بسيط أفصح فسيح فيه المياه الجارية والبساتين الملتفه
والاشجار المنتظمة والقواكدا الكثيرة وبها يصنع ماء الورد الذي لا نظير له في العطاره والطيب
ويدور بها نهر يعطف عليها انعطاف السوار منبعه من عيون في جبل قريب منها وينقسم
انقساما فيتخلل بساتينها ويدخل منه نهر الى المدينة فيجري في شوارعها ودورها ويخترق
صحن مسجدها الأعظم وينصب في صهر يجين أحدها في وسط الصحن والآخر عند
الباب الشرقى وبهذه المدينة مارستان ومدرستان وأهلها أهل صلاح ودين وصدق وامانة
ولقد صدق أبو نواس في قوله

طابت نصيبين لي يوما وطبت لها * ياليت حظي من الدنيا نصيبين
قال ابن جزى والناس يصفون مدينة نصيبين بفساد الماء والوخامة وفيها يقول بعض الشعراء
لنصيبين قد عجبت وما في * دارها لي داع الى العلات
يعدم الورد أحمر في ذراها * اسقام حتي من الوجنت
ثم رحلنا الى مدينة سنجار وهي مدينة كبيرة كثيرة الفواكه والاشجار والعيون المطردة
والانهار مبنية في سفح جبل تشبه بدمشق في كثرة أنهارها وبساتينها ومسجدها الجامع
مشهور البركة يذكر ان الدعاء به مستجاب ويدور به نهر ماء ويشقه وأهل سنجار اكراد
ولهم شجاعة وكرم ممن لقيته بها الشيخ الصالح العابد الزاهد عبد الله الكردي أحد المشايخ
الكبار صاحب كرامات يذكر عنه أنه لا يفطرا الا بعد أربعين يوما ويكون افطاره على نصف
قرص من الشعير لقيته برابطة بأعلى جبل سنجار ودعالي وزودني بدراهم لم تنزل عندي الى
أن سلبنى كما را الهنود ثم سافرنا الى مدينة دارا وهي عتيقة كبيرة بيضاء المنظر لها قلعة مشرفة
وهي الآن خراب لا عمارة بها وفي خارجها قرية معمورة بها كان نزولنا ثم رحلنا منها فوصلنا
الى مدينة ماردين وهي عظيمة في سطح جبل من أحسن مدن الاسلام وأبدعها وأتقنها
وأحسنها أسواقا بها تصنع الثياب المنسوجة اليها من الصوف المعروف بالمرعز ولها قلعة شماء
من مشاهير القلاع في قنة جبلها قال ابن جزى قلعة ماردين هذه تسمى الشهباء واياها عني شاعر
العراق صنفى الدين عبدالعزيز بن سراي الحلي بقوله في سمطه — سريع —

فدع ر بوع الحلة الفيحاء * وازور بالعيس عن الزوراء
ولا تقف بالموصل الحباء * ان شهاب القلعة الشهباء

— محرق شيطان صروف الدهر —

وقلعة حلب تسمى الشهباء أيضاً وهذه المسمطة بدعة مدح بها الملك المنصور سلطان ماردين
وكان كريماً شهيراً الصيت ولى الملك بها نحو خمسين سنة وأدرك أيام قازان ملك التتار وصاهر
السلطان خذاً بنده بابنته دنيا خاتون

— ذكر سلطان ماردين في عهد دخولى اليها —

وهو الملك الصالح ابن الملك المنصور الذي ذكرناه آنفا ورث الملك عن أبيه وله المكارم
الشهيرة وليس بارض العراق والشام ومصر أكرم منه يقصده الشعراء والفقراء فيجزل
لهم العطايا جريا على سنن أبيه قصده أبو عبد الله محمد بن جابر الاندلسي المروى الكفيف
مادحا فاعطاه عشرين الف درهم وله الصدقات والمدارس والزوايا لا طعام الطعام وله

وزير كبير القدر وهو الامام العالم وحيد الدهر وفر يد العصر جمال الدين السنجاري قرأ بمدينة تبريز وأدرك العلماء الكبار وقاضى قضائهم الا امام الكامل برهان الدين الموصلى وهو ينتسب الى الشيخ الولي فتح الموصلى وهذا القاضى من أهل الدين والورع والفضل يلبس الخشن من ثياب الصوف الذي لا تبلغ قيمته عشرة دراهم ويعتم بنحو ذلك وكثيرا ما يجلس الاحكام بصحن مسجد خارج المدرسة كان يتعبد فيه فاذا رآه من لا يعرفه ظنه بعض خدام القاضى وأعوأه

— حكاية —

ذكر لى ان امرأة أتت هذا القاضى وهو خارج من المسجد ولم تكن تعرفه فقالت له يا شيخ أين يجلس القاضى فقال لها وما ترى يدن منه فقالت له ان زوجى ضربنى وله زوجة ثانية وهو لا يعدل بيننا فى القسم وقد دعوت به الى القاضى قابى وأنا فقيرة ليس عندى ما أعطيه لرجال القاضى حتى يحضروه بمجلسه فقال لها وأين منزل زوجك فقالت بقريّة الملاحين خارج المدينة فقال لها أنا أذهب معك اليه فقالت والله ما عندى شيء أعطيك اياه فقال لها وأنا لا آخذ منك شيئا قال لها اذهبي الى القرية وانتظرينى خارجها فاني على أثرك فذهبت كما أمرها وانتظرت فوصل اليها وليس معها أحد وكانت عادت ان لا يدع أحدا يتبعه فجاءت به الى منزل زوجها فلما رآه قال لها ما هذا الشيخ النحس الذى معك فقال له نعم والله أنا كذلك ولكن أرض زوجتك فلما طال الكلام جاء الناس فعرفوا القاضى وسلموا عليه وخاف ذلك الرجل وخجل فقال له القاضى لا عليك أصلح ما بينك وبين زوجتك فارضاها الرجل من نفسه وأعطاهم القاضى نفقة ذلك اليوم وانصرف لقيت هذا القاضى وأضافنى بداره ثم رحلت عائدا الى بغداد فوصلت الى مدينة الموصل التى ذكرناها فوجدت ركبها بخارجها متوجهين الى بغداد وفيهم امرأة صالحة عابدة تسمى بالست زاهدة وهي من ذرية الخلفاء حجبت مرارا وهي ملازمة الصوم سلمت عليها وكنت فى جوارها ومعها جملة من الفقراء يخدمونها وفى هذه الوجهة توفيت رحمة الله عليها وكانت وفاتها بزروود ودفنت هنالك ثم وصلنا الى مدينة بغداد فوجدت الحاج فى أهبة الرحيل فقصدت أميرها معروف فواجه فطلبت منه ما أمر لى به السلطان فعين لى شقة محارة وزاد أربعة من الرجال وماءهم وكتب لى بذلك ووجه الى أمير الركب وهو البهلوان محمد الخويج فاوصاه بى وكانت المعرفة ببنى وبينه مقدمة فزادها تأكيد ولم أزل فى جواره وهو يحسن الى ويزيدنى على ما أمر لى به وأصابني عند خروجنا من الكوفة اسهال فكانوا ينزلوننى من أعلى الحمل مرات كثيرة فى اليوم والا مير يتفقد حالى ويوصى بى ولم أزل مريضا حتى وصلت مكة حرم الله تعالى زادها الله شرفا وتعظيما

وظفت بالبيت الحرام كرمه الله تعالى طواف القدوم وكنت ضعيفاً بحيث أؤدى المكتوبة قاعداً فطفت وسعيت بين الصفا والمروة راكباً على فرس الأمير الخويج المذكور ووقفنا تلك السنة يوم الاثنين فلما نزلنا مني أخذت في الراحة والاستقلال من مرضى ولما انقضى الحاج أقمت مجاوراً بمكة تلك السنة وكان بها الأمير علاء الدين بن هلال مشيد (مشد) الدواوين مقيماً لعمارة دار الوضوء بظاهر العطارين من باب بني شيبه وجاور في تلك السنة من المصريين جماعة من كبرائهم منهم تاج الدين بن الكويك ونور الدين القاضي وزين الدين بن الاصيل وابن الخليلي وناصر الدين الاسيوطي وسكنت تلك السنة بالمدرسة المظفرية وعافاني الله من مرضى فكنت في أنعم عبس وتفرغت للطواف والعبادة والاعتماد وأتي في أثناء تلك السنة حجاج الصعيد وقدم معهم الشيخ الصالح نجم الدين الاصفهوني وهي أول حجة حجها والاخوان علاء الدين علي وسراج الدين عمر ابنا القاضي الصالح نجم الدين البالسي قاضي مصر وجماعة غيرهم في منتصف ذي القعدة وصل الأمير سيف الدين يلمك وهو من الفضلاء ووصل في صحبته جماعة من أهل طنجة بلدى حرسها الله منهم الفقيه أبو عبد الله محمد بن القاضي أبي العباس ابن القاضي الخطيب أبي القاسم الجراوى والفقيه أبو عبد الله بن عطاء الله والفقيه أبو محمد عبد الله الحضري والفقيه أبو عبد الله المرسى وأبو العباس بن الفقيه أبي علي البلنسى وأبو محمد ابن القابلة وأبو الحسن البيارى وأبو العباس بن نافوت وأبو الصير أيوب الفخار وأحمد بن حكامه ومن أهل قصر الحجاز الفقيه أبو زيد عبد الرحمن ابن القاضي أبي العباس بن خلوف ومن أهل القصر الكبير الفقيه أبو محمد بن مسلم وأبو اسحاق ابراهيم بن يحيى وولده ووصل في تلك السنة الأمير سيف الدين تغر دمور من الخاصكية والأمير موسى بن قرمان والقاضي نحر الدين ناظر الجيش كاتب الممالك والتاج أبو اسحاق والست حدق مربية الملك الناصر وكانت لهم صدقات عميمة بالحرم الشريف واكثرهم صدقة القاضي نحر الدين وكانت ووقفنا في تلك السنة في يوم الجمعة من عام ثمان وعشرين ولما انقضى الحج أقمت مجاوراً بمكة حرسها الله سنة تسع وعشرين وفي هذه السنة وصل أحمد بن الأمير رميشة ومبارك بن الأمير عطيفه من العراق صحبة الأمير مجد الخويج والشيخ زاده الحرباوي والشيخ دانيال وأتوا بصدقات عظيمة للمجاورين وأهل مكة من قبل السلطان أبي سعيد ملك العراق وفي تلك السنة ذكر اسمه في الخطبة بعد ذكر الملك الناصر ودعوا له بأعلى قبة زمزم وذكروا بعده سلطان اليمن الملك المجاهد نور الدين ولم يوافق الأمير

عطيفة على ذلك وبعث شقيقه منصورا ليعلم الملك الناصر بذلك فامر رميثة برده فرد
فبعثه ثانية على طريق جده حتى أعلم الملك الناصر بذلك ووقفنا تلك السنة وهي سنة
تسع وعشرين يوم الثلاثاء ولما انقضى الحج اقامت مجاورا بمكة حرسها الله سنة ثلاثين وفي
موسمها وقعت الفتنة بين أمير مكة عطيفة وبين أيدمور أمير جنود الناصري وسببه
ذلك ان تجارا من أهل اليمن سرقوا فتشكروا إلى أيدمور بذلك فقال أيدمور لمبارك بن
الأمير عطيفة إئت بهؤلاء السراق فقال لا أعرفهم فكيف تأتي بهم وبعد فاهل اليمن تحت
حكمنا ولا حكم عليهم لك ان سرق لاهل مصر والشام شيء فاطمئني به فشتمه أيدمور
وقال له يا قواد تقول لي هكذا وضربه على صدره فسقط ووقعت عمامته عن رأسه وغضب
له عبيده وركب أيدمور يريد عسكره فلحقه مبارك وعبيده فقتلوه وقتلوا ولده ووقعت
الفتنة بالحرم وكان به الأمير أحمد ابن عم الملك الناصر ورمي الترك بالشاب فقتلوا امرأة
قيل انها كانت تعرض أهل مكة على القتال وركب من الركب من الأتراك وأميرهم خاص
ترك فخرج اليهم القاضي والأئمة والمجاورون وفوق رؤسهم المصاحف وحاولوا الصلح
ودخل الحجاج مكة فاخذوا ما لهم بها وانصرفوا إلى مصر وبلغ الخبر إلى الملك الناصر
فشق عليه وبعث العساكر إلى مكة ففر الأمير عطيفة وابنه مبارك وخرج أخوه رميثة
واولاده إلى وادي نخلة فلما وصل العسكر إلى مكة بعث الأمير رميثة أحدا ولاده يطلب
له الأمان ولولده فأمّنوا وأتى رميثة وكفنه في يده إلى الأمير فخلع عليه وسلمت إليه مكة
وعاد العسكر إلى مصر وكان الملك الناصر رحمه الله حليما فاضلا فخرجت في تلك الأيام من
مكة شرفهم الله تعالى قاصدا بلاد اليمن فوصلت إلى جدة (بالحاء المهملة المفتوح) وهي
نصب الطريق ما بين مكة وجدة (بالجيم المضموم) ثم وصلت إلى جدة وهي بلدة قديمة
على ساحل البحر يقال انها من عمارة الفرس وبخارجها مصانع قديمة وبها جباب للماء
منقورة في الحجر الصلد يتصل بعضها ببعض تفوت الاحصاء كثرة وكانت هذه السنة قليلة
المطر وكان الماء يجلب إلى جدة على مسيرة يوم وكان الحجاج يسالون الماء من أصحاب البيوت

— حكاية —

ومن غريب ما اتفق لي بجدة انه وقف على بابي سائل أعني يطلب الماء يقوده غلام فسلم
على وسألني باسمي وأخذ يدي ولم أكن عرفته قط ولا عرفني فعجبت من شأنه ثم أمسك
أصبعي بيده وقال ابن الفتحة وهي الخاتم وكنت حين خروجي من مكة قد لقيني بعض
الفقراء وسألني ولم يكن عندي في ذلك الحين شيء فدفعت له خاتمي فلما سألني عنه هذا

الإعشى قلت له اعطيته لفقير فقال ارجع في طلبه فان فيه أسماء مكتوبة فيها سر من الاسرار
فطال تعجبي منه ومن معرفته بذلك كله والله أعلم بحاله وبجدة جامع يعرف بجامع
الآبنوس معروف البركة يستجاب فيه الدعاء وكان الامير بها أبايعقوب بن عبد الرزاق
وقاضيهما وخطبها الفقيه عبد الله من أهل مكة شافعي المذهب واذا كان يوم الجمعة واجتمع
الناس للصلاة أتى المؤذن وعد أهل جدة المقيمين بها فان كلوا أربعين خطب وصلى بهم الجمعة
وان لم يبلغ عددهم أربعين صلى ظهرا أربعاً ولا يعتبر من ليس من أهلها وان كانوا عددا
كثيراً هم ركبتا البحر من جدة في مركب يسمونه الجلبة وكان لرشيد الدين الالفى اليمني
الحبشي الاصل وركب الشريف منصور بن ابي نمى في جلبية اخري ورغب مني ان
أكون معه فلم افعل لكونه كان معه في جلبية الجمال خفت من ذلك ولم أكن ركبت البحر
قبلها وكان هناك جملة من اهل اليمن قد جعلوا ازوادهم وامتعتهم في الجلب وهم متأهبون للسفر
— حكاية —

ولما ركبنا البحر امر الشريف منصور احد غلماننا ان ياتيه بعديلة دقيق وهي نصف
حمل وبطنة سمن ياخذها من جانب أهل اليمن فاخذها واتى بهما اليه فأتاني التجار
باكين وذكروا لي ان في جوف تلك العديلة عشرة آلاف درهم نقرة ورغبوا مني ان
أكله في ردها وان ياخذسواها فاتيتهم وكلمتهم في ذاك وقلت له إن للتجار في جوف
هذه العديلة شيئا فقال ان كان سكرافلا رده اليهم وان كان سوى ذلك فهو لهم ففتحوها
فوجدوا الدراهم فردها عليهم وقال لي لو كان عجلا نماردها وعجلان هو ابن اخيه رميئة
وكان قد دخل في تلك الايام دار تاجر من اهل دمشق قاصدا لليمن فذهب بمعظم ما كان
فيها وعجلان هو امير مكة على هذا العهد وقد صلح حاله واظهر العدل والفضل ثم سافرنا في
هذا البحر بالريح الطيبة يومين وتغيرت الريح بعد ذلك وصدتنا عن السبيل التي قصدناها
ودخلت امواج البحر معنا في المركب واشتد الميّد بالناس ولم نزل في احوال حتى خرجنا
في مرسى يعرف برأس دوائر فيما بين عيذاب وسوا كن فنزلنا به ووجدنا بسا حله عريش
قصب على هيئة مسجد وفيه كثير من قشور بيض النعام مملوءة ماء فشربنا منه وطبخنا
ورأيت بذلك المرسى عجبا وهو خور مثل الوادي يخرج من البحر فكان الناس ياخذون
الثوب ويمسكون باطرافه ويخرجون به وقد امتلأ سمكا كل سمكة منها قدر الذراع
ويعرفونه بالبورى فطبخ منه الناس كثيرا واشتروا وقصدت اليناطا ثمة من البجاة وهم
سكان تلك الارض سودا لوان لباسهم الملاحف الصفرة ويشدون على رؤسهم عصائب

حمراني عرض الاصبع وهم أهل نجدة وشجاعة وسلاحهم الرماح والسيوف ولهم جمال يسمونها الصهب يركبونها بالسروج فاكثرينا منهم الجمال وسافرنا معهم في برية كثيرة الغزلان والبجاة لا ياكلونها فهي تانس بالآدمى ولا تنفر منه وبعد يومين من مسيرنا وصلنا الى حي من العرب يعرفون باولاد كاعل مختلطين بالبجاة عارفين بلسانهم وفي ذلك اليوم وصلنا الى جزيرة سواكن وهي على نحو ستة أميال من البر ولا ماء بها ولا زرع ولا شجر والماء يجلب اليها في الفوارب وفيها صهاريج يجتمع بها ماء المطر وهي جزيرة كبيرة وبها لحوم النعام والغزلان وحمر الوحش والمعزى عندهم كثير والا لبان والسمن ومنها يجلب الى مكة وحبوبهم الجرجور وهو نوع من الذرة كبير الحب يجلب منها أيضا الى مكة — ذكر سلطانها —

وكان سلطان جزيرة سواكن حين وصولي اليها الشريف زيد بن أبي ندى وابوه أمير مكة وأخوه أميرها بعده وهما عطيفة ورميثة اللذان تقدم ذكرهما وصارت اليد من قبل البجاة فانهم اخواله ومعه عسكر من البجاة وأولاده كاهل وعرب جهينة وركبنا البحر من جزيرة سواكن نريد أرض اليمن وهذا البحر لا يسافر فيه بالليل لكثرة أحجاره وانما يسافرون فيه من طلوع الشمس الى غروبها ويرسون وينزلون الى البر فاذا كان الصباح صعدوا الى المركب وهم يسمون رئيس المركب الربان ولا يزال أبدان مقدم المركب يديه صاحب السكان على الأحجار وهم يسمونها النبات وبعد ستة أيام من خروجنا عن جزيرة سواكن وصلنا الى مدينة حلى (وضبط اسمها بفتح الحاء المهمل وكسر اللام وتخفيفها) وتعرف باسم ابن يعقوب وكان من سلاطين اليمن ساكنها قديما وهي كبيرة حسنة العمارة يسكنها طائفتان من العرب وهم بنو حرام وبنو كنانة وجامع هذه المدينة من أحسن الجوامع وفيه جماعة من الفقراء المنقطعين الى العبادة منهم الشيخ الصالح العابد الزاهد قبولة الهندي من كبار الصالحين لباسه مرقعة وقلنسوة لبدوله خلوة متصلة بالمسجد فرشها الرمل لا حصير بها ولا بساط ولم أربها حين لقائي له شيئا الا ابريق الوضوء وسفرة من خوص النخيل فيها كسر شعير يابسة وصحيفة فيها ملح وسعتر فاذا جاءه احد قدم بين يديه ذلك ويسمع به أصحابه فيأتي لكل واحد منهم بما حضر من غير تكلف شيء واذا وصلوا العصر اجتمعوا للذكر بين يدي الشيخ الى صلاة المغرب واذا صلوا المغرب أخذ كل واحد منهم موقفه للتنقل فلا يزالون كذلك الى صلاة العشاء الآخرة فاذا صلوا العشاء الآخرة اقاموا على الذكر الى ثلث الليل ثم انصرفوا ويعودون في اول الثلث الثالث الى

المسجد فيتمجدون الى الصبح ثم يذكرون الى ان تحين صلاة الاشراف فينصرفون بعد
صلاتها ومنهم من يقيم الى ان يصلي صلاة الضحى بالمسجد وهذا دأبهم ابدا ولقد كنت
اردت الاقامة معهم باقى عمرى فلم اوفق لذلك والله تعالى يتداركنا بلطفه وتوفيقه

— ذكر سلطان حلي (

وسلطانها عامر بن ذؤيب من بني كنانة وهو من الفضلاء الادباء الشعراء صحبته من مكة
الى جدة وكان قد حج في سنة ثلاثين ولما قدمت مدينته أنزلني وأكرمني وأقامت في
ضيافته أياما وركبت البحر في مركب له فوصلت الى بلدة السرجة (وضبط اسمها بفتح
السين المهمل واسكان الراء وفتح الجيم) بلدة صغيرة يسكنها جماعة من أولاد الهبي وهم
طائفة من تجار اليمن أكثرهم ساكنون بصعداء ولهم مصل وكرم واطعام لابناء السبيل
ويعينون الحجاج ويركبونهم في مراكبهم ويزودونهم من أموالهم وقد عرفوا بذلك
واشتهروا به وكثر الله أموالهم وزادهم من فضله وأعانهم على فعل الخير وليس بالارض
من يماثلهم في ذلك الا الشيخ بدر الدين النقاش الساكن ببلدة القحمة فله مثل ذلك من
الآثار والايثار وأقاما بالسرجة ليلة واحدة في ضيافة المذكورين ثم رحلنا الى مرسى
الحادث ولم نزل به ثم الى مرسى الابواب ثم الى مدينة زبيد مدينة عظيمة باليمن بينها
وبين صنعاء أربعون فرسخا وايس باليمن بعد صنعاء أكبر منها ولا أغني من أهلها واسعة
البساتين كثيرة المياه والقوا كه من الموز وغيره وهي برية لا شطية احدى قواعد بلاد اليمن
(وهي بفتح الزاي وكسر الباء الموحدة) مدينة كبيرة كثيرة العمارة بها النخل والبساتين
والمياه أملح بلاد اليمن وأجملها ولا هلمها الطافة الشمال وحسن الاخلاق وجمال الصور
اول نسائها الحسن الفائق الفائق وهي وادي الخصيب الذي يذكروا في بعض الآثار ان رسول
الله صلى الله عليه وسلم قال لمعاذ في وصيته يا معاذ اذا جئت وادي الخصيب فهرول ولا هل هذه
المدينة سبوت النخل المشهورة وذلك انهم يخرجون في أيام البسر والرطب في كل سبت
الى حدائق النخل ولا يبق بالمدينة أحد من أهلها ولا من الغرباء ويخرج أهل الطرب
وأهل الاسواق لبيع الزواكيد والحلاوات وتخرج النساء ممتطيات الجمال في الحامل ولهن
مع ما ذكرناه من الجمال الفائق الاخلاق الحسنة والمكارم والغريب عندهم مزية ولا
يمتنعن من تزوجه كما يفعله نساء بلادنا فاذا أراد السفر خرجت معه وودعته وان كانت
بينهما ولد فهي تكفله وتقوم بما يجب له الى ان يرجع أبوه ولا تطالبه في أيام الغيبة بنفقة
ولا كسوه ولا سواها واذا كان مقيما فهي تقنع منه بقليل النفقة والكسوة لكنهن

لأن يخرج من بلد من بلد أو لو أعطيت أحدا من ماعسى أن تعطاه على أن يخرج من بلدها لم تفعل وعلماء تلك البلاد وفقهاؤها أهل صلاح ودين وأمانة ومكارم وحسن خلق لقيت بمدينة زبيد الشيخ العالم الصالح أبى محمد الصنعاني والفقيه الصوفي المحقق أبى العباس الإياني والفقيه المحدث أبى على الزبيدي ونزلت في جوارهم فأكرموني وأضافوني ودخلت أحدا منهم واجتمعت عند بعضهم بالفقيه القاضي العالم أبى زيد عبد الرحمن الصوفي أحد فضلاء اليمن ووقع عنده ذكر العابد الزاهد الخاشع أحمد بن العجيل اليمني وكان من كبار الرجال وأهل الكرامات — كرامة —

فذكروا أن فقهاء الزبيدية وكبراءهم أتوا مرة إلى زيارة الشيخ أحمد بن العجيل فجلس لهم خارج الزاوية واستقبلهم أصحابه ولم يبرح الشيخ عن موضعه فسلموا عليه وصاحفهم ورحب بهم ووقع بينهم الكلام في مسألة القدر وكانوا يقولون إن لا قدر وإن المكاف يخلق أفعاله فقال لهم الشيخ فإن كان الأمر على ما تقولون فقوموا عن مكانكم هذا فإن أرادوا القيام فلم يستطيعوا وتركهم الشيخ على حالهم ودخل الزاوية وأقاموا كذلك واشتد بهم الحرق ولحقهم وهيج الشمس وضجوا مما نزل بهم فدخل أصحاب الشيخ إليه وقالوا له إن هؤلاء القوم قد تابوا إلى الله ورجعوا عن مذهبهم الفاسد فخرج عليهم الشيخ فأخذ بأيديهم وعاهدهم على الرجوع إلى الحق وترك مذهبهم السيئ وأدخلهم زاويته فأقاموا في ضيافته ثلاثا وانصرفوا إلى بلادهم وخرجت لزيارة قبر هذا الرجل الصالح وهو بقريّة يقال لها غسانة خارج زبيد ولقيت ولده الصالح أبى الوليد اسماعيل فأضافني وبيت عنده وزرت ضريح الشيخ وأقيمت معه ثلاثا وسافرت في صحبته إلى زيارة الفقيه أبى الحسن الزيلعي وهو من كبار الصالحين ويقدم حججاج اليمن إذا توجهوا للحج وأهل تلك البلاد وأعرابها يعظمونه ويحترمونونه فوصلنا إلى جبلة وهي بلدة صغيرة حسنة ذات نخل وفواكه وأنهار فلما سمع الفقيه أبى الحسن الزيلعي بقدوم الشيخ أبى الوليد استقبله وأنزله بزاويته وسلمت عليه معه وأقمنا عنده ثلاثة أيام في خير مقام ثم انصرفنا وبعث معنا أحد الفقراء فتوجهنا إلى مدينة تعز حضرة ملك اليمن (وضبط اسمها بفتح التاء المملوءة وكسر العين المهملة وزاء) وهي من أحسن مدن اليمن وأعظمها وأهلها ذوو نجب وتكبر وفضاظة وكذلك الغالب على البلاد التي يسكنها الملوك وهي ثلاث محلات أحدها يسكنها السلطان ومما يليه وحاشيته وأرباب دولته وتسمى باسم لا أذكره والثانية يسكنها الأمراء والاجناد وتسمى عدينة والثالثة يسكنها عامة الناس وبها السوق العظمى وتسمى الحالب

— ذكر سلطان اليمن —

وهو السلطان المجاهد نور الدين علي ابن السلطان المؤيد هزبر الدين داود ابن السلطان المظفر يوسف بن علي بن رسول شهر جده برسول لان أحد خلفاء بني العباس أرسله الى اليمن ليكون بها أميرا ثم استقل أولاده بالملك وله ترتيب عجيب في قعوده وركوبه وكنت لما وصلت هذه المدينة مع الفقير الذي بعثه الشيخ الفقيه أبو الحسن الزيلعي في صحبتي قصدني الى قاضي القضاة الامام الحديث صفي الدين الطبري المكي فسلمنا عليه وورحب بنا وأقام بداره في ضيافته ثلاثا فلما كان في اليوم الرابع وهو يوم الخميس وفيه يجلس السلطان لعامة الناس دخل بي عليه فسلمت عليه وكيفية السلام عليه ان يمس الانسار الارض بسبابتهم برفعها الى رأسه ويقول أدام الله عزك ففعلت كمثل ما فعله القاضي وقعد القاضي عن يمين الملك وأمرني فقعدت بين يديه فسا لي عن ملادي وعن مولانا أمير المسلمين جواد الاجواد أبي سعيد رضى الله عنه وعن ملك مصر وملك العراق وملك اللور فاجبته عما سألت من أحوالهم وكان وزيره بين يديه فامرهما كرامى وانزالي وترتيب قعوده هذا الملك انه يجلس فوق دكانة مفروشة مزينة بثياب الحر برو عن يمينه ويساره أهل السلاح و يليه منهم أصحاب السيوف والدرق و يليهم أصحاب القسي و بين أيديهم في الميمنة والميسرة الحاجب وارباب الدولة وكاتب السر وأمير جنندار على رأسه والشاوشية وهم من الجنادة رقوف على بعد فاداعد السلطان صاحوا صيحة واحدة بسم الله فاذا قام فعلوا مثل ذلك فيعلم جميع من بالمشور وقت قيامه ووقت قعوده فاذا استوي قاعداد دخل كل من عادته أن يسلم عليه فسلم ووقف حيث رسم له في الميمنة أو الميسرة لا يتعدي أحدهم وضعه ولا يقعد الا من أمرنا لقعود يقول السلطان للامير جنندار مرهلا نا يقعد فيقدم ذلك المأمورا لقعوده عن هوقفه قليلا ويقعد على بساط هناك بين أيدي القائمين في الميمنة والميسرة ثم يؤتى بالطعام وهو طعامان طعام العامة وطعام الخاصة فأما الطعام الخاص فيأكل كل منه السلطان وقاعى القضاة والكبار من الشرفاء ومن الفقهاء والضيوف وأما الطعام العام فيأكل كل منه سائر الشرفاء والفقهاء والقضاة والمشايخ والامراء ووجوه الجناد ويجلس كل انسان للطعام معين لا يتعداه ولا يزاحم أحدهم منهم احدا وعلى مثل هذا الترتيب سواء هو ترتيب ملك الهند في طعامه فلا علم ان سلاطين الهند اخذوا ذلك عن سلاطين اليمن أم سلاطين اليمن أخذوه عن سلاطين الهند وأقيمت في ضيافة سلطان اليمن أياما وأحسن الى وأركبني وانصرفت مسافرا الى مدينة صنعاء وهى قاعدة بلاد اليمن الاولى. مدينة كبيرة حسنة العمارة بناؤها بالآجر والجص كثيرة الاشجار والفواكه والزرع معتدلة

الهواء طيبة الماء ومن الغريب ان المطر ببلاد الهند واليمن والحبشة انما ينزل في أيام القيظ وأكثر ما يكون نزوله بعد الظهر من كل يوم في ذلك الاوان فالسافرون يستعجلون عند الزوال لئلا يصيبهم المطر وأهل المدينة ينصرفون الى منازلهم لان أمطارها وابلّة متدفقة ومدينة صنعاء مفروشة كلها فاذا نزل المطر غسل جميع أزقتها وأنقاها وجامع صنعاء من أحسن الجوامع وفيه قبر نبي من الانبياء عليهم السلام ثم سافرت منها الى مدينة عدن مرسى بلاد اليمن على ساحل البحر الاعظم والجبال تحفها ولا مدخل اليها الا من جانب واحد وهي مدينة كبيرة ولا زرع بها ولا شجر ولا ماء وبها صهاريج يجتمع فيها الماء أيام المطر والماء على بعد منها فر بما منعتة العرب وحالوا بين أهل المدينة وبينه حتى يصانعوهم بالمال والثياب وهي شديدة الحروهي مرسى أهل الهند تأتي اليها المراكب العظيمة من كينيا وتانه وكولم وقالقوط وفندراينه والشاليات ومنجروروفا كنور وهنور وسندابور وغيرها وتجار الهند ساكنون بها وتجار مصر أيضا وأهل عدن مابين تجار وحمايين وصيادين للسماك وللتجار منهم اموال عريضة وربما يكون لاحد هم المركب العظيم بجميع ما فيه لا يشاركه فيه غيره لسعة ما بين يديه من الاموال ولهم في ذلك تفاخر ومباهاة

﴿ حكاية ﴾ ذكر على أن بعضهم بعث غلاما له يشتري له كبشا وبعث آخر منهم غلاما له برسم ذلك أيضا فاتفق أنه لم يكن بالسوق في ذلك اليوم الا كبش واحد فوقع المزايعة فيه بين الغلامين فانهي ثمنه الى أر بعائة دينار فاخذه أحدها وقال ان رأس مالي أر بعائة دينار فان أعطاني مولاى ثمنه فحسن والادفعت فيه رأس مالي ونصرت نفسي وغلبت صاحبي وذهب بالكبش الى سيده فلما عرف سيده بالقضية أعتقه وأعطاه ألف دينار وعاد الآخر الى سيده خائبا فضر به وأخذ ماله ونقاها عنه ونزلت في عدن عند تاجر يعرف بناصر الدين الفارسي فكان يحضر طعامه كل ليلة نحو عشرين من التجار وله غلمان وخدام أكثر من ذلك ومع هذا كله فهم أهل دين وتواضع وصلاح ومكارم أخلاق يحسنون الى الغريب ويؤثرون على الفقير ويعطون حق الله من الزكاة على ما يجب ولقيت بهذه المدينة قاضيها الصالح سالم بن عبد الله الهندي وكان والده من العبيد الحمالين واشتغل ابنه بالعلم فأرأس وساد وهو من خيار القضاة وفضلائهم أقمت في ضيافته اياما وسافرت من مدينة عدن الى البحر أر بعائة أيام ووصلت الى مدينة زيلع وهي مدينة البربرة وهم طائفة من السودان شافعية المذهب وبلادهم صحراء مسيرة شهر بن اولها زيلع وآخرها مقدشو ومواشيهم الجمال ولهم أغنام مشهورة السمن وأهل زيلع سود الالوان وأكثرهم رافضة وهي مدينة

كبيرة لها سوق عظيمة الا أنها أقدر مدينة في المعمور واوحشها وأكثرها تننا وسبب تنها
 كثرة سمكها ودماء الابل التي ينحرونها في الازقة ولما وصلنا اليها اخترنا المبيت بالبحر على
 شدة هوله ولم نبت بها لقدرها ثم سافرنا منها في البحر خمس عشرة ليلة ووصلنا مقدشو
 (وضبط اسمها بفتح الميم واسكان القاف وفتح الدال المهمل والشين المعجم واسكان
 الواو) وهي مدينة متناهية في الكبر وأهلها لهم جمال كثيرة ينحرون منها المئين في كل يوم
 ولهم اغنام كثيرة وأهلها تجار اقوياء وبها تصنع الثياب المنسوبة اليها التي لا نظير لها ومنها
 تحمل الى ديار مصر وغيرها ومن عادة اهل هذه المدينة انه متى وصل مركب الى المرسى تصعد
 الصنابق وهي القوارب الصغار اليه ويكون في كل صنبوق جماعة من شبان اهلها فباتي كل
 واحد منهم بطبق مغطى فيه الطعام فيقدمه لتاجر من تجار المركب ويقول هذا نزل يلى
 وكذلك يفعل كل واحد منهم ولا ينزل التاجر من المركب الا الى دار نزيله من هؤلاء
 للشبان الا من كان كثير التردد الى البلد وحصلت له معرفة اهلها فانه ينزل حيث شاء فاذا نزل
 عند نزيله اعلمه ما عنده واشترى له ومن اشترى منه يبيع اوباع منه بغير حضور نزيله فذلك
 البيع مردود عندهم ولهم منفعة في ذلك ولما صعد الشبان الى المركب الذي كنت فيه جاء
 الى بعضهم فقال له اصحابي ليس هذا بتاجر وانما هو فقيه فصاح باصحابه وقال لهم هذا
 نزل بل القاضي وكان فيها أحد اصحاب القاضى فعرفه بذلك فأتى الى ساحل البحر في جملة
 من الطلبة وبعث الى احدهم فنزلت انا واصحابي وسلمت على القاضى واصحابه وقال
 بسم الله نتوجه لاسلام على الشيخ فقلت ومن الشيخ فقال السلطان وعادتهم ان يقولوا
 للسلطان الشيخ فقلت له اذا نزلت توجهت اليه فقال لى ان العادة اذا جاء الفقيه او
 الشريف او الرجل الصالح لا ينزل حتى يرى السلطان فذهبت معهم اليه كما طلبوا

— ذكر سلطان مقدشو —

وسلطان مقدشو كما ذكرناه انما يقولون له الشيخ واسمه ابو بكر بن الشيخ عمرو هو في
 الاصل من البربرة وكلامه بالمقدشى ويعرف اللسان العربي ومن عوائده انه متى وصل
 مركب يصعد اليه صنبوق السلطان فيسال عن المركب من اين قدم ومن صاحبه ومن
 زبانه وهو الرئيس وما وسقه ومن قدم فيه من التجار وغيرهم فيعرف بذلك كله ويعرض
 على السلطان فمن استحق ان ينزله عنده انزله ولما وصلت مع القاضى المذكور وهو يعرف
 بابن البرهان المصرى الاصل الى دار السلطان خرج بعض الفتيان فسلم على القاضى فقال
 له بلغ الامانة وعرف مولانا الشيخ ان هذا الرجل قد وصل من ارض الحجاز فباغ ثم عاد

وأتى بطبق فيه أوراق التنبول والفوفل فأعطاني عشرة أوراق مع قليل من الفوفل
وأعطى للقاضي كذلك وأعطى لأصحابي ولطلبة القاضي ما بقى في الطبق وجاء بمقدم من ماء
الورد الدمشقي فسكب على وعلى القاضي وقال إن مولانا أمر أن ينزل بدار الطلبة وهي دار معدة
لضيافة الطلبة فأخذ القاضي بيدي وجئنا إلى تلك الدار وهي بمقربة من دار الشيخ
مفروشة مرتبة بما تحتاج إليه ثم أتى بالطعام من دار الشيخ ومعه أحد وزرائه وهو
الموكل بالضيوف فقال مولانا يسلم عليكم ويقول لكم قدمت خير مقدم ثم وضع الطعام
فاكلنا وطعامهم الارز المطبوخ بالسمن يجعلونه في صحفة خشب كبيرة ويجعلون فوقه صحاف
الكوشان وهو الادام من الدجاج واللحم والحوت والبقول ويطحخون الموز قبل نضجه
في اللبن الحليب ويجعلونه في صحفة ويجعلون اللبن المريب في صحفة ويجعلون عليه الليمون المصبر
وعناقيد الفلفل المصبر المخلل والمملوح والزنجبيل الاخضر والعنبا وهي مثل التفاح ولكن
لها نواة وهي اذا نضجت شديدة الحلاوة وتؤكل كالفاكهة وقبل نضجها حامضة كالليمون
يصبرونها في الخل وهم اذا أكلوا لقمة من الارز أكلوا بعدها من هذه الموالح والمخللات
والواحد من أهل مقدشو يا كل قدر مانا كله الجماعة منا عادة لهم وهم في نهاية من ضخامة
الجسوم وسميها ثم لما اطعمنا انصرف عنا القاضي وأقمنا ثلاثة أيام يؤتى إلينا بالطعام ثلاث
مرات في اليوم وتلك عاداتهم فلما كان في اليوم الرابع وهو يوم الجمعة جاءني القاضي
والطلبة وأحد وزراء الشيخ وأتوني بكسوة وكسوتهم فوطه خزيشدها الانسان في وسطه
عوض السراويل فانهم لا يعرفونها ودراعة من المقطع المصري معلمة وفرجية من
القدسى مبطنة وعمامة مصرية معلمة وأتوا لأصحابي بكسي تناسبهم وأتينا الجامع فصلينا
خلف المقصورة فلما خرج الشيخ من باب المقصورة سلمت عليه مع القاضي فرحب
وتكلم بلسانهم مع القاضي ثم قال باللسان العربي قدمت خير مقدم وشرفت بلادنا
وآستننا وخرج الى صحن المسجد فوقف على قبر والده وهو مدفون هناك فقرا ودعا
ثم جاء الوزراء والامراء ووجوه الاجناد فسلموا وعاداتهم في السلام كهادة أهل اليمن
يضع سبابته في الارض ثم يجعلها على رأسه ويقول أدام الله عزك ثم خرج الشيخ من
باب المسجد فلبس نعليه وأمر القاضي أن ينتعل وأمرني أن أنتعل وتوجه الى منزله
ماشيا وهو بالقرب من المسجد ومشى الناس كلهم حفاة ورفعت فوق رأسه أربع قباب
من الحرير الملون وعلى أعلى كل قبة صورة طائر من ذهب وكان لباسه في ذلك اليوم
فرجية قدسي أخضر وتحتها من ثياب مصر وطروحاتها الحسان وهو متقلد بنوطة حرير

وهو معتم بعمامة كبيرة وضربت بين يديه الطبول والأبواق والألقار وأمرأه الأجناد امامه وخلفه والقاضي والفقهاء والشرقاء معه ودخل الى مشوره على تلك الهيئة وقعد الوزراء والأمرأه ووجوه الأجناد في سقيفة هنالك وفرش للقاضي بساط لا يجلس معه غيره عليه والفقهاء والشرقاء معه ولم يزالوا كذلك الى صلاة العصر فلما صلوا العصر مع الشيخ أتى جميع الأجناد ووقفوا صفوفاً على قدر مراتبهم ثم ضربت الأبطال والألقار والأبواق والصرايات وعند ضربها لا يتحرك أحد ولا يتحرك عن مقامه ومن كان ماشياً وقف فلم يتحرك الى خلف ولا الى امام فاذا فرغ من ضرب الطبلخانة سلموا باصابعهم كما ذكرناه وانصرفوا وتلك عادة لهم في كل يوم جمعة واذا كان يوم السبت يأتي الناس الى باب الشيخ فيقععدون في سقائف خارج الدار ويدخل القاضي والفقهاء والشرقاء والصالحون والمشايخ والحجاج الى المشور الثاني فيقععدون على دكاكين خشب معدة لذلك ويكون القاضي على دكانة وحده وكل صنف على دكانة تخصهم لا يشاركهم فيها سواهم ثم يجلس الشيخ بمجلسه ويبعث الى القاضي فيجلس عن يساره ثم يدخل الفقهاء فيقععد كبرائهم بين يديه وسائرهم يسلمون وينصرفون ثم يدخل الشرقاء فيقععد كبرائهم بين يديه ويسلم سائرهم وينصرفون وان كانوا ضيوفاً جلسوا عن يمينه ثم يدخل المشايخ والحجاج فيجلس كبرائهم ويسلم سائرهم وينصرفون ثم يدخل الوزراء ثم الأمرأه ثم وجوه الأجناد طائفة بعد طائفة أخرى فيسلمون وينصرفون ويؤتى بالطعام فياكل بين يدي الشيخ القاضي والشرقاء ومن كان قاعداً بالجلس وياكل الشيخ معهم وان أراد تشريف أحد من كبار أمرائه بعث اليه فاكل معهم وياكل سائر الناس بدار الطعام وأكلهم على ترتيب مثل ترتيبهم في الدخول على الشيخ ثم يدخل الشيخ الى داره ويقعد القاضي والوزراء وكانب السرو أربعة من كبار الأمرأه للفصل بين الناس وأهل الشكايات لما كان متعلقاً بالأحكام الشرعية حكم فيه القاضي وما كان من سوى ذلك حكم فيه أهل الشورى وهم الوزراء والأمرأه وما كان مفتقراً الى مشاورة السلطان كتبوا اليه فيه فيخرج لهم الجواب من حينه على ظهر البطاقة بما يقتضيه نظره وتلك عادتهم دائماً ثم ركب البحر من مدينة مقدشو متوجهاً الى بلاد السواحل قاصداً مدينة كلوا من بلاد الزنوج فوصلنا الى جزيرة منبسى (وضبط اسمها مفتوح ونون مسكن وباء موحدة مفتوحة وسين مهملة مفتوح وياء) وهي جزيرة كبيرة بينها وبين أرض السواحل مسيرة يومين في البحر ولا بر لها وأشجارها الموز والليمون والأترج ولهم فاكهة يسمونها الجمون وهي شبه

الزيتون ولها نوى كثواه الا انها شديدة الحلاوة ولا زرع عند أهل هذه الجزيرة وانما يجلب اليهم من السواحل وأكثر طعامهم الموز والسّمك وهم شافعية المذهب أهل دين وعفاف وصلاح ومساجدهم من الخشب محكمة الاتقان وعلى كل باب من أبواب المساجد البئر والثنتان وعمق آبارهم ذراع أو ذراعان فيستقون منها الماء بقدر خشب قد غرز فيه عود رقيق في طول الزراع والارض حول البئر والمسجد مسطحة فمن أراد دخول المسجد غسل رجله ودخل ويكون على بابه قطعة حصير غليظ يمسح بها رجله من أراد الوضوء أمسك القدح بين فخذه وصب على يديه ويتوضأ وجميع الناس يمشون حفاة الاقدام ويتنابذ الجزيرة ليلة وركبنا البحر الى مدينة كلوا (وضبط اسمها بضم الكاف واسكان اللام وفتح الواو) وهى مدينة عظيمة ساحلية أكثر أهلها الزنوج المستحكو السواد ولهم شرطات في وجوههم كما هي في وجوه اللّيميين من جنادة وذكرلى بعض التجار أن مدينة سفالة على مسيرة نصف شهر من مدينة كلوا وان بن سفالة ويوفى من بلاد اللّيميين مسيرة شهر ومن يوفى يؤتى بالتبر الى سفالة ومدينة كلوا من أحسن المدن وأتقنها عمارة وكلها بالخشب وسقف بيوتها الديس والامطار بها كثيرة وهم أهل جهاد لا نهم في بر واحد متصل مع كفار الزنوج والغالب عليهم الدين والصلاح وهم شافعية المذهب — ذكر سلطان كلوا —

وكان سلطانها في عهد دخولى اليها ابو المطفر حسن وبكى أيضاً أبو المواهب لكثرة مواهبه ومكارمه وكان كثير الغزو الى أرض الزنوج يغير عليهم وياخذ الغنائم فيخرج خمسمها ويصرفه في مصارفه المعينة في كتاب الله تعالى ويجعل نصيب ذوي القربى في خزانة على حدة فاذا جاءه الشرفاء دفعه اليهم وكان الشرفاء يقصدونه من العراق والحجاز وسواها ورأيت عنده من شرفاء الحجاز جماعة منهم محمد بن جواز ومنصور بن لبيدة بن أبي نمي ومحمد بن شميلة بن أبي نمي ولقيت بمقد شواتيل بن كبش بن جواز وهو يريد القدوم عليه وهذا السلطان له تواضع شديد ويجلس مع الفقراء وياكل معهم ويعظم أهل الدين والشرف — حكاية من مكارمه —

حضرته يوم جمعة وقد خرج من الصلاة قاصدا الى داره فتمرض له أحد الفقراء البنيين فقال له يا أبا المواهب فقال ليك يا فقير ما حاجتك قال أعطني هذه الثياب التي عليك فقال له نعم أعطيكمها قال الساعة قال نعم الساعة فرجع الى المسجد ودخل بيت الخطيب فلبس ثيابا سواها وخلع تلك الثياب وقال للفقير ادخل فخذها ندخل الفقير وأخذها وربطها

في منديل وجعلها فوق رأسه وانصرف فعظم شكر الناس للسلطان على ماظهر من تواضعه وكرمه وأخذ ابنه ولى عهده تلك الكسوة من الفقير وعوضه عنها بعشرة من العبيد وبلغ السلطان ما كان من شكر الناس له على ذلك فامر للفقير أيضا بعشرة رؤس من الرقيق وحمالين من العاج ومعظم عطاياهم العاج وقلمبا يعطون الذهب ولما توفي هذا السلطان العاضل الكريه رحمة الله عليه ولى أخوه داود فكان على الضد من ذلك اذا أتاه سائل يقول له مات الذى كان يعطى ولم يترك من بعده ما يعطى ويقم الوفود عنده الشهور الكثيرة وحينئذ يعطيهم القليل حتى انقطع الوافدون عن بابه وركبنا البحر من كلوا الى مدينة ظفار الحموض (وضبط اسمها بفتح الظاء المعجم والفاء وآخره راء مبنية على الكسر) وهي آخر بلاد اليمن على ساحل البحر الهندي ومنها تحمل الخيل العتاق الى الهند ويقطع البحر فيما بينها وبين بلاد الهند مع مساعدة الريح في شهر كامل قد قطعتة مرة من قاقوط من بلاد الهند الى ظفار في ثمانية وعشرين يوما بالريح الطيبة لم ينقطع لما جرى بالليل ولا بالنهار وبين ظفار وعدن في البر مسيرة شهر في صحراء وبينها وبين حضرة وت ستة عشر يوما وبينها وبين عمان عشرون يوما ومدينة ظفار في صحراء منطقة لا قرية بها ولا عمالة لها والسوق خارج المدينة برض يعرف بالحرجاء وهي من أقدر الاسواق وأشدّها تناء وأكثرها دبابا لكثرة ما يباع بها من الثمرات والسمك وأكثر سمكها النوع المعروف بالسردين وهو مه في النهاية من السمن ومن العجائب ان دوابهم انما علقها من هذا السردين وكذلك غنمهم ولم أر ذلك في سواها وأكثر باعتها الخدم وهن يلبسن السواد وزرع أهلها الذرة وهم يسقونها من آبار بعيدة الماء وكيفية سقيهم انهم يصنعون دلوأ كبيرة ويجعلون لها حبالا كثيرة ويتحزم بكل حبل عبد أو خادم ويجرون الدلو على عود كبير مرتفع عن البر ويصبونها في صهريج يسقون منه ولهم قمح يسمونه العلس وهو في الحقيقة نوع من السلت والارز يجلب اليهم من بلاد الهند وهو أكثر طعامهم ودراهم هذه المدينة من النحاس والقصدير ولا تنفق في سواها وهم أهل تجارة لا عيش لهم الا منها ومن عادتهم انه اذا وصل مركب من بلاد الهند أو غيرها خرج عبيد السلطان الى الساحل وصعدوا في صنبوق الى المركب ومعهم الكسوة الكاملة لصاحب المركب أو وكيله وللابان وهو الرئيس والسكرانى وهو كاتب المركب ويؤتي اليهم ثلاثة أفراس فيكونها وتضرب امامهم الاطبال والابواق من ساحل البحر الى دار السلطان فيسلمون على الوزير وأمير جنود وتبعث الضيافة لكل من بالمركب ثلاثا وبعد الثلاث ياكلون بدار

السلطان وهم يفعلون ذلك استجلابا لأصحاب المراكب وهم أهل تواضع وحسن أخلاق وفضيلة ومحبة للغرباء ولناسهم القطن وهو يجلب اليهم من بلاد الهند و يشدون القوط في أوساطهم عوض السروال وأكثرهم يشد فوطة في وسطه و يجعل فوق ظهره أخرى من شدة الحرو يغتسلون مرات في اليوم وهي كثيرة المساجد ولهم في كل مسجد مطاهر كثيرة معدة للاغتسال و يصنع بها ثياب من الحرير والقطن والكتان حسان جدا والغالب على أهلها رجالا ونساء المرضى المعروف بداء الفيل وهو انتفاخ القدمين وأكثر رجالهم مبتلون بالادر والعياذ بالله ومن عوايدهم الحسنة التصافح في المسجد أثر صلاة الصبح والعصر يستند أهل الصف الأول الى القبلة ويصافحهم الذين يلونهم وكذلك يفعلون بعد صلاة الجمعة يتصافحون أجمعون ومن خواص هذه المدينة وعجائبها انه لا يقصدها أحد بسوء الا عاد عليه مكروه وحيل بينه وبينها وذكر لي أن السلطان قطب الدين تمهن بن طوران شاه صاحب هرمز نازلها مرة في البر والبحر فأرسل الله سبحانه عليه ريحا عاصفا كسرت مراكبه ورجع عن حصارها وصالح ملكها وكذلك ذكر لي ان الملك المجاهد سلطان اليمن عين ابن عم له بعسكر كبير برسم انزعاعها من يده ملكها وهو أيضا ابن عمه فلما خرج ذلك الأمير عن داره سقط عليه حائط وعلى جماعة من أصحابه فهلكوا جميعا ورجع انلك عن رأيته وترك حصارها وطلبها ومن الغرائب ان أهل هذه المدينة أشبه الناس بأهل المغرب في شؤونهم نزات بدار الخطيب بمسجدها الاعظم وهو عيسى ابن علي كبير القدر كريم النفس فكان له جوار مسميات باسماء خدام المغرب احداهن اسمها نجيتة والاخرى زاد النال ولم أسمع هذه الاسماء في بلد سواها وأكثر أهلها رؤسهم مكشوفة لا يجعلون عليها العمام وفي كل دار من دورهم سجادة الخوص معلقة في البيت يصلي عليها صاحب البيت كما يفعل أهل المغرب وأكلهم الذرة وهذا التشابه كله مما يقوى القول بان صنهاجة وسواهم من قبائل المغرب أصلهم من حمير و يقرب من هذه المدينة بين بساينها زاوية الشيخ الصالح العابد أبي محمد بن أبي بكر بن عيسى من أهل ظفار وهذه الزاوية معظمة عندهم يأتون اليها غدوا وعشيا ويستجيرون بها فاذا دخلها المستجير لم يقدر السلطان عليه رأيت بها شخصا ذكر لي ان له بها مدة سنين مستجيرا لم يتعرض له السلطان وفي الايام التي كنت بها استجار بها كاتب السلطان واقام فيها حتى وقع بينهما الصلح أتيت هذه الزاوية فبت بها في ضيافة الشيخين أبي العباس أحمد وأبي عبد الله محمد ابني الشيخ أبي بكر المذكور وشاهدت لهما فضلا عظيما ولما غسلنا أيدينا من الطعام

أخذ أبو العباس منهم ذلك الماء الذي غسلناه به فشرب منه وبعث الخادم بباقيه الى أهله وأولاده فشربوه وكذلك يفعلون بمن يتوسمون فيه الخبير من الواردين عليهم وكذلك أضافني قاضيها الصالح أبو هاشم عبد الملك الزبيدي وكان يتولى خدمتي وغسل يدي بنفسه ولا يكل ذلك الى غيره و بمقرية من هذه الزاوية تربة سلف السلطان الملك المغيث وهي معظمة عندهم ويستجير بها من طلب حاجة فتقضي له ومن عادة الجند انه اذا تم الشهر ولم يأخذوا أرزاقهم استجاروا بهذه التربة وأقاموا في جوارها الى ان يعطوا أرزاقهم وعلى مسيرة نصف يوم من هذه المدينة الاحقاف وهي منازل عاد وهناك زاوية ومسجد على ساحل البحر وحوله قرية اصيادي السمك وفي الزاوية قبر مكتوب عليه هذا قبر هود بن عابر عليه افضل الصلوة والسلام وقد ذكرت ان بمسجد دمشق موضعا عليه مكتوب هذا قبر هود بن عابر والاشبه أن يكون قبره بالاحقاف لانها بلاده والله أعلم وهذه المدينة بساتين فيها موز كثير كبير الحرم وزنت بمحضرى حبة منه فكان وزنها اثنتى عشرة أوقية وهو طيب المطعم شديد الحلاوة وبها أيضا التنبول والمارجيل المعروف بجوز الهند ولا يكونان الا ببلاد الهند وبمدينة ظفار هذه اشبهها بالهندوقر بها منها اللهم الا أن في مدينة زبيد في بستان السلطان شجيرات من النارجيل واذ قد وقع ذكر التنبول والنارجيل فلنذكرها ولنذكر خصائصهما

— ذكر التنبول —

والتنبول شجر يفرس كما تفرس دوالي العنب ويصنع له معرشات من القصب كما يصنع لدوالي العنب أو يفرس في مجاورة شجر النارجيل فيصعد فيها كما تصعد الدوالي وكما يصعد الفلفل ولا تمر للتنبول وانما المقصود منه ورقه وهو يشبه ورق العليق وأطيبه الأصفر وتجتنى أوراقه في كل يوم وأهل الهند يعظمون التنبول تعظيما شديدا وإذا أتى الرجل دار صاحبه فأعطاه خمس ورقات منه فكاكنا أعطاه الدنيا وما فيها لاسيما ان كان أميرا أو كبيرا واعطاؤه عندهم أعظم شانا وأدل على الكرامة من اعطاء الفضة والذهب وكيفية استعماله أن يؤخذ قبله الفوفل وهو شبه جوز الطيب فيكسر حتى يصير أطرافا صغارا ويجعله الانسان في فمه ويعلمكه ثم يأخذ ورق التنبول فيجعل عليها شيئا من النورة ويمضغها مع الفوفل وخاصيته انه يطيب النكهة ويذهب بروائح الفم ويهضم الطعام ويقطع ضرر شرب الماء على الريق ويفرخ أكله ويعين على الجماع ويجعله الانسان عند رأسه ليلا فاذا استيقظ من نومه أو أيقظته زوجته أو جاريتة أخذ منه فيذهب بما في فمه من رائحة كريهة ولقد

ذكر لي ان جوارى السلطان والامراء ببلاد الهند لا ياكلن غيره وسنذكره عند ذكر بلاد الهند — ذكر النار جيل —

وهو جوز الهند وهذا الشجر من أغرب الاشجار شانا وأعجبها أمرا وشجره شبه شجر النخل لا فرق بينهما الا ان هذه تثمر جوزاً وتلك تثمر ثمرا وجوزها يشبه رأس ابن آدم لان فيها شبه العينين والفم وداخلها شبه الدماغ اذا كانت خضراء وعليها ليف شبه الشعر وهم يصنعون به حبالا يخيطنون بها المراكب عوضاً من مسامير الحديد ويصنعون منه الحبال للمراكب والجوزة منها وخصوصاً التي بجزائر ذببة المهل تكون بمقدار رأس الآدمي ويزعمون ان حكيمان من حكماء الهند في غابر الزمان كان متصلاً بملك من الملوك ومعظماً لديه وكان للملك وزير بينه وبين هذا الحكيم معاداة فقال الحكيم للملك ان رأس هذا الوزير اذا قطع ودفن تخرج منه نخلة تثمر بشمر عظيم يعود نفعه على أهل الهند وسواهم من أهل الدنيا فقال له الملك فان لم يظهر من رأس الوزير ما ذكرته قال ان لم يظهر فاصنع برأسي كما صنعت برأسه فأمر الملك برأس الوزير فقطع وأخذ الحكيم وغرس نواة تمر في دماغه وعالجها حتى صارت شجرة وأثمرت به هذا الجوز وهذه الحكاية من الاكاذيب ولكن ذكرناها لشهرتها عندهم ومن خواص هذا الجوز تقوية البدن واسراع السمن والزيادة في حمرة الوجه واما الاعانة على الباءة ففعله فيها عجيب ومن عجائبه انه يكون في ابتداء أمره أخضر فنقطع بالسكين قطعة من قشره وفتح رأس الجوزة شرب منها ماء في النهاية من الحلاوة والبرودة ومزاجه حار معين على الباءة فاذا شرب ذلك الماء أخذ قطعة القشرة وجعلها شبه الملعقة وجرد بها ما في داخل الجوزة من الطعم فيكون طعمه كطعم البيضة اذا شويت ولم يتم نضجها كل التمام ويتغذي به ومنه كان غذائي أيام اقامتي بجزائر ذببة المهل مدة من عام ونصف عام وعجائبه انه يصنع منه الزيت والحليب والعسل فأما كيفية صناعة العسل منه فان خدام النخل منه ويسمون الفازانية يصعدون الى النخلة غدواً وعشيا اذا أرادوا أخذ ماؤها الذي يصنعون منه العسل وهم يسمونه الاطواق فيقطعون العذق الذي يخرج منه الثمر ويتركون منه مقدار أصبعين ويربطون عليه قدراً صغيراً فيقطر فيها الماء الذي يسيل من العذق فاذا ربطها غدوة صعد اليها عشيا ومعه قدحان من قشر الجوز المذكور أحدهما مملوء ماء فيصب ما اجتمع من ماء العذق في أحد القدحين و يغسله بالماء الذي في القدح الآخر وينجر من العذق قليلاً ويربط عليه القدر ثانية ثم يفعل غدوة كفعله عشيا فاذا اجتمع له الكثير من ذلك الماء طبخه كما يطبخ

ماء العنب اذا صنع منه الرب فيصير عسلا عظيم النفع طيبا فيشتره تجار الهند واليمن والصين ويحملونه الى بلادهم و يصنعون منه الحلواء وأما كيفية صنع الحليب منه فان بكل دار شبه الكرسي تجلس فوقه المرأة ويكون بيدها عصي في أحد طرفيها حديدة مشرفة فيفتحون في الجوزة مقدار ما تدخل تلك الحديدة ويجرشون ما في باطن الجوزة وكل ما ينزل منها يجتمع في صحفة حتى لا يبقى في داخل الجوزة شيء ثم يمرس ذلك الجربش بالماء فيصير كلون الحليب بياضا ويكون طعمه كطعم الحليب ويأندم به الناس وأما كيفية صنع الزيت فانهم يأخذون الجوز بعد نضجه وسقوطه عن شجره فيزيلون قشره وقطعونه قطعاً ويجعل في الشمس فاذا ذبل طبخوه في القدور واستخرجوا زيته وبه يستصبحون ويأندمون به ويجعله النساء في شعورهن وهو عظيم النفع

— ذكر سلطان ظفار —

وهو السلطان الملك المغيث بن الملك الفائز بن عم ملك اليمن وكان أبوه أميراً على ظفار من قبل صاحب اليمن وله عليه هدية يبعثها له في كل سنة ثم استبد الملك المغيث بملكها وامتنع من ارسال الهدية وكان من عزم ملك اليمن على محاربتة وتعيين ابن عمه لذلك ووقوع الحائط عليه ما ذكرناه آنفاً وللسلطان قصر بداخل المدينة يسمى الحصن عظيم فسيح والجامع بازائه ومن عاداته ان تضرب الطبول والبوقات والانفار والصرنايات على بابه كل يوم بعد صلاة العصر وفي كل يوم اثنين وخميس تأتي العساكر الى بابه فيقفون خارج المشور ساعة وينصرفون والسلطان لا يخرج ولا يراه أحد الا في يوم الجمعة فيخرج للصلاة ثم يعود الى داره ولا يمنع أحداً من دخول المشور وأمير جنود القاعد على بابه واليه ينتهي كل صاحب حاجة أو شكاية وهو يطالع السلطان ويأتيه الجواب للحين واذا أراد السلطان الركوب خرجت مراكبه من القصر وسلاحه ومما ليكه الى خارج المدينة وأتى بجمل عليه محمل مستور بستر أبيض منقوش بالذهب فيركب السلطان ويديه في الحمل بحيث لا يرى واذا خرج الى بستانه وأحب ركوب الفرس ركبه ونزل عن الجمل وعاداته أن لا يعارضه أحد في طريقه ولا يقف لرؤيته ولا لشكايته ولا غيرها ومن تعرض لذلك ضرب أشد الضرب فتجد الناس اذا سمعوا بخروج السلطان فروع الطريق وتحاموها ووزير هذا السلطان الفقيه محمد العدني وكان معلم صبيان فعلم هذا السلطان القراءة والكتابة وعاهده على ان يستوزره ان ملك فلما ملك استوزره فلم يكن يحسنها فكان الاسم له والحكم لغيره ومن هذه المدينة ركبنا البحر نريد عمان في مركب صغير

لرجل يعرف بعلى بن ادريس المصيرى من أهل جزيرة مصيرة وفي الثاني لركوبنا نزلنا
بمرسى حاسك وبه ناس من العرب صيادون للسماك ساكنون هنالك وعندهم شجر
الكندر وهورقيق الورق واذا شرطت الورقة منه قطر منها ماء شبه اللبن ثم عاد صمغ
وذلك الصمغ هو اللبان وهو كثير جدا هنالك ولا معيشة لاهل ذلك المرسى الا من
صيد السمك وسمكهم يعرف باللخم (بخاء معجم مفتوح) وهو شبه كلب البحر يشرح
ويقددو يقتات به ويوتهم من عظام السمك وسقفها من جلود الجمال وسرنا من مرسى
حاسك اربعة أيام ووصلنا الى جبل لمعان (بضم اللام) وهو في وسط البحر وباعلاء
رابطة مبنية بالحجارة وسقفها من عظام السمك وبخارجها غدير ماء يجتمع من المطر

﴿ ذكرولى لقيناه بهذا الجبل ﴾

ولما أرسينا تحت هذا الجبل صعدناه الى هذه الرابطة فوجدنا بها شيخا نائما فسلمنا عليه
فاستيقظ وأشار برد السلام فكلمناه فلم يكلمنا وكان يحرك رأسه فأناه أهل المركب بطعام
فأبى أن يقبله فطلبنا منه الدعاء فكان يحرك شفتيه ولا نعلم ما يقول وعليه مرقعة وقلنسوة
ليد وليس معه ركوة ولا ابريق ولا عكاز ولا نعل وقال أهل المركب انهم مارأوه قط
بهذا الجبل وأقمنا تلك الليل بساحل هذا الجبل وصلينا معه العصر والمغرب وجئناه بطعام
فردده وأقام بصلي الى العشاء الآخرة ثم أذن وصليناها معه وكان حسن الصوت بالقراءة
مجيدالها ولما فرغ من صلاة العشاء الآخرة أومأ اليها بالانصراف فودعناه وانصرفنا
ونحن نعجب من أمره ثم انى اردت الرجوع اليه لما انصرفنا فلما دنوت منه هبته وغلب
على الخوف ورجعت الى أصحابي وانصرفت معهم وركبنا البحر ووصلنا بعد يومين الى
جزيرة الطير وايسر بنا عمارة فارسينا وصعدنا اليها فوجدناها ملائكة بطيور تشبه
الشقاشق الا انها أعظم منها وجاءت الناس ببيض تلك الطيور فطبخوها وأكلوها
واصطادوا جملة من تلك الطيور فطبخوها دون ذكاة وأكلوها وكان يجالسني تاجر
من أهل جزيرة مصيرة ساكن بظفار اسمه مسلم فرأيتهم يأكل معهم تلك الطيور
فانكرت ذلك عليه فاشتد خجله وقال لى ظننت انهم ذبحوها وانقطع عني بعد ذلك من
الخجل فكان لا يقربني حتى ادعوبه وكان طعامي في تلك الايام بذلك المركب التمر
والسمك وكانوا يصطادون بالغدو والعشى سمكا يسمى بالفارسية شير ماهي ومعناه أسد
السمك لان شير هو الاسد وماهي السمك وهو يشبه الحوت المسمى عندنا بتازرت وهم
يقطعونه قطعا ويشوونه ويعطون كل من في المركب قطعة لا يفضلون أحدا على احد ولا

صاحب المركب ولا سواه وياكلونه بالتمر وكان عندي خبز وكعك استصحبتهما من ظفار فلما نفذت أقتات من تلك السمك في جملتهم وعيدنا عيد الاضحى على ظهر البحر وهبت علينا في يومه ريح عاصف بعد طلوع الفجر ودامت الى طلوع الشمس وكادت تفرقنا

﴿ كرامة ﴾

وكان معا في المركب حاج من أهل الهند يسمي بخضر ويدعي بمولانا لانه يحفظ القرآن ويحسن الكتابة فلما رأى هول البحر لف رأسه بعباءة كانت له وتناوم فلما فرج الله ما نزل بنا قلت له يا مولانا خضر كيف رأيت قال قد كنت عند الهول أفتح عيني أنظر هل أرى الملائكة الذين يقبضون الارواح جاؤا فلا أراهم فاقول الحمد لله لو كان الفرق لأتوا لقبض الارواح ثم أغلق عيني ثم أفتحها فأنظر كذلك الى ان فرج الله عنا وكان قد تقدمنا مركب لبعض التجار ففرق ولم ينج منه الا رجل واحد خرج عوما بعد جهد شديد وأكلت في ذلك المركب نوعا من الطعام لم آكله قبله ولا بعده صنعه بعض تجار عمان وهو من الذرة طبخها من غير طحن وصب عليها السيلان وهو عسل التمر واكناه ثم وصلنا الى جزيرة مصيرة التي منها صاحب المركب الذي كنا فيه وهى على لفظ مصير وزيادة ثاء التانيث جزيرة كبيرة لا عيش لاهلها الا من السمك ولم نزل اليها لبعدها مرساها عن الساحل وكنت قد كرهتهم لما رأيتهم ياكلون الطير من غير ذكاة وأقنابها يوما وتوجه صاحب المركب فيه الى داره وعاد اليها ثم سرنا يوما وليلة فوصلنا الى مرسى قرية كبيرة على ساحل البحر تعرف بصور ورأينا منها مدينة قلعة في سفح جبل فخیل لنا انها قريبة وكان وصولنا الى المرسى وقت الزوال أو قبله فلما ظهرت لنا المدينة أحببت المثنى اليها والمبيت بها وكنت قد كرهت صحبة اهل المركب فسالت عن طريقها فاخبرت أني أصل اليها عند العصر فاكترت أحد البحريين ليدلني على طريقها وصحبني خضر الهندي الذي تقدم ذكره وتركت اصحابي مع ما كان لى بالمركب ليلحقوا بي في غداك اليوم وأخذت أثوابا كانت لى فدفعتهن لذلك الدليل ليكفيني مؤنة حملها وحملت في يدي رحا فاذا ذلك الدليل يحب ان يستولى على اثوابي فاتى بنا الى خليج يخرج من البحر فيه المد والجزر فاراد عبوره بالثياب فقلت له انما تعبر وحدك وتترك الثياب عندنا فان قدرنا على الجواز جزنا والا صعدنا نطلب المجاز فرجع ثم رأينا رجلا جازوه عوما فتحققنا انه كان قصده ان يفرقنا ويذهب بالثياب فحينئذ اظهرت النشاط وأخذت بالحزم وشدت وسطى وكنت أهز الرمح فها بنى ذلك الدليل وصعدنا حتى وجدنا مجازا ثم خرجنا الى

صحراء لا ماء بها وعطشنا واشتد بنا الامر فبعث الله لنا فارسا في جماعة من أصحابه و بيد
أحدهم ركوة ماء فسقاني وسقي صاحبي وذهبنا نحسب المدينة قريبة منا و بيننا وبينها خنادق
نمشي فيها الا ميال الكثيرة فلما كان العشي أراد الدليل أن يميل بنا الى ناحية البحر وهو
لا طريق له لان ساحله حجارة فاراد أن ننشب فيها و يذهب بالثياب فقلت له انما نمشي
على هذه الطريق التي نحن عليها وبينها وبين البحر نحو ميل فلما أظلم الليل قال لنا ان
المدينة قريبة منا فتعالوا نمشي حتى نبيت بخارجها الى الصبح نخفت أن يتعرض لنا أحد
في طريقنا ولم أحقق مقدار ما تبقى اليها فقلت له انما الحق أن نخرج عن الطريق فننام
فاذا أصبحنا اتينا المدينة ان شاء الله وكنت قد رأيت جملة من الرجال في سفح
جبل هنالك فخفت أن يكونوا الصوصاء وقلت التستراولى وغلب العطش على صاحبي
فلم يوافق على ذلك فخرجت عن الطريق وقصدت شجرة من شجر أم غيلان وقد أعيت
وأدركني الجهد الكنى أظهرت قوة وتحلداً خوف الدليل وأما صاحبي فمر بض لا قوة
له فجعلت الدليل بيني وبين صاحبي وجعلت الثياب بين ثوبي وجسدي وأمسكت الرح
بيدي ورقد صاحبي ورقد الدليل و بقيت ساھرا فكلما تحرك الدليل كلمته وأريته اني
مستيقظ ولم نزل كذلك حتى أصبح فخرجنا الى الطريق فوجدنا الناس ذاهبين بالمرافق
الى المدينة فبعثت الدليل ليا تينا بقاء وأخذ صاحبي الثياب وكان بيننا وبين المدينة مهاو
وخنادق فاتانا بالماء فشر بنا وذلك أوان الحر ثم وصلنا الى مدينة قلعات (وضبط اسمها
بفتح القاف واسكان اللام وآخره تاء مثناة) فانيهاها ونحن في جهد عظيم وكنت قد ضاقت
نعلى على رجلى حتى كاد الدم أن يخرج من تحت أظفارها فلما وصلنا باب المدينة كان
ختام المشقة ان قال لنا الموكل بالباب لا بد لك أن تذهب معي الى أمير المدينة ليعرف
قضييتك ومن أين قدمت فذهبت معه اليه فرأيت فاضلا حسن الاخلاق وسألني عن حالي
وأزلي وأقمت عنده ستة أيام لا قدرة لي فيها على النهوض على قدمي لما لحقها من الآلام
ومدينة قلعات على الساحل وهي حسنة الاسواق ولها مسجد من أحسن المساجد حيطانه
بالقشاني وهو شبه الزليج وهو مرتفع ينظر منه الى البحر والمرسى وهو من عمارة
الصالحه بيبي مريم ومعنى بيبي عندهم الحرة وأكلت بهذه المدينة سمكاً لم آكل مثله في
إقليم من الاقاليم وكنت أفضله على جميع اللحوم فلا آكل سواه وهم يشوونه على ورق
الشجر ويجعلونه على الارز ويأكلونه والارز يجلب اليهم من أرض الهند وهم أهل
تجارة ومعيشتهم مما ياتي اليهم في البحر الهندي واذا وصل اليهم مركب فرحوا به أشد

الفرح وكلامهم ليس بالفصيح مع أنهم عرب وكل كلمة يتكلمون بها يصلونها بلا فيقونون مثلاً تأكل لا تمشي لا تفعل كذا لا وأكثرتهم خوارج لكنهم لا يقدرّون على اظهار مذهبهم لانهم تحت طاعة السلطان قطب الدين تمهتن ملك هرمز وهو من أهل السنة وبمقرّبة من قلعات قرية طيبي واسمها على نحو اسم الطيب اذا أضافه المتكلم لنفسه وهي من أجل القرى وأبدعها حسناً ذات أنهار جارية وأشجار باضرة وبساتين كثيرة ومنها تجلب الفواكه الى قلعات ربها الموز المعروف بالمرورى والمرورى بالفارسية هو الجوهرى (المرور الجوهري) وهو كثير بها ويجلب منها الى هرمز وسواها وبها أيضاً التنبول لكن ورقته صغيرة والتمر يجلب الى هذه الجهات من عمان ثم قصداً بنا بلاد عمان فسرنا ستة أيام في صحراء ثم وصلنا بلاد عمان في اليوم السابع وهي خصبة ذات أنهار وأشجار وبساتين وحدائق نخل وفاكهة كثيرة مختلفة الاجناس ووصلنا الى قاعدة هذه البلاد وهي مدينة نزرا (وضبط اسمها بنون مفتوح وزاي مسكن وواو مفتوح) مدينة في سفح جبل تحف بها البساتين والأنهار ولها أسواق حسنة ومساجد معظمة نقية وعادة أهلها انهم ياكلون في صحون المساجد يأتي كل انسان بما عنده ويجتمعون للاكل في صحن المسجد وياكل معهم الوازد والصادر ولهم بحدة وشجاعة والحرب قائمة فيما بينهم ابداً وهم أباضية المذهب ويصلون الجمعة ظهراً أربعاً فاذا فرغوا منها قرأ الامام آيات من القرآن ونثر كلاماً شبه الخطبة يرضى فيه عن ابى بكر وعمر ويسكت عن عثمان وعلي وهم اذا أرادوا ذكر على رضى الله عنه كنوا عنه فقالوا ذكر عن الرجل او قال الرجل ويرضون عن الشقي اللعين ابن ملجم ويقولون فيه العبد الصالح قانع الفتنة ونسأؤهم يكثر الفساد ولا غيره عندهم ولا انكار لذلك وسنذكر حكاية إثر هذا مما يشهد بذلك

— ذكر سلطان عمان —

وسلطانها عربى من قبيلة الازد بن الغوث ويعرف بابى محمد بن نبهان وأبو محمد عندهم سمة لكل سلطان بلى عمان كماهى اتابك عند ملوك اللور وعادته ان يجلس خارج باب داره في مجلس هنالك ولا حاجب له ولا وزير ولا يمنع احداً من الدخول اليه من غريب أو غيره ويكرم الضيف على عادة العرب ويعين له الضيافة ويعطيه على قدره وله اخلاق حسنة ويؤكل على مائدة لحم الحمار الانسى ويباع بالسوق لانهم قائلون بتحليله ولكنهم يخفون ذلك عن الوارد عليهم ولا يظهره به بمحضره ومن مدن عمان مدينة زكى لم أدخلها وهي على ما ذكرلى مدينة عظيمة ومنها القرىات وشبا وكلبا وخور فكان

وصحار وكلها ذات أنهار وحدائق وأشجار ونخل وأكثر هذه البلاد في عمالة هرمز

— حكاية —

كنت يوما عند هذا السلطان أبي محمد بن نيهان فأتته امرأة صغيرة السن حسنة الصورة بادية الوجه فوقفت بين يديه وقالت له يا أبا محمد طغى الشيطان في رأسي فقال لها اذهبي واطردى الشيطان فقالت له لا أستطيع وأنا في جوارك يا أبا محمد فقال لها اذهبي فافعلي ما شئت فذكر لي لما انصرفت عنه ان هذه ومن فعل مثل فعلها تكون في جوار السلطان وتذهب للفساد ولا يقدر أبوها ولا ذوق رابتها أن يغيروا عليها وان قتلوها قتلوا بها لانها في جوار السلطان ثم سافرت من بلاد عمان الى بلاد هرمز وهرمز مدينة على ساحل البحر وتسمى أيضا موع استان وتقابلها في البحر هرمز الجديدة وبينهما في البحر ثلاثة فراسخ ووصلنا الى هرمز الجديدة وهي جزيرة مدينتها تسمى جرون (بفتح الجيم والراء وآخرها نون) وهي مدينة حسنة كبيرة لها اسواق حافلة وهي مرسى الهند والسند ومنها تحمل سلع الهند الى العراقين وفارس وخراسان وهذه المدينة سكنى السلطان والجزيرة التي فيها المدينة مسيرة يوم وأكثرها سباخ وجبال ملح وهو الملح الداراني ومنه يصنعون الاواني للزينة والمنارات التي يضعون السرج عليها وطعامهم السمك والتمر الجلوب اليهم من البصرة وعمان ويقولون بلسانهم خرما وماهى لوت بادشاهي معناه بالعربي التمر والسمك طعام الملوك والماء في هذه الجزيرة قيمة وبها عيون ماء وصهاريج مصنوعة يجتمع فيها ماء المطر وهي على بعد من المدينة ويأتون اليها بالقرب فيمأؤنها ويرفعونها على ظهورهم الى البحر يسقونها في القوارب ويأتون بها الى المدينة ورأيت من العجائب عند باب الحامع فيما بينه وبين السوق رأس سمكة كانه رابية وعيناه كانهما بابان فتري الناس يدخلون من احداها ويخرجون من الاخرى واقيت بهذه المدينة الشيخ الصالح السائح أبا الحسن الاقصاراني وأصله من بلاد الروم فاضافني وزارني والبسني ثوبا وأعطانني كمر الصحبة وهو يحتوي به فيعين الجالس فيكون كأنه مستند وأكثر فقراء العجم يتقلدونه وعلى ستة أميال من هذه المدينة مزار ينسب الى الخضر والياس عليهما السلام يذكرا أنهما يصليان فيه وظهرت له بركات وبراكين وهنالك زاوية يسكنها أحد المشايخ يخدم بها الوارد والصادر وأقمنا عنده يوما وقصدنا من هنالك زياره رجل صالح منقطع في آخر هذه الجزيرة قد نحت غارا اسكنه فيه زاوية ومجلس ودار صغيرة له فيها جارية وله عبيد خارج الغار يرعون بقرا له وغنما وكان هذا الرجل من كبار التجار فحج البيت وقطع

العلائق وانقطع هنالك للعبادة ودفع ماله لرجل من اخوانه يتجر له به وبتنا عنده ليلة فاحسن
القرى وأجل رضى الله تعالى عنه وسيمة الخير والعبادة لأئمة عليه
— ذكر سلطان هرمز —

وهو السلطان قطب الدين تمتهن بن طوران شاه (وضبط اسمه بفتح التاء بن المعلوتين
و بينهما ميم مفتوح وهاء مسكنة وآخره نون) وهو من كرماء السلاطين كثير التواضع
حسن الاخلاق وعادته أن يأتي لزبارة كل من يقدم عليه من فقيه أو صالح أو شريف يقوم
بحقه ولما دخلنا جزيرته وجدناه مهيباً للحرب مشغولاً بهامع ابني أخيه نظام الدين فكان
في كل ليلة يتيسر للقتال والغلاء مستول على الجزيرة فاتي الينا وزيره شمس الدين محمد بن علي
وقاضيه عماد الدين الشونكاري وجماعة من الفضلاء فاعتذروا بآهام عليه من مباشرة الحرب
وأقننا عندهم ستة عشر يوماً فلما أردنا الانصراف قلت لبعض اصحاب كيف ننصرف ولا
نرى هذا السلطان فجئنا دار الوزير وكانت في جوار الزاوية التي نزلت بها فقلت له اني اريد
السلام على الملك فقال بسم الله وأخذ بيدي فذهب بي الى داره وهي على ساحل البحر
والاجفان مجلسه عندها فاذا شيخ عليه أقبية ضيقة دنسة وعلى رأسه عمامة وهو مشدود
الوسط بمنديل فسلم عليه الوزير وسلمت عليه ولم اعرف انه الملك وكان الى جانبه ابن اخته وهو
على شاه بن جلال الدين الكيجي وكانت بيني وبينه معرفة فانشات احادثه وانا لا اعرف
الملك فعرفني الوزير بذلك فخرجت منه لا قبالي بالحديث على ابن اخته دونه واعتذرت اليه
ثم قام فدخل داره وتبعه الامراء والوزراء وأرباب الدولة ودخلت مع الوزير فوجدناه
قاعداً على سرير ملكه وثيابه عليه لم يبد لها وفي يده سبحة جوهر لم تر العيون مثلاً لان
مغاصات الجوهر تحت حكمه فجلس أحد الامراء الى جانبه وجلست الى جانب ذلك
الامير وسالني عن حالى ومقدمى وعمن لقيته من الملوك فاخبرته بذلك وحضر الطعام
فاكل الحاضرون ولم ياكل معهم ثم قام فوادعته وانصرفت وسبب الحرب التي بينه وبين ابني
أخيه أنه ركب البحر مرة من مدينته الجديدة برسم الزهرة في هرمز القديمة وبساتينها
وبينهما في البحر ثلاثة فراسخ كما قدمناه فخالف عليه أخوه نظام الدين ودعى انفسه وبايعه
أهل الجزيرة وبايعته المساكر فخاف قطب الدين على نفسه وركب البحر الى مدينته
قلبات التي تقدم ذكرها وهي من جملة بلاده فاقام بها شهوراً وجهاز المراكب وأتي
الجزيرة فقاتله أهلها مع أخيه وهزموه وعاد الى قلبات وفعل ذلك مراراً فلم تكن له
حيلة الا ان راسل بعض نساء أخيه فسمته ومات وأتي هو الى الجزيرة فدخلها وقر

ابن أخيه بالخزائن والاموال والعساكر الى جزيرة قيس حيث مغاص الجوهر وصاروا
يقطعون الطريق على من يقصد الجزيرة من أهل الهند والسند وبغرون علي بلاده
البحرية حتي تخرب معظمها ثم سافروا من مدينة جرون برسم لقاء رجل صالح ببلد خنج
بال فلما عدينا البحر اكثر نادوا ب من التركمان وهم سكان تلك البلاد ولا يسافر فيها
الا معهم لشجاعتهم ومعرفتهم بالطرق وفيها صحراء مسيرة أربع يقطع بها الطريق لصوص
الاعراب وتهب فيها ريح السموم في شهرى تموز وحزيران فمن صادفته فيها قتلته ولقد
ذكر لي ان الرجل اذا قتلته تلك الريح وأراد أصحابه غسله ينفصل كل عضو منه عن
سائر الاعضاء وبها قبور كثيرة للذين ماتوا فيها بهذه الريح وكنا نساfer فيها بالليل فاذا
طلعت الشمس نزلنا تحت ظلال الاشجار من أم غيلان ونرحل بعد العصر الى طلوع
الشمس وفي هذه الصحراء وما والاها كان يقطع الطريق بها جمال اللك (اللوك) الشهير
الاسم هنالك

— حكاية —

كان جمال اللك من أهل سجستان أعجمى الاصل (واللك بضم اللام) معناه الاقطع
وكانت يده قطعت في بعض حروبه وكانت له جماعة كثيرة من فرسان الاعراب والاعاجم
يقطع بهم الطرق وكان يبني الزوايا ويطعم الوارد والصادر من الاموال التي يسلبها من الناس
ويقال انه كان يدعو ان لا يسلط الا على من لا يزكي ماله وأقام على ذلك دهرأ وكان يغيره
وفرسانه ويسلكون براري لا يعرفها سواهم ويدفنون بها قرب الماء ورواياه فاذا تبعهم عسكر
السلطان دخلوا الصحراء واستخرجوا المياه ويرجع العسكر عنهم خوفا من الهلاك وأقام
على هذه الحالة مدة لا يقدر عليه ملك العراق ولا غيره ثم تاب وتعب حتى مات وقبره
يزار ببلده وسلكنا هذه الصحراء الى ان وصلنا الى كور استان (وضبط اسمه بفتح
الكاف واسكان الواو وراء) وهو بلد صغير فيه الانهار والبساتين وهو شديد الحر
سرنا منه ثلاثة أيام في صحراء مثل التي تقدمت ووصلنا الى مدينة لار (وأخر اسمها راء)
مدينة كبيرة كثيرة العيون والمياه المطردة والبساتين ولها أسواق حسان ونزلنا منها بزاوية
الشيخ العابد أبي دلف محمد وهو الذي قصدنا زيارته بنحج مال وبهذه الزاوية ولده أبو زيد
عبد الرحمن ومعه جماعة من الفقراء ومن عادتهم انهم يجتمعون بالزاوية بعد صلاة العصر
من كل يوم ثم يطوفون على دور المدينة فيعطاهم من كل دار الرغيف والرغيفان
فيطعمون منها الوارد والصادر وأهل الدور قد ألفوا ذلك فهم يجعلونه في جملة قوتهم
ويعدونه لهم اعانة على اطعام الطعام وفي كل ليلة جمعة يجتمع بهذه الزاوية فقراء المدينة

وصلحائها وياقي كل منهم بما تيسر له من الدراهم فيجمعونها وينفقونها تلك الليلة ويبيتون في عبادة من الصلاة والذكر والتلاوة وينصرفون بعد صلاة الصبح

— ذكر سلطان لار —

وبهذه المدينة سلطان يسمى بجلال الدين تركماني الاصل بعث اليها بضيافة ولم يجتمع به ولا رأيا ثم سافروا الى مدينة خنج بال (وضبط اسمها بضم الخاء المعجم وقد يعوض منه هاء واسكان النون وضم الجيم وباء معقودة وآلف ولام) وبها سكنى الشيخ أبي دلف الذي قصد نازيارته وبزاويته نزلا ولما دخلت الزاوية رأيت قاعدا بناحية منها على التراب وعليه جبة صوف خضراء بالية وعلى رأسه عمامة صوف سوداء فسلمت عليه فاحسن الرد وسألني عن مقدمي وبلادي وأنزاني وكان يبعث الى الطعام والفاكهة مع ولده من الصالحين كثير الخشوع والتواضع صائم الدهر كثير الصلاة ولهذا الشيخ أبي دلف شأن عجيب وأمر غريب فان نفقته في هذه الزاوية عظيمة وهو يعطي العطاء الجزيل ويكسو الناس ويركبهم الخيل ويحسن لكل وارد وصادرو لم أرفي تلك البلاد مثله ولا يعلم له جهة الا ما يصله من الاخوان والاصحاب حتي زعم كثير من الناس انه يتفق من الكون وفي زاويته المذكورة قبر الشيخ الولي الصالح القطب دانيال وله اسم بتلك البلاد شهير وشأن في الولاية كبير وعلي قبره قبة عظيمة بناها السلطان قطب الدين تمتم بن طوران شاه وأقامت عند الشيخ أبي دلف يوما واحدا لاستعجال الرفقة التي كنت في صحبتها وسمعت أن بالمدينة خنج بال المذكورة زاوية فيها جملة من الصالحين المتعبدين فرحت اليها بالاعشى وسلمت على شيخهم وعليهم ورأيت جماعة مباركة قد أثرت فيهم العبادة فهم صفرا لوان تخاف الجسوم كثيرا والبكاء غزير والدموع وعند وصولي اليهم أتوا بالطعام فقال كبيرهم فدعوا لي وادي محمدا وكان معتزلا في بعض نواحي الزاوية فجاء اليها الولد وهو كائنما خرج من قبر مما نهكته العبادة فسلم وقعد فقال له أبوه يا بني شارك هؤلاء النواردين في الأكل كل تنل من بركاتهم وكان صائما فافطر معنا وهم شافعية المذهب فلما فرغنا من أكل الطعام دعوا لنا وانصرفنا ثم سافروا منها الى مدينة قيس وتسمى أيضا بسيراف وهي على ساحل بحر الهند المتصل ببحر اليمن وفارس وعددها في كور فارس مدينة لها انفساح وسعة طيبة البقعة في دورها بساتين عجيبة فيها الرياحين والاشجار الناضرة وشرب أهلها من عيون منبعثة من جبالها وهم عجم من الفرس أشرف وفيهم طائفة من عرب بني سفاف وهم الذين يخصوصون على الجوهر

— ذكر مغاص الجوهر —

ومغاص الجوهر فيما بين سيرا ف والبحرين في خور را كدمثل الوادي العظيم فاذا كان شهر ابريل وشهر مايه تاتي اليه القوارب الكثيرة فيها الغواصون وتجار فارس والبحرين والقطيف ويجعل الغواص على وجهه ممها أراد أن يغوص شيا يكسوه من عظم الغيلم وهي السلحفاة ويصنع من هذا العظم أيضا شكلا شبه المقراض يشده على أنفه ثم يربط حبلا في وسطه ويغوص ويتفادتون في الصبر في المساء فمنهم من يصبر الساعة والساعتين فادون ذلك فاذا وصل الى قعر البحر يجد الصدف هنالك فيما بين الاحجار الصغار مثبتا في الرمل فيقتلعه بيده أو يقطعه بحديدة عنده معدة لذلك ويجعلها في مخللة جلد منوطة بعنقه فاذا ضاق نفسه حرك الحبل فيحس به الرجل الممسك للحبل على الساحل فيرفعه الى القارب فتؤخذ منه المخللة و يفتح الصدف فيوجد في أجوافها قطع لحم تقطع بحديدة فاذا باشرت الهواء جمدت فصارت جواهر فيجمع جميعها من صغير وكبير فيأخذ السلطان خمسة والباقي يشتريه التجار الحاضرون بتلك القوارب وأكثرهم يكون له الدين على الغواصين فيأخذ الجوهر في دينه أو ماوجب له منه ثم سافروا من سيرا ف الى مدينة البحرين وهي مدينة كبيرة حسنة ذات بساتين وأشجار وأنهار وماؤها قريب المؤنة يحفر عليه بالأيدي فيوجد وبها حدائق النخل والمان والاترج ويزرع بها القطن وهي شديدة الحركة الرمال ورما غالب الرمل على بعض منازلها وكان فيما بينها وبين عمان طريق استوائ عليه الرمال وانقطع فلا يوصل من عمان اليها الا في البحر وبالقرب منها جبلان عظيمان يسمي أحدهما بكسير وهو في غربيها ويسمى الآخر بعوير وهو في شرقيها وبهما ضرب المثل فقيل كسير وعوير وكل غير خير ثم سافروا الى مدينة القطيف (وضبط اسمها بضم القاف) كانه تصغير قطف وهي مدينة كبيرة حسنة ذات نخل كثير يسكنها طوائف العرب وهم رافضية غلاة بظهورون الرض جها را لا يتقون أحدا ويقول مؤذنه في أذانه بعد الشهادتين أشهد أن عليا ولي الله ويزيد بعد الحيعاتين حي على خير العمل ويزيد بعد التكبير الاخير محمد وعلى خير البشر من خالفهما فقد كفر ثم سافروا منها الى مدينة هجر وتسمي الآن بالحسا (بفتح الحاء والسين واهما لها) وهي التي يضرب المثل بها فيقال كجالب التمر الى هجر وبها من النخيل ما ليس ببلد سواها ومنه يعلقون دوابهم وأهلها عرب وأكثرهم من قبيلة عبد القيس بن أفصى ثم سافروا منها الى مدينة اليمامة وتسمي أيضا بحجر (بفتح الحاء المهمل واسكان الجيم) مدينة حسنة خصبة ذات أنهار وأشجار

يسكنها طوائف من العرب أكثرهم من بني حنيفة وهي بلدهم قديما وأميرهم طفيل
ابن غانم ثم سافرت منها في صحبة هذا الأمير برسم الحج وذلك في سنة ثنتين وثلاثين فوصلت
الى مكة شرفها الله تعالى وحج في تلك السنة الملك الناصر سلطان مصر رحمه الله وجملة
من أمرائه وهي آخر حجة حجها وأجزل الأحسان لاهل الحرمين الشريفين وللمجاورين
وفيهما قتل الملك الناصر أمير أحمد الذي يذكر أنه ولده وقتل أيضا كبير أمرائه بكتمور الساقى
— حكاية —

ذكر ان الملك الناصر وهب لبكتمور الساقى جارية فلما أراد الدنو منها قالت له اني حامل
من الملك الناصر فاعتزلها وولدت ولدا سماه بامير أحمد ونشأ في حجره فظهرت نجاته
واشتهر بابن الملك الناصر فلما كان في هذه الحجة تعاهدا على الفتك بالملك الناصر وان يتولى
أمير أحمد الملك وحمل بكتمور معه العلامات والطبول والكسوات والاموال فتمي الخبر الى
الملك الناصر فبعث الى أمير أحمد في يوم شديد الحر فدخل عليه وبين يديه أقداح الشرب
فشرب الملك الناصر قدحا وناول أمير أحمد قدحا ثانيا فيه السم فشربه وأمر بالرسل
في تلك الساعة ليشغل الوقت فرحل الناس ولم يبلغوا المنزل حتى مات أمير أحمد فاكثرت
بكتمور لموته وقطع أثوابه وامتنع من الطعام والشراب وبلغ خبره الى الملك الناصر
فأثاه بنفسه ولا طفه وسلاه وأخذ قدحا فيه سم فناوله اياه وقال له بحياتي عليك إلا
شربت فبردت نار قلبك فشربه ومات من حينه ووجد عنده خلع السلطنة والاموال
فتحقق ما نسب اليه من الفتك بالملك الناصر ولما انقضى الحج توجهت الى جدة
برسم ركوب البحر الى اليمن والهند فلم يفض الى ذلك ولا تاتي لي رفيق وأقيمت بجدة نحو
أربعين يوما وكان بها مركب لرجل يعرف بعبد الله التونسي بروم السفر الى القصير من
عمالة قوص فصعدت اليه لأنظر حاله فلم ير ضئي ولا طابت نفسى بالسفر فيه وكان ذلك
لطفًا من الله تعالى فانه سافر فلما توسط البحر غرق ووضع يقال له رأس أبي محمد فخرج
صاحبه وبعض التجار في العشارى بعد جهد عظيم وأشرفوا على الهلاك وهلك بعضهم
وغرق سائر الناس وكان فيه نحو سبعين من الحجاج ثم ركب البحر بعد ذلك في صنبوق
برسم عذاب فردتنا الريح الى مرسى يعرف برأس دواير وسافرنا منه في البر مع البجاة
فسلكنا صحراء كثيرة النعام والغزلان فيها عرب جهينة وبني كاهل وطاعتهم للبجاة ووردنا
ماء يعرف بمفرور وماء يعرف بالجديد ونقد زادنا فاشترينا من قوم من البجاة وجدناهم
بالقلاة أغناما وتزودنا لحومها ورأيت بهذه القلاة صبيا من العرب كلمنى باللسان العربي

وأخبرني ان البجاد أسروه وزعم انه منذ عام لم يأكل طعاما نأما يقتات بلبن الابل ونقد لنا بعد ذلك اللحم الذي اشتريناه ولم يبق لنا زاد وكان عندي نحو حمل من التمر الصيحاتي والبرني برسم الهدية لأصحابي ففرقته على الرفقة وتزودناه ثلاثا وبعد مسيرة تسعة أيام من رأس دوايروصلنا إلى عيذاب وكان قد تقدم إليها بعض الرفقة فتلقانا أهلها بالخبز والتمر والماء وأقمنا بها أياما وكثر بنا الجمال وخرجنا صحبة طائفة من عرب دغيم ووردنا ماء يعرف بالجنيب ولعله (الخبيب) وحللنا بمحيمثا حيث قبر ولي الله تعالى أبي الحسن الشاذلي وحصلت لنا زيارته ثانية وبتنا في جواره ثم وصلنا إلى قرية العطاواني وهي على ضفة النيل مقابلة لمدينة أدفو من الصعيد الأعلى وأجزنا النيل إلى مدينة أسنا ثم إلى مدينة أرمنت ثم إلى الأقصر وزرنا الشيخ أبا الحجاج الأقصري ثانية ثم إلى مدينة قوص ثم إلى مدينة قنا وزرنا الشيخ عبد الرحيم القناوي ثانية ثم إلى مدينة هـو ثم إلى مدينة اخميم ثم إلى مدينة أسيوط ثم إلى مدينة منفوط ثم إلى مدينة منلوى ثم إلى مدينة الاشمونين ثم إلى مدينة منية ابن الخصيب ثم إلى مدينة البهنسة ثم إلى مدينة بوش ثم إلى مدينة منية القائد وقد تقدم لنا ذكر هذه البلاد ثم إلى مصر وأقمنا بها أياما وسافرت على طريق يلبس إلى الشام ورافقني الحاج عبد الله بن أبي بكر بن الفرخان التوزري ولم يزل في صحبتي سنين إلى ان خرجنا من بلاد الهند فتوفي بسندابور وسند كذلك فوصلنا إلى مدينة غزة ثم إلى مدينة الخليل عليه السلام وتكررت لنا زيارته ثم إلى بيت المقدس ثم إلى مدينة الرملة ثم إلى مدينة عكا ثم إلى مدينة طرابلس ثم إلى مدينة جبلة وزرنا ابراهيم بن أدهم رضي الله عنه ثانية ثم إلى مدينة اللاذقية وقد تقدم لنا ذكر هذه البلاد كلها ومن اللاذقية ركنا البحر في قرقورة كبيرة للجنو بين يسمى صاحبها بمركمين وقصدنا بر التركية المعروف ببلاد الروم وانما نسبت إلى الروم لأنها كانت بلادهم في القديم ومنها الروم الاقدمون واليونانية ثم استفتحها المسلمون وبها الآن كثير من النصاري تحت ذمة المسلمين من التركان وسرنا في البحر عشرا بر يسح طيبة وأكرمنا النصراني ولم يأخذ منا نولا وفي العاشر وصلنا إلى مدينة العلايا وهي أول بلاد الروم وهذا الاقليم المعروف ببلاد الروم من أحسن أقاليم الدنيا وقد جمع الله فيه ما تفرق من المحاسن في البلاد فأهله أجمل الناس صورا وأنظفهم ملبسا وأطيبهم مطاعما وأكثر خاق الله شفقة ولذلك يقال البركة في الشام والشفقة في الروم وانما عني به أهل هذه البلاد وكنا متى نزلنا بهذه البلاد زاوية أو دارا يتفقد أحوالنا جيراننا من الرجال والنساء وهن لا يحتاجن فإذا

سافرنا عنهم ودعونا كانهم أقاربنا وأهلنا وترى النساء باقيات لفراقنا متأسفات ومن عادتهم بتلك البلادان يخبزوا الخبز في يوم واحد من الجمعة يعدون فيه ما يقوتهم سائرهما فكان رجالهم يأتون إلينا بالخبز الحار في يوم خبزه ومعه الأدام الطيب إطرافاً لنا بذلك ويقولون لنا إن النساء بعثن هذا إليكم وهن يطلبن منكم الدعاء وجميع أهل هذه البلاد على مذهب الإمام أبي حنيفة رضي الله عنه مقيمين على السنة لا قدرى فيهم ولا رافضى ولا معتزلى ولا خارجي ولا مبتدع وتلك فضيلة خصهم الله تعالى بها إلا أنهم يأكلون الحشيش ولا يعيبون ذلك ومدينة العلياء التي ذكرناها كبيرة على ساحل البحر يسكنها التركمان وينزلها تجار مصر واسكندرية والشام وهي كثيرة الخشب ومنها يحمل إلى اسكندرية ودمياط ويحمل منها إلى سائر بلاد مصر ولها قلعة بأعلاها عجيبة منيعة بناها السلطان المعظم علاء الدين الرومي ولقيت بهذه المدينة قاضيها جلال الدين الارزنجانى وصعد معي إلى القلعة يوم الجمعة فصلينا بها وأضافني وأكرمني وأضافني أيضاً بها شمس الدين ابن الرجيحاني الذي توفي أبوه علاء الدين بمالي من بلاد السودان

— ذكر سلطان العلياء —

وفي يوم السبت ركب معي القاضي جلال الدين وتوجهنا إلى لقاء ملك العلياء وهو يوسف بك ومعني بك الملك ابن قرمان (بفتح القاف والراء) ومسكنه على عشرة أميال من المدينة فوجدناه قاعداً على الساحل وحده فوق رابية هنالك والامراء والوزراء أسفل منه والجناد عن يمينه ويساره وهو مخضوب الشعر بأسود فسلمت عليه وسألتني عن مقدمي فأخبرته عما سألت وأنصرفت عنه وبعث إلى أحسانا وسافرت من هنالك إلى مدينة انطاكية (وضبط اسمها بفتح الهمزة واسكان النون وفتح الطاء المهمل وألف ولام مكسور وياء آخر الحروف) وأما التي بالشام فهي انطاكية على وزنها إلا أن الكاف عوض عن اللام وهي من أحسن المدن متناهيّة في اتساع الساحة والضخامة أجمل ما يرى من البلاد وأكثره عمارة وأحسنه ترتيباً وكل فرقة من سكانها منفردة بأنفسها عن الفرقة الأخرى فتجار النصارى ما كثون منها بالموضع المعروف بالميناء وعليهم سور تسد أبوابه عليهم ليلاً وعند صلاة الجمعة والروم الذين كانوا أهلها قديماً ساكنون بموضع آخر منفردين به وعليهم أيضاً سور واليهود في موضع آخر وعليهم سور والملك وأهل دولته ومماليكه يسكنون ببلدة عليها أيضاً سور يحيط بها ويفرق بينها وبين ما ذكرناه من الفرق وسائر الناس من المسلمين يسكنون المدينة العظمى وبها مسجد جامع ومدرسة وحمامات كثيرة

وأسواق ضخمة مرتبة بابدع ترتيب وعليها سور عظيم يحيط بها وبجميع المواضع التي ذكرناها وفيها البساتين الكثيرة والفواكه الطيبة والمشمش العجيب المسمى عندهم بقمر الدين وفي نواته لوز حلوه وهو يابس ويحمل الى ديار مصر وهو بها مستظرف وفيها عيون الماء الطيب العذب الشديد البرودة في أيام الصيف نزلنا من هذه المدينة بمدرستها وشيخها شهاب الدين الحموي ومن عادتهم أن يقرأ جماعة من الصبيان بالأصوات الحسان بعد العصر من كل يوم في المسجد الجامع وفي المدرسة أيضا سورة الفتح وسورة الملك وسورة عم

— ذكر الاخوة الفتيان —

واحد الاخوة أخي على لفظ الاخ اذا أضافه المتكلم الى نفسه وهم بجميع البلاد التركمانية الرومية في كل بلد ومدينة وقرية ولا يوجد في الدنيا مثلهم أشد احتفالا بالغرباء من الناس واسرع الى اطعام الطعام وقضاء الحوائج والاخذ على أيدي الظلمة وقتل الشرط ومن لحق بهم من أهل الشر والاخي عندهم رجل يجتمع أهل صناعته وغيرهم من الشبان الاعزاب والمتجردين ويقدمونه على أنفسهم وتلك هي الفتوة أيضا ويبنى زاوية ويجعل فيها الفرش والمرج وما يحتاج اليه من الآلات ويخدم أصحابه بالنهار في طلب معاشهم ويأتون اليه بعد العصر بما يجتمع لهم فيشترون به الفواكه والطعام الى غير ذلك مما ينفق في الزاوية فان ورد في ذلك اليوم مسافر على البلد أنزلوه عندهم وكان ذلك ضيافته لديهم ولا يزال عندهم حتى ينصرف وان لم يرد واردا جتمعوا هم على طعامهم فاكلوا وغنوا ورقصوا وانصرفوا الى صناعاتهم بالغد وأتوا بعد العصر الى مقدمهم بما اجتمع لهم ويسمون بالفتيان ويسمي مقدمهم كاذكرنا الاخوي ولم أرى الدنيا أجمل أفعالا عنهم ويشبههم في أفعالهم أهل شيراز واصفهان الا أن هؤلاء أحب في الوارد والصادر وأعظم اكراما له وشفقة عليه وفي الثاني من يوم وصولنا الى هذه المدينة أتى احد هؤلاء الفتيان الى الشيخ شهاب الدين الحموي وتكلم معه باللسان التركي ولم أكن يومئذ أفهمه وكان عليه أنواب خلقة وعلي رأسه قلنسوة لبد فقال لي الشيخ أنعلم مايقول هذا الرجل فقلت لا أعلم ما قال فقال لي انه يدعوك الى ضيافته أنت واصحابك فعجبت منه وقلت له نعم فلما انصرف قلت للشيخ هذا رجل ضعيف ولا قدرة له على تضييفنا ولا نريد ان نكلفه فضحك الشيخ وقال لي هذا أحد شيوخ الفتيان الاخوة وهو من الخرازين وفيه كرم نفس واصحابه نحو مائتين من أهل الصناعات قد قدموه على أنفسهم وبنوا زاوية للضيافة وما يجتمع لهم بالنهار اتفقوه بالليل فلما صليت المغرب عاد الينا ذلك الرجل

وذهبنا معه الى زاويته فوجدناها زاوية حسنة مفروشة بالبسط الرومية الحسان وبها الكثير من ثريات الزجاج العراقي وفي المجلس خمسة من البياسيس والبيسوس شبه المنارة من النحاس له أرجل ثلاث وعلى رأسه شبه جلاس من النحاس وفي وسطه أنبوب للفتيلة ويلا من الشحم المذاب والى جانبه آنية نحاس ملاءة بالشحم وفيها مقراض لاصلاح الفتيل واحد منهم موكل بها و يسمى عندهم الخراجي (الجرانجي) وقد اصطف في المجلس جماعة من الشبان والياسهم الاقية وفي أرجلهم الاخفاف وكل واحد منهم متحزم على وسطه سكين في طول ذراعين وعلى رؤسهم قلائس بيض من الصوف باعلى كل قلنسوة قطعة موصولة بها في طول ذراع وعرض أصبعين فاذا استقربهم المجلس نزع كل واحد منهم قلنسوته ووضعها بين يديه وتبقى على رأسه قلنسوة أخرى من الزرد خاني وسواه حسنة المنظر وفي وسط مجلسهم شبه مرتبة موضوعة للواردين ولما استقربنا المجلس عندهم أنوا بالطعام الكثير والعاكة والحلواء ثم أخذوا في الغناء والرقص فراقنا حالهم وطال عجبنا من سماحهم وكرم أنفسهم وانصرفنا عنهم آخر الليل وتركناهم بزاويتهم

— ذكر سلطان انطالية —

وسلطانها خضريك بن يونس بك وجدناه عند وصولنا اليها عليلا قد دخلنا عليه بداره وهو في فراش المرض فكلّمنا بالطف كلاماً وأحسنه وودعناه وبعث اليّنا باحسان وسافرنا الى بلدة بردور (وضبط اسمها بضم الباء الموحدة واسكان الراء وضم الدال المهمل وواو وراء) وهي بلدة صغيرة كثيرة البساتين والانهار ولها قلعة في رأس جبل شاهق نزلنا بدار خطيبها واجتمعت الاخوة وأرادوا نزلنا عندهم فابى عليهم الخطيب فصنعوا لنا ضيافة في بستان لاحد منهم وذهبوا بنا اليها فكان من العجائب اظهارهم السرور بنا والاستبشار والفرح وهم لا يعرفون لساننا ونحن لا نعرف لسانهم ولا ترجمان فيما بيننا وأقمنا عندهم يوماً وانصرفنا ثم سافرنا من هذه البلدة الى بلدة سبرت (وضبط اسمها بفتح السين المهمل والباء الموحدة واسكان الراء وفتح التاء المعلوة والاف) وهي بلدة حسنة العمارة والاسواق كثيرة البساتين والانهار ولها قلعة في جبل شامخ وصلنا اليها بالعشي ونزلنا عند قاضيها وسافرنا منها الى مدينة أكر يدور (وضبط اسمها بفتح الهمزة وسكون الكاف وكسر الراء وياه مدودال مهمل مضموم وواو مد وراء) مدينة عظيمة كثيرة العمارة حسنة الاسواق ذات أنهار وأشجار وبساتين ولها بحيرة عذبة الماء يسافر المركب

ففيها يومين الى أقشهرو بقشهرو وغيرهما من البلاد والقرى ونزلنا منها بمدرسة تقابل الجامع
الاعظم بها المدرس العالم الحاج الجاور الفاضل مصلح الدين قرأ بالديار المصرية والشام
وسكن بالعراق وهو فصيح اللسان حسن البيان أطروفة من طرف الزمان اكرمنا غاية
الاكرام وقام بمقنا أحسن قيام

— ذكر سلطان أكر يدور —

وسلطانها أبو اسحاق بك بن الدندار بك من كبار سلاطين تلك البلاد سكن ديار مصر
أيام أبيه وحج وله سير حسنة ومن عاداته انه يأتي كل يوم الى صلاة العصر بالمسجد
الجامع فاذا قضيت صلاة العصر استند الى جدار القبلة وقعد القراء بين يديه على مصطبة
خشب عالية فقرأ سورة الفتح والملك وعم باصوات حسان فعالت في النفوس تخشع لها القلوب
وتقشع الجلود وتدمع العيون ثم ينصرف الى داره وأظلمنا عنده شهر رمضان فكان يقعد
في كل ليلة منه على فراش لا صق بالارض من غير سرير ويستند الى مخدة كبيرة ويجلس
الفقيه مصلح الدين الى جانبه وأجلس الى جانب الفقيه ويلينا أرباب دولته وامراء حضرته
ثم يؤتي بالطعام فيكون أول ما يفطر عليه ثريد في صحفة صغيرة عليه العدس مسقي بالسمن
والسكر ويقدّمون الثريد ثم كواويقولون ان النبي صلى الله عليه وسلم فضله على سائر الطعام
فنحن نبدأ به لتفضيل النبي له ثم يؤتي بسائر الأطعمة وهكذا فعلمهم في جميع ليالي رمضان
وتوفي في بعض تلك الايام ولد السلطان فلم يزدوا على بكاء الرحمة كما يفعله أهل مصر والشام
خلافا لما قدمناه من فعل أهل اللور حين مات ولد سلطانهم فلما دفن أقام السلطان
والطلبة ثلاثة أيام يخرجون الى قبره بعد صلاة الصبح وفي ثاني يوم من دفنه خرجت مع
الناس فرأى السلطان ماشيا على رجلى فبعث الى بفرس واعتذر فلما وصلت المدرسة
بعثت الفرس فرده وقال انما أعطيته عطية لا عارية وبعث الى بكسوة ودراهم فانصرفنا الى
مدينة قل حصار (وضبط اسمها بضم القاف واسكان اللام ثم جاء مهمل مكسور وصاد
مهمل وآخره راء) مدينة صغيرة بها المياه من كل جانب قد نبئت فيها القصب فلا طريق
لها الا طريق كالجرس مهيأ ما بين القصب والمياه لا يسع الا فارسا واحدا والمدينة على تل
في وسط المياه منيعة لا يقدر عليها ونزلنا بزاوية أحد الفتيان الاخية بها

— ذكر سلطان قل حصار —

وسلطانها محمد جلبي وجلبي (بحجم معقود ولام مفتوحين وباء موحدة وياه) وتفسيره بلسان
الروم سيدي وهو أخو السلطان أبي اسحاق ملك أكر يدور ولما وصلنا بمدينة كانت غائبا

عنها فاقمنا بها أياماً ثم قدم فأكرمنا وأركبنا وزدنا وانصرفنا على طريق قرا أغاج وقرا
 (بفتح القاف) تفسيره أسود (وأغاج بفتح الهمزة والغين المعجم وآخره جيم) تفسيره الخشب
 وهي صحراء خضرة يسكنها التركان وبعث معنا السلطان فرسانا يبلغوننا إلى مدينة لا ذق
 بسبب أن هذه الصحراء يقطع الطريق فيها طائفة يقال لهم الجرميان يذكرا منهم من ذرية
 يزيد بن معاوية ولهم مدينة يقال لها كوتاهية فعصمنا الله منهم ووصلنا إلى مدينة لا ذق
 (وهي بكسر الهمزة وبفتح القاف) وتسمى أيضاً دون غزله وتفسيره بلد الخنازير
 وهي من أبدع المدن وأضخمها وفيها سبعة من المساجد لا قامة الجمعة ولها البساتين الرائقة
 والأشجار المطردة والعيون المنبئة وأسواقها حسان وتصنع بها ثياب قطن معلمة بالذهب
 لا مثل لها تطول أعمارها لصحة قطنها وقوة غزله وهذه الثياب معروفة بالنسبة إليها
 وأكثر الصنائع بها نساء الروم وبها من الروم كثير تحت الذمة وعليهم وظائف للسلطان
 من الجزية وسواها وعلامة الروم بها القلائس الطوال منها الحمر والبياض ونساء الروم هن
 عمائم كبار وأهل هذه المدينة لا يغيرون المنكر بل كذلك أهل هذا الإقليم كله وهم يشترون
 الجوارى الروميات الحسان ويتركونهن للفساد وكل واحدة عليها وظيف لما لكها تؤديه
 له وسمعت هنالك أن الجوارى يدخلن الحمام مع الرجال فمن أراد الفساد فعل ذلك بالحمام
 من غير منكر عليه وذكري أن القاضي به الجوارى على هذه الصورة وعند دخولنا لهذه
 المدينة مررنا بسوق لها فنزل إلينا رجال من حوانيتهم وأخذوا باعنة خيلنا ونازعهم في
 ذلك رجال آخرون وطال بينهم النزاع حتى سل بعضهم السكاكين على بعض ونحن لا نعلم
 ما يقولون فخففنا منهم وظننا أنهم الجرميان الذين يقطعون الطرق وإن تلك مدينتهم وحسبنا
 أنهم يريدون نهبنائهم بعث الله لنا رجلاً حاجاً يعرف اللسان العربي فسأله عن مرادهم
 منا فقال أنهم من الفتيان وإن الذين سبقوا إلينا أولاهم أصحاب الفتى أخى سنان والآخرون
 أصحاب الفتى أخى طومان وكل طائفة ترغب أن يكون نزولكم عندهم فعجبنا من كرم
 نفوسهم ثم وقع بينهم الصلح على المقارعة فمن كانت قرعته نزلنا عنده أولاً فوقع قرعة
 أخى سنان وبلغه ذلك فأتى إلينا في جماعة من أصحابه فسلموا علينا ونزلنا بزاوية له
 وأتى بأنواع الطعام ثم ذهب بنا إلى الحمام ودخل معنا وتولى خدمتي بنفسه وتولى أصحابه
 خدمة أصحابي يخدم الثلاثة والأربعة الواحد منهم ثم خرجنا من الحمام فاتوا بطعام عظيم
 وحلوا وفاكهة كثيرة وبعد الفراغ من الأكل قرأ القراء آيات من الكتاب العزيز ثم
 أخذوا في السماع والرقص وأعلموا السلطان بنحبرنا فلما كان من الغد بعث في طلبنا بالعشي

فتوجهنا اليه والى ولده كما نذكره ثم عدنا الى الزاوية فالفينا الاخي طومان وأصحابه في انتظارنا فذهبوا بنا الى زاويتهم ففعلوا في الطعام والحمام مثل أصحابهم وزادوا عليهم ان صبوا علينا ماء الورد صبا بعد خروجنا من الحمام ثم مضوا بنا الى الزاوية ففعلوا ايضا من الاحتفال في الاطعمة والحلواء والفاكهة وقراءة القرآن بعد الفراغ من الاكل ثم السماع والرقص كمثل ما فعله أصحابهم أو أحسن وأقمنا عندهم بالزاوية أياما — ذكر سلطان لاذق —

وهو السلطان ينج بك (واسمه بيا آخر الحروف مفتوحة ثم نونين أولاها مفتوحة والثانية مسكنة وجيم) وهو من كبار سلاطين بلاد الروم ولما نزلنا بزاوية أخى سنان كما قدمناه بعث إلينا الواعظ المذكر العالم علاء الدين القسطنطيني واستصحب معه خيلا عددا وذلك في شهر رمضان فتوجهنا اليه وسلمنا عليه ومن عادة ملوك هذه البلاد التواضع للواردين ولين الكلام وقلة العطاء فصلينا معه المغرب وحضر طعامه فافطرناعنده وانصرفنا وبعث إلينا بدراهم ثم بعث إلينا ولده مراد بك وكان ساكننا في بستان خارج المدينة وذلك في إبان الفاكهة وبعث أيضا خيلا على عددنا كما فعله أبوه فأتينا بستانه وأقمنا عنده تلك الليلة وكان له فقيه يترجم بيننا وبينه ثم انصرفنا غدوة وأظلمنا عيد الفطر بهذه البلدة فخرجنا الى المصلى وخرج السلطان في عساكره والفتيان الاخية كلهم بالاسلحة ولاهل كل صناعة الاعلام والبوقات والطبول والانفار وبعضهم يفاخر بعضا ويباهيه في حسن الهيئة وكمال الشكّة ويخرج أهل كل صناعة معهم البقر والغنم وأحمال الخبز فيذبحون البهائم بالمقابر ويتصدقون بها وبالخبز ويكون خروجهم أولا الى المقابر ومنها الى المصلى ولما صلينا صلاة العيد دخلنا مع السلطان الى منزله وحضر الطعام فجعل للفقهاء والمشايخ والفتيان سباط على حدة وجعل للفقراء والمساكين سباط على حدة ولا يرد على بابه في ذلك اليوم فقير ولا غني وأقمنا بهذه البلدة مدة بسبب مخاوف الطريق ثم نهيات رفقة فسا فرنامعهم يوما وبعض ليلة ووصلنا الى حصن طواس واسمه (بفتح الطاء وتخفيف الواو وآخره سين مهملة) وهو حصن كبير ويذكر ان صهييا صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضى الله عنه من أهل هذا الحصن وكان مبيتنا بخارجه ووصلنا بالغدالى بابه فسا لنا أهله من أعلى السور عن مقدمنا فاخبرناهم وحينئذ خرج أمير الحصن الياس بك في عسكره ليختبر نواحي الحصن والطريق خوفا من اغارة السراق على الماشية فلما طافوا بجمااته خرجت مواشيهم وهكذا فعلهم أبدا ونزلنا من هذا الحصن بر بضة في زاوية رجل فقير وبعث إلينا أمير

الحصن بضيافة وزاد وسافرنا منه الى مغلة (وضبط اسمها بضم الميم واسكان الغين المعجم وفتح اللام) ونزلنا بزاوية أحد المشايخ بها وكان من الكرماء الفضلاء يكثر الدخول علينا بزاويته ولا يدخل الا بطعام أو فاكهة أو حلواء ولقينا بهذه البلدة ابراهيم بك ولد سلطان مدينة ميلاس وسند كره فاككرمنا وكسانا ثم سافرنا الى مدينة ميلاس (وضبط اسمها بكسر الميم وياء مد وآخره سين مهمل) وهي من أحسن بلاد الروم وأضخمها كثيرة الفواكه والبساتين والمياه نزلنا منها بزاوية أحد الفتيان الاخوة ففعل أضعاف ما فعله من قبله من الكرامة والضيافة ودخول الحمام وغير ذلك من حميد الافعال وجميل الاعمال ولقينا بمدينة ميلاس رجلا صالحا معمر ايسمى بابي الششتري ذكرنا ان عمره يزيد على مائة وخمسين سنة وله قوة وحركة وعقله ثابت وذهنه جيد دعانا وحصلت لنا بركته

— ذكر سلطان ميلاس —

وهو السلطان المكرم شجاع الدين أرخان بك ابن المنتشا (وضبط اسمه بضم الهمزة واسكان الراء وخاء معجم وآخره نون) وهو من خيار الملوك حسن الصورة والسيرة جاساؤه الفقهاء وهم معظمون لديه وبيابه منهم جماعة منهم الفقيه الخوارزمي عارف بالفنون فاضل وكان السلطان في أيام لقائنا له واجدا عليه بسبب رحلته الى مدينة ايسلوق ووصوله الى سلطانها وقبول ما أعطاه فسال مني هذا الفقيه أن أتكلم عند الملك في شأنه بما يذهب ما في خاطره فأنيت عليه عند السلطان وذكرت ما علمته من علمه وفضله ولم أزل به حتى ذهب ما كان يجده عليه وأحسن الينا هذا السلطان وأركبنا وزودنا وسكننا في مدينة برجين وهي قريبة من ميلاس بينهما ميلان (وضبط اسمها بفتح الباء الموحدة واسكان الراء وجيم وياء مد وآخره نون) وهي جديدة على تل هنالك بها العمارات الحسان والمساجد وكان قد بني بها مسجدا جامعاً لم يتم بناؤه بعد وبهذه البلدة لقينا ونزلنا منها بزاوية الفتي أخى على ثم انصرفنا بعد ما أحسن الينا كما قدمناه الى مدينة قونية (وضبط اسمها بضم القاف وواو مد ونون مسكن مكسور وياء آخر الحروف) مدينة عظيمة حسنة العمارة كثيرة المياه والانهار والبساتين والفواكه وبها المشمش المسمى بقمر الدين وقد تقدم ذكره ويحمل منه أيضا الى ديار مصر والشام وشوارعها متسعة جدا واسواقها بديعة للترتيب واهل كل صناعة على حدة ويقال ان هذه المدينة من بناء الاسكندر وهي من بلاد السلطان بدر الدين بن قرمان وسند كره وقد تغلب عليها صاحب العراق في بعض الاوقات لقربها من بلاده التي بهذا الاقليم نزلنا منها بزاوية قاضيها وبعرف بابن قلم شاه

هو - ومن الفتيان وزاوية من أعظم الزوايا وله طائفة كبيرة من التلاميذ ولهم في الفتوة مسند يتصل إلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام ولباسها عندهم السراويل كما تلبس الصوفية الخرقه وكان صنيع هذا القاضي في أكرامنا وضيافتنا أعظم من صنيع من قبله واجمل وبعث ولده عوضاً عنه لدخول الحمام معنا وبهذه المدينة تربية الشيخ الامام الصالح القطب جلال الدين المعروف بمولانا وكان كبير القدر وبارض الروم طائفة ينتمون اليه ويعرفون باسمه فيقال لهم الجلالية كما تعرف الاحمدية بالعراق والحيدرية بخراسان وعلى تربيته زاوية عظيمة فيم الطعام للوارد والصادر — حكاية —

يذكر انه كان في ابتداء أمره فقيهاً مدرساً يجتمع اليه الطلبة بمدرسته بقونية فدخل يوماً إلى المدرسة رجل يبيع الحلواء وعلى رأسه طبق منها وهي مقطعة قطعاً يبيع القطعة منها بفلس فلما أتى مجلس التدريس قال له الشيخ هات طبقك فأخذ الحلواني قطعة منه وأعطاها للشيخ فأخذها الشيخ بيده وأكلها فخرج الحلواني ولم يطمأ أحد سوى الشيخ فخرج الشيخ في اتباعه وترك التدريس فأبطأ على الطلبة وطال انتظارهم إياه فخرجوا في طلبه فلم يعرفوا له مستقراً ثم انه عاد اليهم بعد أعوام وصار لا ينطق الا بالشعر الفارسي المتعلق الذي لا يفهم فكان الطلبة يتبعونه ويكتبون ما يصدر عنه من ذلك الشعر وألغوا منه كتاباً باسمه المثنوى وأهل تلك البلاد يعظمون ذلك الكتاب ويعتبرون كلامه ويعلمونه ويقرؤنه بزواياهم في ليالي الجمعات وفي هذه المدينة أيضاً أمير الفقيه أحمد الذي يذكر انه كان معلم جلال الدين المذكور ثم سافرنا إلى مدينة اللارندة وهي (بفتح الراء التي بعد الالف واللام واسكان النون وفتح الدال المهمل) مدينة حسنة كثيرة المياه والبساتين — ذكر سلطان اللارندة —

وسلطانها الملك بدر الدين بن قرمان (بفتح القاف والراء) وكانت قبيلة لشقيقه موسي فنزل عنها للملك الناصر وعوضه عنها بعوض وبعث اليها أميراً وعسكرات ثم تغلب عليها السلطان بدر الدين وبنى بهادر مملكته واستقام أمره بها ولقيت هذا السلطان خارج المدينة وهو عائد من تصيده فنزلت له عن دابتي فنزل هو عن دابته وسلمت عليه وأقبل على ومن عادة ملوك هذه البلاد انه اذا نزل لهم الوارد عن دابته نزلوا له وأعجبهم فعله وزادوا في أكرامه وان سلم عليهم راكباً ساء لهم ذلك ولم يرضهم ويكون سبباً لحرمان الوارد وقد جرى لي ذلك مع بعضهم وسأذكره ولما سلمت عليه وركب وركبت سألتني عن حاله وعن مقدمي ودخلت معه المدينة قائماً بانزالي أحسن نزل وكان يبعث الطعام

الكثير والفاكهة والحلواء في طيا فير الفضة والشمع وكساواركب واحسن ولم يطل مقامنا عنده وانصرفنا الى مدينة أقصرا (وضبطها بفتح الهمزة وسكون القاف وفتح الصاد المهمل والراء) وهي من أحسن بلاد الروم وأتقنها تحف بها العيون الجارية والبساتين من كل ناحية ويشق المدينة ثلاثة أنهار ويجرى الماء بدورها وفيها الاشجار ودوا الى العنب ودخلها بساتين كثيرة وتصنع بها البسط المدسوبة اليها من صوف الغنم لا مثل لها في بلد من البلاد ومنها تحسل الى الشام ومصر والعراق والهند والصين وبلاد الأتراك وهذه المدينة في طاعة ملك العراق ونزلنا منها بزاية الشريفة حسين النائب بها عن الأمير أرتنا وأرتنا هو النائب عن ملك العراق فيما تغلب عليه من بلاد الروم وهذا الشريف من الفتيان وله طائفة كثيرة وأكرمنا كراما متناهيها وفعل أفعال من تقدمه ثم رحلنا الى مدينة نكدية (وضبط اسمها بفتح النون واسكان الكاف ودال مهمل مفتوح) وهي من بلاد ملك العراق مدينة كبيرة كثيرة العمارات قد تحرب بعضها ويشقها النهر المعروف بالنهر الاسود وهو من كبار الأنهار عليه ثلاث قناطر احداها بداخل المدينة وثنان بخارجها وعليه النواعير بالداخل والخارج منها تسقى البساتين والقواكه بها كثيرة ونزلنا منها بزاية الفتى أخي جاروق وهو الأمير بها فأكرمنا على عادة الفتيان وأقمنا بها ثلاثا وسرنا منها بعد ذلك الى مدينة قيسارية وهي من بلاد صاحب العراق وهي احدي المدن العظام بهذا الاقليم بها عسكر أهل العراق واحدي خواتين الأمير علاء الدين أرتنا المذكور وهي من أكرم الخواتين وأفضلهن ولها نسبة من ملك العراق وتدعى أغا (بفتح الهمزة والغين المعجم) ومعنى أغا الكبير وكل من بينه وبين السلطان نسبة يدعى بذلك واسمها طغي خاتون ودخلنا اليها فقامت لنا وأحسنّت السلام والكلام وامرت باحضار الطعام فأكلنا ولما انصرفنا بعثت لنا بفرس مسرج ملجم وخلعة ودراهم مع أحد غلمانها واعتذرت ونزلنا من هذه المدينة بزاية الفتى الاخي أمير على وهو أمير كبير من كبار الاخوة بهذه البلاد وله طائفة تتبعه من وجوه المدينة وكبرائها وزاوية من أحسن الزوايا فرشا وقناديل وطعاما كثيرا واتقانا والكبراء من أصحابه وغيرهم يجتمعون كل ليلة عنده ويفعلون في الأكرام الوارد أضعاف ما يفعله سواهم ومن عوائد هذه البلاد انه ما كان منها ليس به سلطان قالاخي هو الحاكم به وهو يركب الوارد ويكسوه ويحسن اليه على قدره وترتيبه في أمره ونهيه وركوبه ترتيب الملوك ثم سافرنا الى مدينة سيواس (وضبط اسمها بكسر السين المهمل وياه مد وآخره سين مهمل) وهي من بلاد ملك العراق وأعظم ماله بهذا الاقليم

من البلاد وبها منزل أمراءه وعمله مدينة حسنة العمارة واسعة الشوارع أسواقها غاصة
 بالناس وبها دار مثل المدرسة تسمى دار السيادة لا ينزلها الا الشرفاء ونيقيهم ساكن بها
 وتجري لهم فيها مدة مقامهم الفرش والطعام والشمع وغيره فيزودون اذا انصرفوا ولما
 قدمنا الى هذه المدينة خرج الى لقائنا أصحاب الفتى أخى أحمد بحقجي وبحق بالتركية السكينة
 وهذا منسوب اليه والحيان منه معقودان بينهما قاف وبأوه مكسورة وكانوا جماعة منهم
 الركبان والمشاة ثم لقينا بعدهم أصحاب الفتى أخى جلي وهو من كبار الاخوة وطبقته أعلى
 من طبقة أخى بحقجي فطلبوا ان نزل عندهم فلم يمكن لى ذلك لسبق الاولين ودخلنا
 المدينة معهم جميعا وهم يتفأخرون والذين سبقوا اليها قد فرحوا اشد الفرح بنزلنا عندهم
 ثم كان من ضيافتهم فى الطعام والحمام والمبيت مثل صنيع من تقدم وأقمنا عندهم ثلاثة فى
 أحسن ضيافة ثم أتانا القاضى وجماعة من الطلبة ومعهم خيل الامير علاء الدين أرتنا نائب
 ملك العراق ببلاد الروم فركبنا اليه واستقبلنا الامير الى دهلزداره فسلم علينا ورحب
 وكان فصيح اللسان بالعربية وسألني عن العراقيين وأصهبان وشيراز وكرمان وعن السلطان
 أنا بك وبلاد الشام ومصر وسلاطين التركان وكان مراده أن أشكر الكريم منهم وأذم
 البخیل فلم أفعل ذلك بل شكرت الجميع فسر بذلك مني وشكرني عليه ثم أحضر الطعام
 فاكلنا وقال تكونون في ضيافتي فقال له الفتى أخى جلي انهم لم ينزلوا بعد بزاويتي فليكونوا
 عندي وضيافتك تصلهم فقال افعل فانتقلنا الى زاويته وأقمنا بها ستا في ضيافته وفي ضيافة
 الامير ثم بعث الامير بفرس وكسوة ودراهم وكتب لنوابه بالبلاد ان يضيفونا ويكرمونا
 ويزودونا وسافرنا الى مدينة أماصية (وضبط اسمها بفتح الهمزة والميم وألف وصاد
 مهمل مكسور وياء آخر الحروف مفتوحة) مدينة كبيرة حسنة ذات أنهار وبساتين وأشجار
 وفواكه كثيرة وعلى أنهارها النواعير تسقى جناتها ودورها وهي فسيحة الشوارع والأسواق
 وملكها صاحب العراق ويقرب منها بلدة سونسي (وضبط اسمها بضم السين المهمل وواو
 مدونون مضموم وسين مهمل مفتوح) وهي لصاحب العراق أيضا وبها سكني أولادولى
 الله تعالى أبى العباس أحمد الرقاعى منهم الشيخ عز الدين وهو الآن شيخ الرواق وصاحب
 سجادة الرقاعى وأخوته الشيخ على والشيخ ابراهيم والشيخ يحيى أولاد الشيخ أحمد
 كوجك ومعناه الصغير ابن تاج الدين الرقاعى ونزلنا بزاويتهم ورأينا لهم الفضل على من
 سواهم ثم سافرنا الى مدينة كش (وضبط اسمها بضم الكاف وكسر الميم وشين معجم)
 وهي من بلاد ملك العراق مدينة كبيرة عامرة ياتيها التجار من العراق والشام وبها معادن

الفضة وعلى مسيرة يومين منها جبال شاذة وعرة لم أصل إليها ونزلنا منها بزواية الأخي
 مجد الدين وأقمنا بها ثلاثاً في ضيافته وفعل أفعال من قبله وجاء إلينا نائب الأمير أرتنا وبعث
 بضيافة وزاد وانصرفنا على تلك البلاد فوصلنا إلى ارزنجان (وضبط اسمها بفح الهمزة
 واسكان الراء وفتح الزاي وسكون النون وجيم وألف ونون) وهي من بلاد صاحب
 العراق مدينة كبيرة عامرة وأكثر سكانها الأرمن والمسلمون يتكلمون بها بالتركية ولها
 أسواق حسنة الترتيب ويصنع بها ثياب حسان تنسب إليها وفيها معادن النحاس ويصنعون
 منه الألواني والبياسيس التي ذكرناها وهي شبه المنار عندنا ونزلنا منها بزواية الفتى أخي
 نظام الدين وهي من أحسن الزوايا وهو أيضاً من خيار الفتيان وكبارهم أضفنا أحسن
 ضيافة وانصرفنا إلى مدينة أرز الروم وهي من بلاد ملك العراق كبيرة الساحة خرب
 أكثرها بسبب فتنة وقعت بين طائفتين من التركان بها ويشقها ثلاثة أنهار وفي أكثر
 دورها بساتين فيها الأشجار والدوالي ونزلنا منها بزواية الفتى أخي طومان وهو كبير السن
 يقال إنه أناف على مائة وثلاثين سنة ورأيت به يتصرف على قدميه متوكئاً على عصا
 ثابت الذهن مواظباً للصلاة في أوقاتها لم ننكر من نفسه شيئاً إلا أنه لا يستطيع
 الصوم وخدمنا بنفسه في الطعام وخدمنا أولاده في الحمام وأردنا الانصراف
 عنه ثاني يوم نزلنا فشق عليه ذلك وأبى منه وقال إن فعلتم نقصتم حرمتي وإن
 أقل الضيافة ثلاث فاقمنا لديه ثلاثاً ثم انصرفنا إلى مدينة بركي (وضبط اسمها بياء موحدة
 مكسورة وكاف معقودة مكسورة بينهما راء مسكن) ووصلنا إليها بعد العصر فلقينا رجلاً
 من أهلها فسالناه عن زاوية الأخي بها فقال أنا دلكم علينا فاتبعناه فذهب بنا إلى منزل
 نفسه في بستان له فانزلنا به على سطح بيته والأشجار مظلمة وذلك أوان الحر الشديد
 وإني إلينا بأنواع الفاكهة وأحسن في ضيافته وعلف دوابنا وبتنا عنده تلك الليلة وكنا
 قد تعرفنا أن بهذه المدينة مدرساً فاضلاً يسمى بمحبى الدين فأتى بنا ذلك الرجل الذي بتنا
 عنده وكان من الطلبة إلى المدرسة وإذا بالمدرس قد أقبل راكباً على بغلة فارهة ومما ليكم
 وخدامه عن جانبيه والطلبة بين يديه وعليه ثياب مفرجة حسان مطرزة بالذهب فسلمنا
 عليه فرحب بنا وأحسن السلام والكلام وامسك بيدي واجلسني إلى جانبه ثم جاء
 القاضي عز الدين فرشتي ومعني فرشتي الملك لقب بذلك لدينه وعفافه وفضله فقمعد عن
 يمين المدرس وأخذ في تدريس العلوم الأصلية والفرعية ثم لما فرغ من ذلك أتى دوبرة
 بالمدرسة فامر بفرشها وانزلىني فيها وبعث ضيافة حافلة ثم وجه إلينا بعد المغرب فضيافته

اليه فوجدته في مجلس بيستان له وهنالك صهر ييج ماء ينحدر اليه الماء من خصية رخا
أبيض يدور بها القاشاني وبين يديه جملة من الطلبة ومما ليكه وخدامه وقوف عن جانبيه
وهو قاعد على مرتبة عليها أقطاع منقوشة حسنة فخلته لما شاهدته ملكا من الملوك فقام
الى واستقبلني وأخذ بيدي وأجلسني الى جانبه على مرتبة وأنا بالطعام فاكلنا وانصرفنا
الى المدرسة وذكروني بعض الطلبة ان جميع من حضر تلك الليلة من الطلبة عند المدرس
فعادتهم الحضور لطعامه كل ليلة وكتب هذا المدرس الى السلطان بخبرنا وأثنى في كتابه
والسلطان في جبل هنالك يصيف فيه لاجل شدة الحر وذلك الجبل بارد وعادته أن يصيف فيه
— ذكر سلطان بركي —

وهو السلطان محمد بن آيدين من خيار السلاطين وكرمائهم وفضلائهم ولما بعث اليه
المدرس يعلمه بخبري وجه نائبه الى لآتيه فاشار على المدرس ان أقيم حتى يبعث عني
ثانية وكان المدرس اذذاك قد خرجت برجله قرحة لا يستطيع الركوب بسببها وانقطع
عن المدرسة ثم ان السلطان بعث في طلبي ثانية فشق ذلك على المدرس فقال أنا لا أستطيع
الركوب ومن غرضي التوجه معك لا قرر لدى السلطان ما يجب لك ثم انه تحامل ولفه
على رجله خرقا وركب ولم يضع رجله في الركاب وركبت أنا وأصحابي وصعدنا الى الجبل
في طريق قد نحتت وسويت فوصلنا الى موضع السلطان عند الزوال فنزلنا على نهر ماء
تحت ظلال شجر الجوز وصادفنا السلطان في قلق وشغل بال بسبب فرار ابنه الاصغر
سليمان عنه الى صهره السلطان أرخان بك فلما بلغه خبر وصولنا بعث الينا ولديه خضر
بك وعمر بك فسلمنا على الفقيه وأمرها بالسلام على ففعل ذلك وسالني عن حالي ومقدمي
وانصرفا وبعث الى بيت يسمي عندهم الخرقه (خركاه) وهو عصي من الخشب تجمع
شبه القبة وتجعل عليها اللبود ويفتح أعلاه لدخول الضوء والريح مثل البادهنج ويسد متي
احنيج الى سده وأتوا بالفرش وفرشوه وقعد الفقيه وقعدت معه واصحابه واصحابي خارج
البيت تحت ظلال شجر الجوز وذلك الموضع شديد البرد ومات لي تلك الليلة فرس من شدة
البرد ولما كان من الغد ركب المدرس الى السلطان وتكلم في شاني بما اقتضته فضائله ثم عاد الى
وأعلمني بذلك وبعد ساعة وجه السلطان في طلبنا معا فجيئنا الى منزله ووجدناه قائما فسلمنا
عليه وقعد الفقيه عن يمينه وأنا على الفقيه فسالني عن حالي ومقدمي وسالني عن الحجاز
ومصر والشام واليمن والعراقين وبلاد الا عا جم ثم حضر الطعام فاكلنا وانصرفنا وبعث الارز
والدقيق والسمن في كروش الا غنام وكذلك فعل الترك وأقمنا على تلك الحال أياما يبعث

الينا في كل يوم فنحضر طعامه وأتى يوما إلينا بعد الظهر وقعد الفقيه في صدر المجلس وأنا عن يساره وقعد السلطان عن يمين الفقيه وذلك لعزة الفقهاء عند الترك وطلب مني أن أكتب له أحاديث من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فكتبت لها وعرضها الفقيه عليه في تلك الساعة فامرته أن يكتب له شرحها باللسان التركي ثم قام فخرج ورأى الخدام يطبخون لنا الطعام تحت ظلال الجوز بغير ابرار ولا خضر فامر بعقاب صاحب خزانته وبعث بالابزار والسمن وطاات إقامتنا بذلك الجبل قادر كني الممل وأردت الانصراف وكان الفقيه أيضا قد مل من المقام هنالك فبعث الى السلطان يخبره اني أريد السفر فلما كان من الغد بعث السلطان نائبه فتكلم مع المدرس بالتركية ولم أكن اذ ذاك أفهمها فاجابه عن كلامه وانصرف فقال لي المدرس أتدري ماذا قال قلت لا أعرف ما قال قال ان السلطان بعث الى ليساني ماذا يعطيك فقلت له عنده الذهب والفضة والخيل والعبيد فليعطه ما أحب من ذلك فذهب الى السلطان ثم عاد الينا فقال ان السلطان يأمر ان تقيمنا هنا اليوم وتنزلنا معه غدا الى داره بالمدينة فلما كان من الغد بعث فرسا جيذا من مرا كبه ونزل ونحن معه الى المدينة فخرج الناس لاستقباله وفيهم القاضي المذكور آنفا وسواه ودخل السلطان ونحن معه فلما نزل بباب داره ذهبت مع المدرس الى ناحية المدرسة فدعانا وأمرنا بالدخول معه الى داره فلما وصلنا الى دهليز الدار وجدنا من خدامه نحو عشرين صورهم فائقة الحسن وعليهم ثياب الحرير وشعورهم مفروقة مرسلّة والوانهم ساطعة البياض مشربة بحمرة فقلت للفقيه ما هذه الصورا الحسن فقال هؤلاء فتيان روميون وصعدنا مع السلطان درجا كثيرة الى ان انتهينا الى مجلس حسن في وسطه صهريج ماء وعلى كل ركن من أركان صورة سبع من نحاس يمج ماء من فيه وتدور بهذا المجلس مصاطب متصلة مفروشة وفوق احداها مرتبة السلطان فلما انتهينا اليها نحى السلطان مرتبته بيده وقعد معنا على الافطاح وقعد الفقيه عن يمينه والقاضي مما يلي الفقيه وأنا مما يلي القاضي وقعد القراء أسفل المصطبة والقراء لا يفارقونه حيث كان من مجاسم ثم جاؤا بصحاف من الذهب والفضة مملوءة بالجلاب الحلول قد عصف فيه ماء الليمون وجعل فيه كعكات صفار مقسومة وفيها ملاعق ذهب وفضة وجاؤا معها بصحن صيني فيها مثل ذلك وفيها ملاعق خشب فمن تورع استعمل صحاف الصيني وملاعق الخشب وتكلمت بشكر السلطان وأثنت على الفقيه وبالغت في ذلك فاعجب ذلك السلطان وسره

— حكاية —

وفي اثناء قعودنا مع السلطان اتى شيخ على رأسه عمامة لها ذؤاية فسلم عليه وقام له

القاضي والفقيه وقعد امام السلطان فوق المصطبة والقراء أسفل منه فقلت للفقيه من هذا الشيخ فضحك وسكت ثم أعدت السؤال فقال لي هذا يهودي طيب وكلام يحتاج اليه فلاجل هذا فملنا مارأيت من القيام لا فاخذني ما حدث وقدم من الامتعاض فقلت لليهودي ياملعون ابن ملعون كيف تجلس فوق قراء القرآن وأنت يهودي وشتمته ورفعت صوتي فعجب السلطان وسال عن معني كلامي فاخبره الفقيه به وغضب اليهودي فخرج عن المجلس في أسوأ حال ولما انصرفنا قال لي الفقيه أحسنت بارك الله فيك ان أحدا سواك لا يتجاسر على مخاطبته بذلك ولقد عرفته بنفسه

— حكاية أخرى —

وسالني السلطان في هذا المجلس فقال لي هل رأيت قط حجرا نزل من السماء فقلت مارأيت ذلك ولا سمعت به فقال لي انه قد نزل بخارج بلدنا هذا حجر من السماء ثم دعارجالا وأمرهم ان باتوا بالحجر فاتوا بحجر أسود أصم شديد الصلابة له بريق قدرت ان زنته تبلغ قمتارا وأمر السلطان باحضار القطاعين فحضر أربعة منهم فامرهم أن يضربوه فضربوا عليه ضربة رجل واحد أربع مرات بمطارق الحديد فلم يؤثروا فيه شيئا فعجبت من أمره وأمر برده الى حيث كان وفي ثالث يوم من دخولنا الى المدينة مع السلطان صنع صنيعة عظيمة ودعا الفقهاء والمشايخ وأعيان العسكرو وجوه أهل المدينة فطعموا وقرأ القرآن بالاصوات الحسان وعدنا الى منزلنا بالمدرسة وكان بوجه الطعام والفاكهة والحلواء والشمع في كل ليلة ثم بعث الى مائة مثقال ذهبا والاف درهم وكسوة كاملة وفرسا ومملوكا روميا يسمى ميخائيل وبعث لكل من أصحابي كسوة ودراهم كل هذا بمشاركة المدرس محيي الدين جزاه الله تعالى خيرا وودعنا وانصرفنا وكانت مدة مقامنا عنده بالجبل والمدينة أربعة عشر يوما ثم قصدنا مدينة تيرة وهي من بلاد هذا السلطان (وضبط اسمها بكسر التاء المعلقة وياه مد وراء) مدينة حسنة ذات أنهار وبساتين وفواكه نزلنا منها بزاوية الفتى أخى محمد وهو من كبار الصالحين صائم الدهر وله أصحاب علي طريقته فاضافنا ودعانا وسرنا الى مدينة أياسلوق (وضبط اسمها بفتح الهمزة والياء آخر الحروف وسين مهملة مضمومة ولا مضمومة وآخره قاف) مدينة كبيرة قديمة معظمة عند الروم وفيها كنيسة كبيرة مبنية بالحجارة الضخمة ويكون طول الحجر منها عشرة أذرع فمادونها منحوتة أبدع نحت والمسجد الجامع بهذه المدينة من أبدع مساجد الدنيا لا نظير له في الحسن وكان كنيسة للروم معظمة عندهم يقصدونها من البلاد فلما فتحت هذه المدينة جعلها المسلمون مسجدا

جامعا وحيطانه من الرخام الملون وفرشه الرخام الابيض وهو مسقف بالرصاص وفيه
احدى عشرة قبة متنوعة في وسط كل قبة صهريج ماء والنهر يشقه وعن جاني النهر الاشجار
المختلفة الاجناس ودوا الى العنب ومعرشات الياسمين وله خمسة عشر بابا وأمير هذه المدينة
خضر بك ابن السلطان محمد بن آيدى بن وقد كنت رأيت عند أبيه بىركى ثم لقيته بهذه المدينة
خارجها فسلمت عليه وانا راكب ففكره ذلك منى وكان سبب حرمانى لديه فان عادتهم
انما نزل لهم الوارد نزلوا له وأعجبهم ذلك ولم يبعث الى الاثواب واحدا من الحرير
المذهب بسمونه النخ (بفتح النون وخاء معجم) واشترت بهذه المدينة جارية رومية بكرا
باربعين دينارا ذهبيا ثم سرنا الى مدينة يزميز (وضبط اسمها بياء آخر الحروف مفتوحة
وزاى مسكن وميم مكسورة وياء مد وراء) مدينة كبيرة على ساحل البحر معظمها خراب
ولها قلعة متصلة بآبائها نزلنا منها بزواية الشيخ يعقوب وهو من الاحمدية صالح فاضل
ولقينا بخارجها الشيخ عز الدين بن أحمد الرفاعي ومعه زاده الاخلاطى من كبار المشايخ
ومعه مائة فقير من المولدين وقد ضرب لهم الامير الاخيرة وصنع لهم الشيخ يعقوب ضيافة
وحضرتها واجتمعت بهم وأمير هذه المدينة عمر بك ابن السلطان محمد بن آيدى المذكور
آتانا وسكننا بقلعتها وكان حين قدومنا عليها عند أبيه ثم قدم بعد خمس من نزولنا بها
فكان من مكارمه ان آتى الى الزاوية وسلم على واعتذر وبعث ضيافة عظيمة وأعطاني بعد
ذلك مملوكا روميا خماسيا اسمه نقوله وثوبين من الكمخا وهى ثياب حرير تصنع ببغداد
وتبريز ونيسابور وبالصين وذكر لى الفقيه الذى يؤم به ان الامير لم يبق له مملوك سوى
ذلك المملوك الذى أعطاني بسبب كرمه رحمه الله وأعطى أيضا للشيخ عز الدين ثلاثة
أفراس مجهزة وآنية فضة كبيرة تسمى عندهم المشربة مملوءة دراهم وثيابا من الملف والمرعز
والقسي والكمخا وجوارى وغلمانا وكان هذا الامير كريما صالحا كثير الجهاد
له أجفان غزوية يضرب بها على نواحى القسطنطينية العظمى فيسبي ويغنم ويفنى ذلك
كرما وجودا ثم يعود الى الجهاد الى ان اشتدت على الروم وطاته فرفعوا أمرهم الى البابا
قامر نصارى جنوة وافرانسة بغزوه فغزوه وجهز جيشا من رومية وطرقوا مدينته
ليلا فى عدد كثير من الأجفان وملكوا المرسى والمدينة ونزل اليهم الامير عمر
من القلعة فقاتلهم فاستشهد هو وجماعة من ناسه واستقر النصارى بالبلد ولم يقدروا على
القلعة لمنعتها ثم سافرنا من هذه المدينة الى مدينة مغنيسية (وضبط اسمها بهم مفتوحة
وغين معجمة مسكنة ونون مكسورة وياء مدوسين مهملة مكسورة وياء آخر الحروف

مشددة) نزلنا بها عشى يوم عرفة بزواية رجل من الفتيان وهى مدينة كبيرة حسنة فى سفح جبل وبسيطها كثير الانهار والعيون والبساتين والفواكه
— ذكر سلطان مغنيسية —

وسلطانها يسمى صاروخان ولما وصلنا الى هذه البلدة وجدنا دبتربة ولده وكان قد توفى منذ أشهر فكان هو وأم الولد ليلة العيد وصبيحتها بتر بته والولد قد صبر وجعل فى تابوت خشب مغشى بالحديد المقزدر وعاقى فى قبة لا سقف لها لان تذهب رائحته وحينئذ تسقف القبة ويجعل تابوته ظاهراً على وجه الارض وتجعل ثيابه عليه وهكذا رأيت غيره أيضاً من الملوك فعل وسلمنا عليه بذلك الموضع وصلينا معه صلاة العيد وعدنا الى الزاوية فآخذ الغلام الذى كان لى افراسنا وتوجه مع غلام لبعض الاصحاب برسم سقيها فبطاً ثم لما كان العشى لم يظهر لهما أثروا وكان بهذه المدينة الفقيه المدرس الفاضل مصلح الدين فركب معى الى السلطان وأعلمناه بذلك فبعث فى طلبهما فلم يوجدوا واشتغل الناس فى عيدهم وقصدا مدينة الكفار على ساحل البحر تسمى فوجة على مسيرة يوم من مغنيسية وهؤلاء الكفار فى بلد حصين وهم يبعثون هدية فى كل سنة الى سلطان مغنيسية فيقنع منهم بها لخصانة يلدهم فلما كان بعد الظهر أتى بهما بعض الاتراك وبالا فراس وذكروا انهما اجتازا بهم عشية النهار فانكروا أمرهما واشتدوا عليهما حتى أقرا بما عزمنا عليه من الفرار ثم سافروا من مغنيسية وبقنا ليلة عند قوم من التركان قد نزلوا فى مرعى لهم ولم نجد عندهم ما نعالف به دوابنا تلك الليلة ويات اصحابنا يحترسون مداولة بينهم خوف السرقة فانت نوبة لفقيه عفيف الدين التوزرى فسمعته يقرأ سورة البقرة فقلت له اذا أردت النوم فاعلمني لا نظر من يحرس ثم نمت فما أيقظني الا الصباح وقد ذهب السراق بفرس لى كان يركبه عفيف الدين بسرجه ولجامه وكان من جياد الخيل اشترىته باياسلوق ثم رحلنا من الغد فوصلنا الى مدينة برغمة (وضبط اسمها بباء موحدة مفتوحة وراء مسكنة وغين معجمة مفتوحة وميم مفتوحة) مدينة خربة لها قلعة عظيمة منيعة باعلى جبل ويقال ان افلاطون الحكيم من أهل هذه المدينة وداره تشتهر باسمه الى الآن ونزلنا منها بزواية فقبر من الاحمدية ثم جاء أحد كبراء المدينة فنقلنا الى داره وأكرمنا اكراما كثيرا

— ذكر سلطان برغمة —

وسلطانها يسمى بنخشى خان بكسر الشين وخان عندهم هو السلطان وبنخشى (بباء آخر الحروف وخاء معجم وشين معجم مكسور) ومعتاه جيد صا دفناه فى مصيف له فاعلم

بقدمنا فبعث بضيافة وثوب قدسى ثم أكثر ينامن يد لنا على الطريق وسرنا في جبال
شاخنة وعرة الى أن وصلنا الى مدينة بلى كسرى (وضبط اسمها بباء موحدة مفتوحة
ولام مكسور وباء مدوكاف مفتوح وسين مهمل مسكن وراء مكسور وباء) مدينة حسنة
كثيرة العمارات مليحة الاسواق ولا جامع لها يجمع فيه وأرادوا بناء جامع خارجها متصل بها فبنوا
حيطانه ولم يجعلوا له سقفاً وصاروا يصلون به ويجمعون تحت ظلال الاشجار ونزلنا من هذه
المدينة بزواية الفتى أخى سنان وهو من أفاضلهم وأنى إلينا قاضيهما وخطيبها الفقيه موسى

— ذكر سلطان بلى كسرى —

ويسمى دموبرخان ولاخير فيه وأبوه هو الذى بنى هذه المدينة وكثرت عمارتها بمن لاخير
فيه في مدة ابنه هذا والناس على دين الملك ورايته وبعث الى ثوب حرير واشترت بهذه
المدينة جارية رومية تسمى مرغليظة ثم سرنا الى مدينة برصى (وضبط اسمها بضم الباء
الموحدة واسكان الراء وفتح الصاد المهمل) مدينة كبيرة عظيمة حسنة الاسواق فسيحة
الشوارع تحفها البساتين من جميع جهاتها والعيون الجارية وبخارجها نهر شديد الحرارة
يصب في بركة عظيمة وقد بنى عليها بيتان أحدهما للرجال والآخر للنساء والمرضى
يستشفون بهذه الحمة ويأتون اليها من أقاصي البلاد وهنالك زاوية للواردين ينزلون بها
ويطعمون مدة مقامهم وهي ثلاثة أيام عمر هذه الزاوية أحد ملوك التركان ونزلنا في هذه
المدينة بزواية الفتى أخى شمس الدين من كبار الفتيان ووافقنا عنده يوم عاشوراء فصنع
طعاماً كثيراً ودعا وجوه العسكر وأهل المدينة ليلاً وأفطروا عنده وقرأ القراء بالاصوات
الحسنة وحضر الفقيه الواعظ مجد الدين القونوى ووعظ وذكر واحسن ثم أخذوا
في السماع والرقص وكانت ليلة عظيمة الشأن وهذا الواعظ من الصالحين يصوم الدهر ولا
يفطر الا في كل ثلاثة أيام ولا يأكل الا من كد يمينه ويقال انه لم يأكل طعاماً أحد قط ولا
منزل له ولا متاع الا ما يستتر به ولا ينام الا في المقبرة ويعظ في المجالس ويذكر فيتوب
علي يديه في كل مجلس الجماعة من الناس وطلبته بعد هذه الليلة فلم أجده وأتت الجبانة

— حكاية —

فلم أجده ويقال انه يأتيها بعد هجوع الناس

لما حضرنا ليلة عاشوراء بزواية شمس الدين وعظ بها مجد الدين من آخر الليل فصاح
أحد الفقراء صيحة غشي عليه منها فصبا عليه ماء الورد فلم يفتق فأعادوا عليه ذلك
فلم يفتق واختلفت الناس فيه فمن قائل انه ميت ومن قائل انه مغشى عليه وأتم الواعظ
كلامه وقرأ القراء وصلينا الصبح وطلعت الشمس فاخترنا واحال الرجل فوجدوه فارق

الدنيا رحمه الله فاشتغلوا بغسله وتكفينه وكنت فيمن حضر الصلاة عليه ودفنه وكان هذا الفقير يسمى الصباح وذكروا ان كان يتعبد بغار هنالك في جبل فمحي علم ان الواعظ مجد الدين يعظ قصده وحضرو عظه ولم ياكل طعام أحد فاذا وعظ مجد الدين يصيح ويغشى عليه ثم يفيق فيتوضا ويصلي ركعتين ثم اذا سمع الواعظ صاح يفعل ذلك مراراً في الليلة وسمى الصباح لاجل ذلك وكان أعذر اليد والرجل لا قدرة له على الخدمة وكانت له والده تقوته من غزلها فلما توفيت اقتات من نبات الارض ولقيت بهذه المدينة الشيخ الصالح عبد الله المصري السائح وهو من الصالحين جال الارض الا انه لم يدخل الصين ولا جزيرة سر نديب ولا المغرب ولا الاندلس ولا بلاد السودان وقد زدت عليه بدخول هذه الاقاليم — ذكر سلطان برصا —

وسلطانها اختيار الدين أرخان بك وأرخان (بضم الهمزة وخاء معجم) ابن السلطان عثمان جوق (وجوق بحجم معقود مضموم وآخره قاف) وتفسيره بالتركية الصغير وهذا السلطان أكبر ملوك التركان وأكثرهم مالا وبلادا وعسكراً له من الحصون ما يقارب مائة حصن وهو في أكثر أوقاته لا يزال يطوف عليها ويقوم بكل حصن منها أياماً لا صلاح شؤونه وتفقد حاله ويقال انه لم يقم قط شهراً كاملاً ببلد ويقا تل الكفار ويحاصره ووالده هو الذي استفتح مدينة برصا من أيدي الروم وقيره بمسجدها وكان مسجدها كنيسة للنصارى ويذكر انه حاصر مدينة برتيك نحو عشرين سنة ومات قبل فتحها فحاصرها ولده هذا الذي ذكرناه اثنى عشرة سنة وافتتحها وبها كان لقائي له وبعث الى بدراهم كثيرة ثم سافرنا الى مدينة يزنيك (وضبط اسمها بفتح الياء آخر الحروف وإسكان الزاي وكسر النون وياء مد وكاف) وبقنا قبل الوصول اليها ليلة بقرية تدعى كرلة بزاوية فتى من الاخوية ثم سرنا من هذه القرية يوماً كاملاً في انهار ماء على جوانبها أشجار الرمان الحلو والحامض ثم وصلنا الى بحيرة ماء تنبت القصب على ثمانية أميال من يزنيك لا يستطيع دخولها الا على طريق واحد مثل الجسر لا يسلك عليها الا فارس واحد وبذلك امتنعت هذه المدينة والبحيرة محيطتها من جميع الجهات وهي خاوية على عروشها لا يسكن بها الا أناس قليلون من خدام السلطان وبها زوجته بيون خاتون وهي الحاكمة عليهم امرأة صالحة قاضلة وعلى المدينة أسوار أربعة بين كل سورين خندق وفيه الماء ويدخل اليها على جسور خشب متى أرادوا رفعها رفعوها وبداخل المدينة البساتين والدور والارض والمزارع فلكل انسان داره ومزرعته وبستانه مجموعة وشربها من آبار بها قرية وبها من

جميع أصناف الفواكه والجوز والقسطل عندهم كثير جدا رخيص الثمن ويسمون القسطل قسطنة بالنون والجوز القوز بالقاف وبها العنب العذارى لم أر مثله في سواها متناهي الخلاوة عظيم الجرم صافي اللون رقيق القشر للحمية منه نواة واحدة انزلنا بهذه المدينة الفقيه الامام الحاج المجاور علاء الدين السلطانيو كي وهو شيخ الفضلاء الكرماء ماجئت قطا لى زيارته الا أحضر الطعام وصورته حسنة وسيرته أحسن وتوجه معي الى الخاتون المذكورة فاكرمته وأضافت وأحسنّت وبعد قدومنا بايام وصل الى هذه المدينة السلطان أرخان بك الذى ذكرناه وأقمت بهذه المدينة نحو أربعين يوما بسبب مرض فرس لى فلم اطل على المكث تركته وانصرفت ومعى ثلاثة من أصحابى وجارية وغلامان وليس معنا من يحسن اللسان التركى و يترجم عنا وكان لنا ترجمان فارقنا بهذه المدينة ثم خرجنا منها قبتنا بقرية يقال لها تكيجا (بفتح الميم والكاف والجيم) بقنا عند فقيه بها أكرمنا وأضافنا وسافرنا من عنده ونقدمتنا امرأة من الترك على فرس ومعها خديم لها وهى قاصدة مدينة ينجيا ونحن فى اتباع اثرها فوصلت الى واد كبير يقال له سقرى كأنه نسب الى سقر أعاذنا الله منها فذهبت تجوز الوادى فلما توسطت كادت الدابة تفرق بها ورمتها عن ظهرها وأراد الخديم الذى كان معها استخلاصها فذهب الوادى به مامعا وكان فى عدوة الوادى قوم رموا بانفسهم فى اثرها سباحة فخرجوا المرأة وبها من الحياة رفق ووجدوا الرجل قد قضى نحبه رحمه الله وأخبرنا أولئك الناس ان المدينة أسفل من ذلك الموضع توجهن الى ها وهى أربع خشبات مربوطة بالحبال يعملون عليها سروج الدواب والمتاع ويجذبها الرجال من العدو الاخرى ويركب عليها الناس وتجاز الدواب سباحة وكذلك فعلنا ووصلنا تلك الليلة الى كاربة واسمها على مثال فاعلة من الكى نزلنا منها براوية أحد الاخية فكلمناه بالعربية فلم يفهم عنا وكلمناه بالتركية فلم يفهم عنه فقال اطلبوا الفقيه فانه يعرف العربية فأتى الفقيه فكلمناه بالفارسية وكلمناه بالعربية فلم يفهمها منا فقال للفقى ايشان عربى كهنا ميقوان (ميكويند ومن عربى نواميدانم وايشان معناه هؤلاء و كهنا قديم وميقوان يقولون ومن أنا ونوجد يد وميدانم تعرف وانما أراد الفقيه بهذا الكلام ستر نفسه عن الفضيحة حين ظنوا أنه يعرف اللسان العربى وهو لا يعرفه فقال لهم هؤلاء يتكلمون بالكلام العربى القديم وأنا لا أعرف الا العربى الجديد فظن الفقئ ان الامر على ما قاله الفقيه ونفعنا ذلك عنده وبالغ فى اكرامنا وقال هؤلاء تجب كرامتهم لانهم يتكلمون باللسان العربى القديم وهو لسان النبى صلى الله عليه وسلم تسليما وأصحابه ولم يفهم كلام الفقيه

اذذاك لكننى حفظت لفظه فلما تعلمت اللسان الفارسي فهمت مراده وبتنا تلك الليلة بالزاوية وبعث معنا دايلا الي ينجبا وضبط اسمها (بفتح الياء آخر الحروف وكسر النون وجيم) بلدة كبيرة حسنة بمحلتها عن زاوية الاخي فوجدنا بها أحد الفقراء المولدين فقلت له هذه زاوية الاخي فقال لي نعم فسررت عند ذلك اذ وجدت من يفهم اللسان العربي فلما اختبرته أيرز الغيب انه لا يعرف من اللسان العربي الا كلمة نعم خاصة ونزلنا بالزاوية وجاء الينا أحد الطلبة بطعام ولم يكن الاخي حاضرا وحصل الانس بهذا الطاب ولم يكن يعرف اللسان العربي لكنه تفضل وتكلم مع نائب البلدة فاعطاني فارساً من أصحابه وتوجه معنا الى كينوك (وضبط اسمها بفتح الكاف وسكون الباء وضم النون) وهي بلدة صغيرة يسكنها كفار الروم تحت ذمة المسلمين وليس بها غير بيت واحد من المسلمين وهم الحكماء عليهم وهي من بلاد السلطان أرخان بك فنزلنا بدار عجوز كافرة وذلك ابان الثلج والشتاء فاحسنا اليها وبتنا عندها تلك الليلة وهذه الليلة لاشجربها ولادو الي العنب ولا يزدرع بها الا الزعفران وأتتنا هذه العجوز بزعفران كثير وظننت أننا نبتاع منه ما نشتريه منها ولما كان الصباح ركبنا وأتانا الفارس الذي بعثه الفتى معنا من كاوية فبعث معنا فارساً غيره ليوصلنا الى مدينة مطرني وقد وقع في تلك الليلة ثلج كثير عفى الطرق فتقدمنا ذلك الفارس فاتبعنا أثره الى ان وصلنا في نصف النهار الى قرية للتركان فاتوا بطعام فاكلنا منه وكلهمهم ذلك الفارس فركب معنا أحدهم وسلك بنا أوعارا وجبالا ومجرى ماء تكرر لنا جوازه أزيد من الثلاثين مرة فلما خلاصنا من ذلك قال لنا ذلك الفارس أعطوني شيئا من الدراهم فقلنا له اذا وصلنا الى المدينة نعطيك ونرضيك فلم يرض ذلك منا ولم يفهم عنا فاخذ قوسا لبعض أصحابي ومضي غير بعيد ثم رجع فرد الينا القوس فاعطيته شيئا من الدراهم فاخذها وهرب عنا وتركنا لا نعرف أين نقصد ولا طريق يظهر لنا فكنا نتلمح أثر الطريق تحت الثلج ونسلكه الى أن بلغنا عند غروب الشمس الى جبل يظهر الطريق به لكثرة الحجارة فخفت الهلاك على نفسي ومن معي وتوقعت نزول الثلج ليلا ولا عمارة هنا لك فانزلنا عن الدواب هلكنا وان سرينا ليلتنا لا نعرف أين نتوجه وكان لي فرس من الجياد فعملت على الخلاص وقلت في نفسي اذا سلمت لعل أحتال في سلامة أصحابي فكان كذلك واستودعتهم الله تعالى وسرت وأهل تلك البلاد يبنون على القبور بيوتا من الخشب يظن رائيها انها عمارة فيجدها قبورا فظهر لي منها كثير فلما كان بعد العشاء وصلت الى البيوت فقلت اللهم اجعلها عامرة فوجدتها عامرة ووفقتي

الله تعالى الى باب دار فرأيت عليها شيخاً فكلمته بالعربي فكلمتني بالتركي وأشار الى بالدخول فاحبرته بشأن أصحابي فلم يفهم عني وكان من لطف الله ان تلك الدار زاوية للفقراء والواقف بالباب شيخها فلما سمع الفقراء الذين بداخل الزاوية كلامي مع الشيخ خرج بعضهم وكانت بيني وبينه معرفة فسلم على وأخبرته خبر أصحابي وأشرت اليه بان يمضي مع الفقراء لاستخلاص الاصحاب ففعلوا ذلك وتوجهوا معي الى أصحابي وجئنا جميعا الى الزاوية وحمدنا الله تعالى على السلامة وكانت ليلة جمعة فاجتمع أهل القرية وقطعوا ليلتهم بذكر الله تعالى وأتي كل منهم بما تيسر له من الطعام وارتفعت المشقة ورحلنا عند الصباح فوصلنا الى مدينة مطرني عند صلاة الجمعة (وضبط اسمها بضم الميم والطاء المهملة واسكان الراء وكسر النون وياء مد) فنزلنا بزاوية أحد الفتيان الاخيرة وبها جماعة من المسافرين ولم نجد مربطاً للدواب فصلينا الجمعة ونحن في قلق لكثرة الثلج والبرد وعدم الربط فلقينا أحد الحجاج من أهلها فسلم علينا وكان يعرف اللسان العربي فسررت برؤيته وطلبت منه أن يدلنا على مربط للدواب بالكراء فقال أماربها في منزل فلايتاقى لان أبواب دور هذه البلدة صغار لا تدخل منها الدواب ولكنني أدلكم على سقيفة بالسوق يربط فيها المسافرون دوابهم والذين ياتون لحضور السوق فدلنا عليها وربطنا بهادوابنا ونزل أحد الاصحاب بحانوت خال ازاءها ليحرس الدواب — حكاية —

وكان من غريب ما اتفق لنا اني بعثت أحد الخدم ليشتري اللبن للدواب وبعثت أحدهم يشتري السمن فأتى أحدهما باللبن والآخر دون شيء وهو يضحك فسألناه عن سبب ضحكك فقال انا وقفنا على دكان بالسوق فطلبنا منه السمن فاشار الينا بالوقوف وكأم ولداله فدفعنا له الدراهم فابطا ساعة واتي باللبن فاخذناه منه وقلنا له انا نريد السمن فقال هذا السمن وأبرز الغيب انهم يقولون للبن سمن بلسان الترك وأما السمن فيسمى عندهم رباغ ولما اجتمعنا بهذا الحاح الذي يعرف اللسان العربي رغبنا منه أن يسافر معنا الى قسطنطينية وبينها وبين هذه البلدة مسيرة عشر وكسوته ثوبا مصرياً من ثيابي وأعطيته نفقة تركها لعياله وعينت له دابة لركوبه ووعدته الخير وسافر معنا فظهر لنا من حاله انه صاحب مال كثير وله ديون على الناس غير انه ساقط الهمة خسيس الطبع سيء الافعال وكنا نعطيه الدراهم لنفقتنا فياخذ ما يفضل من الخبز ويشترى به الا بزار والخضر والملح ويمسك ثمن ذلك لنفسه وذكري انه كان يسرق من دراهم النفقة دون ذلك وكنا نحتمله لما كنا نكابه من عدم المعرفة بلسان الترك وانتهت حاله الى ان فضحناه وكنا نقول له في آخر

النهار يا حاح كم سرقت اليوم من النفقة فيقول كذا فنضحك منه ونرضى بذلك ومن أفعاله الخسيسة انه مات لنا فرس في بعض المنازل فتولى سلخ جلده بيده وباعه ومنها انزلنا ليلة عند أخت له في بعض القرى فجاءت بطعام وفاكهة من الاجاص والتفاح والمشمش والخواخ كلها ميبسة وتجعل في الماء حتى ترطب فتؤكل ويشرب مأوها فاردنا ان نحسن اليها فعلم بذلك فقال لا تعطوها شيئاً واعطوا ذلك لى فاعطيناه ارضاء له واعطيناه احسانا في خفية بحيث لم يعلم بذلك ثم وصلنا الى مدينه بولى (وضبط اسمها بياء موحدة مضمومة وكسر اللام) ولما انتهينا الى قريب منها وجدنا واديا يظهر في رأي العين صغيرا فلما دخله بعض أصحابنا وجدوه شديد الجربة والازعاج فجازوه جميعا وبقيت جارية صغيرة خافوا من تجويزها وكان فرسى خير امن أفراسهم فاردفتها وأخذت في جـواز الوادي فلما توسطته وقع بي الفرس ووقعت الجارية فاخرجها أصحابي وبها رمق وخلصت أنا ودخلنا المدينة فقصدنا زاوية أحد الفتيان الاخية ومن عوائدهم انه لا تزال النار موقودة في زواياهم أيام الشتاء أبدا يجعلون في كل ركن من أركان الزاوية موقدا للدار ويصنعون لها منافس يصعد منها الدخان ولا يؤذى الزاوية ويسمونها البخارى واحدا بخيرى قال ابن جزى وقد أحسن صفى الدين عبد العزيز بن سرايا الحلبي في قوله في التورية وتذكرته بذكر البخيرى ان البخيرى مذقار قتموه غدا * يحثو الرماد على كانه التراب

لوشتم انه يمسى أبا لهب * جاءت بغالكم حمالة الخطب

(رجع) قال فلما دخلنا الزاوية وجدنا النار موقودة فنزعت ثيابي ولبست ثيابا سواها واصطليت بالنار واتى الاخى بالطعام والفاكهة وأكثر من ذلك فله درهم من طائفة ما أكرم نفوسهم وأشد إيثارهم واعظم شفقتهم على الغريب وألطفهم بالوارد وأحبهم فيه وأجملهم احتفالا بامرهم فليس قدوم الانسان الغريب عليهم الا كقدومه على احب أهله اليه وبتنا تلك الليلة بحال مرضية ثم رحلنا بالغداة فوصلنا الى مدينة كردي بولى (وضبط اسمها بكاف معقودة وفتح الراء والدال المهمل وسكون الياء وباء موحدة مضمومة وواو مدولام مكسورة وياه) وهي مدينة كبيرة في بساط من الارض حسنة متسعة الشوارع والاسواق من أشد البلاد بردا وهي محلات مفترقة كل محلة تسكنها طائفة لا يخالطهم غيرهم

— ذكر سلطانها —

وهو السلطان شاه بك من متوسطى سلاطين هذه البلاد حسن الصورة والسيرة جميل الخلق قليل العطاء صلينا بهذه المدينة صلاة الجمعة ونزلنا زاوية منها ولقيت بها الخطيب

الشيخ شمس الدين الدمشقي الحنبلي وهو من مستوطنينا منذ سنين وله بها أولاد وهو فقيه هذا السلطان وخطيبه ومسموع الكلام عنده ودخل علينا هذا الفقيه بالزاوية فاعلمنا ان السلطان قد جاء لزيارتنا فشكرته على فعله واستقبلت السلطان فسلمت عليه وجلس فسالني عن حالى وعن مقدمى وعن لقيته من السلاطين فاخبرته بذلك كله وأقام ساعة ثم انصرف وبعث بدابة مسرجة وكسوة وانصرفنا الى مدينة برلو (وضبط اسمها بضم الياء الموحدة واسكان الراء وضم اللام) وهى مدينة صغيرة على تل تحتها خندق ولها قلعة باعلى شاهق نزلنا منها بمدرسة فيها حسنة وكان الحاج الذى سافر معنا يعرف مدرستها وطلبتها ويحضر معهم الدرس وهو على علاقته من الطلبة حنفى المذهب ودعانا أمير هذه البلدة وهو على بك ابن السلطان المكرم سليمان بادشاه ملك قسطنطينية وسنذكره فصعدنا اليه الى القلعة فسلمنا عليه فرحب بنا وأكرمنا وسالني عن اسفاري وحالى فاجبته عن ذلك وأجلاسني الى جانبه وحضر قاضيه وكان به الحاج علاء الدين محمد وهو من كبار الكتاب وحضر الطعام فكلنا ثم قرأ الفراء باصوات مبكية والحان عجيبة وانصرفنا وسافرنا بالغدا الى مدينة قسطنطينية (وضبط اسمها بقاف مفتوح وصاد مهمل مسكن وطاء مهمل مفتوح وميم مضمومة وواو ونون مكسور وياء آخر الحروف) وهى من أعظم المدن وأحسنها كثيرة الخيرات رخيصة الاسعار نزلنا منها بزاوية شيخ يعرف بالاطروش لثقل سمعه ورأيت منه عجا و هو ان أحد الطلبة كان يكتب له فى الهواء وتارة فى الارض باصبعه فيفهم عنه ويحبيه ويحكى له بذلك الحكايات فيفهمها وأقمنا بهذه المدينة نحو أربعين يوما فكنا نشترى طابق اللحم الغنمي السمين بدرهمين ونشترى خبزا بدرهمين فيكفيانا ليومنا ونحن عشرة ونشترى حلواء العسل بدرهمين فتكفيانا أجمعين ونشترى جوزا بدرهم وقسطلا بمثله فكلنا كل منها أجمعون ويفضل باقيها ونشترى حمل الحطب بدرهم واحد وذلك اوان البرد الشديد ولم أر فى البلاد مدينة ارخص اسعارا منها ولقيت بها الشيخ الامام العالم المفتى المدرس تاج الدين السلطانى وكى من كبار العلماء قرأ بالعراقين وتبريز واستوطنها مدة وقرأ بدمشق وجاور بالحرمين قديما ولقيت بها العالم المدرس صدر الدين سليمان الفنى كى من اهل فنيكة من بلاد الروم واطافني بمدرسته التى بسوق الخليل ولقيت بها الشيخ المعمر الصالح دادا أمير على دخلت عليه بزاويته بمقربة من سوق الخليل فوجدته ملقى على ظهره فجالسه بعض خدامه ورفع بعضهم حاجبيه عن عينيه ففتحهما وكلمني بالعربى الفصيح وقال قدمت خير مقدم وسالته عن عمره فقال

كنت من أصحاب الخليفة المستنصر بالله وتوفي وأنا ابن ثلاثين سنة وعمرى الآن مائة وثلاث وستون سنة فطلبت منه الداء فدعاني وانصرفت

— ذكر سلطان قصطمونية —

وهو السلطان المكرم سليمان پادشاه (واسمه بباء معقودة وألف ودال مسكن) وهو كبير السن ينيف على سبعين سنة حسن الوجه طويل اللحية صاحب وقار وهيبة يجالسه الفقهاء والصلحاء دخلت عليه بمجلسه فأجلسني الى جانبه وسألتني عن حالى ومقدمي وعن الحرمين الشرقيين وصر والشام فأجبتته وأمر بانزالى على قرب منه واعطاني ذلك اليوم فرسا عتيقا قرطاسى اللون وكسوة وعين لى نفقة وعلقا وأمر لى بعد ذلك بقمح وشعير نفذلى فى قرية من قري المدينة على مسيرة نصف يوم منها فلم أجد من يشتريه لرخص الاسعار فأعطيته للحاج الذي كان فى صحبتنا ومن عادة هذا السلطان ان يجلس كل يوم بمجلسه بعد صلاة العصر ويؤتى بالطعام فتفتح الابواب ولا يمنع أحد من حضري أو بدوى أو غريب أو مسافر من الاكل ويجلس فى أول النهار جلوسا خاصا ويأتى ابنه فيقبل يديه وينصرف الى مجلس له ويأتى أرباب الدولة فيما كلون عنده رينصرفون ومن عادته فى يوم الجمعة ان يركب الى المسجد وهو بعيد عن داره والمسجد المذكور هو ثلاث طبقات من الخشب فيصلى السلطان وأرباب دولته والقاضى والفقهاء ووجوه الاجناد فى الطبقة السفلى ويصلى الافندى وهو اخو السلطان وأصحابه وخدامه وبعض أهل المدينة فى الطبقة الوسطى ويصلى ابن السلطان ولى عهده وهو أصغر أولاده ويسمى الجواد وأصحابه ومما ليكه وخدامه وسائر الناس فى الطبقة العليا ويجتمع القراء فيقعدون حلقة امام المحراب ويقعد معهم الخطيب والقاضى ويكون السلطان بازاء المحراب ويقرؤن سورة الكهف بأصوات حسان ويكررون الآيات بترتيب عجيب فاذا فرغوا من قراءتها صعد الخطيب المنبر فخطب ثم صلى فاذا فرغوا من الصلاة تنفلوا وقرأ القارى بين يدي السلطان عشرا وانصرف السلطان ومن معه ثم يقرأ القارى بين يدي أخى السلطان فاذا أتم قراءتها انصرف هو ومن معه ثم يقرأ القارى بين يدي ابن السلطان فاذا فرغ من قراءتها قام المعروف وهو المذكور فيمدح السلطان بشعر تركى ويمدح ابنه ويدعوهما وينصرف ويأتى ابن الملك الى دار أبيه بعد ان يقبل يد عمه فى طريقه وعمه واقف فى انتظاره ثم يدخلان الى السلطان فيتقدم أخوه ويقبل يده ويجلس بين يديه ثم يأتى ابنه فيقبل يده وينصرف الى مجلسه فيقعد به مع ناسه فاذا حانت صلاة العصر صلوا جميعا وقبل أخو السلطان يده وانصرف عنه فلا يعود اليه الا فى الجمعة الاخرى وأما الولد فانه يأتى كل يوم غدوة كما ذكرناه

ثم سافرنا من هذه المدينة ونزلنا في زاوية عظيمة باحدى القرى من أحسن زاوية رأيتها في تلك البلاد بناها أمير كبير تاب الى الله تعالى يسمى فخر الدين وجعل النظر فيها لولده والاشراف لمن أقام بالزاوية من الفقراء وفوائد القرية وقف عليها وبنى بازاء الزاوية حماما للسبيل يدخله الوارد والصادر من غير شيء يلزمه وبنى سوقا بالقرية ووقفه على المسجد الجامع وعين من اوقاف هذه الزاوية لكل فقير يرد من الحرمين الشريفين أو من الشام ومصر والعراقين وخراسان وسواها كسوة كاملة ومائة درهم يوم قدومه وثلاثمائة درهم يوم سفره والنفقة أيام مقامه وهي الخبز واللحم والارز المطبوح بالسمن والحلواء ولكل فقير من بلاد الروم عشرة دراهم وضيافة ثلاثة أيام ثم انصرفنا وبقنا ليلة ثانية بزاوية في جبل شامخ لا عمارة فيه عمرها بعض الفتيا الاخيرة ويعرف بنظام الدين من أهل قصط مونية ووقف عليها قرية ينفق خراجها على الوارد والصادر بهذه الزاوية وسافرنا من هذه الزاوية الى مدينة صنوب (وضبط اسمها بفتح الصاد وضم النون وآخره باء) وهي مدينة حافلة جمعت بين التحصين والتحسين يحيط بها البحر من جميع جهاتها الا واحدة وهي جهة الشرق ولها هنالك باب واحد لا يدخل اليها أحد الا باذن أميرها وأميرها ابراهيم بك ابن السلطان سليمان بادشاه الذي ذكرناه ولما استؤذن لنا عليه دخلنا البلد ونزلنا بزاوية عز الدين أخى جلبي وهي خارج باب البحر ومن هناك يصعد الى جبل داخل في البحر كميناسبة فيه البساتين والمزارع والمياه واكثر فواكه التين والعنب وهو جبل مانع لا يستطيع الصعود اليه وفيه احدى عشرة قرية يسكنها كفار الروم تحت ذمة المسلمين وباعلاها رابطة تنسب للخضر والياس عليهما السلام لا تخلو عن متعبد وعندا عين ماء والداء فيها مستجاب وبسفح هذا الجبل قبر الولي الصالح الصحابي بلال الحبشي وعليه زاوية فيها الطعام للوارد والصادر والمسجد الجامع بمدينة صنوب من أحسن المساجد وفي وسطه بركة ماء عليها قبة تعلوها أربع أرجل ومع كل رجل ساريتان من الرخام وفوقها مجلس يصعد له على درج خشب وذلك من عمارة السلطان بروانه ابن السلطان علاء الدين الرومي وكان يصلي الجمعة بأعلى تلك القبة وملاك بعده ابنه غازي جلبي فلما مات تغلب عليها السلطان سليمان المذكور وكان غازي جلبي المذكور شجاعا مقداما ووهبه الله خاصية في الصبر تحت الماء وفي قوة السباحة وكان يسافر في الاجفان الحربية لحرب الروم فاذا كانت الملاقات واشتغل الناس بالقتال غاص تحت الماء ويده آلة حديد يخرق بها أجفان العدو فلا يشعرون بما حل بهم حتى يدهمهم الفرق وطرقت مرسى بلده مرة أجفان

العدو فخرقها واسر من كان فيها وكانت فيه كفاية لا كفاء لها الا انهم يذكرون انه كان
يكثر أكل الحشيش وبسببه مات فانه خرج يوما للتصيد وكان مولعا به فاتبع غزالة
ودخلت له بين أشجار وزاد في ركض فرسه فعارضته شجرة فضربت رأسه فشدخته
فمات وتغلب السلطان سليمان على البلد وجعل به ابنه ابراهيم ويقال انه أيضا ياكل ما كان
ياكله صاحبه على ان اهل بلاد الروم كلها لا ينكرون أكلها ولقد مررت يوما على باب
الجامع بصنوب وبخارجه دكاكين يقعد الناس عليها فرأيت نقر من كبار الاجناد وبين
أيديهم خديم لهم بيده شكار مملوءة بشيء يشبه الحناء واحد منهم باخذ منها بمعلقة وياكل وأنا
أنظر اليه ولا علم لي بما في الشكار فسالته من كان معي فاخبرني انه الحشيش وأضافنا بهذه
المدينة قاضيها ونائب الامير بها ومعلمه ويعرف بابن عبد الرزاق — حكاية —

لما دخلنا هذه المدينة رأنا أهلها ونحن نصلي مسبلي أيدينا وهم حنفية لا يعرفون مذهب
مالك ولا كيفية صلاته والمختار من مذهبه هو اسبال اليدين وكان بعضهم يري الروافض
بالحجاز والعراق يصلون مسبلي أيديهم فاتهمونا بمذهبيهم وسالونا عن ذلك فاخبرناهم اننا
على مذهب مالك فلم يقرنوا بذلك منا واستقرت التهمة في نفوسهم حتي بعث اليها نائب
السلطان بارنب وأوصى بعض خدامه ان يلزمنا حتى يرى ما نفعل به فذبحناه وطبخناه
واكلناه وانصرف الخديم اليه واعلمه بذلك فحينئذ زالت عنا التهمة وبعثوا الينا بالضيافة
والروافض لا ياكلون الارنب وبعد أربعة أيام من وصولنا الى صنوب توفيت أم الامير
ابراهيم بها فخرجت في جنازتها وخرج ابنها على قدميه كاشفا شعره وكذلك الامراء والمماليك
وثيا بهم مقلوقة وأما القاضي والخطيب والفقهاء فانهم قلبوا ثيابهم ولم يكشفوا رؤسهم بل جعلوا
عليها مناديل من الصوف الاسود عوضا عن العمام وأقاموا يطعمون الطعام أربعين يوما وهي
مدة العزاء عندهم وكانت اقامتنا بهذه المدينة نحو أربعين يوما تنتظر تيسير السفر في البحر
الى مدينة القرم فاكترينا مركبا للروم وأقمنا أحد عشر يوما تنتظر مساعدة الريح ثم ركبنا
البحر فلما توسطناه بعد ثلاث ايام علينا واشتد بنا الامر ورأينا الهلاك عيانا وكنت بالطارمة
ومعي رجل من أهل المغرب يسمى أبا بكر قامرته أن يصعد الى أعلى المركب لينظر كيف
البحر ففعل ذلك وأنا في الطارمة فقال لي استودعكم الله ودهمنا من الهول ما لم يعهد مثله
ثم تغيرت الريح ورددتنا الى مقربة من مدينة صنوب التي خرجنا منها وأراد بعض التجار
النزول الى مرساها فمنعت صاحب المركب من انزاله ثم استقامت الريح وسافرنا فلما توسطنا
البحر هال علينا وجرى لنا مثل المرة الاولى ثم ساعدت الريح ورأينا جبال البروق قصدنا مرسى

يسمى الكرش فارد نادخوله فاشار الينا أناس كانوا بالجبل ان لا تدخلوا فخنقنا على أنفسنا وظننا ان هنالك أجفا نالعدو فرجعنا مع البره لما قربناه قلت لصاحب المركب أريد ان انزل هاهنا فانزلى بالساحل ورأيت كنيسة فقصدتها فوجدت بهاراهيا ورأيت في أحد حيطان الكنيسة صورة رجل عربي عليه عمامة متقلد سيفاً ويده رمح وبين يديه سراج يوقد فقلت للراهب ما هذه الصورة فقال هذه صورة النبي على فاعجبت من قوله وبتنا تلك الليلة بالكنيسة وطبخنا دجاجاً فلم نستطع أكلها اد كانت عما استصحبناه في المركب ورائحة البحر قد غلبت على كل ما كان فيه وهذا الموضع الذى نزلنا به هو من الصحراء المعروفة بدشت قفجق (والدشت بالشين المعجم والتاء المثناة) بلسان الترك هو الصحراء وهذه الصحراء خضرة فخر لا شجر بها ولا جبل ولا تل ولا أبنية ولا حطب وانما يوقدون الارواث ويسمونهم الترك (بالزاي المفتوح) فترى كبراءهم يلقطونها ويجعلونها في أطراف ثيابهم ولا يسافر في هذه الصحراء الا في العجل وهي مسيرة ستة أشهر ثلاثة منها في بلاد السلطان محمد أوزبك وثلاثة في بلاد غيره ولما كان الغد من يوم وصولنا الى هذه المرسى توجه بعض التجار من أصحابنا الى من بهذه الصحراء من الطائفة المعروفة بقفجق وهم على دين النصرانية فاكثري منهم عجلة يجرها الفرس فركبناها ووصلنا الى مدينة الكفا (واسمها بكاف وفاء مفتوحتين) وهي مدينة عظيمة مستطيلة على ضفة البحر يسكنها النصارى وأكثرتهم الجنويون ولهم أمير يعرف بالندير ونزلنا منها بمسجد المسلمين — حكاية — ولما نزلنا بهذا المسجد أقمنا به ساعة ثم سمعنا أصوات النواقيس من كل ناحية ولم أكن سمعها قط فها لى ذلك وأمرت أصحابي أن يصعدوا الصومعة ويقرأوا القرآن ويذكروا الله ويؤذنوا ففعلوا ذلك فاذا برجل قد دخل علينا وعليه الدرع والسلاح فسلم علينا واستفهمناه عن شأنه فاخبرنا انه قاضى المسلمين هنالك وقال لما سمعت القراءة والاذان خفت عليكم فجئت كما ترون ثم انصرف عنا ومارأينا الا خيراً ولما كان من الغد جاء الينا الامير وصنع طعاماً فاكلنا عنده وطفنا بالمدينة فرأيناها حسنة الاسواق وكلهم كفار ونزلنا الى مرساها فرأينا مرسى عجيباً به نحو مائتي مركب ما بين حربى وسفري صغيرا وكبيراً وهو من مراسى الدنيا الشهيرة ثم اكثرينا عجلة وسافرنا الى مدينة القرم وهي (بكسر الهمزة وفتح الراء) مدينة كبيرة حسنة من بلاد السلطان المعظم محمد أوزبك خان وعليها أمير من قبله اسمه تليكتمور وضبط اسمه (بقاء مثناة مضمومة ولا م مضموم وكاف مسكن وتاء كالاولى مضمومة وميم مضمومة وواو وراء) وكان أحد خدام هذا الامير قد صحبتنا في

طريقنا فعرفه بقدمونا فبعث الى مع امامه سعد الدين بفرس ونزلنا بزاوية شيخها زاده الخراساني فاكرمنا هذا الشيخ ورحب بنا وأحسن إلينا وهو معظم عندهم ورأيت الناس ياتون للسلام عليه من قاض وخطيب وفتية وسوام وأخبرني هذا الشيخ زاده ان بخارج هذه المدينة راهبا من النصاري في دير يتعبد به ويكثر الصوم وانه انتهى الى ان يواصل أربعين يوما ثم يفطر على حبة فول وانه يكشف بالامور ورغب مني ان أصحبه في التوجه اليه فإيت ثم ندمت بعد ذلك على ان لم أكن رأيته وعرفت حقيقة أمره ولقيت به هذه المدينة قاضيها الاعظم شمس الدين السائي قاضي الحنفية ولقيت به قاضي الشافعية وهو يسمى بخضر والفتية المدرس علاء الدين الاضي وخطيب الشافعية أبابكر وهو الذي يخطب بالمسجد الجامع الذي عمره الملك الناصر رحمه الله بهذه المدينة والشيخ الحكيم الصالح مظفر الدين وكان من الروم فاسلم وحسن اسلامه والشيخ الصالح العابد مظفر الدين وهو من الفقهاء المعظمين وكان الامير تملكتمور مر بضا قد خلنا عليه فاكرمنا وأحسن إلينا وكان على التوجه الى مدينة السرا حضرة السلطان محمد أوزبك فعملت في السير في صحبته واشتريت العجلات برسم ذلك

— ذكر العجلات التي يسافر عليها بهذه البلاد —

وهم يسمون العجلة عربية (بعين مهملة وراء وباء موحدة مفتوحات) وهي عجلات تكون للواحدة منهن أربع بكرات كبار ومنها ما يجره فرسان ومنها ما يجره أكثر من ذلك وتجرها أيضا البقر والجمال على حال العربية في ثقلها أو خفتها والذي يخدم العربية يركب احدى الافراس التي تجرها ويكون عليه سرج وفي يده سوط يحركها للمشي وعود كبير يصوبها به اذا عاجت عن الفصد ويجعل على العربية شبه قبة من قضبان خشب مربوط بعضها الى بعض بسور جلد رقيق وهي خفيفة الحمل وتكسى باللبد أو بالملف ويكون فيها طيقان مشبكة وبري الذي بداخلها الناس ولا يرونه و يتقلب فيها كما يحب وينام وياكل ويقرأ ويكتب وهو في حال سيره والتي تحمل الاثقال والازواد وخزائن الاطعمة من هذه العربات يكون عليها شبه البيت كما ذكرنا وعليها قفل وجهاز لما أردت السفر عربية لركوبي مغشاة باللبد ومعها جارية لي وعربة صغيرة لرفيقي عفيف الدين التوزري وعجلة كبيرة لسائر الاصحاب يجرها ثلاثة من الجمال يركب أحدهما خادم العربية وسرنا في صحبة الامير تملكتمور وأخيه عيسى وولديه قطلود مور وصارر بك وسافر أيضا معه في هذه الوجهة امامه سعد الدين والخطيب أبو بكر والقاضي شمس الدين

والفقيه شرف الدين موسى والمعرف علاء الدين وخطة هذا المعرف أن يكون بين يدي
الأمير في مجلسه فإذا أتى القاضي يقف له هذا المعرف ويقول بصوت عال بسم الله سيدنا
ومولانا قاضي القضاة والحكام مبين الفتاوى والأحكام بسم الله وإذا أتى فقيه معظم أو
رجل مشار إليه قال بسم الله سيدنا فلان الدين بسم الله فيتها من كان حاضر الدخول
إلى داخل ويقوم إليه ويفسح له في المجلس وعادة الأتراك أن يسيروا في هذه الصحراء
سير أكسير الحجاج في درب الحجاز يرحلون بعد صلاة الصبح وينزلون ضحى ويرحلون
بعد الظهر وينزلون عشيا وإذا نزلوا حلوا الخيل والأبل والبقر عن العربات وسرحوها
للرعى ليلا ونهارا ولا يعلم أحد دابة لا السلطان ولا غيره وخاصة هذه الصحراء أن
خباتها يقوم مقام الشعير للدواب وإيست لغيرها من البلاد هذه الخاصية ولذلك كثرت
الدواب بها ودواهم لارعاها ولا حراس وذلك لشدة أحكامهم في السرقة وحكمهم فيها
لأنه من وجد عنده فرس مسروق كلف أن يرده إلى صاحبه ويعطيه معه تسعة مثله فإن
لم يقدر على ذلك أخذ أولاده في ذلك فإن لم يكن له أولاد ذبح كما تذبح الشاة وهؤلاء الأتراك
لا يأكلون الخبز ولا الطعام الغليظ وإنما يصنعون طعاما من شيء عندهم شبه الآلى يسمونه
الدوقى (بدال مهمل مضموم وواو واقف مكسور معقود) يجعلون على النار الماء فإذا
غلى صبوا عليه شيئا من الدوقى وإن كان عندهم لحم قطعوه قطعا صغيرا وطبخوه معه
ثم يجعل لكل رجل نصيبه في صحفة ويصبون عليه اللبن الرائب ويشربونه ويشربون
عليه لبن الخيل وهم يسمونه القمز (بكسر القاف والميم والزاي المشددة) وهم أهل قوة
وشدة وحسن مزاج ويستعملون في بعض الاوقات طعاما يسمونه البورخاني وهو عجين
يقطعونه قطيعات صغيرة أو يثقبون أو ساطها ويجعلونها في قدر فإذا طبخت صبوا عليها اللبن
الرائب وشربوها ولهم نبيذ يصنعونه من حب الدوقى الذى تقدم ذكره وهم يرون أكل
الحلواء عيبا ولقد حضرت يوما عند السلطان أوزبك في رمضان فاحضرت لحوم الخيل
وهي أكثر ما يأكلون من اللحم ولحوم الأغنام والرشا وهو شبه الأظربة يطبخ ويشرب باللبن
وأنيته تلك الليلة بطبق حلواء صنعها بعض أصحابي فقدمتها بين يديه فجعل أصبعه عليها
وجعله على فيه ولم يزد على ذلك وأخبرني الأمير تلمكتمور أن أحد الكبار من ممالك هذا
السلطان وله من أولاده وأولاد أولاده نحو أربعين ولدا قال له السلطان يوما كل الحلواء
وأعتقدكم جميعا فإني وقال لوقتلتني ما أكلتها ولما خرجنا من مدينة القرم نزلنا بزاوية
الأمير تلمكتمور في موضع يعرف بسجان فبعث إلى أن أحضر عنده فركبت إليه وكان

لى فرس معدلر كوفي يقوده خديم العربية فاذا أردت ركوبه ركبه وأتيت الزاوية فوجدت
الامير قد صنع بها طعاما كثيرا فيه الخبز ثم أتوا بماء أبيض في صحاف صغار فشرب القوم
منه وكان الشيخ مظفر الدين يلى الامير فى مجلسه وأنا اليه فقلت له ما هذا فقال هذا ماء
الدهن فلم أفهم ما قال فذقته فوجدت له حوضه فتركته فلما خرجت سالت عنه فقالوا
هو نبيذ يصنعونه من حب الدوقى وهم حنفية المذهب والنبيذ عندهم حلال ويسمون هذا
النبيذ المصنوع من الدوقى البوزه (بضم الباء الموحدة وواو مدوزاى مفتوح) وانما قال
لى الشيخ مظفر الدين ماء الدخن واسانه فيه اللكنة الاعجمية وظننت انه يقول
ماء الدهن وبعد مسيرة ثمانية عشر منزلا من مدينة القرم وصلنا الى ماء كثير نخوضه
يوما كاملا واذا كثر خوض الدواب والعربات فى هذا الماء اشتد وحله وزاد صعوبة فذهب
الامير الى راحلتي وقدمنى أمامه مع بعض خدامه وكتب لى كتابا الى أمير أزاق بعلمه
أنى أريد القدوم على الملك ويحضه على اكرامى وسرنا حتى انتهينا الى ماء آخر نخوضه
نصف يوم ثم سرنا بعده ثلاثا ووصلنا الى مدينة أزاق (وضبط اسمها بفتح الهمزة والزاي
وآخره قاف) وهي على ساحل البحر حسنة العماره يقصدها الجنويون وغيرهم بالتجارات
وبها من الفتيان أخي بحقجى وهو من العظماء يطعم الوارد والصادر ولما وصل كتاب
القاضى تلمكتمورا الى أمير أزاق وهو محمد خواجه الخوارزمي خرج الى استقبالى ومعه
القاضى والطلبة وأخرج الطعام فلما سلمنا عليه نزلنا بموضع أكلنا فيه ووصلنا الى المدينة
ونزلنا بخارجها بمقربة من رابطة هنالك تنسب للخضر والياس عليهما السلام وخرج شيخ
من أهل أزاق يسمى برب النهر ملكى نسبة الى قرية بأعراق فاضافنا بزاوية له ضيافة
حسنة وبعد يومين من قدومنا قدم الامير تلمكتمور وخرج الامير مجد للقاءه ومعه
الامير والطلبة وأعدوا له الضيافة وضر بواثلاث قباب متصلا بعضها ببعض احداها من
الحرير الملون عجيبة والثنتان من الكتان وأداروا عليهما اسراجا وهى المسماة عندنا أفراج
وخارجها الدهليز وهو على هيئة البرج عندنا ولما نزل الامير بسطت بين يديه شقائق الحرير
يمشى عليها فكان من مكارمه وفضله أن قدمنى أمامه ليرى ذلك الامير منزلاتى عنده ثم
وصلنا الى الخباء الاولى وهى المعدة للجلسة وفى صدرها كرسي من الخشب للجلسة كبير
مرصع وعليه مرتبة حسنة فقدمنى الامير أمامه وقدم الشيخ مظفر الدين وصعدا هوى
فجلس فيما بيننا ونحن جميعا على المرتبة وجلس قاضيه وخطيبه وقاضى هذه المدينة وطلبتها
عن يسار الكرسي على فرش فاخرة ووقف ولدا الامير تلمكتمور وأخوه والامير مجد

وأولاده في الخدمة ثم أتوا بالطعمة من لحوم الخيل وسواها وأتوا بالبان الخيل ثم أتوا بالبورز وبعد الفراغ من الطعام قرأ القراء بالأصوات الحسان ثم نصب منبر وصعد الواعظ وجلس القراء بين يديه وخطب خطبة بليغة ودعا للسلطان وللأمير وللحاضرين يقول ذلك بالعربي ثم يفسره لهم بالتركي وفي أثناء ذلك يكرر القراء آيات من القرآن بترجيع عجيب ثم أخذوا في الغناء يغنون بالعربي ويسمونه القول ثم بالفارسي والتركي ويسمونه الملمع ثم أتوا بطعام آخر ولم يزالوا على ذلك إلى العشي وكلما أردت الخروج منعني الأمير ثم جاءوا بكسوة للامير وكساوى لولديه وأخيه وللشيخ مظفر الدين ولي وأتوا بعشرة أفراس للامير ولأخيه ولولديه بستة أفراس ولكل كبير من أصحابه بفرس ولى بفرس والخيل بهذه البلاد كثيرة جدا ومنها نزر قيمة الجيد منها خمسون درهما أوستون من دراهمهم وذلك صرف دينار من دنانيرنا أو نحوه وهذه الخيل هي التي تعرف بمصر بالا كاديش ومنها معاشهم وهي ببلادهم كالغنم ببلا دنا بل أكثر فيكون للتركي منهم آلاف منها ومن عادة الترك المستوطنين تلك البلاد أصحاب الخيل انهم يضعون في العربات التي تركب فيها نساؤهم قطعة لبد في طول الشبر مربوطة إلى عود رقيق في طول الذراع في ركن العربة ويجعل لكل ألف فرس قطعة ورأيت منهم من يكون له عشر قطع ومن له دون ذلك وتحمل هذه الخيل إلى بلاد الهند فيكون في الرفقة منها ستة آلاف وما فوقها وما دونها لكل تاجر المائة والمائتان فادون ذلك وما فوقه ويستأجر التاجر لكل خمسين منها راعيا يقوم عليها ويرعاها كالغنم ويسمي عندهم القشي ويركب أحدها ويده عصا طويلة فيها حبل فاذا أراد أن يقبض على فرس منها حاذاه بالفرس الذي هو راكبه ورمي الحبل في عنقه وجذبه فيركبه ويترك الآخر للراعي وإذا وصلوا بها إلى أرض السند أطعموها العلف لأن نبات أرض السند لا يقوم مقام الشعير ويموت لهم منها الكثير ويسرق ويغرمون عليها بارض السند سبعة دنانير فضة على الفرس بموضع يقال له ششنقار ويغرمون عليها بملتان قاعدة بلاد السند وكانوا فيما تقدم يغرمون ربع ما يجلبونه فرفع ملك الهند إلى السلطان محمد ذلك وأمر أن يؤخذ من تجار المسلمين الزكاة ومن تجار الكفار العشر ومع ذلك يبقی للتجار فيها فضل كبير لانهم يبيعون الرخيص منها ببلا د الهند بمائة دينار دراهم وصرفها من الذهب المغربي خمسة وعشرون ديناراً وربما باعوها بضعف ذلك وضعفه وضعفه وألجيا د منها تساوى خمسمائة ديناراً أكثر من ذلك وأهل الهند لا يبتاعونها للجري والسبق لانهم يلبسون في الحرب الدروع ويدرعون الخيل وانما يبتغون قوة الخيل واتساع خطاها والخيل التي يبتغونها للسبق تجلب اليهم من

البحرين و عمان و فارس و يبايع الفرس منها بألف دينار الى أر بعة آلاف ولما سافر الامير
تلكتمور عن هذه المدينة أقمت بعده ثلاثة أيام حتي جهز لي الامير محمد خواجه آلات
سفري و سافرت الى مدينة الماجر وهي (بفتح الميم و ألف و جيم مفتوح معقود و راء)
مدينة كبيرة من أحسن مدن الترك علي نهر كبير وبها البساتين و انعموا كه الكثرة نزلنا
منها بزاوية الشيخ الصالح العابد المعمر محمد البطائحي من بطائح العراق وكان خليفة الشيخ
أحمد الرفاعي رضي الله عنه وفي زاوية نحو سبعين من فقراء العرب و الفرس و الترك
و الروم منهم المتزوج و العزب و عيشهم من الفتوح و لاهل تلك البلاد اعتقاد حسن في الفقراء
وفي كل ليلة أتون الى الزاوية بالخليل و البقر و الغنم و يأتي السلطان و الخواتين لزيارة
الشيخ و التبرك به و يجزلون الاحسان و يعطون العطاء الكثير و خصوصاً النساء فانهم يكثرون
الصدقة و يتحررون أفعال الخير و صلينا بمدينة الماجر صلاة الجمعة فلما قضيت الصلاة صعد
الواعظ عز الدين المنبر و هو من فقهاء بخارى و فضلائها وله جماعة من الطلبة و القراء
يقرؤون بين يديه و وعظ و ذكر و أمير المدينة حاضر و كبارؤها فقام الشيخ محمد البطائحي
فقال ان الفقيه الواعظ يريد السفر و نريد له زوادة ثم خلع فرجية مرعز كانت عليه
و قال هذه مني اليه فكان الحاضرون بين من خلع ثوبه و من اعطى فرسا و من أعطي
دراهم و اجتمع له كثير من ذلك كله و رأيت بقبسارية هذه المدينة يهوديا سلم علي و كلمني
بالعربي فسأله عن بلاده فذكر انه من بلاد الاندلس و انه قدم منها في البر و لم يسلك بحرا
و أتى علي طريق القسطنطينية العظمي و بلاد الروم و بلاد الجرجس و ذكر ان عهده بالاندلس
منذ أر بعة أشهر و أخبرني التجار المسافرين الذين لهم المعرفة بذلك بصحة مقاله و رأيت
بهذه البلاد عجباً من تعظيم النساء عندهم و هن أعلى شأناً من الرجال فأما نساء الامراء
فكانت أول رؤيتي لهن عند خروجي من القرم رؤية الخاتون زوجة الامير سلطية في
عربة لها و كلها مجللة بالملف الازرق الطيب و طيقان البيت مفتوحة و أبوابه و بين يديها
أربع جوار فائتات الحسن بديعات اللباس و خلفها جملة من العربات فيها جوار يتبعنها
ولما قربت من منزل الامير نزلت عن العربة الى الارض و نزل معها نحو ثلاثين من الجواري
يرفعن أذيالها و لا ثوابها عرى تأخذ كل جارية بعروة و يرفعن الأذيال عن الارض من كل
جانب و مشيت كذلك متبخرة فلما وصلت الى الامير قام اليها و سلم عليها و اجلسها الى
جانبه و دار بها جوار بها و جاءوا برؤيا القمز فصبت منه في قدح و جلست علي ركبتها قدام
الامير و ناوته القدح فشرب ثم سقت أخاه و سقاها الامير و حضر الطعام فأكلت معه

وأعطاه كسوة وانصرفت وعلى هذا الترتيب نساء الامراء وسند كرساء الملك فيما بعد
وأما نساء الباعة والسوقة قرأيتهن واحداهن تكون في العربة والخيول تجرها وبين يديها
الثلاث والاربع من الجوارى يرفعن أذيالها وعلى رأسها البغطاق وهو أقروف مرصع
بالجوهر وفي أعلاه ريش الطواويس وتكون طيقان البيت مفتحة وهي بادية الوجه لان
نساء الاتراك لا يحتجبن وتأتي احداهن على هذا الترتيب ومعها عبيدها بالغنم واللبن فتبيعه
من الناس بالاسلع العطرية وربما كان مع المرأة منهن زوجها فيظنه من يراه بعض خدامها
ولا يكون عليه من الثياب الافروة من جلد الغنم وفي رأسه قلنسوة تناسب ذلك يسمونها
الكلاوت تجهزنا من مدينة الماجر نقصد معسكر السلطان وكان على أربعة أيام من الماجر
بموضع يقال له بش دغ ومعني بش عندهم خمسة وهو (بكسر الباء وشين معجم) ومعني
دغ الجبل وهو (بفتح الدال الميمل وغين معجم) وبهذه الجبال الخمسة عين ماء حار
يغتسل منها الاتراك ويزعمون انه من اغتسل منها لم تصبه عاهة مرض وارتحلنا الى موضع
الحلة فوصلناه أول يوم من رمضان فوجدنا الحلة قد رحلت فعدنا الى الموضع الذي
رحلنا منه لان الحلة تنزل بالقرب منه فضربت بيتي على تل هنالك وركزت العلم أمام
البيت وجعلت الخيل والعربات وراء ذلك وأقبلت الحلة وهم يسمونها الأردو بضم الهمزة
فرأينا مدينة عظيمة تسير بأهلها فيها المساجد والاسواق ودخان المطبخ صاعد في الهواء
وهم يطبخون في حال رحيلهم والعربات تجرها الخيل بهم فاذا بلغوا المنزل نزلوا البيوت
عن العربات وجعلوها على الارض وهي خفيفة الحمل وكذلك يصنعون بالمساجد
والخوانيت واجتاز بنا خواتين السلطان كل واحدة بنا سها على حدة ولما اجتازت الرابعة
منهن وهي بنت الامير عيسى بك وسند كرها رأت البيت بأعلى التل والعلم امامه وهو
علامة الوارد فبعثت الفتيان والجوارى فسلموا على وبلغوا سلامها الى وهي واقفة تنتظرهم
فبعثت اليها هدية مع بعض أصحابي ومع معرف الامير تلمكتهم ورفق بملتها تبركا وأمرت ان أنزل
في جوارها وانصرفت وأقبل السلطان فنزل في محلته على حدة

— ذكر السلطان المعظم محمد أوز بك خان —

واسمه محمد أوز بك (بضم الهمز وواو وزاي مسكن و باء موحدة مفتوحة) ومعني خان
عندهم السلطان وهذا السلطان عظيم المملكة شديد القوة كبير الشأن رفيع المكان قاهر
لاعداء الله اهل قسطنطينية العظمى مجتهد في جهادهم و بلادهم متسعة ومدنه عظيمة
منها التكفار والقرم والماجر وازاق وسرداق (سوداق) وخوارزم وحضرته السراوهو

أحد الملوك السبعة الذين هم كبراء الدنيا وعظماءها وهم مولانا أمير المؤمنين ظل الله في أرضه امام الطائفة المنصورة الذين لا يزالون ظاهرين على الحق الى قيام الساعة أيد الله أمره وأعز نصره وسلطان مصر والشام وسلطان العراق والسلطان اوزبك هذا وسلطان بلاد تركستان وماوراء النهر وسلطان الهند وسلطان الصين ويكون هذا السلطان اذا سافر في محلة على حدة معه مما يليكه وأرباب دولته وتكون كل خاتون من خواتينه على حدة في محلتها فاذا أراد أن يكون عند واحد منهن بعث اليها يعلمها بذلك فتتهيأ له وله في قعوده وسفره وأموره ترتيب عجيب بديع ومن عادته أن يجلس يوم الجمعة بعد الصلاة في قبة تسمى قبة الذهب مزينة بديعة وهي من قضبان خشب مكسوة بصفائح الذهب وفي وسطها سرير من خشب مكسوة بصفائح الفضة المذهبة وقوائمه فضة خالصة ورؤسها مرصعة بالجواهر ويقعد السلطان على السرير وعلى يمينه الخاتون طيطغلي وتليها الخاتون كبك وعلى يساره الخاتون بيلون وتليها الخاتون اردجي ويقف أسفل السرير على اليمين ولد السلطان تين بك وعن الشمال ولده الثاني جان بك وتجلس بين يديه ابنته إيت كيجيك واذا أتت احداهن قام لها السلطان وأخذ بيدها حتى تصعد على السرير وأما طيطغلي وهي الملكة واحظا هن عنده فانه يستقبلها الى باب القبة فيسلم عليها وياخذ بيدها فاذا صعدت على السرير وجلست حينئذ يجلس السلطان وهذا كله على أعين الناس دون احتجاب ويأتي بعد ذلك كبار الامراء فتنصب لهم كراسيهم عن اليمين والشمال وكل انسان منهم اذا أتى مجلس السلطان يأتي معه غلام بكرسيه ويقف بين يدي السلطان أبناء الملوك من بني عمه واخوته وأقاربه ويقف في مقابلةهم عند باب القبة أولاد الامراء الكبار ويقف خلفهم وجوه العساكر عن يمين وشمال ثم يدخل الناس للسلام بالامثال فالامثال ثلاثة ثلاثه فيسلمون وينصرفون فيجلسون على بعد فاذا كان بعد صلاة العصر انصرفت الملكة من الخواتين ثم ينصرف سائرهن ويتبعن الى محلتها فاذا دخلت اليها انصرفت كل واحدة الى محلتها راكبة عربتها ومع كل واحدة نحو خمسين جارية راكبات على الخيل وامام العربات نحو عشرين من قواعد النساء راكبات على الخيل فيما بين الفتيان والعربة وخلف الجميع نحو مائة مملوك من الصبيان وامام الفتيان نحو مائة من المماليك الكبار ركباناً ومثلهم مشاة بأيديهم القضبان والسيوف مشدودة على اوساطهم وهم بين الفرسان والفتيان وهكذا ترتيب كل خاتون منهن في انصرافها ومجيئها وكان نزولي من المحلة في جوار ولد السلطان جان بك الذي يقع ذكره فيما بعد وفي الغد من يوم وصولي دخلت الى السلطان بعد صلاة العصر وقد جمع المشايخ والقضاة

والفقهاء والشرقاء والمقراء وقد صنع طعاما كثيرا وأفطرننا بمحضرة وتكلم السيد الشريف نقيب الشرفاء ابن عبد الحميد والقاضي حمزة في شأني بالخير وأشاروا على السلطان بكرامتي وهؤلاء الاتراك لا يعرفون انزال الوارد ولا اجراء النفقة وانما يبعثون له الغنم والخيول للذبح وروايا القمزم وتلك كرامتهم وبعد هذا بايام صليت صلاة العصر مع السلطان فلما أردت الا انصراف أمرني بالعودة وجاءوا بالطعام من المشروبات كما يصنع من الدوقى تم باللحوم المصلوقة من الغنم والخيول وفي تلك الليلة أتيت السلطان بطبق حلواء فجعل أصبعه عليه وجعله على فيه ولم يزد على ذلك

— ذكر الخواتين وترتيبهن —

وكل خاتون منهن تركب في عربة وللبيت الذي تكون فيه قبة من الفضة المموهة بالذهب أو من الخشب المرصع وتكون الخيل التي تجر عربتها بحللة باثواب الحرير المذهب وخديم العربة الذي يركب أحد الخيل فتى يدعى القشى والخاتون قاعدة في عربتها وعن يمينها امرأة من القواعد تسمى أولو خاتون (بضم الهمزة واللام) ومعني ذلك الوزيرة وعن شمالها امرأة من القواعد أيضا تسمى كجك خاتون (بضم الكاف والجيم) ومعني ذلك الحاجبة وبين يديها ست من الجوارى الصغار يقال لهن البنات فائقات الجمال متناهيات الكمال ومن ورائها اثنتان منهن تستند اليهن وعلى رأس الخاتون البغطاق وهو مثل التاج الصغير مكلل بالجواهر وأعلامها ريش الطواويس وعليها ثياب حرير مرصعة بالجواهر شبه المنوت (الملوطة) التي يلبسها الروم وعلى رأس الوزيرة والحاجبة مقنعة حرير مزركشة الحواشي بالذهب والجواهر وعلى رأس كل واحدة من البنات الكلا وهو شبه الاقروف وفي أعلاها دائرة ذهب مرصعة بالجواهر وريش الطواويس من فوقها وعلى كل واحدة ثوب حرير مذهب يسمى الدخ ويكون بين يدي الخاتون عشرة او خمسة عشر من الفتيان الروميين والهنديين وقد لبسوا ثياب الحرير المذهب المرصعة بالجواهر ويسد كل واحد منهم عمود ذهب أو فضة أو يكون من عود ملبس بهما وخلف عربة الخاتون نحو مائة عربة في كل عربة الثلاث والاربع من الجوارى الكبار والصغار ثيابهن الحرير وعلى رؤسهن الكلا وخلف هذه العربات نحو ثلاثمائة عربة تجرها الجمال والبقر تحمل خزائن الخاتون وأموالها وثيابها وأثاثها وطعامها ومع كل عربة غلام موكل بها متزوج بجارية من الجوارى التي ذكرنا فان العادة عندهم انه لا يدخل بين الجوارى من الغلمان الا من كان له بينهن زوجة وكل خاتون فهي على هذا الترتيب ولندكرهن على الانفراد

— ذكر الخاتون الكبرى —

والخاتون الكبرى هي الملكة أولدي السلطان جان بك وتين بك وسند كرها وليست أم ابنته إيت كججك وأما كانت الملكة قبل هذه واسم هذه الخاتون طيطغلي (بفتح الطاء المهملة الاولى واسكان الياء آخر الحروف وضم الطاء الثانية واسكان الفين المعجمة وكسر اللام وياء مد) وهي أحظى نساء هذا السلطان عنده وعندما يبیت أكثر لياليه ويعظمها الناس بسبب تعظيمه لها والافهى أنجل الخوانين وحدثني من أعتدته من العارفين باخبار هذه الملكة ان السلطان يحبها للخاصية التي فيها وهي انه يجدها كل ليلة كأنها بكر وذكرك لي غيره انها من سلالة المرأة التي يذكرك ان الملك زال عن سليمان عليه السلام بسببها ولما عاد اليه ملكه أمر ان توضع بصحراء لا عمارة فيها فوضعت بصحراء قفجق وان رحم هذه الخاتون شبه الحلقة خلقة وكذلك كل من هو من نسل المرأة المذكورة ولم أر بصحراء قفجق ولا غيرهما من أخباره رأى امرأة على هذه الصورة ولا سمع بها الا هذه الخاتون اللهم الا ان بعض أهل الصين أخبرني ان بالصين صنفا من نساءها على هذه الصورة ولم يقع بيدي ذلك ولا عرفت له حقيقة وفي غد اجتماعي بالسلطان دخلت الى هذه الخاتون وهي قاعدة فيما بين عشر من النساء القواعد كانهن خديمات لها وبين يديها نحو خمسين جارية صفرا يسمون البنات وبين أيديهن طيافير الذهب والفضة مملوءة بحب الملوك وهن ينقينه وبين يدي الخاتون صينية ذهب مملوءة منه وهي تنقيه فسلمنا عليها وكان في جملة أصحابي قارئ يقرأ القرآن على طريقة المصريين بطريقة حسنة وصوت طيب فقرأتم أمرت ان يؤتى بالقمر قاتي به في أقداح خشب لطاف خفاف فاخذت القدح بيدها وناولتني اياه وتلك نهاية الكرامة عندهم ولم أكن شربت القمر قبلها ولكن لم يمكنني الا قبوله وذقته ولا خير فيه ودفعته لاحد أصحابي وسالتني عن كثير من حال سفرنا فاجبتناها ثم انصرفنا عنها وكان ابتداءنا بها لاجل عظمتها عند الملك

— ذكر الخاتون الثانية التي تلى الملكة —

واسمها كبك خاتون (بفتح الكاف الاولى وكسر الباء الموحدة) ومعناه بالتركية النخالة وهي بنت الامير نغطي (واسمه بنون وغين معجمة وطاء مهملة مفتوحات وياء مسكنة) وأبوها حي مبتلى بعلة النقرس وقد رأيت وفي غد دخولنا على الملكة دخلنا على هذه الخاتون فوجدناها على مرتبة تقرأ في المصحف الكريم وبين يديها نحو عشر من النساء القواعد ونحو عشرين من البنات يطرزن ثيابا فاسلما عليها وأحسننت في السلام والكلام وقرأ قارئنا

فاستحسنته وأمرت بالقمز فاحضرونا ولتني القدح بيدها كمثل ما فعلته الملكة وانصرفنا عنها
— ذكر الخاتون الثالثة —

واسمها بيلون (ببء موحدة وباء آخر الحروف كلاهما مفتوح ولا مضموم وواو مدونون) وهي بنت ملك القسطنطينية العظمى السلطان تكفور ودخلنا على هذه الخاتون وهي قاعدة على سرير مرصع قوائمه فضة وبين يديها نحو مائة جارية روميات وتركيات ونوبيات منهن قائمات وقاعدات والفتيان على رأسها والحجاب بين يديها من رجال الروم فسالت عن حالنا ومقدمنا وبعد أوطاننا وبكت ومسحت وجهها بمنديل كان بين يديها رقة منها وشفقة وأمرت بالطعام فاحضروا كلنا بين يديها وهي تنظر إلينا ولما أردنا الانصراف قالت لا تنقطعوا عنا وترددوا إلينا واطالبونا بحوائجكم وأظهرت مكارم الاخلاق وبعثت في أثرنا بطعام وخبز كثير وسمن وشم ودرهم وكسوة جيدة وثلاثة من جياذ الخيل وعشرة من سائرها ومع هذه الخاتون كان سفرى الى القسطنطينية العظمى كما نذكره بعد

— ذكر الخاتون الرابعة —

واسمها أردوجا (بضم الهمزة واسكان الراء وضم الدال المهمل وجيم وألف) وأردو بلسانهم المحلة وسميت بذلك لولادتها في المحلة وهي بنت الامير الكبير عيسى بك أمير الالوس (بضم الهمز واللام) ومعناه أمير الامراء وأدركته حيا وهو متزوج ببنت السلطان إيت كججك وهذه الخاتون من أفضل الخواتين وألطفهن شمائل وأشفقهن وهي التي بعثت الى لما رأت بيتى على النل عند جواز المحلة كما قدمناه دخلنا عليها فرأينا من حسن خلقها وكرم نفسها مالا مزيد عليه وأمرت بالطعام فكلنا بين يديها ودعت بالقمز فشرب أصحابنا وسالت عن حالنا فاجبتناها ودخلنا أيضا الى أختها زوجة الامير على بن أرزق

— ذكر بنت السلطان المعظم أوزبك —

واسمها إيت كججك وإيت (بكسر الهمزة وباء مدوتاء مثناة وكججك بضم الكاف وضم الجيمين ومعنى اسمها الكلب الصغير فان إيت هو الكلب وكججك هو الصغير وقد قدمنا ان الترك يسمون بالقال كما تفعل العرب وتوجهنا الى هذه الخاتون بنت الملك وهي في محلة منفردة على نحو ستة أميال من محلة والدها فامرت باحضار الفقهاء والقضاة والسيد الشريف ابن عبد الحميد وجماعة الطلبة والمشايخ والفقهاء وحضر زوجها الامير عيسى الذي بنته زوجة السلطان فقعد معها على فراش واحد وهو معتل بالنقرس فلا يستطيع التصرف على قدميه ولا ركوب الفرس وانما يركب العربية واذا اراد الدخول على السلطان انزله خدامه وادخلوه

الى المجلس محمولا وعلي هذه الصورة رأيت أيضا الامير نغطى وهو أبو الخاتون الثانية وهذه العلة فاشية في هؤلاء الاتراك ورأينا من هذه الخاتون بنت السلطان من المسكارم وحسن الاخلاق ما لم نره من سواها وأجزلت الاحسان وأفضلت جزاها الله خيرا

— ذكر ولدي السلطان —

وهما شقيقان وأمهما جميعا الملكة طيطغلى التي قدمنا ذكرها والا كبر منهما اسمه تين بك (بتاء معلولة مكسورة وياه مدونون مفتوح) وبك معناه الامير وتين معناه الجسد فكان اسمه أمير الجسد واسم أخيه جان بك (بفتح الجيم وكسر النون) ومعني جان الروح فكانه يسمى أمير الروح وكل واحد منهما له محلة على حدة وكان تين بك من أجلى خلق الله صورة وعهد له أبوه بالملك وكانت له الحظوة والتشريف عنده ولم يرد الله ذلك فانه لما مات أبوه ولى يسيرا ثم قتل لامور قبيحة جرت له وولى أخوه جان بك وهو خير منه وأفضل وكان السيد الشريف ابن عبد الحميد هو الذى تولى تربية جان بك وأشار على هو والقاضى حمزة والامام بدر الدين القوامي والامام المقرئ حسام الدين البخارى وسواهم حين قدومي أن يكون نزولى بمحلة جان بك المذكور لفضله ففعلت ذلك

— ذكر سفري الى مدينة بلغار —

وكنت سمعت بمدينة بلغار فأردت التوجه اليها لأري ما ذكر عنها من انتهاء قصر الليل بها وقصر النهار أيضا في عكس ذلك الفصل وكان بينها وبين محلة السلطان مسيرة عشر فطلبتم منه من يوصلني اليها فبعث معي من أوصلني اليها ووردي اليه ووصلتها في رمضان فلما صليتنا المغرب أفطرنا وأذن بالعشاء في أثناء إفطارنا فصليناها وصلينا التراويح والشفع والوتر وطلع الفجر إثر ذلك وكذلك يقصر النهار بها في فصل قصره أيضا وأقمت بها ثلاثا

— ذكر أرض الظلمة —

وكنت أردت الدخول الى أرض الظلمة والدخول اليها من بلغارو بينهما أربعون يوما ثم أضررت عن ذلك لعظم المؤنة فيه وقلة الجدوى والسفر اليها لا يكون الا في عجالات صغار تجرها كلاب كبار نان تلك المفازة فيها الجليد فلا يثبت قدم الآدمي ولا حافر الدابة فيها والكلاب لها الاظفار فتثبت أقدامها في الجليد ولا يدخلها الا اقوياء من التجار الذين يكون لاحدهم مائة عجلة أو نحوها موفرة بطعامه وشرابه وحطبها فانها لا شجر فيها ولا حجر ولا مدر والدليل بتلك الارض هو الكلب الذي قد سار فيها مرارا كثيرة وتنتهي قيمته الى ألف دينار ونحوها وتربط العربة الى عنقه ويقرن معه ثلاثة من الكلاب ويكون

هو المقدم وتنبه سائر الكلاب بالعر بات فاذا وقف وقفت وهذا الكلب لا يضر به صاحبه ولا ينهره واذا حضر الطعام أطم الكلاب أولا قبل بني آدم والاغضب الكلب وفر وترك صاحبه للتلقي فاذا كملت للمسافر ين بهذه القلاة أربعون مرحلة نزلوا عند الظلمة وترك كل واحد منهم ما جاء به من المتاع هنالك وعادوا الى منزلهم المعتاد فاذا كان من الغد عادوا لتفقد متاعهم فيجدون بازائه من السمرور والسنجاب والقاقم فان أرضي صاحب المتاع ما وجدته ازاء متاعه أخذه وان لم ير ضه تركه فيزيده ور بما رفعوا متاعهم أعني أهل الظلمة وتركوا متاع التجار وهكذا يبيعهم وشرأؤهم ولا يعلم الذين يتوجهون الى هنالك من يبايعهم ويشاريهم أمن الجن هو أم من الانس ولا يرون أحدا والقاقم هو أحسن أنواع الفراء وتساوى الفروة منه ببلاد الهند ألف دينار وصرقها من ذهبنا مائتان وخمسون وهي شديدة البياض من جلد حيوان صغير في طول الشبر وذنبه طويل يتركونه في الفروة على حاله والسمرور دون ذلك تساوى الفروة منه أربع مائة دينار فمادونها ومن خاصية هذه الجلود انه لا يدخلها القمل وأمراء الصين وكبارها يجعلون منه الجلد الواحد متصلا بفرواتهم عند العنق وكذلك تجار فارس والعراقيين وعدت من مدينة بلغار مع الأمير الذي بعثه السلطان في صحبتي فوجدت محلة السلطان على الموضع المعروف ببش دغ وذلك في الثامن والعشرين من رمضان وحضرت معه صلاة العيد وصادف يوم العيد يوم الجمعة

— ذكر ترتيبهم في العيد —

ولما كان صباح يوم العيد ركب السلطان في عساكره العظيمة وركبت كل خاتون عرقتها ومعها عساكرها وركبت بنت السلطان والتاج على رأسها ذهبي الملكة على الحقيقة ورثت الملك من أمها وركب أولاد السلطان كل واحد في عسكره وكان قد قدم لحضور العيد قاضي القضاة شهاب الدين السايي ومعه جماعة من الفقهاء والمشايخ فركبوا وركب القاضي حمزة والامام بدر الدين القوامي والشريف ابن عبد الحميد وكان ركوب هؤلاء الفقهاء مع تين بك ولي عهد السلطان ومعهم الاطبال والاعلام فصلى بهم القاضي شهاب الدين وخطب أحسن خطبة وركب السلطان وانتهى الى برج خشب يسمى عندهم الكشك فجلس فيه ومعهم خواتينه ونصب برج ثان دونه فجلس فيه ولي عهده وابنته صاحبة التاج ونصب برجان دونهما عن يمينه وشماله فيهما أبناء السلطان وأقاربهم ونصبت الكراسي للأمراء وأبناء الملوك وتسمى الصندليات عن يمين البرج وشماله فجلس كل واحد على كرسيه ثم نصبت طبيلات للرمي لكل أمير طومان طيلة مختصة به

هو أمير طومان عندهم هو الذي يركب له عشرة آلاف فكان الحاضرون من أمراء طومان
سبعة عشر يقودون مائة وسبعين ألفا وعسكره أكثر من ذلك ونصب لكل أمير شبه
منبر فقعده عليه وأصحابه يلعبون بين يديه فكانوا على ذلك ساعة ثم أتى بالخلم فخلعت على
كل أمير خلعة وعند ما يلبسها يأتي إلى أسفل راج السلطان فيخدم وخدمته ان يمس
الأرض بركبته اليمنى ويمد رجله تحتها والأخرى قائمة ثم يؤتى بفرس وسرج ملجم فيرفع
حافره ويقبل فيه الأمير ويقوده بنفسه إلى كرسيه وهناك يرتبه ويقف مع عسكره
ويفعل هذا الفعل مع كل أمير منهم ثم ينزل السلطان على البرج ويركب الفرس وعن يمينه
ابنه ولى العهد وتلمسه بنته الملكة إيت كججك وعن يساره ابنه الثاني وبين يديه الخواتين
الأربع في عربات مكسوة بأثواب الحرير المذهب والخيل التي تجرها بحللة بالحرير المذهب
وينزل جميع الأمراء الكبار والصغار وأبناء الملوك والوزراء والحجاب وأرباب الدولة
فيمشون بين يدي السلطان على أقدامهم إلى أن يصل إلى الوطاق والوطاق (بكسر الواو)
وهو أفراج وقد نصبت هنالك ماركة (باركاد) عظيمة والباركة عندهم بيت كبير له أربعة
أعمدة من الخشب مكسوة بصفائح الفضة المموهة بالذهب وفي أعلى كل عمود جامور من
الفضة المذهبة له بريق وشعاع وتظهر هذه الباركة على البعد كأنها ندية ويوضع عن يمينها
ويسارها سقائف من القطن والكتان ويفرش ذلك كله بفرش الحرير وينصب في وسط
الباركة السرير الأعظم وهم يسمونه التخت وهو من خشب مرصع وأعواده مكسوة
بصفائح فضة مذهبة وقوائمه من الفضة الخالصة المموهة وفوقه فرش عظيم وفي وسط هذا
السرير الأعظم مرتبة يجلس بها السلطان والخاتون الكبرى وعن يمينه مرتبة جلست بها بنته
إيت كججك ومعهما الخاتون اردواجا وعن يساره مرتبة جلست بها الخاتون بيلون ومعهما
الخاتون بك ونصب عن يمين السرير كرسي قعده عليه تين بك ولد السلطان ونصب عن
شماله كرسي قعده عليه جان بك ولده الثاني ونصبت كراسي عن اليمين والشمال جلس
فوقها أبناء الملوك والأمراء الكبار ثم الأمراء الصغار مثل أمراء هزارة وهم الذين يقودون
ألفا ثم أتى بالطعام على موائد الذهب والفضة وكل مائدة يحملها أربعة رجال وأكثر من
ذلك وطعامهم لحوم الخيل والغنم مسلوقة وتوضع بين يدي كل أمير مائدة ويأى الباورجي
وهو مقطع اللحم وعليه ثياب حرير وقد ربط عليها فوطه حرير وفي حزامه جملة سكاكين
في أغمارها ويكون لكل أمير باورجي فاذا قدمت المائدة قعد بين يدي أميره ويؤتى
بصحفة صغيرة من الذهب أو الفضة فيها ملح محلول بالماء فيقطع الباورجي اللحم قطعاً

صغاراً ولهم في ذلك صنعة في قطع اللحم مختلطاً بالعظم فانهم لا يأكلون منه الا ما اختلط
بالعظم ثم يؤتى باواني الذهب والفضة للشرب وأكثر شربهم نبيذ العسل وهم حنفية
المذهب يحملون النبيذ فاذا أراد السلطان أن يشرب أخذت بنته القدح بيدها وخدمت
برجلها ثم ناولته القدح فشرب ثم تأخذ قدحاً آخر فتناولها للاختاتون الكبرى فتشرب منه
ثم تناول لسائر الخواتين على ترتيبهن ثم يأخذ ولي العهد القدح ويخدم ويناوله أباه فيشرب
ثم تناول الخواتين ثم أخته ويخدم جميعهن ثم يقوم الولد الثاني فيأخذ القدح ويسقي أخاه
ويخدم له ثم يقوم الامراء الكبار فيسقي كل واحد منهم ولي العهد ويخدم له ثم يقوم أبناء
الملوك فيسقي كل واحد منهم هذا الابن الثاني ويخدم له ثم يقوم الامراء الصغار فيسقون
أبناء الملوك ويغنون أثناء ذلك بالموالية وكانت قد نصبت قبة كبيرة أيضاً إزاء المسجد
للقاضي والخطيب والشريف وسائر الفقهاء والمشايخ وأنام معهم فاوتينا بموائد الذهب
والفضة يحمل كل واحدة أربعة من كبار الأتراك ولا يتصرف في ذلك اليوم بين يدي
السلطان الا الكبار فيأمرهم برفع ما أراد من الموائد الى من أراد فكانت من الفقهاء من
أكل ومنهم من تورع عن الاكل في موائد الفضة والذهب ورأيت مد البصر عن اليمين
والشمال من العربات عليها روايا القمز فامر السلطان بتفريقها على الناس فأتوا الى بعربة
منها فاعطيتها لجيراني من الأتراك ثم أتينا المسجد ننتظر صلاة الجمعة فاباط السلطان فمن
قائل انه لا يأتي لان السكر قد غلب عليه ومن قائل انه لا يترك الجمعة فلما كان بعد تمكن
الوقت أتى وهو يتمايل فسلم على السيد الشريف وتبسم له وكان يخاطبه بأطأ وهو الاب
لسان التركية ثم صلينا الجمعة وانصرف الناس الى منازلهم وانصرف السلطان الى الباركة
فبقي على حاله الى صلاة العصر ثم انصرف الناس أجمعون وبقي مع الملك تلك الليلة خواتينه
وبنته ثم كان رحيلنا مع السلطان والمحلة لما انقضى العيد فوصلنا الى مدينة الحاج ترخان
ومعنى ترخان عندهم الموضع المحرر من المغارم (وهو بفتح المنة وسكون الراء وفتح
الخاء المعجم وآخره نون) والمنسوب اليه هذه المدينة هو حاج من الصالحين تركي نزل
بموضعها وحرر له السلطان ذلك الموضع فصارت قرية ثم عظمت وتمدت وهي من أحسن
المدن عظيمة الاسواق مبنية على نهر أتل وهو من أنهار الدنيا الكبار وهنالك يقيم السلطان
حتى يشتد البرد ويجمد هذا النهر وتجمد المياه المتصلة به ثم يأمر أهل تلك البلاد فيأتون
بالآلاف من احمال التبن فيجعلونها على الجليد المنعقد فوق النهر والتبن هنالك لا تأكله
الدواب لانه يضرها وكذلك يبلاد الهند وانما أكلها الحشيش الأخضر لحصص البلاد.

ويسافرون بالعربات فوق هذا النهر والمياه المتصلة به ثلاث مراحل وربما جازت القوافل فوقه مع آخر فصل الشتاء فيغرقون ويهلكون ولما وصلنا مدينة الحاج ترخان رغبت الخاتون بيلون ابنة ملك الروم من السلطان أن ياذن لها في زيارة أبيها لتضع حملها عنده وتعود إليه فاذن لها ورغبت منه أن ياذن لي في التوجه صحبتها لمشاهدة القسطنطينية العظمى فمضيت خوفا على فلاطفته وقلت له إنما أدخلها في حرمتك وجوارك فلا أخاف من أحد فاذن لي وودعناه ووصلني بالف وخمسمائة دينار وخمسة وأفراس كثيرة وأعطتني كل خاتون منهن سبائك الفضة وهم يسمونها مصوم (بفتح الصاد المهملة) واحدا منها صومة وأعطت بنته أكثر منهن وكستني واركبتني واجتمع لي من الخيل والثياب وفروات السنجاب والسمور جملة — ذكركم في القسطنطينية —

وسافرنا في العاشر من شوال في صحبة الخاتون بيلون وتحت حرمتها ورحل السلطان في تشييعها مرحلة ورجع هو والملكة وولي عهده وسافرا سائر الخواتين في صحبتها مرحلة ثانية ثم رجعا وسافرا صحبتها الاله مير يدره في خمسة آلاف من عسكره وكان عسكر الخاتون نحو خمسمائة فارس منهم خدامها من المماليك والروم نحو مائتين والباقيون من الترك وكان معها من الجواري نحو مائتين وأكثرهن روميات وكان لها من العربات نحو أربع عشرة ونحو ألفي فرس لجرها وللكوب ونحو ثلثمائة من البقر ومائتين من الجمال لجرها وكان معها من الفتيان الروميين عشرة ومن الهنديين مثلهم وقائدهم الأكبر يسمى بسنبل الهندي وقائد الروميين يسمى بميخائيل ويقول له الاتراك لؤلؤ وهو من الشجعان الكبار وتركت أكثر جواربها واثقا لها بمحلة السلطان إذ كانت قد توجهت برسم الزيارة ووضع الحمل وتوجهنا إلى مدينة ألك وهي (بضم الهمزة وفتح الكاف الأولى) مدينة متوسطة حسنة العمارة كثيرة الخيرات شديدة البرد وبينها وبين السرا حاضرة السلطان مسيرة عشر وعلى يوم من هذه المدينة جبال الروس وهم نصارى شقروا الشعور زرق العيون قباح الصور أهل غدر وعندهم معادن الفضة ومن بلادهم يؤتى بالصوم وهي سبائك الفضة التي بها يباع ويشترى في هذه البلاد ووزن الصومعة منها خمس أوقى ثم وصلنا بعد عشر من هذه المدينة إلى مدينة سرادق (وضبط اسمها بضم السين المهملة وسكون الراء وفتح الدال المهملة وآخره قاف) وهي من مدن دشت قفقج على ساحل البحر ومرساها من أعظم المراسي وأحسنها وبخارجها البساتين والمياه وينزلها الترك و طائفة من الروم تحت ذمتهم وهم أهل الصنائع وأكثر بيوتها خشب وكانت هذه المدينة

كبيرة فخرّب معظمها بسبب فتنة وقعت بين الروم والترك وكانت الغلبة للروم فانصر للترك أصحابهم وقتلوا الروم شرقتلة ونفوا أكثرهم وبقى بعضهم تحت الذمة الى الآن وكانت الضيافة تحمل الى الخاتون في كل منزل من تلك البلاد من الخيل والغنم والبقر والدوقي والقمز والبان البقر والغنم والسفر في هذه البلاد مضجى ومعشى وكل أمير بتلك البلاد يصحب الخاتون بعساكره الى آخر حد بلاده تعظيما لها لا خوفا عليها لان تلك البلاد آمنة ثم وصلنا الى البلدة المعروفة باسم بابا سلطوق وبابا عندهم معناه عند البربر سواء الا انهم يفخمون الباء وسلطوق (بفتح السين المهمل واسكان اللام وضم الطاء المهمل وآخرة قاف) ويذكرون ان سلطوق هذا كان مكاشفا لكن يذكر عنه أشياء ينكرها الشرع وهذه البلدة آخر بلاد الاتراك بينها وبين أول عمالة الروم ثمانية عشر يوما في برية غير معمورة منها ثمانية أيام لاماء بها يتزود لها الماء ويحمل في الروايا والقرب على العربات وكان دخولنا اليها في أيام البرد فلم نحتاج الى كثير من الماء والاتراك يرفعون الالبان في القرب ويخلطونها بالدوقي المطبوخ ويشربونها فلا يعطشون واخذنا من هذه البلدة في الاستعداد للبرية واحتججت الى زيادة افراس فاتيبت الخاتون فاعلمتها بذلك وكنت أسلم عليها صبا حيا ومساء ومتي أتنا ضيافة تبعث الى بالفرسين والثلاثة وبالغنم فكنت أترك الخيل لأذبحها وكان من معي من الغلمان والخدام ياكلون مع أصحابنا الاتراك فاجتمع لي نحو خمسين فرسا وامرت لي الخاتون بحمسة عشر فرسا وأمرت وكيلها ساروجة الرومي ان يختارها سما نامن خيل المطبخ وقالت لا تخف فان احتججت الى غير هازدناك ودخلنا البرية في منتصف ذي القعدة فكان سيرنا من يوم فارقنا السلطان الى اول البرية تسعة عشر يوما واقامتنا خمسة ورحلنا من هذه البرية ثمانية عشر يوما مضجى ومعشى ومارأينا الا خيرا والحمد لله ثم وصلنا بعد ذلك الى حصن مهتولى وهو أول عمالة الروم (وضبط اسمه بفتح الميم وسكون الهاء وضم التاء المعلقة وواو مد ولام مكسور وياه) وكانت الروم قد سمعت بقدوم هذه الخاتون على بلادها فوصلنا الى هذا الحصن ككفالى بقوله الرومي في عسكر عظيم وضيافة عظيمة وجاءت الخواتين والدايات من دار ايها ملك القسطنطينية وبين ومهتولى والقسطنطينية مسيرة اثنين وعشرين يوما منها ستة عشر يوما الى الخليج وستة منه الى القسطنطينية ولا يسافر من هذا الحصن الا بالخيول والبغال وتترك العربات به لا جمل الوعر والجبال وجاء ككفالى المذكور ببغال كثيرة ونعشت الى الخاتون بستة منها وأوصت أمير ذلك الحصن بن تركته من أصحابي وغلمانى مع العربات والاثقال فامر لهم بدار ورجع الامير بيدرة بعساكر ولم يسافر مع الخاتون الا ناسه

وتركت مسجد هاهنا هذا الحصن وارتفع حكم الاذان وكان يؤتى اليها بالخور في الضيافة
 فتشربها وبالخنازير وأخبرني بعض خواصها انها أكلتها ولم يبق معها من يصلي الا بعض
 الا تراك كان يصلي معنا وتغيرت البواطن لدخولنا في بلاد الكفر ولكن الخاتون أوصت
 الامير كفالى باكرامي ولقد ضرب مرة بعض مما ليكم لما ضحك من صلاتنا ثم وصلنا حصن
 مسلمة بن عبد الملك وهو بسفح جبل على نهر زخار يقال له اصطفيلى ولم يبق من هذا
 الحصن الا آثاره وبخارجه قرية كبيرة ثم سرنا يومين ووصلنا الى الخليج وعلى ساحله
 قرية كبيرة فوجدنا فيه المد فاقمنا حتى كان الجزر وخضناه وعرضه نحو ميلين ومشينا
 أربعة أميال فى رمال ووصلنا الخليج الثانى فخضناه وعرضه نحو ثلاثة أميال ثم مشينا نحو
 ميلين فى حجارة ورمل ووصلنا الخليج الثالث وقد بدأ المد فتبعنا فيه وعرضه ميل
 واحد فعرض الخليج كله مائة وياسته اثنى عشر ميلا وتصير ماء كلها فى أيام المطر فلا
 تخاض الا فى القوارب وعلى ساحل هذا الخليج الثالث مدينة الفنيكة (واسمها بقاء
 مفتوحة ونون ويا مدوكاف مفتوح) وهى صغيرة لكنها حسنة مائة وكنائسها وديارها
 حسان والانهارتخرقها والبساتين تحفها ويدخر بها العنب والاجاص والتفاح والسفرجل
 من السنة الى الاخرى وأقمنا بهذه المدينة ثلاثا والخاتون فى قصر لا يبيها هنالك ثم قدم
 أخوها شقيقها واسمه كفالى قراس فى خمسة آلاف قراس شاكين السلاح ولما أرادوا
 لقاء الخاتون ركب أخوها المذكور فرسا أشهب ولبس ثيابا بيضاء وجعل على رأسه مظلا
 مكلا بالجواهر وجعل عن يمينه خمسة من أبناء الملوك وعن يساره مثلهم لابسين البياض
 أيضا وعليهم مظلات مزركشة بالذهب وجعل بين يديه مائة من المشائين ومائة فارس قد
 أسبغوا الدروع على أنفسهم وخيلهم وكل واحد منهم يقود فرسا مسرجا مدرعا عليه شبكة
 فارس من البيضة الجوهرة والدروع والتر كش والقوس والسيف وبده رمح فى طرفه
 رأسه راية وأكثر تلك الرماح مكسوة بصفائح الذهب والفضة وتلك الخيل المقودة هى
 مراكب ابن السلطان وقسم فرسانه على أفواج كل فوج فيه مائة فارس ولهم أمير قد قدم
 أمامه عشرة من الفرسان شاكين فى السلاح وكل واحد منهم يقود فرسا وخلفه عشرة
 من العلامات ملونة بأيدى عشرة من الفرسان وعشرة أبطال يتقلدها عشرة من الفرسان
 ومعهم ستة يضر بون الابواق والانفار والصرنايات وهى الغيطات وركبت الخاتون فى
 مما ليكمها وجواربها وفتيانها وخدامها وهم نحو خمسمائة عليهم ثياب الحرير المزركشة بالذهب
 المرصعة وعلى الخاتون حلة يقال لها النخ ويقال لها أيضا النسيج مرصعة بالجواهر وعلى

رأسها تاج مرصع وفرسها مجمل بجمل حرير مزر كش بالذهب وفي يده ورجليه خلاخل
 بالذهب وفي عنقه قلائد مرصعة وعظم السرج مكسو ذهباً مكلل جوهرًا وكان التقاؤها
 في بساط من الأرض على نحو ميل من البلد وترجل لها أخوها لانه أصغر سنا منها وقبل
 ركابها وقبلت رأسه وترجل الامراء وأولاد الملوك وقبلوا جميعاً ركابها وانصرفت مع
 أخيها وفي غد ذلك اليوم وصلنا الى مدينة كبيرة على ساحل البحر لا أثبت الآن اسمها
 ذات أنهار وأشجار نزلنا بخارجها ووصل أخوال الخاتون ولى العهد في ترتيب عظيم وعسكر
 ضخمة من عشرة آلاف مدرع وعلى رأسه تاج وعن يمينه نحو عشرين من أبناء الملوك
 وعن يساره مثلهم وقدرت فرسانه على ترتيب أخيه سواء إلا أن الحفل أعظم والجمع أكثر
 وتلاقت معه أخته في مثل زيارتها الأولى وترجل جميعاً وأوتي بخباء حرير فدخلا فيه فلا أعلم
 كيفية سلامهما ونزلنا على عشرة أميال من القسطنطينية فلما كان بالغد خرج أهلها من
 رجال ونساء وصبيان ركباناً ومشاة في أحسن زي وأجمل لباس وضربت عند الصبح الاطبال
 والابواق والانفاز وركبت العساكر وخرج السلطان وزوجته أم هذه الخاتون وأرباب
 الدولة والخواص وعلى رأس الملك رواق يحمله جملة من الفرسان ورجال بأيديهم عصي طوال
 في أعلى كل عصي شبه كرة من جلد يرفعون بها الرواق وفي وسط الرواق مثل القبة يرفعها
 الفرسان بالعصي ولما أقبل السلطان اختلطت العساكر وكثر العجاج ولم أقدر على الدخول
 فيما بينهم فلزمت أئمة الخاتون وأصحابها خوفاً على نفسي وذكري أنها لما قربت من أبوابها
 ترجلت وقبلت الأرض بين أيديهما ثم قبلت حافري فرسيهما وفعل كبار أصحابها مثل
 فعلها في ذلك وكان دخولنا عند الزوال وبعده الى القسطنطينية العظمى وقد ضربوا
 نواقيسهم حتى ارتجت الآفاق لا اختلاط أصواتها ولما وصلنا الباب من أبواب قصر
 الملك وجدنا به مائة رجل معهم قائد لهم فوق دكانه وسمعتهم يقولون سرا كنوا كنوا
 ومعناه المسلمون ومنعونا من الدخول فقال لهم أصحاب الخاتون انهم من جهة تنافقوا
 لا يدخلون إلا بأذن فاقمنا بالباب وذهب بعض أصحاب الخاتون فبعث من أعلمها بذلك
 وهي بين يدي والدها فذكرت له شأننا فامر بدخولنا وعين لنا داراً بمقربة من دار
 الخاتون وكتب لنا أمراً بأن لا نعترض حيث نذهب من المدينة ونودى بذلك في الاسواق
 وأقمنا بالدار ثلاثاً تبعث الينا الضيافة من الدقيق والخبز والغنم والدجاج والسمن والفاكهة
 والحوت والدراهم والفرش وفي اليوم الرابع دخلنا على السلطان

واسمه تكفور (بفتح التاء المثناة وسكون الكاف وضم الفاء وواو وراء) ابن السلطان جرجيس وأبوه السلطان جرجيس بغير الحياء لكنه تزهّد وترهب وانقطع للعبادة في الكنائس وترك الملك لولده وسند كره وفي اليوم الرابع من وصولنا الى القسطنطينية بعثت الى الخاتون الفتي سنبل الهندي فاخذ بيدي وأدخلني الى القصر فجزنا أربعة أبواب في كل باب سقائف بهار جال وأساحتهم وقائدهم على دكانة مفروشة فلمّا وصلنا الى الباب الخامس تركني الفتي سنبل ودخل ثم أتى ومعه أربعة من الفتيان الروميين ففتشوني لئلا يكون معي سكين وقال لي القائد تلك عادة لهم لا بد من تفتيش كل من يدخل على الملك من خاص أو عام غريب أو بلدي وكذلك الفعل بارض الهند ثم لما فتشوني قام الموكل بالباب فاخذ بيدي وفتح الباب وأحاط بي أربعة من الرجال أمسك اثنان بكفي واثنان من ورائي فدخلوا بي الى مشور كبير حيطانه بالقسي فساء قد نقش فيها صور المخلوقات من الحيوانات والجماد وفي وسطه ساقية ماء ومن جهتيها الاشجار والناس واقفون يمينا ويسارا سكوتا لا يتكلم أحد منهم وفي وسط المشور ثلاثة رجال وقوف أسلمني أولئك الأربعة اليهم فأمسكوا يثايبي كما فعل الآخرون وأشار اليهم رجل فتقدموا بي وكان أحد هم يهوديا فقال لي بالعربي لا تخف فهكذا عادتهم ان يفعلوا بالوارد وأنا المترجمان وأصلي من بلاد الشام فسألته كيف أسلم فقال قل السلام عليكم ثم وصلت الى قبة عظيمة والسلطان على سريره وزوجته أم هذه الخاتون بين يديه وأسفل السرير الخاتون واخوتها وعن يمينه ستة رجال وعن يساره أربعة وكلهم بالسلاح فأشار اني قبل السلام والوصول اليه بالجلوس هنية ليسكن روعي ففعلت ذلك ثم وصلت اليه فسلمت عليه وأشار الى ان اجلس فلم أفعل وسألني عن بيت المقدس وعن الصخرة المقدسة وعن القمامة وعن مهد عيسى وعن بيت لحم وعن مدينة الخليل عليه السلام ثم عن دمشق ومصر والعراق وبلاد الروم فاجبته عن ذلك كله واليهودي يترجم بيني وبينه فاعجبه كلامي وقال لا ولاده اكرموا هذا الرجل وأمنوه ثم خلع على خلعة وأمر لي بفرس مسرج ملجم ومظلة من التي يجعلها الملك فوق رأسه وهي علامة الامان وطلبت منه ان يعين من يركب معي بالمدينة في كل يوم حتي أشاهد عجائبها وغرائبها وأذكرها في بلادى فعين لي ذلك ومن العوائد عندهم ان الذي يلبس خلعة الملك و يركب فرسه يطاف به في أسواق المدينة بالاواق والانتار والاطبال ليراه الناس وأكثر ما يفعل ذلك بالا ترالك الذين ياتون من بلاد السلطان أو ز بك لئلا يؤذون فطافوا بي في الاسواق

— ذكر المدينة —

وهي متناهية في الكبر منقسمة بقسمين بينهما نهر عظيم المد والجزر على شكل وادي سلا من بلاد المغرب وكانت عليه فيما تقدم قنطرة مبنية فخربت وهو الآن يعبر في القوارب واسم هذا النهر أسمى (بفتح الهمزة واسكان الباء الموحدة وضم السين المهمل وكسر الميم وياء مد) وأحد القسمين من المدينة يسمى اصطنبول (بفتح الهمزة واسكان الصاد وفتح الطاء المهملتين وسكون النون وضم الباء الموحدة وواو مد ولام) وهو بالعدوة الشرقية من النهر وفيه سكنى السلطان وأرباب دولته وسائر الناس وأسواقه وشوارعه مفروشة بالصفاح متسعة وأهل كل صناعة على حدة لا يشار بهم سواهم وعلى كل سوق أبواب تسد عليه بالليل وأكثر الصنائع والباعة بها النساء والمدينة في سفح جبل داخل في البحر نحو تسعة أميال وعرضه مثل ذلك أو أكثر وفي أعلاه قلعة صغيرة وقصر السلطان والسور يحيط بهذا الجبل وهو مانع لاسبيل لأحد إليه من جهة البحر وفيه نحو ثلاث عشرة قرية عامرة والكنيسة العظمى هي في وسط هذا القسم من المدينة وأما القسم الثاني منها فيسمى الغلطة (بغين معجمة ولام وطاء مهمل مفتوحات) وهو بالعدوة الغربية من النهر شبيه برباط الفتح في قرية من النهر وهذا القسم خاص بنصارى الافرنج يسكنونه وهم أصناف فمنهم الجنويون والبنادقة وأهل رومية وأهل افرانسة وحكمهم الى ملك القسطنطينية يقدم عليهم منهم من يرتضونه ويسمونه القمص وعليهم وظيفة في كل عام لملك القسطنطينية وربما استعصوا عليه فيحاربهم حتي يصلح بينهم البابا وجميعهم أهل تجارة ومرسأهم من أعظم المراسى رأيت به نحو مائة جفن من القراقر وسواها من الكبار وأما الصغار فلا تحصى كثرة وأسواق هذا القسم حسنة الا ان الاقدار غالبه عليها ويشقها نهر صغير قدر نجس وكنائسهم قدرة لا خير فيها

— ذكر الكنيسة العظمى —

وانما ذكر خارجها وأما داخلها فلم أشاهده وهي تسمى عندهم أياصوفيا (بفتح الهمزة والياء آخر الحروف والفاء وصاد مضموم وواو مد وفاء مكسورة وياء كلاولى وألف) ويذكر انها من بناء آصف بن برخياء وهو ابن خالة سليمان عليه السلام وهي من أعظم كنائس الروم وعليها سور يطيف بها فكانها مدينة وأبوابها ثلاثة عشر بابا ولها حرم هو نحو ميل عليه باب كبير ولا يمنع أحد من دخوله وقد دخلته مع والد الملك الذي يقع ذكره وهو شبه مشور مسطح بالرغام وتشقه ساقية تخرج من الكنيسة لها حائطان مرتفعان

نحو ذراع مصنوعان بالرخام المجزع المنقوش باحسن صنعة والاشجار منتظمة عن جهتي الساقية ومن باب الكنيسة الى باب هذا المشور معرش من الخشب مرتفع عليه دوا الى العتب وفي أسفله الياسمين والرياحين وخارج باب هذا المشور قبة خشب كبيرة فيها طبلات خشب يجلس عليها خدام ذلك الباب وعن يمين القبة مساطب وحوانيت أكثرها من الخشب يجلس بها قضاةهم وكتاب دواوينهم وفي وسط تلك الحوانيت قبة خشب يصعد اليها على درج خشب وفيها كرسي كبير مطبق بالملف يجلس فوقه قاضيهم وسند كره وعن يسار القبة التي على باب هذا المشور سوق العطارين والساقية التي ذكرناها تنقسم قسمين احدهما يمر بسوق العطارين والآخري يمر باسوق حيث الفضاة والكتاب وعلى باب الكنيسة سقائف يجلس بها خدامها الذين يقومون طرقها وبوقدون سرجهاء ويغلقون أبوابها ولا يدعون أحدا يدخلها حتي يسجد للصليب الاعظم عندهم الذي يزعمون انه بقية من الخشبة التي صلب عليها شبيه عيسى عليه السلام وهو على باب الكنيسة بمجول في جمعة ذهب طولها نحو عشرة أذرع وقد عرضوا عليها جمعة ذهب مثلها حتي صارت صليبا وهذا الباب مصفح بصفائح الفضة والذهب وحلقته من الذهب الخالص وذكر لي ان عددا من بهذه الكنيسة من الرهبان والقسيسين ينتهي الى آلاف وان بعضهم من ذرية الحواريين وان بداخلها كنيسة مختصة بالنساء فيها من الابكار المنقطعات للعبادة أزيد من ألف وأما القواعد من النساء فأكث من ذلك كله ومن عادة الملك وأرباب دولته وسائر الناس ان يؤتوا كل يوم صباحا الى زيارة هذه الكنيسة ويأني اليها البياطرة في السنة واذا كان على مسيرة أربع من البلد يخرج الملك الى لقائه ويترجل له وعند دخول المدينة يمشي بين يديه على قدميه ويأتيه صباحا ومساء للسلام عليه طول مقامه بالقسطنطينية حتى ينصرف — ذكر المانستارات بقسطنطينية —

والمانستار على مثل لفظ المارستان الا أن نونه متقدمة وراءه متأخرة وهو عندهم شبه الزاوية عند المسلمين وهذه المانستارات بها كثيرة فتمتها مانستار عمره الملك جرجيس والدملك القسطنطينية وسند كره وهو بخارج اصطنبول مقابل الغلطة ومنها مانستاران خارج الكنيسة العظمى عن يمين الداخل اليها وهما في داخل بستان يشقهما نهري ماء واحدهما للرجال والآخر للنساء وفي كل واحد منهما كنيسة ويدور بهما البيوت للمتعبدين والمتعبدات وقد حبس على كل واحد منهما الحباس لكسوة المتعبدين ونفقة بنيها أحد الملوك ومنها مانستاران عن يسار الداخل الى الكنيسة العظمى علي مثل هذين الآخرين ويطيف

بهما بيوت واحدها يسكنه العميان والثاني يسكنه الشيوخ الذين لا يستطيعون الخدمة ممن بلغ الستين أو نحوها ولكل واحد منهم كسوته ونفقته من أوقاف معينة لذلك وفي داخل كل مانستار منها دويرة لتعبد الملك الذي بناءه وأكثر هؤلاء الملوك اذا بلغ الستين أو السبعين بني مانستار أو لبس المسوح وهي ثياب الشعر وقلدولده الملك واشتغل بالعبادة حتي يموت وهم يحتفلون في بناء هذه المانستارات ويعملونها بالرخام والفسيفساء وهي كثيرة هذه المدينة ودخلت مع الرومي الذي عينه الملك للركوب معي الى مانستار يشقه نهروفيه كنيسة فيها نحو خمسمائة بكر عليهم المسوح ورؤسهن مخلوقة فيها قلانيس اللبد ولهن جمال فائق وعليهن أثر العبادة وقد قعد صبي على منبر يقرأ لهن الانجيل بصوت لم أسمع قط أحسن منه وحوله ثمانية من الصبيان على منابر ومعهم قسيسهم فلما قرأ هذا الصبي قرأ صبي آخر وقال لي الرومي ان هؤلاء البنات من بنات الملوك وهن أنفسهن لخدمة هذه الكنيسة وكذلك الصبيان القراء ولهم كنيسة أخرى خارج تلك الكنيسة ودخلت معه أيضا الى كنيسة في بستان فوجدناها نحو خمسمائة بكر أو أزيد وصبي يقرأ لهن على منبر وجماعة صبيان معه على منابر مثل الاولين فقال لي الرومي هؤلاء بنات الوزراء والامراء يتعبدن بهذه الكنيسة ودخلت معه الى كنائس فيها ايكار من وجوه أهل البلد والى كنائس فيها العجائز والقواعد من النساء والى كنائس فيها الرهبان يكون في الكنيسة منها مائة رجل وأكثر وأقل وأكثر أهل هذه المدينة رهبان ومتعبدون وقسيسون وكنائسهم الانحصى كثرة وأهل المدينة من جندي وغيره صغير وكبير يعملون على رؤسهم المظلات الكبار شتاء وصيفا والنساء لهن عمامم كبار

— ذكر الملك المترهب جرجيس —

وهذا الملك ولي الملك لابنه وانقطع للعبادة وبني مانستارا كما ذكرناه خارج المدينة على ساحلها وكنت بوماع الرومي المعين للركوب معي فاداب هذا الملك ماش على قدميه وعليه المسوح وعلى رأسه قلنسوة لبدوله لحية بيضاء طويلة ووجهه حسن عليه أثر العبادة وخلفه وامامه جماعة من الرهبان ويده عكاز وفي عنقه سبحة فلما رآه الرومي نزل وقال لي انزل فهذا والد الملك فلما سلم عليه الرومي سألني ثم يقف وبعث لي فجئت اليه فاخذ يدي وقال لذلك الرومي وكان يعرف اللسان العربي قل لهذا السرا كنو يعني المسلم أنا أصافح اليد التي دخلت بيت المقدس والرجل التي مشيت داخل الصخرة والكنيسة العظمى التي تسمى قمامة وبيت لحم وجعل يده على قدمي ومسح بها وجهه فعجبت من

اعتقادهم فيمن دخل تلك المواضع من غير ملتهم ثم أخذ بيدي ومشيت معه فسألني عن بيت المقدس ومن فيه من النصاري واطال السؤال ودخلت معه الى حرم الكنيسة الذي وصفناه آنفا ولما قارب الباب الاعظم خرجت جماعة من القسيسين والرهبان للسلام عليه وهو من كبارهم في الرهبانية ولما رأهم أرسل يدي فقلت له أر يد الدخول معك الى الكنيسة فقال للترجمان قل له لا بد لداخلها من السجود للصليب الاعظم فان هذا مما سنته الاوائل ولا يمكن خلافه وتر كته ودخل وحده ولم أره بعدها

— ذكركا قاضي القسطنطينية —

ولما فارقت الملك انترهب المذكور دخلت سوق الكتاب فرأني القاضي فبعث الى أحد اعدائه فسأل الرومي الذي معي فقال له انه من طلبة المسلمين فلما عاد اليه وأخبره بذلك بعث الى أحد أصحابه وهم يسمون القاضي النجشي كفا لي النجشي كفا لي يدعوك فصعدت اليه الى القبة التي تقدم ذكرها فرأيت شيخاً حسن الوجه واللثة عليه لباس الرهبان وهو الملف الاسود و بين يديه نحو عشرة من الكتاب يكتبون فقام الى وقام أصحابه وقال أنت ضيف الملك و يجب علينا كرامك وسأني عن بيت المقدس والشام ومصر وأطال الكلام وكثر عليه الازدحام وقال لي لا بد لك أن تأتي الى داري فاضيفك فانصرفت عنه ولم ألقه بعد

— ذكركا انصراف عن القسطنطينية —

ولما ظهر لمن كان في صحبة الخاتون من الاتراك انها علي دين أبيها وراغبة في المقام معه طلبوا منها الاذن في العودة الى بلادهم فاذنت لهم وأعطتهم عطاء جزيلاً وبعثت معهم من يوصلهم الى بلادهم أميراً يسمى ساروجة الصغير في خمسمائة فارس وبعثت عني فاعطتني ثلاثمائة دينار من ذهبهم وهم يسمونه البررة وليس بالطيب والفى درهم بندقيّة وشقة ملف من عمل البنات وهو أجود أنواعه وعشرة أثواب من حرير وكتان وصوف وفرسين وذلك من عطاء أبيها وأوصت بي ساروجة وودعتها وانصرفت وكانت مدة مقامي عندهم شهراً وستة أيام وسافرنا صحبة ساروجة فكان يكرمني حتى وصلنا الى آخر بلادهم حيث تركنا أصحابنا وعرباً تنافركنا العربات ودخلنا البرية ووصل ساروجة معنا الى مدينة بابا سلطوق وأقام بها ثلاثاً في الضيافة وانصرفت الى بلاده وذلك في اشتداد البرد وكنت ألبس ثلاث فروات وسروالين احدهما مبطن وفي رجلي خف من صوف وفوقه خف مبطن بثوب كتان وفوقه خف من البرغالي وهو جلد الفرس مبطن بجلد ذئب

وكنيت أنوضاً بالماء الحار بمقربة من النار فماتقطر من الماء قطرة الاجمدت حينها وإذا غسلت وجهي يصل الماء الى الحيتي فيجمد فاحركها فيسقط منها شبه الثلج والماء الذي ينزل من الانف يجمد على الشارب وكنيت لا أستطيع الركوب لكثرة ما على من الثياب حتى يركبني أصحابي ثم وصلت الى مدينة الحاج ترخان حيث قارقنا السلطان أوزبك فوجدناه قد رحل واستقر بحضرة ملكه فسافرن على نهر اتل وما يليه من المياه ثلاثاً وهي جامدة وكنا اذا احتجنا الماء قطعنا قطعاً من الجليد وجعلناه في القدر حتى يصير ماء فنشرب منه ونطبخ به ووصلنا الى مدينة السرا (وضبط اسمها بسين مهمل وراء مفتوحة وألف) وتعرف بسرا بركة وهي حضرة السلطان أوزبك ودخلنا على السلطان فسألنا عن كيفية سفرنا وعن ملك الروم ومدينته فأعلمنا وأمر بأجراء النفقة علينا وانزلنا ومدينة السرا من أحسن المدن متناهية الكبر في بسيط من الارض تفص بأهلها كثرة حسنة الاسواق متسعة الشوارع وركبنا يوماً مع بعض كبرائنا وغرضنا التطوف عليها ومعرفة مقدارها وكان منزلنا في طرف منها فركبنا منه غدوة فواصلنا لآخرها الا بعد الزوال فصلينا الظهر وأكلنا طعاماً فواصلنا الى المنزل الا عند المغرب ومشينا يوماً في عرضها ذاهبين وراجعين في نصف يوم وذلك في عمارة متصلة الدور لا خراب فيها ولا بساتين وفيها ثلاثة عشر مسجداً لاقامة الجمعة أحدها للشافعية وأما المساجد سوى ذلك فكثير جداً وفيها طوائف من الناس منهم المغل وهم أهل البلاد وال슬اطين وبعضهم مسلمون ومنهم الاصل وهم مسلمون ومنهم القفقجق والجر كس والروس والروم وهم نصارى وكل طائفة تسكن محلة على حدة فيها أسواقها والتجار والغرباء من أهل العرافين ومصر والشام وغيرها ساكنون بمحلة عليها سور احتياطاً على أموال التجار وقصر السلطان بها يسمى الطون طاش والطنون (بفتح الهمزة وسكون اللام وضم الطاء المهمل وواو مدونون) ومعناه الذهب وطاش (بفتح الطاء المهمل وشين معجم) ومعناه حيز وقاضى هذه الحضرة بدر الدين الاعرج من خيار القضاة وبها من مدرسى الشافعية الفقيه الامام الفاضل صدر الدين سليمان اللاكزى أحد الفضلاء وبها من المالكية شمس الدين المصري وهو ممن يطعن في ديانته وبها زاوية الصالح الحاج نظام الدين أضافاها وأكرمنا وبها زاوية الفقيه الامام العالم نعمان الدين الخوارزمي رأيت بها وهو من فضلاء المشايخ حسن الاخلاق كريم النفع شديد التواضع شديد السطوة على أهل الدنيا يأتي اليه السلطان أوزبك زائراً في كل جمعة فلا يستقبله ولا يقوم اليه ويقعد السلطان بين يديه ويكلمه أطف كلاماً ويتواضع له والشيخ بضد

ذلك وفعله مع الفقراء والمساكين والواردين خلاف فعله مع السلطان فانه يتواضع لهم
ويكلمهم بالطف كلام ويكرمهم واكرمني جزاه الله خيرا وبعث الى بغداد تركي
وشاهدت له بركة — كرامة له —

كنت أردت السفر من السرا الى خوارزم فنهاني عن ذلك وقال لي أقم أياما وحينئذ
تسافر فنازعني النفس ووجدت رفقة كبيرة آخذة في السفر فيهم تجار اعرفهم فاتفقت
معه على السفر في صحبتهم وذكرت له ذلك فقال لي لا بد لك من الاقامة فعزمت على السفر
فابق لي غلام اقمت بسببه وهذه من الكرامات الظاهرة ولما كان بعد ثلاث وجد بعض
أصحابي ذلك الغلام الآبق بمدينة الحاج ترخان فجاء به الي فحينئذ سافرت الى خوارزم
وبينها وبين حضرة السرا صحراء مسيرة أربعين يوما لا تسافر فيها الخيل لقلة الكلا وإنما
تجر العربات بها الجمال فسرنا من السرا عشرة أيام فوصلنا الى مدينة سرا جوق وجوق
(بضم الجيم المعقود وواو قاف) ومعنى جوق صغير فكانهم قالوا سرا الصغيرة وهي على
شاطيء نهر كبير زخار يقال له الوصو (بضم الهمزة واللام وواو مد وضم الصاد المهمل
وواو) ومعناه الماء الكبير وعليه جسر من قوارب كجسر بغداد والى هذه المدينة انتهى
سفرنا بالخيول التي تجر العربات وبعناها بها تاجر بحساب أربعة دنانير دراهم للفرس وأقل من
ذلك لاجل ضعفها ورخصها بهذه المدينة واكثرنا الجمال لجرا العربات وبهذه المدينة زاوية
لرجل صالح معمر من الترك يقال له اطا (بفتح الهمزة والطاء المهمل) ومعناه الوالد اضافنا
بها ودعانا وأضافنا أيضا قاضيها ولا أعرف اسمه ثم سرنا منها ثلاثين يوما سيرا جادا
لا نزل الا ساعتين احدهما عند الضحى والاخرى عند المغرب وتكون الاقامة قدر
ما يطبخون الدوق ويشربونه وهو يطبخ من غلية واحدة ويكون معهم الخليع من اللحم
يجعلونه عليه ويصبون عليه اللبن وكل انسان انما ينام أو يأكل في عربته حال السير وكان
لي في عربتي ثلاث من الجوارى ومن عادة المسافرين في هذه البرية الاسراع لقلة أعشابها
والجمال التي تقطعها يهلك معظمها وما يبقى منها لا ينتفع به الا في سنة أخرى بعد ان يسمن
والماء في هذه البرية في مناهل معلومة بعد اليومين والثلاثة وهو ماء المطر والحسيان ثم
لما سلكنا هذه البرية وقطعناها كما ذكرناه وصلنا الى خوارزم وهي أكبر مدن الترك
وأعظمها وأجلها وأضخمها الاسواق المليحة والشوارع الفسيحة والعمارة الكثيرة
والحاسن الاثيرة وهي ترتج بسكانها الكثرتهم وتموج بهم موج البحر ولقد ركبت بها يوما
ودخلت السوق فلما تو سطته وبلغت منتهى الزحام في موضع يقال له الشهور (بفتح الشين

المعجم واسكان الواو) لم أستطع ان أجوز ذلك الموضع لكثرة الازدحام وأرت الرجوع
فما أمكنني لكثرة الناس فبقيت متحيرا وبعد جهد شديد رجعت وذكري بعض الناس
ان تلك السوق يخف زحامها يوم الجمعة لانهم يسدون سوق القيساريه وغيرها من الاسواق
فركبت يوم الجمعة وتوجهت الى المسجد الجامع والمدرسة وهذه المدينة تحت إمرة السلطان
أوزبك وله فيها أمير كبير يسمى قطلودمور وهو الذي عمر هذه المدرسة ومامعها من
المواضع المضافة وأما المسجد فعمرته زوجته الخاتون الصالحة ترابك وترا (بضم التاء المعلو
وفتح الراء وألف) وبك (بفتح الباء الموحدة والكاف) وبخوارزم مارستان له طبيب
شامي يعرف بالصهيوني نسبة الى صهيون من بلاد الشام ولم أرى بلاد الدنيا أحسن
أخلاقا من أهل خوارزم ولا أكرم نفوسا ولا أحب في الغرباء ولهم عادة جميلة في الصلاة
لم أرها لغيرهم وهي ان المؤذنين بمساجدها يطوف كل واحد منهم على دور جيران مسجده
معلمهم بحضور الصلاة فمن لم يحضر الصلاة مع الجماعة ضربه الامام بمحضر الجماعة وفي
كل مسجد درة معلقة برسم ذلك ويغرم خمسة دنانير تنفق في مصالح المسجد أو تطعم
للفقراء والمساكين ويذكرون ان هذه العادة عندهم مستمرة على قديم الزمان وبخارج
خوارزم نهر جيحون أحد الانهار الاربعة التي من الجنة وهو يجمد في أوان البرد كما
يجمد نهر أتل ويسلك الناس عليه وتبقى مدة جموده خمسة أشهر وربما سلكوا عليه عند
أخذه في الذوبان فهلكوا ويسافرون فيه أيام الصيف بالمراسك الى ترمذ ويحبون منها
القمح والشعير وهي مسيرة عشر للمنحدر وبخارج خوارزم زاوية مبنية على تربة الشيخ
نجم الدين الكبرى وكان من كبار الصالحين وفيها الطعام للوارد والصادر وشيخهم المدرس
سيف الدين بن عضبة من كبار أهل خوارزم وبها أيضا زاوية شيخها الصالح المجاور جلال
الدين السمرقندي من كبار الصالحين أيضا فتابها وبخارجها قبر الامام العلامة أبي القاسم
محمود بن عمر الزخشري وعليه قبة وزخشري قرية على مسافة أربعة أميال من خوارزم
ولما أتيت هذه المدينة نزات بخارجها وتوجه بعض أصحابي الى القاضي الصدر أبي حفص
عمر البكري فبعث الى نائبه نور الاسلام فسلم على ثم عاد اليه ثم أتى القاضي في جماعة من
صحابه فسلم على وهو فتي السن كبير الفعال وله نائبان احدهما نور الاسلام المذكور والآخر
نور الدين الكرمانى من كبار الفقهاء وهو الشديد في احكامه القوي في ذات الله تعالى
ولما حصل الاجتماع بالقاضي قال لي ان هذه المدينة كثيرة الزحام ودخولكم هنا لا يتاني
وسيا في اليكم نور الاسلام لتدخلوا معه من آخر الليل ففعلنا ذلك ونزلنا بمدرسة جديدة

ليس بها أحد ولما كان بعد صلاة الصبح أتى إلينا القاضي المذكور ومعه من كبار المدينة جماعة منهم مولا ناهام الدين ومولا نا زين الدين المقدسى ومولا نارضي الدين يحيى ومولا نا فضل الله الرضوى ومولا نا جلال الدين العمادى ومولا ناشمس الدين السنجرى امام أميرها وهم اهل مكارم وفضائل والغالب على مذهبهم الاعتزال لكنهم لا يظهرونه لان السلطان أوزبك وأميره على هذه المدينة قطلود مور من أهل السنة وكنت أيام اقامتي بها أصلي الجمعة مع القاضي أبي حفص عمر المذكور بمسجده فاذا فرغت الصلاة ذهبت معه الى داره وهي فريبة من المسجد فادخل معه الى مجلسه وهو من أبداع الحلاس فيه الفرش الحافلة وحيطا نه مكسوة بالملف وفيه طيقتان كثيرة وفي كل طاق منها أواني الفضة الموهبة بالذهب والواني العراقية وكذلك عادة أهل تلك البلاد ان يصنعوا في بيوتهم ثم يأتي بالطعام الكثير وهو من أهل الرفاهية والمال الكثير والرابع وهو سلف الامير قطلود مور متزوج باخت امرأته واسمها جيغا أغا وبهذه المدينة جماعة من الوعاظ والمذكرين أكبرهم مولا نا زين الدين المقدسى والخطيب مولا نا حسام الدين المشاطي الخطيب المصقع أحد الخطباء الاربعة الذين لم أسمع في الدنيا أحسن منهم

— و أمير خوارزم —

هو الامير الكبير قطلود مور وقطلو (بضم القاف وسكون الطاء المهمل وضم اللام) ودمور (بضم الدال المهمل والميم وواو مدوراء) ومعنى اسمه الحديد المبارك لان قطلو هو المبارك ودمور هو الحديد وهذا الامير ابن خالة السلطان المعظم محمد أوزبك وأكبر أمرائه وهو واليه على خراسان وولده هارون بك متزوج بابنة السلطان المذكور التي أمها الملكة طيغلي المتقدم ذكرها وامرأته الخاتون ترابك صاحبة المكارم الشهيرة ولما أتاني القاضي مسلما على كاذكرته قال لي ان الامير قد علم بقصدومك وبه بقية مرض يمنعه من الاتيان اليك فركبت مع القاضي الى زيارته وأتيناداره فدخلنا مشورا كبيرا أكثر بيوتها خشب ثم دخلنا مشورا صغيرا فيه قبة خشب مزخرفة قد كسيت حيطانها بالملف الملون وسقفها بالحريز المذهب والامير على فرش له من الحرير وقد غطي رجله لهما بهما من النقرس وهي علة فاشية في الترك فسلمت عليه وأجلسني الى جانبه وقعد القاضي والفقهاء وسألني عن سلطانه الملك محمد أوزبك وعن الخاتون بيلون وعن أبيهما وعن مدينة القسطنطينية فاعلمته بذلك كله ثم أتى بالموائد فيها الطعام من الدجاج المشوية والكراكي وافراخ الحمام وخبز معجون بالسمن يسمونه الكليجا والكهك والخلوى ثم أتى بموائد أخرى فيها

اللقوا كه من الرمان المحبب في أواني الذهب والفضة ومعه ملاءق الذهب وبعضه في أواني الزجاج العراقي ومعه ملاءق الخشب ومن العنب والبطيخ العجيب ومن عوائد هذا الأمير ان يأتي القاضي في كل يوم الى مشوره فيجلس بمجلس معدله ومعه الفقهاء وكتابه ويجلس في مقابله أحد الامراء الكبراء ومعه ثمانية من كبراء امراء الترك وشيوخهم يسمون الارغجية (يارغوجي) ويتحسوا كم الناس اليهم فما كان من القضايا الشرعية حكم فيها القاضي وما كان من سواها حكم فيها أولئك الامراء وأحكامهم مضبوطة عادلة لانهم لا يهتمون بميل ولا يقبلون رشوة ولما عدنا الى المدرسة بعد الجلوس مع الأمير بحث الينا الارز والدقيق والغنم والسمن والابزار وأعمال الحطب وتلك البلاد كلها لا يعرف بها الفحم وكذلك الهند وخراسان وبلاد العجم وأما الصين فيوقدون فيها حجارة تشتعل فيها النار كما تشتعل في الفحم ثم اذا صارت رمادا عجنوه بالماء وجففوه بالشمس وطبخوا بها ثمانية كذلك حتى يتلاشى

— حكاية ومكرمة لهذا القاضي والأمير —

صليت في بعض أيام الجمع على عادتي بمسجد القاضي أبي حفص فقال لي ان الأمير أمرك بخمسمائة درهم وأمر أن يصنع لك دعوة يتفق فيها خمسمائة درهم أخرى يحضرها المشايخ والفقهاء والوجوه فلما أمر بذلك قلت له أيها الأمير تصنع دعوة يا كل من حضرها لقمة أو لقمتين لو جعلت له جميع المال كان أحسن له للنفع فقال افعل ذلك وقد أمرك بالالف كاملة ثم بعثها الأمير صعبة امامه شمس الدين السنجري في خريطة يحملها غلامه وصرفها من الذهب المغربي ثلاثمائة دينار وكنت قد اشتريت ذلك اليوم فرسا أدهم اللون بخمسة وثلاثين ديناراً دراهم وركبته في ذهابي الى المسجد فما أعطيت ثمنه الا من تلك الالف وتكاثرت عندي الخيل بعد ذلك حتى انتهت الى عدد لا أذكره خيفة مكذب يكذب به ولم تنزل حالي في الزيادة حتى دخلت أرض الهند وكانت عندي خيل كثيرة لكنني كنت أفضل هذا الفرس وأوثره وأربطه امام الخيل وبقي عندي الى انقضاء ثلاث سنين ولما هلك تغيرت حالي وبعثت الى الخاتون جيحاً أغا امرأة القاضي مائة دينار دراهم وصنعت لي أختها ترابك زوجة الأمير دعوة جمعت لها الفقهاء ووجوه المدينة بزاويتها التي بنتها وفيها الطعام للوارد والصادر وبعثت الى بفرو سمور وفرس جيد وهي من أفضل النساء وأصلحهن وأكرمهن جزاها الله خيراً

— حكاية —

ولما انفصلت من الدعوة التي صنعت لي هذه الخاتون وخرجت عن الزاوية تعرضت

على الباب امرأة عليها ثياب دنسة وعلى رأسها مقنعة ومعها نسوة لأذكر عدددهن
فسلمت على فرددت عليها السلام ولم أقف معها ولا التفت إليها فلما خرجت أدركني
بعض الناس وقال لي إن المرأة التي سلمت عليك هي الخاتون فخرجت عند ذلك وأردت
الرجوع إليها فوجدتها قد انصرفت فأبلغت إليها السلام مع بعض خدامها واعتذرت
عما كان مني لعدم معرفتي بها — ذكر بطيخ خوارزم —

و بطيخ خوارزم لا نظيره في بلاد الدنيا شرقا ولا غربا إلا ما كان من بطيخ بخاري و يليه
بطيخ أصفهان وقشره أخضر و باطنه أحمر وهو صادق الحلاوة وفيه صلاحة ومن العجائب
أنه يقدد و يبيس في الشمس و يجعل في القواصر كما يصنع عندنا بالشريحة و بالتين المسالقي
و يحمل من خوارزم إلى أقصى بلاد الهند والصين و ليس في جميع القواكر إلا بسطة أطيب
منه و كنت أيام إقامتي بدهلي من بلاد الهند متى قدم المسافرون بعثت من يشتري لي منهم
قد يد البطيخ و كان ملك الهند إذا أتى إليه بشيء منه بعث إلى بهلما يعلم من يحبني فيه
ومن عادته أنه يطرف الغرباء بفواكه بلادهم و يتفقد هم بذلك — حكاية —

كان قد صحبني من مدينة السري إلى خوارزم شريف من أهل كر بلاه يسمى علي بن
منصور و كان من التجار فكنت أكلفه أن يشتري لي الثياب و سواها فكان يشتري لي
الثوب بعشرة دنانير و يقول اشتريته بثمانية و يحاسبني بالثمانية و يدفع الدينارين من ماله وأنا
لا أعلم لي بفعله إلى أن تعرفت ذلك علي السنة الناس و كان مع ذلك قد أسلفني دنانير فلما
وصل إلى احسان أمير خوارزم رددت إليه ما أسلفنيه وأردت أن أحسن بعده إليه مكافأة
لأفعاله الحسنة فأبى ذلك وحلف أن لا تفعل وأردت أن أحسن إلى فتى كان له اسمه
كافور فخلف أن لا أفعل و كان أكرم من لقيته من العراقيين وعزم على السفر معي إلى
بلاد الهند ثم إن جماعة من أهل بلده وصلوا إلى خوارزم برسم السفر إلى الصين فأخذ
في السفر معهم فقلت له في ذلك فقال هؤلاء أهل بلدي يعودون إلى أهلي وأقاربي
و يذكرون أني سأفرت إلى الهند برسم الكدية فيكون سبة على لا أفعل ذلك وسافر معهم
إلى الصين فبلغني بعد وأنا بأرض الهند أنه لما بلغ إلى مدينة الما لاق وهي آخر البلاد التي
من عمالة ما وراء النهر وأول بلاد الصين أقام بها و بعث فتى له بما كان عنده من المتاع
فأبطأ الفتى عليه وفي أثناء ذلك وصل من بلده بعض التجار ونزل معه في فندق واحد
فطلب منه الشريف أن يسلفه شيئا بخلاف ما يصل فتاه فلم يفعل ثم أكد قبح ما صنع في عدم
التيوسعة على الشريف بأن أراد الزيادة عليه في المسكن الذي كان له في الفندق فبلغ ذلك

الشر يف فاغتم منه ودخل الى بيته فذبح نفسه فادرك وبه رمق وانهموا غلاما كان له بقتله فقال لهم لا تظلموه فاني انا فعلت ذلك بنفسى ومات من يومه غفر الله له وكان قد حكى الى عن نفسه انه أخذ مرة من بعض تجار دمشق ستة آلاف درهم قراضا فلقية ذلك التاجر بمدينة حماة من أرض الشام فطلبه بالمال وكان قد باع ما اشترى به من المتاع بالدين فاستحيا من صاحب المال ودخل الى بيته وربط عمامته بسقف البيت وأراد أن يحنق نفسه وكان في أجله تأخير فتذكر صاحباً له من الصيارفة فقصده وذكر له القضية فسلمه ما لدفعه للتاجر ولما أردت السفر من خوارزم اكتريت جمالا واشتريت محارة وكان عديلي بها عفيف الدين التوزرى وركب الخدام بعض الخيل وجللنا باقيها لاجل البرد ودخلنا البرية التي بين خوارزم وبخارى وهي مسيرة ثمانية عشر يوما في رمال لا عمارة بها الا بلدة واحدة فودعت الامير قطلودمور وخلع على خلعة وخلع على القاضي أخرى وخرج مع الفقهاء لوداعي وسرنا أربعة أيام ووصلنا الى مدينة الكات وايس بهذه الطريق عمارة سواها (وضبط اسمها بفتح الهمزة وسكون اللام وآخره تاء مثناة) وهي صغيرة حسنة نزلنا خارجها على بركة ماء قد جمدت من البرد فكان الصبيان يلعبون فوقها ويزلقون عليها وسمع بقدمي قاضي الكات ويسمي صدر الشريعة وكنت قد لقيته بدار قاضي خوارزم فجاء الى مسلماً مع الطلبة وشيخ المدينة الصالح العابد محمود الخيوي ثم عرض على القاضي الوصول الى أمير تلك المدينة فقال له الشيخ محمود القادم ينبغي له أن يزار وان كانت لاهمة نذهب الى أمير المدينة ونأتي به ففعلوا ذلك وأتى الامير بعد ساعة في اصحابه وخدامه فسلمنا عليه وكان غرضنا تعجيل السفر فطلب منا الإقامة وصنع دعوة جمع لها الفقهاء ووجود العساكر وسواهم وقف الشعراء بمدحونه وأعطاني كسوة وفرسا جيداً وسرنا على الطريق المعروفة بسيباية وفي تلك الصحراء مسيرة ست دون ماء ووصلنا بعد ذلك الى بلدة وبكة (وضبط اسمها بفتح الواو واسكان الباء الموحدة وكاف ونون) وهي على مسيرة يوم واحد من بخارى بلدة حسنة ذات انهار وبساتين وهم يدخرون العنب من سنة الى سنة وعندهم فاكهة يسمونها العلو (الآلو) بالعين المهملة وتشديد اللام فيببسونه ويحلبه الناس الى الهند والصين ويجعل عليه الماء ويشرب مأؤه وهو أيام كونه أخضر حلو فاذا يبس صار فيه يسير حموضة ولحميته كثيرة ولم أر مثله بالاندلس ولا بالمغرب ولا بالشام ثم سرنا في بساتين متصلة وأنهار وأشجار وعمارة يوما كاملاً ووصلنا الى مدينة بخارى التي ينسب اليها امام الحديث أبو عبد الله محمد بن اسماعيل البخاري.

وهذه المدينة كانت قاعدة ما وراء نهر جيحون من البلاد وخر بها اللعين تنكيز التتري جد ملوك العراق فسادها الآن ومدارسها واسواقها خربة الا القليل وأهلها أذلاء وشهادتهم لا تقبل بخوارزم وغيرها لا شتهارهم بالتعصب ودعوي الباطل وانكار الحق وليس بها اليوم من الناس من يعلم شيئا من العلم ولا من له عناية به
— ذكر أولية التترو بخربهم بخارى وسواها —

كان تنكيز خان حدادا بارض الخطا وكان له كرم نفس وقوة وبسطة في الجسم وكان يجمع الناس ويطعمهم ثم صارت له جماعة فقدموه على أنفسهم وغلب على بلده وقوى واشتدت شوكته واستفحل أمره فغلب على مالك الخطائين على ملك الصين وعظمت جيوشه وتغلب على بلاد الختن وكاشغر والمالط وكان جلال الدين سنجر بن خوارزم شاه ملك خوارزم وخراسان وما وراء النهر له قوة عظيمة وشوكة فها به تنكيز وأحجم عنه ولم يتعرض له فاتفق أن يبعث تنكيز تجارا بامتعة الصين والخطا من الثياب الحريرية وسواها الى بلدة أطرار (بضم الهمزة) وهي آخر عمالة جلال الدين فبعث اليه عاملا عليها معلما بذلك واستأذنه ما يفعل في أمرهم فكتب اليه يأمره أن يأخذ أموالهم ويمثل بهم ويقطع أعضاءهم ويردهم الى بلادهم لا أراد الله تعالى من شقاء أهل بلاد المشرق ومحتتهم رأيا قائلا وتدبير اسيا مشؤما فلما فعل ذلك تجهز تنكيز بنفسه في عساكر لا تحصى كثيرة برسم غزو بلاد الاسلام فلما سمع عامل اطرار بحركته بعث الجواسيس ليا توه بخبره فذكر ان احدهم دخل محلة بعض أمراء تنكيز في صورة سائل فلم يجد من يطعمه ونزل الى جانب رجل منهم فلم ير عنده زاد ولا أطعمه شيئا فلما أمسى أخرج مصرا نايابسة عنده فبليها بالماء وفصد فرسه وملاها بدمه وعقدها وشواها بالنار فكانت طعامه فعاد الى اطرار فاخبر عاملها بأمرهم وأعلمه ان لا طاقة لاحد بقتالهم فاستمد ملكه جلال الدين فامده بستين ألفا زيادة على من كان عنده من العساكر فلما وقع القتال هزمهم تنكيز ودخل مدينة اطرار بالسيف فقتل الرجال وسبي الذراري وآتى جلال الدين بنفسه لمحاربتهم فكانت بينهم وقائع لا يعلم في الاسلام مثلها وآل الامر الى ان تملك تنكيز ما وراء النهر وخرم بخارى وسمرقند وترمدوعير النهر ونهر جيحون الى مدينة بلخ فتملكها ثم الى اليا ميان (الباميان) فتملكها وأوغل في بلاد خراسان وعراق المعجم فنار عليه المسلمون في بلخ وفي ما وراء النهر فكرر عليهم ودخل بلخ بالسيف وتركها خاوية على عروشها ثم فعل مثل ذلك في ترمذ فخربت ولم تعمر بعد لكنها بنيت مدينة على ميلين منها هي التي تسمى اليوم ترمذ

وقتل أهل اليا ميان (الباميان) وهدمها بأسرها الا صومعة جا معها وعفا عن أهل بخاريه
وسمرقند ثم عاد بعد ذلك الى العراق وانتهى أمر التتر حتى دخلوا حضرة الاسلام ودار
الخلافة بغداد بالسيف وذبحوا الخليفة المستعصم بالله العباسي رحمه الله

(قال ابن جزى) أخبرنا شيخنا قاضي القضاة أبو البركات ابن الحاج أعزه الله قال سمعت
الخطيب أبا عبد الله بن رشيد يقول لقيت بمكة نورا لدين ابن الزجاج من علماء العراق ومعه
ابن أخ له فتفاوضنا الحديث فقال لي هلك في فتنة التتر بأعراق أربعة وعشرون ألف رجل
من أهل العلم ولم يبق منهم غيري وغير ذلك وأشار الى ابن أخيه

(رجع) قال ونزلنا من بخاري برضها المعروف بفتح أباد حيث قبر الشيخ العالم العابد
الزاهد سيف الدين الباخرزي وكان من كبار الأولياء وهذه الزاوية المنسوبة لهذا الشيخ
حيث نزلنا عظيمة لها أوقاف ضخمة يطعم منها الوارد والصادر وشيخها من ذريته وهو الحاج
السياح يحيى الباخرزي وأضافني هذا الشيخ بداره وجمع وجوه أهل المدينة وقرأ القراء
بالاصوات الحسان ووعظ الواعظ وغنوا بالتركي والفارسي على طريقته حسنة ومرت لنا
هنالك ليلة بدعية من أعجب الليالي ولقيت بها الفقيه العالم الفاضل صدر الشريعة وكان قد قدم
من هراة وهو من الصالحاء الفضلاء وزرت ببخاري قبر الامام العالم أبي عبد الله البخاري
مصنف الجامع الصحيح شيخ المسلمين رضي الله عنه وعليه مكتوب هذا قبر محمد بن
اسماعيل البخاري وقد صنف من الكتب كذا وكذا وكذلك على قبور علماء بخاري
أسماءهم وأسماء تصانيفهم وكنيت قيدت من ذلك كثيرا وضاع مني في جملة ما ضاع لي لما
سلمني كفار الهند في البحر ثم سافرنا من بخاري قاصدين معسكر السلطان الصالح المعظم
علاء الدين طر مشير بن وسند كره فررنا على نخشب الدلة التي ينسب اليها الشيخ أبو تراب
النخشي وهي صغيرة تحف بها البساتين والمياه فنزلنا بخارجها بدار لا ميرها وكان عندي
جارية قد قاربت الولادة ركنت أردت حملها الى سمرقند لتلد لها فاتفق اهلها كانت في
الحمل فوضع الحمل علي الجمل وسافر أصحابنا من الليل وهي معهم والزاد وغيره من أسباني
وأقمت أنا حتى ارتحل نهارا مع بعض من معي فسلكو طريقا وسلكت طريقا سواها
فوصلنا عشية النهار الى محلة السلطان المذكور وقد جمعنا فنزلنا على بعد من السوق واشترى
بعض أصحابنا ماسد جو عتنا وأعار بعض التجار خباء بتنا به تلك الليلة ومضي أصحابنا من
الغد في البحث عن الجمال وبقي الاصحاب فوجدوهم عشيا وجأؤا بهم وكان السلطان غائبا عن
المحلة في الصيد فاجتمعت بنا ثلثة الامير تقيغا فأنزلني بقرب مسجده وأعطاني خرقة (خر كاه)

وهي شبه الخباء وقد ذكرنا صفتها فيما تقدم فجعلت الجارية في تلك الخرقه فولدت تلك الليلة مولودا وأخبروني أنه ولد ذكر ولم يكن كذلك فلما كان بعد العقيقة أخبرني بعض الأصحاب أن المولود بنت فاستحضرت الجوارى فسالتهم فأخبرني بذلك وكانت هذه البنت مولودة في طالع سعد فرأيت كل ما يسرنى وبرضىني منذ ولدت وتوفيت بعد وصولي إلى الهند بشهرين وسيد ذلك واجتمعت بهذه الحلة بالشيخ الفقيه العابد مولانا حسام الدين الياغى (بالياء آخر الحروف والعين المعجمة) ومعناه بالتركية الثا ثروه - ومن أهل أطرار وباشيخ صهر السلطان

— ذكر سلطان ما وراء النهر —

وهو السلطان المعظم علاء الدين طرمشير بن (وضبط اسمها بفتح الطاء المهمل وسكون الراء وفتح الميم وكسر الشين المعجم وياء مدورا مكسورا وياء مد ثانية ونون) وهو عظيم المقدار كثيرا لجيوش والعسا كرضخم المملكة شديد القوة عادل الحكم وبلاده متوسطة بين أربعة من ملوك الدنيا الكبار وهم ملك الصين وملك الهند وملك العراق والملك أوزبك وكلهم يهادونه ويعظمونه ويكرمونه وولي الملك بعد أخيه الجكطى (وضبط اسمه بفتح الجيم المعقودة والكاف والطاء المهمل وسكون الياء) وكان الجكطى هذا كافرا وولى بعد أخيه الأكبر كبك وكان كبك هذا كافرا أيضا لكنه كان عادل الحكم منصف للمظلومين يكرم المسلمين ويعظمهم

— حكاية —

يذكر أن هذا الملك كبك تكلم يوما مع الفقيه الواعظ المذكور بدر الدين الميداني فقال له أنت تقول إن الله ذكر كل شيء في كتابه العزيز قال نعم فقال أين اسمي فيه فقال هو في قوله تعالى في أي صورة ما شاء ركبك فاعجبه ذلك وقال يخشي ومعناه بالتركية جيد فأكرمه أكراما كثيرا وزاد في تعظيم المسلمين

— حكاية —

ومن أحكام كبك ما ذكر أن امرأة شكت له بأحد الأمراء وذكرت أنها فقيرة ذات أولاد وكان لها ابن تقوتهم بشمته فاغتصبه ذلك الأمير وشربه فقال لها أنا أوسطه فان خرج اللبن من جوفه مضى لسبيله والا وسطتك بعده فقالت المرأة قد حملته ولا اطلبه بشيء فامر به فوسط فخرج اللبن من بطنه وانعدل ذكر السلطان طرمشيرين ولما قامت بالحلة وهم يسمونها الارتدو أيا ما ذهبت يوما لصلاة الصبح بالمسجد على عادتي فلما صليت ذكر لي بعض الناس أن السلطان بالمسجد فلما قام عن مصلاه تقدمت للسلام عليه وقام الشيخ حسن والفقيه حسام الدين الياغى واعلماه بحالي وقدومي منذ أيام فقال لي بالتركية

خش ميسن يخشى ميسن قطلوا يوسن ومعني خش ميسن في عافية أنت ومعني يخشى ميسن جيد أنت ومعني قطلوا يوسن مبارك قدومك وكان عليه في ذلك الحين قبا قدسي أخضر وعلي رأسه شاشية مثله ثم انصرف الى مجلسه راجلا والناس يتعرضون له بالشكايات فيقف لكل مشتك منهم صغيرا أو كبيرا أو انثي ثم بعث عنى فوصلت اليه وهو في خرقة والناس خارجها ميمنة وميسرة والامراء منهم على الكراسي واصحابهم وقوف على رؤسهم وبين ايديهم وسائر الجند قد جلسوا صفوفا وامام كل واحد منهم سلاحه وهم اهل التوبة يقعدون هنالك الى العصر وياتي آخرون فيقعدون الى آخر الليل وقد صنعت هنالك سقائف من ثياب القطن يكونون بها ولما دخلت الى انك بداخل الخرقة ملبس بثياب الحرير المذهب والتاج المرصع بالجوهر والياواقيت معلق فوق رأس السلطان بينه وبين رأسه قدر ذراع والامراء الكبار على الكراسي عن يمينه ويساره وأولاد الملوك بايديهم المذاب بين يديه وعند باب الخرقة النائب والوزير والحاجب وصاحب العلامة وهم يسمون آل طمغني وآل (بفتح الهمزة) معناه الاحمر وطمغني (بفتح الطاء) المهمل وسكور الميم والغين المعجم المفتوح (ومعناه العلامة) وقام الى اربعةتهم حين دخولي ودخلوا معي فسلمت عليه وسالني وصاحب العلامة يترجم بيني وبينه عن مكة والمدينة والقدس شرفها الله وعن مدينة الخليل عليه السلام وعن دمشق ومصر والملك الناصر وعن العراقيين وملوكهم وبلاد الاغا جم ثم أذن المؤذن بالظهر فانصرفنا وكننا نحضر معه الصلوات وذلك في يوم البرد الشديد الممك فكان لا يترك صلاة الصبح والعشاء في الجماعة ويقعد للذكر بالتركيا بعد صلاة الصبح الى طلوع الشمس ويأتي اليه كل من في المسجد فيصافحه ويشد بيده على يده وكذلك يفعلون في صلاة العصر وكان اذا أوتي بهدية من زبيب أو تمر والتمر عز يز عندهم وهم يتبركون به يعطى منها بيده لكل من في المسجد — حكاية —

ومن فضائل هذا الملك انه حضرت صلاة العصر يوما ولم يحضر السلطان فجاء أحد فتيانه بسجادة ووضعها قبالة الحراب حيث جرت عادته ان يصلي وقال للامام حسام الدين الياغي ان مولانا يريد ان تنتظره بالصلاة قليلا ريثما يتوضا فقام الامام المذكور وقال نماز ومعناه الصلاة برأي خد أو برأي طر مشيرين أي الصلاة لله أو اطر مشيرين ثم أمر المؤذن باقادة الصلاة وجاء السلطان وقد صلى منها ركعتان فصلي الركعتين الآخرتين حيث انتهى به القيام وذلك في الموضع الذي تكون فيه أنعلة الناس عند باب المسجد وقضى ما فاتة وقام الى الامام

ليصافحه وهو يضحك وجلس قبالة المحراب والشيخ الامام الى جانبه وأنا الى جانب الامام فقال لي اذا مشيت الى بلادك فحدث ان فقيرا من فقراء الاعاجم يفعل هكذا مع سلطان الترك وكان هذا الشيخ يعظ الناس في كل جمعة ويامر السلطان بالمعروف وينهاه عن المنكر وعن الظلم ويغلظ عليه القول والسلطان ينصت لكلامه ويبكى وكان لا يقبل من عطاء السلطان شيئا ولم يأكل قط من طعامه ولا لبس من ثيابه وكان هذا الشيخ من عباد الله الصالحين وكنت كثيرا ما أرى عليه قباء قطن مبطنا بالقطن محشوا به وقد بلى وتمزق وعلى رأسه قلنسوة لبد يساوى مثلها قيراطا ولا عمامة عليه فقلت له في بعض الايام يا سيدي ما هذا القباء الذي أنت لا بسهانه ليس يجيد فقال لي يا ولدي ليس هذا القباء لي وإنما هو لابنتي فرغبت منه ان ياخذ بعض ثيابي فقال لي عاهدت الله منذ خمسين سنة ان لا أقبل من أحد شيئا ولو كنت أقبل من أحد لقبلت منك ولما عزمت على السفر بعد مقامي عندها السلطان أربعة وخمسين يوما أعطاني السلطان سبعمائة دينار درهم وفروة سمور تساوى مائة دينار طلبتها منه لاجل البرد ولما ذكرتها له أخذ أكامي وجعل يقبلها بيده تواضعا منه وفضلا وحسن خلق وأعطاني فرسين وجمالين ولما أردت وداعه أدركته في أثناء طريقه الى متصيده وكان اليوم شديد البرد جدا فوالله ما قدرت على أن أنطق بكلمة لشدة البرد ففهم ذلك وضحك وأعطاني بده وانصرفت وبعد سنتين من وصولي الى أرض الهند بلغنا الخبر بان الملائكة من قومه وأمراءه اجتمعوا باقصي بلاده المجاورة للصين وهناك معظم عساكره وبايعوا ابن عم له اسمه بوزن أغلي وكل من كان من أبناء الملوك فهم يسمونه أغلي (بضم الهمزة وسكون الغين المعجمة وكسر اللام) وبوزن (بضم الباء الموحدة وضم الزاي) وكان مسلما الا انه فاسد الدين سيئ السيرة وسبب بيعتهم له وخلعهم لطر مشيرين ان طر مشيرين خالف أحكام جدتهم تنكيز اللعين الذي خرب بلاد الاسلام وقد تقدم ذكره وكان تنكيز ألف كتابا في أحكامه يسمى عندهم اليساق (بفتح الياء آخر الحروف والسين المهملة وآخره قاف) وعندهم انه من خالف أحكام هذا الكتاب فخلعه واجب ومن جملة أحكامهم يجتمعون يوما في السنة يسمونه الطوي ومعناه يوم الضيافة ويأتي أولاد تنكيز والامراء من أطراف البلاد وبحضر الخواتين وكبار الاجناد وان كان سلطانهم قد غير شيئا من تلك الاحكام يقوم اليه كبارهم فيقولون له غيرت كذا وغيرت كذا وفعلت كذا وقد وجب خلعتك وياخذون بيده ويقيمونه عن سرير الملك ويقعدون غيره من أبناء تنكيز وان كان أحد الامراء الكبار أذنب ذنبا في

بلاده حكموا عليه بما يستحقه وكان السلطان طرمشيرين قد أبطل حكم هذا اليوم
 ومحا رسمه فانكروه عليه أشد الانكار وأنكروا عليه أيضا كونه أقام أربع سنين فيما
 بلى خراسان من بلاده ولم يصل الى الجهة التي توالى الصين والعادة ان الملك يقصد تلك
 الجهة في كل سنة فيختبر أحوالها وحال الجند بها لان أصل ملكهم منها ودار الملك هي
 مدينة المالق فلما بايعوا بوزن أتى في عسكر عظيم وخاف طرمشيرين على نفسه من
 أمرائه ولم يامنهم فركب في خمسة عشر فارسا يريد بلاد غزنة وهي من عمالته وواليتها
 كبير أمرائه وصاحب سره برنطيه وهذا الامير محب في الاسلام والمسلمين قد عمر في
 عمالته نحو أربعين زاوية فيها الطعام للوارد والصادر وتحت يده العساكر العظيمة ولم أر
 قط فيمن رأيت من الآدميين بجميع بلاد الدنيا أعظم خلقة منه فلما عبر نهر جيجون
 وقصد طريق بلخ رآه بعض الأتراك من أصحاب ينقي ابن أخيه كبك وكان السلطان
 طرمشيرين المذكور قتل أخاه كبك المذكور وتي ابنه ينقي ببلخ فلما أعلمه التركى بخبره
 قال ما فر إلا أمر حدث عليه فركب في أصحابه وقبض عليه وسجنه ووصل بوزن الى
 سمرقند و بخارى فبايعه الناس وجاءه ينقي بطرمشيرين فيذكرانه لما وصل الى نسف
 بخارج سمرقند قتل هنالك ودفن بها وخدم تربته الشيخ شمس الدين كردن بريدا
 وقيل انه لم يقتل كما سئد كره وكردن (بكاف معقودة وراء مسكن ودال مهمل مفتوح
 ونون) ومعناه العنق وبريدا (بضم الباء الموحدة وكسر الراء وياء مدودال مهمل)
 معناه المقطوع ويسمي بذلك لضربة كانت في عنقه وقد رأيت بارض الهند ويقع ذكره
 فيما بعد ولما ملك بوزن هرب ابن السلطان طرمشيرين وهو بشاي أغل (أغلى) وأخته
 وزوجها فيروز الى ملك الهند فعظمهم وأنزلهم منزلة عليية بسبب ما كان بينه وبين
 طرمشيرين من الود والمكاتبه والمهاداة وكان يخاطبه بالاخ ثم بعد ذلك أتى رجل من
 أرض السند وادعي انه هو طرمشيرين واختلف الناس فيه فسمع بذلك عماد الملك سرتيز
 غلام ملك الهند ووالى بلاد السند ويسمي ملك عرض وهو الذي تعرض بين يديه
 عساكر الهند واليه أمرها ومقره بملتان قاعدة السند فبعث اليه بعض الأتراك العارفين به
 فعادوا اليه وأخبروه انه هو طرمشيرين حقا فامر له بالسراجة وهي افراج فضرب خارج
 المدينة ورتب له ما يرتب لمثله وخرج لاستقباله وترجل له وسلم عليه وأتى في خدمته الى
 السراجة فدخلها راكبا كعادة الملوك ولم يشك أحدا انه هو وبعث الى ملك الهند بخبره
 فبعث اليه الامراء يستقبلونه بالضيافات وكان في خدمة ملك الهند حكيم ممن خدم طرمشيرين

فما تقدم وهو كبير الحكماء بالهند فقال للملك أنا أتوجه اليه وأعرف حقيقة أمره فاني كنت عالجته لهدملا تحت ركبته وبقي أثره وبه أعرفه فاني اليه ذلك الحكيم واستقبله مع الامراء ودخل عليه ولازمه لسابقته عنده وأخذ يغمز رجله وكشف عن الاثر فشتمه وقال له تريد ان تنظر الى الدم الذي عالجته ها هو ذا وراه أثره فتحقق انه هو وعاد الى ملك الهند فاعلمه بذلك ثم ان الوزير خواجه جهان أحمد بن اياس وكبير الامراء قتلوخان معلم السلطان أيام صغره دخل على ملك الهند وقال له يا خوند عالم هذا السلطان طرمشير بن قد وصل وصح انه هو وها هنا من قومه نسو أر بعين ألفا وولده وصهره أرأيت ان اجتمعوا عليه ما يكون من العمل فوق هذا الكلام بموقع منه عظيم وامر ان يؤتى بطرمشير بنه معجلا فلم ادخل عليه امر بالخدمة كسائر الواردين ولم يعظم وقال له السلطان بما ذكر كافي وهي شتمة قبيحة كيف تكذب وتقول انك طرمشير بن وطرمشير بن قد قتل وهذا خادم تربته عندنا والله لولا المعرة لقتلتك ولكن أعطوه خمسة آلاف دينار واذهبوا به الى دار بشاي اغلي واختمه ولدي طرمشير بن وقولوا لهم ان هذا الكاذب يزعم انه والدكم فدخل عليهم فعرفوه وبات عندهم والحراس يحرسونه واخرج بالغد وخافوا ان يهلكوا بسببه فانكروه ونفى عن بلاد الهند والسند فسلك طريق كبيج ومكران وأهل البلاد يكرمونه ويضيفونه ويهادونه ووصل الى شيراز فاكرمه سلطانهما أبو اسحق واجرى له كفايته ولما دخلت عند وصولي من الهند الى مدينة شيراز ذكر لي انه باق بها وارتد لقاءه ولم أفعل لانه كان في دار لا يدخل اليه احد الا باذن من السلطان أبي اسحاق فخفت مما يتوقع بسبب ذلك ثم ندمت على عدم لقائه

(رجع الحديث الى بوزن) وذلك انه لما ملك ضيق علي المسلمين وظلم الرعية واباح للنصارى واليهود عمارة كنائسهم فضج المسلمون من ذلك وترى مصوا به الدوائر واتصل خبره بخليل ابن السلطان اليسور المهزوم على خراسان فقصد ملك هراة وهو السلطان حسين ابن السلطان غياث الدين الغوري فاعلمه بما كان في نفسه وسأل منه الاغاثة بالعساكر والمال على أن يشا طره انلك اذا استقام له فبعث معه الملك حسين عسكرا عظيما وبين هراة وترمز تسعة أيام فلما سمع أمراء السلطان بقدوم خليل تلقوه بالسمع والطاعة والرغبة في جهاد العدو وكان أول قادم عليه علاء الملك خداوندزاده صاحب ترمذ وهو أمير كبير شريف حسيني النسب فاتاه في أربعة آلاف من المسلمين فسر به وولاه وزارته وفوض اليه أمره وكان من الابطال وجاء الامراء من كل ناحية واجتمعوا على خليل

والتقى مع بوزن فمالت العسا كرا الى خليل واسلموا بوزن وأتوا به أسيراً فقتله خنقا بابوتار
القسي وتلك عادة لهم انهم لا يقتلون من كان من أبناء الملوك الا خنقا واستقام الملك لخليل
وعرض عسا كره بسمرقند فكانوا ثمانين ألفا عليهم وعلى خيلهم الدروع فصرف العسكر
الذي جاء به من هراة وقصد بلاد المايق فقدم التتر على أنفسهم واحداً منهم والقود على
مسيرة ثلاث من المايق بمقربة من اطراز (طراز) وحى القتال وصبر الفريقان فحمل
الامير خداوندزاده وزيره في عشرين ألفا من المسلمين حملة لم يثبت لها التتر فانهمزوا
واشتد فيهم القتل وأقام خليل بالمايق ثلاثا وخرج الى استئصال من بقي من التتر فاذعنوا
له بالطاعة وجازا الى تخوم الخطا والصين وفتح مدينة قراقرم ومدينة بش بالغو بعث اليه
سلطان الخطا بالعسا كره ثم وقع بينهما الصلح وعظم أمر خليل وهايته الملوك وأظهر العدل
ورتب العسا كره بالمايق وترك بها وزيره خداوند زاده وانصرف الى سمرقند وبخارى ثم
ان التتر أرادوا الفتنة فسعوا الى خليل بوزيره المذكور وزعموا انه يريد الثورة ويقول
انه أحق بالملك لقربته من النبي صلى الله عليه وسلم وكرمه وشجاعته فبعث واليا الى المايق
عوضاً عنه وأمره أن يقدم عليه في نفر يسير من أصحابه فلما قدم عليه قتله عند وصوله
من غير تثبيت فكان ذلك سبب خراب ملكه وكان خليل لما عظم أمره بغى على صاحب
هراة الذي أورثه الملك وجهزه بالعسا كره والمال فكتب اليه أن يخطب في بلاده باسمه
ويضرب الدنانير والدراهم على سكتته فغاض ذلك الملك حسينا وأنف منه وأجابه بأقبح
جواب فتجهز خليل لقتاله فلم توافقه عسا كره الا سلام ورأوه باغيا عليه وبلغ خبره الى
الملك حسين فجهز العسا كره مع ابن عمه ملك ورناء والتقى الجمعان فانهمز خليل وأتى به
الى الملك حسين أسيراً فمُن عليه بالبقاء وجعله في دار وأعطاه جارية وأجرى عليه النفقة
وعلى هذا الحال تركته عنده في أواخر سنة سبع وأربعين عند خروجه من الهند ~~و~~ ولنعبد
الى ما كنا بسبيله ~~و~~ ولما ودعت السلطان طر مشيرين سافرت الى مدينة سمرقند وهي من
أكبر المدن وأحسنها وأتمها جمالا مبنية على شاطئ وادي يعرف بوادي القصارين عليه
النواعير تسقي البساتين وعنده يجتمع أهل البلد بعد صلاة العصر للأنزهة والتفرج ولهم
عليه مساطب ومجالس يقعدون عليها ودكاكين تباع بها الفاكهة وسائر المأكولات وكانت
على شاطئه قصور عظيمة وعمارة تنبئ عن علوهم أهلها فدنوا أكثر ذلك وكذلك
المدينة خرب كثير منها ولا سور لها ولا أبواب عليها وفي داخلها البساتين وأهل سمرقند
لهم مكارم اخلاق ومحبة في الغريب وهم خير من أهل بخارى وبخارج سمرقند قبر قثم بن

العباس بن عبد المطلب رضى الله عن العباس وعن ابنه وهو المشتشهد حين فتحها ويخرج أهل سمرقند كل ليلة اثنين وجمعة الى زيارته والتتر ياتون لزيارته وينذرون له النذور العظيمة وياتون اليه بالبقر والغنم والدراهم والدنانير فيصرف ذلك في النفقة على الوارد والصادر ولخدام الزاوية والقبر المبارك وعليه قبة قائمة على أربع أرجل ومع كل رجل ساربتان من الرخام منها الخضضر والسود والبييض والحمر وحيطان القبة بالرخام المجزع المنقوش بالذهب وسقفها مصنوع بالرصاص وعلى القبر خشب الآبنوس المرصع مكسو الاركان بالفضة وفوقه ثلاثة من قناديل الفضة وفرش القبة بالصوف والقطن وخارجها فهر كبير يشق الزاوية التي هنالك وعلى حافته الاشجار ودوا الى العنب والياسمين وبالزاوية مساكن يسكنها الوارد والصادر ولم يغير التتر أيام كفرهم شيئا من حال هذا الموضع المبارك بل كانوا يتبركون به لما يرون له من الآيات وكان الناظر في كل حال هذا الضريح المبارك وما يليه حين نزولنا به الا ميرغيات الدين محمد بن عبد القادر بن عبد العزيز بن يوسف ابن الخليفة المستنصر بالله العباسي قدمه لذلك السلطان طر مشيرين لما قدم عليه من العراق وهو الآن عند ملك الهند وسياق ذكروه رلقيت بسمرقند قاضيها المسمي عندهم صدر الجهان وهو من الفضلاء ذوى المكارم وسافر الى بلاد الهند بعد سفرى اليها قادر كته منيته بمدينة ملتان قاعدة بلاد السند

— حكاية —

لمسات هذا القاضي بملتان كتب صاحب الخبر بامر الى ملك الهند وانه قدم برسم بابه فاخترم دون ذلك فلما بلغ الخبر الى الملك أمر أن يبعث الى أولاده عدد من آلاف الدنانير لا اذ كرهه الآن وأمر أن يعطى لا صحابه ما كان يعطى لهم لو وصلوا معه وهو بقيد الحياة وللك الهند في كل بلد من بلاده صاحب الخبر يكتب له بكل ما يجري في ذلك البلد من الامور وبمن يرد عليه من الواردين واذا أني الوارد كتبوا من أي البلاد ورد وكتبوا اسمه ونعته وثيابه وأصحابه وخيله وخدامه وهيئته من الجلوس والمأكل وجميع شؤنه وتصرفاته وما يظهر منه من فضيلة أو ضدها فلا يصل الوارد الى الملك الا وهو طرف بجميع حاله فتكون كرامته على مقدار ما يستحقه وسافر انا من سمرقند فاجتزنا ببلدة نسف واليه ينسب أبو حفص عمر النسفى مؤلف كتاب المنظومة في المسائل الخلافية بين الفقهاء الاربعة رضى الله عنهم ثم وصلنا الى مدينة ترمذ التي ينسب اليها الامام أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي مؤلف الجامع الكبير في السنن وهي مدينة كبيرة حسنة العمارة والاسواق تخرقها الانهار وبها البساتين الكثيرة والعنب والسفرجل بها كثير متناهي الطيب

واللحوم بها كثيرة وكذلك الا لبان وأهلها يغسلون رؤسهم في الحمام اللين عوضا عن الطفل ويكون عند كل صاحب حمام أو عية كبار مملوءة لبنا فاذا دخل الرجل الحمام أخذ منها في اناء صغير فغسل رأسه وهو يرطب الشعر ويصقله وأهل الهند يجعلون في رؤسهم زيت السمسم ويسموناه الشيراج ويغسلون الشعر بعده بالطفل فينعم الجسم ويصقل الشعر ويطيبله وبذلك طالت لحى أهل الهند ومن سكن معهم وكانت مدينة ترمذ القديمة مبنية على شاطئ جيجون ولما خربها تنكيز بنيت هذه الحديثة على ميلين من النهر وكان نزولنا بها بزاوية الشيخ الصالح عزيزان من كبار المشايخ وكرمائم كثير المال والرباع والبساتين ينفق على الوارد والصادر من ماله واجتمعت قبل وصولي الى هذه المدينة بصاحبها علاء الملك خدارند زاده وكتب لي اليها بالضيافة وكانت تحمل الينا أيام مقامنا بها في كل يوم واقيت أيضا قاضيه اقوام الدين وهو متوجه لرؤية السلطان طر مشيرين وطالب للاذن له في السفر الى بلاد الهند وسياقي ذكر لقائي له بعد ذلك ولاخويه ضياء الدين وبرهان الدين بلمتان وسفرنا جميعا الى الهند وذكروا أخويه الآخرين عماد الدين وسيف الدين ولقائي لهما بحضرة ملك الهند وذكروا ولديه وقدمهما على ملك الهند بعد قتل أبيهما وتزويجهما بنتي الوزير خواجه جهان وما يجري في ذلك كله ان شاء الله تعالى ثم اجزنا نهر جيجون الى بلاد خراسان وسرنا بعد انصرافنا من ترمذ واجازة الوادي يوما ونصف يوم في صحراء ورمال لا عمارة بها الى مدينة بلخ وهي خاوية على عروشها غير عامرة ومن رآها ظنها عامرة لا تقان بنائها وكانت ضخمة فسيحة ومساجدها ومدارسها باقية الرسوم حتى الآن ونقوش مبانيها مدخلة باصبغة اللازورد والناس ينسبون اللازورد الى خراسان وانما يجلب من جبال بدخشان التي ينسب اليها الياقوت البدخشي والعامرة يقولون البلخش وسياقي ذكرها ان شاء الله تعالى وخرب هذه المدينة تنكيز اللعين وهدم من مسجدها نحو الثلث بسبب كبره انه تحت سارية من سواريه وهو من أحسن مساجد الدنيا وامسحها ومسجد رباط الفتح بالمغرب يشبه في عظم سواريه ومسجد بلخ اجمل منه في سوى ذلك

— حكاية —

ذكر لي بعض أهل التاريخ أن مسجد بلخ بنته امرأة كان زوجها أميرا بلخ لبني العباس يسمى داود بن علي فاتفق ان الخليفة غضب مرة على أهل بلخ لحادث الحدوث فبعث اليهم من يغرمهم مغرما فادحا فلما بلغ الى بلخ أتى نساؤها وصديقاتها الى تلك المرأة التي بنت المسجد وهي زوج أميرهم وشكوا حالهم وما لحقهم من هذا المغرم فبعثت الى الأمير الذي

قدم برسم تفريمهم بثوب لها مرصع بالجواهر قيمته أكثر مما أمر بتفريمه فقالت له اذهب بهذا الثوب الى الخليفة فقد أعطيته صدقة عن أهل بلخ لضعف حالهم فذهب به الى الخليفة والتي الثوب بين يديه وقص عليه القصة فخجل الخليفة وقال أتكون المرأة أكرم منا وأمره يرفع المغرم عن أهل بلخ وبالعودة اليها يريد للمرأة ثوبها وأسقط عن أهل بلخ خراج سنة فعاد الامير الى بلخ وآتى منزل المرأة وقص عليها مقالة الخليفة ورد عليها الثوب فقالت له أوقع بصر الخليفة على هذا الثوب قال نعم قالت لا البس ثوبا وقع عليه بصر غير ذى محرم منى وأمرت ببيعه فبني منه المسجد والزاوية ورباط في مقابلته مبني بالكذبان وهو عامر حتى الآن وفضل من ثمن الثوب مقدار ثلثه فذكر انها أمرت بدفنه تحت بعض سوارى المسجد ليكون هنالك متيسرا ان احتيج اليه خرج فاخبر تنكير بهذه الحكاية فامر بهدم سوارى المسجد فهدم منها نحو الثالث ولم يجد شيئا فترك الباقي على حاله وبخارج بلخ قبر يذكر انه قبر عكاشة بن محصن الاسدي صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما الذى يدخل الجنة بلا حساب وعليه زاوية معظمة بها كان نزولنا وبخارجها بركة ماء عجيبة عليها شجرة جوز عظيمة ينزل الواردون في الصيف تحت ظلالها وشيخ هذه الزاوية يعرف بالحاج خرد وهو الصغير من الفضلاء وركب معنا وأرانا مزارات هذه المدينة منها قبر حزقيال النبي عليه السلام وعليه قبة حسنة وزرنا بها أيضا قبورا كثيرة من قبور الصالحين لا أذكرها الآن ووقفنا على دار ابراهيم بن أدهم رضي الله عنه وهي دار ضخمة مبنية بالصخر الابيض الذى يشبه الكذان وكان زرع الزاوية مقترنا بها وقد سدت عليه فلم ندخلها وهي بمقربة من المسجد الجامع ثم سافرنا من مدينة بلخ فسرنا في جبال قوه أستان (فهستان) سبعة أيام وهي قري كثيرة عامرة بها المياه الجارية والاشجار المورقة وأكثرها شجر التين وبها زوايا كثيرة فيها الصالحون المنقطعون الى الله تعالى وبعد ذلك كان وصولنا الى مدينة هراة وهي أكبر المدن العامرة بخراسان ومدن خراسان العظيمة أربع ثنتان عامرتان وهما هراة ونيسابور وثنان خربتان وهما بلخ ومرو ومدينة هراة كبيرة عظيمة كثيرة العمارة ولاهلها صلاح وعفاف وديانة وهم على مذهب الامام أبى حنيفة رضى الله عنه وبلدهم طاهر من الفساد

— ذكر سلطان هراة —

وهو السلطان المعظم حسين ابن السلطان غياث الدين الغورى صاحب الشجاعة الماتورة والتأييد والسعادة ظهر له من اتجاد الله تعالى وتأييده في موطنين اثنين ما يقضي منه

العجب أحدهما عند ملاقاته جيشه للسلطان خليل الذي بغى عليه وكان منتهى أمره حصولة أسير في يديه والموطن الثاني عنده ملاقاته بنفسه لمسعود سلطان الرافضة وكان منتهى أمره تبديده وفراره وذهاب ملكه وولى السلطان حسين الملك بعد أخيه المعروف بالحافظ وولى أخوه بعد أبيه غياث الدين — حكاية الرافضة —

كان بخراسان رجلان أحدهما يسمى بمسعود والآخر يسمى بمحمد وكان لهما خمسة من الأصحاب وهم من الفتاك ويعرفون بالعراق بالاشطار ويعرفون بخراسان بسرا بداران (سر بداران) ويعرفون بالمغرب بالصقورة فاتفق سبعتهم على الفساد وقطع الطرق وسلب الأموال وشاع خبرهم وسكنوا أجبالا منيعا بمقربة من مدينة بيهق وتسمى أيضا مدينة سيزار (سيزوار) وكانوا يكمنون بالنهار ويخرجون بالليل والعشي فيضربون على القرى ويقطعون الطرق وياخذون الأموال واثقال عليهم أشباههم من أهل الشر والفساد فكثرت عددهم واشتدت شكواهم وهابهم الناس وضربوا على مدينة بيهق فملكوها ثم ملكوا سواها من المدن واكتسبوا الأموال وجندوا الجنود وركبوا الخيل وتسمى مسعود بالسلطان وصار العبيد يفرون عن مواليهم اليه فكل عبد فر منهم يعطيه الفرس والمال وان ظهرت له شجاعة أمره على جماعة فعظم جيشه واستفحل أمره وتمذهب جميعهم بمذهب الرافض وطمحوا إلى استئصال أهل السنة بخراسان وان يجعلوها كلمة واحدة رافضية وكان بمشهد طوس شيخ من الرافضة يسمى بحسن وهو عندهم من الصلحاء فوافقهم على ذلك وسموه بالخليفة وأمرهم بالعدل فظهروه حتى كانت الدراهم والدنانير تسقط في معسكرهم فلا يلتقطها أحد حتى يأتي ربها فيأخذها وغلبوا على نيسابور وبعث إليهم السلطان طغيتمور بالعسا كرفهزموه ثم بعث إليهم نائبه أرغون شاه فهزموه وأسروه ومنوا عليه ثم غزاه طغيتمور بنفسه في خمسين الفا من التتر فهزموه وملكوا البلاد وتغلبوا على سرخس والزاه وطوس وهى من أعظم بلاد خراسان وجعلوا خليفة لهم بمشهد على بن موسى الرضى وتغلبوا على مدينة الجام ونزلوا بخارجها وهم قاصدون مدينة هراة وبينها وبينها مسيرة ست فلما بلغ ذلك الملك حسيننا جمع الأمراء والعساكر وأهل المدينة واستشارهم هل يقيمون حتى يأتي القوم أو يمشون إليهم فيناجزونهم فوق إجماعهم على الخروج إليهم وهم قبيلة واحدة يسمون الغورية ويقال انهم منسوبون إلى غور الشام وان أصلهم من فتجهزوا وجمعوا من أطراف البلاد وهم ساكنون بالقرى وبصحراء مرغيس (بدغيس) وهى مسيرة أربع لا يزال عشبها اخضر ترعى منه ماشيتهم وخيلهم واکثر

شجرها الفستق ومنها يحمل الى أرض العراق وعضدهم أهل مدينة سمعان ونفروا جميعاً الى الرافضة وهم مائة وعشرون ألفاً ما بين رجاله وفرسان يقودهم الملك حسين واجتمعت الرافضة في مائة وخمسين ألفاً من الفرسان وكانت الملاقاة بصحراء بوشنج وصبر الفريقان معانم كانت الدائرة على الرافضة وفرسلطانهم مسعود وثبت خليفتهم حسن في عشرين ألفاً حتى قتل وقتل أكثرهم وأسر منهم نحو أربعين ألفاً وذكري بعض من حضر هذه الواقعة ان ابتداء القتال كان في وقت الضحى وكانت الهزيمة عند الزوال ونزل الملك حسين بعد الظهر فصلى وأتى بالطعام فكان هو وكبراء أصحابه يأكلون وسائرهم يضربون أعناق الأسرى وعاد الى حضرته بعد هذا الفتح العظيم وقد نصر الله السنة على يديه وأطفا نار الفتنة وكانت هذه الواقعة بعد خروجي من الهند عام ثمانية وأربعين ونشأ بهرة رجل من الزهاد والصلحاء الفضلاء واسمه نظام الدين مولانا وكان أهل هرة يحبونه ويرجمون الى قوله وكان يعظمهم ويذكروهم وتوافقوا معه على تغيير المنكر وتعاقد معهم على ذلك خطيب المدينة المعروف بملك ورناء هو ابن عم الملك حسين ومتزوج بزوجة والده وهي من أحسن الناس صورة وسيرة والملك يخافه على نفسه وسنذكر خبره وكانوا متي علموا بمكره ولو كان عند الملك غيره

— حكاية —

ذكر لي أنهم تعرفوا يوماً بان بدار الملك حسين منكرافاجتمعوا لتغييره وتحصن منهم بداخل داره فاجتمعوا على الباب في ستة آلاف رجل فخاف منهم فاستحضر الفقيه وكبار البلد وكان قد شرب الخمر فقاموا عليه الحد بداخل قصره وانصرفوا عنه

— حكاية هي سبب قتل الفقيه نظام الدين المذكور —

كانت الأتراك المجاورون لمدينة هرة الساكنون بالصحراء وملكهم طغيتمور الذي مر ذكره وهم نحو خمسين ألفاً يخافهم الملك حسين ويهدى لهم الهدايا في كل سنة ويدارهم وذلك قبل هزيمته للرافضة وأما بعد هزيمته للرافضة فتغلب عليهم ومن عادة هؤلاء الأتراك التردد الى مدينة هرة وربما شربوا بها الخمر وأتاهوا بعضهم وهو سكران فكان نظام الدين يحد من وجد منهم سكرانا وهؤلاء الأتراك أهل نجدة وباس ولا يزالون يضربون على بلاد الهند فيسبون ويقتلون وربما سبوا بعض المسلمات اللاتي يكن بارض الهند ما بين الكفار فاذا خرجوا بن الى خراسان يطلق نظام الدين المسلمات من أيدي الترك وعلامة النسوة المسلمات بارض الهند ترك ثقب الاذن والكافرات آذانهم مثقوبات فاتفق مرغان أميراً من أمراء الترك يسمى تمورالطبي سبي امرأة وكلف بها كلفاً شديداً فذكرت انها

مسلمة فانزعها الفقيه من يده فبلغ ذلك من التركي مبلغا عظيما وركب في آلاف من أصحابه وأغار على خيل هراة وهي في مرعاها بصحراء مرغيس (بدغيس) واحتملوا قلم يتركوا لاهل هراة ما يركبون ولا ما يحملون وصعدوا بها الى جبل هنالك لا يقدر عليهم فيه ولم يجد السلطان ولا جنده خيلا يتبعونهم بها فبعث اليهم رسولا يطلب منهم رد ما أخذوه من الماشية والخيل ويذكركم العهد الذي بينهم فاجابوا بانهم لا يردون ذلك حتى يمكنوا من الفقيه نظام الدين فقال السلطان لا سبيل الى هذا وكان الشيخ أبو أحمد الجسقي حفيد الشيخ مودود الجسقي له بخراسان شان عظيم وقوله معتبر لديهم فركب في جماعة خيل من أصحابه ومما ليكه فقال أنا أحمل الفقيه نظام الدين معي الى الترك ليرضوا بذلك ثم أردده فكان الناس مالوا الى قوله ورأي الفقيه نظام الدين اتفاقهم على ذلك فركب مع الشيخ أبي أحمد ووصل الى الترك فقام اليه الامير تمورالطي وقال له أنت أخذت امرأتي مني وضربه يد بوسه فكسر دماغه فخرمينا فسقط في أيدي الشيخ أبي أحمد وانصرف من هنالك الى بلده ورد الترك ما كانوا أخذوه من الخيل والماشية وبعد مدة قدم ذلك التركي الذي قتل للفقيه على مدينة هراة فلقية جماعة من أصحاب الفقيه فتقدموا اليه كأنهم مسلمون عليه وتحت نياهم السيوف فقتلوه وفر أصحابه ولما كان بعد هذا بعث الملك حسين ابن عمه ملك ورنال الذي كان رفيق الفقيه نظام الدين في تغيير المنكر رسولا الى ملك سيجستان فلما حصل بها بعث اليه أن يقيم هنالك ولا يعود اليه فقصد بلاد الهند واقبته وأنا خارج منها بمدينة سيوستان من السند وهو أحد الفضلاء وفي طبعه حب الرياسة والصييد والبزاة والخيل والمماليك والأصحاب واللباس الملوكي الفاخر ومن كان على هذا الترتيب فانه لا يصلح حاله بارض الهند فكان من أمره ان ملك الهند وولاه بلادا صغيرا وقتله به بعض أهل هراة المقيمين بالهند بسبب جارية وقيل ان ملك الهند دس عليه من قتله بسعي الملك حسين في ذلك ولا جله خدم الملك حسين ملك الهند بعد موت ملك ورنال المذكور وهاداه ملك الهند وأعطاه مدينة بكار من بلاد السند ومجباها خمسون الفان دنانير الذهب في كل سنة (ولنعد) الى ما كنا بسبيله فنقول سافرنا من هراة الى مدينة الجام وهي متوسطة حسنة ذات بساتين وأشجار وعيون كثيرة وأنهارا وكثر شجرها التوت والحريز بها كثير وهي تنسب الى الولي العابد الزاهد شهاب الدين أحمد الجامي وسنذكر حكايته وحفيده الشيخ أحمد المعروف بزاده الذي قتله ملك الهند والمدينة الآن لا ولاده وهي محررة من قبل السلطان ولهم بها نعمة وثروة وذكر لي من ائق به ان السلطان أباسعيد

هلك العراق قدم خراسان مرة ونزل على هذه المدينة وبها زاوية الشيخ فأضافه ضيافة عظيمة وأعطى لكل خباء بمحلته رأس غنم ولكل أربعة رجال رأس غنم ولكل دابة بالحلقة من فرس وبغل وحمار علف ليلة فلم يبق في الحلقة حيوان الا وصلته ضيافته

— حكاية الشيخ شهاب الدين الذي تنسب اليه مدينة الجام —

يذكر انه كان صاحب راحة مكثرا من الشرب وكان له من الندماء نحو ستين وكانت لهم عادة أن يجتمعوا يوما في منزل كل واحد منهم فتدور النوبة على أحدهم بعد شهرين وبقوا على ذلك مدة ثم ان النوبة وصلت يوما الى الشيخ شهاب الدين فعقد النوبة ليلة النوبة وعزم على اصلاح حاله معر به وقال في نفسه ان قلت لاصحابي اني قد ثبتت قبل اجتماعهم عندي ظنوا ذلك عجزا عن مؤنتهم فأحضر ما كان يحضر مثله قبل من ماء كولات ومشروب وجعل الخمر في الزقاق وحضر أصحابه فلما أرادوا الشرب فتحووا فاذقه أحدهم فوجده حلوا ثم فتحووا ثانيا فوجدوه كذلك ثم ثانيا فوجدوه كذلك فكلموا الشيخ في ذلك فخبرهم عن حقيقة أمره وصدقهم سن بكره وعرفهم بتوبته وقال لهم والله ما هذا الا الشراب الذي كنتم تشربونه فيما تقدم فتأبوا جميعا الى الله تعالى وبنوا تلك الزاوية وانقطعوا بها لعبادة الله تعالى وظهر لهذا الشيخ كثير من الكرامات والمكاشفات ثم سافروا من الجام الى مدينة طوس وهي من أكبر بلاد خراسان وأعظمها بلد الامام الشهير أبي حامد الغزالي رضى الله عنه وبها قبره ورحلنا منها الى مدينة مشهد الرضا وهو على بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين الشهيد ابن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضى الله عنهم وهي أيضا مدينة كبيرة ضخمة كثيرة القواكه والمياه والارحاء الطاحنة وكان بها الطاهر محمد شاه والطاهر عندهم بمعني النقيب عند أهل مصر والشام والعراق وأهل الهند والسند وتركتان يقولون السيد الاجل وكان أيضا بهذا المشهد القاضي الشريف جلال الدين لقيته بأرض الهند والشریف على وولده أمير هند ودولة شاه وصحبوني من ترمذ الى بلاد الهند وكانوا من الفضلاء والمشهد المكرم عليه قبة عظيمة في داخل زاوية تجاوزها مدرسة ومسجد وجميعها مليح البناء مصنوع الخيطان بالقاشاني وعلى القبر دكانة خشب ملبسة بصفايح الفضة وعليه قناديل فضة معلقة وعتبة باب القبة فضة وعلى بابها ستر حرير مذهب وهي مبسوطة بأنواع البسط وازاء هذا القبر قبر هارون الرشيد أمير المؤمنين رضى الله عنه وعليه دكانة يضعون عليها الشمعدانات التي يعرفها أهل المغرب بالحسك والمنائر واذا دخل الرافضی للزيارة ضرب

قبر الرشيد برجله وسلم على الرضا ثم سافرنا الى مدينة سرخس واليه ينسب الشيخ الصالح اقمان السرخسي رضي الله عنه ثم سافرنا منها الى مدينة زاوة وهي مدينة الشيخ الصالح قطب الدين حيدر واليه تنسب طائفة الحيدرية من الفقراء وهم الذين يجعلون حلق الحديد في أيديهم وأعناقهم وأذانهم ويجعلونها أيضا في ذكورهم حتى لا يتأذي لهم النكاح ثم رحلنا منها فوصلنا الى مدينة نيسابور وهي احدي المدن الاربع التي هي قواعد خراسان ويقال لها دمشق الصغيرة لكثرة قوا كهها وبساتينها ومياها وحسنها وتخرقها أربعة من الانهار وأسواقها حسنة متسعة ومسجدها بديع وهوفي وسط السوق ويليه أربع من المدارس يجري بها الماء الغزير وفيها من الطلبة خلق كثير يقرؤون القرآن والفقه وهي من حسان مدارس تلك البلاد ومدارس خراسان والعراقين ودمشق وبغداد ومصر وان بلغت الغاية من الانقان والحسن فكلها تقصر عن المدرسة التي عمرها مولانا أمير المؤمنين المتوكل على الله المجاهد في سبيل الله عالم الملوك واسطة عقد الخلفاء العادلين أبو عنان وصل الله سعده ونصر جنده وهي التي عند القصبة من حضرة فاس حرسها الله تعالى فانها لا نظير لها سعة وارتفاعا ونقش الجص بها لا قدوة لاهل المشرق عليه ويصنع بنيسابور ثياب الحرير من النخ والكخاء وغيرها وتحمل منها الى الهند وفي هذه المدينة زاوية الشيخ الامام العالم القطب العابد قطب الدين النيسابوري أحد الوعاظ العلماء الصالحين نزلت عنده فأحسن القرى وأكرم ورأيت له البراهين والكرامات العجيبة

— كرامة له —

كنت قد اشتريت بنيسابور غلاما تركيا فرآه معي فقال لي هذا الغلام لا يصلح لك فبعه فقلت له نعم وبعث الغلام في غد ذلك اليوم واشتراه بعض التجار وادعت الشيخ وانصرفت فلما حلت بمدينة بسطام كتب الى بعض أصحابي من نيسابور وذکر ان الغلام المذکور قتل بعض أولاد الاتراك وقتل به وهذه كرامة واضحة لهذا الشيخ رضي الله عنه وسافرت من نيسابور الى مدينة بسطام التي ينسب اليها الشيخ العارف أبو يزيد البسطامي الشهير رضي الله عنه وبهذه المدينة قبره ومعه في قبة واحدة أحد أولاد جعفر الصادق رضي الله عنه وبسطام أيضا قبر الشيخ الصالح الولي أبي الحسن الخرقاني وكان نزولي من هذه المدينة بزاية الشيخ أبي يزيد البسطامي رضي الله عنه ثم سافرت من هذه المدينة على طريق هند خير الى قندوس وبغلان وهي قرى فيها مشايخ وصالحون وبها البساتين والانهار فنزلنا بقندوس على نهر ماء به زاوية لا حد شيوخ الفقراء من أهل مصر يسمي بشير سياه

ومعنى ذلك الاسد الاسود وأضافنا بها والى تلك الارض وهو من أهل الموصل وسكنه
 ببستان عظيم هنالك وأقمنا بخارج هذه القرية نحو أربعين يوما لرعي الجمال والخيل وبها
 مراعي طيبة واعشاب كثيرة والامن بها شامل بسبب شدة احكام الامير برنطيه وقد قدمنا
 ان احكام الترك فى من سرق فرسا أن يعطى معه تسعة مثله فان لم يجد ذلك أخذ فيها أولاده
 فان لم يكن له أولاد ذبح ذبح الشاة والناس يتركون دوابهم مهملة دون راع بعد أن يسم
 كل واحد دوابه فى اخاذها وكذلك فعلنا فى هذه البلاد واتفق ان تفقدنا خيلنا بعد
 عشر من نزولنا بها ففقدنا منها ثلاثة أفراس ولما كان بعد نصف شهر جاءنا التتر بها الى
 منزلنا خوفا على أنفسهم من الاحكام وكنا نربط فى كل ليلة ازاء أخبيتنا فرسين لما عسى
 أن يقع بالليل ففقدنا الفرسين ذات ليلة وسافرنا من هنالك وبعد ثنتين وعشرين ليلة
 جاؤا بهما البنا فى أثناء طريقنا وكان أيضا من أسباب اقامتنا خوف الثلج فان باثناء الطريق
 جبلا يقال له هند وكوش ومعناه قاتل الهنود لان العبيد والجوارى الذين يؤتى بهم من
 بلاد الهند يموت هنالك الكثير منهم لشدة البرد وكثرة الثلج وهو مسيرة يوم كامل وأقمنا
 حتى تمكن دخول الحر وقطعنا ذلك الجبل من آخر الليل وسلكنا به جميع نهارنا الى
 الغروب وكنا نضع اللبوديين ايدى الجمال تطا عليها لئلا تغرق فى الثلج ثم سافرنا الى
 موضع يعرف باندر وكانت هنالك فيما تقدم مدينة عنى رسمها ونزلنا بقرية عظيمة فيها
 زاوية لاحد الفضلاء ويسمى بمحمد المهروى ونزلنا عنده وأكرمنا وكان متى غسلنا
 أيدينا من الطعام يشرب الماء الذى غسلناها به لحسن اعتقاده وفضله وسافر معنا الى ان
 صعدنا جبل هند وكوش المذكور ووجدنا بهذا الجبل عين ماء حار فغسلنا منها وجوهنا
 فتقشرت وتالما لذلك ثم نزلنا بموضع يعرف ببنج هير ومعنى بنج خمسة وهير الجبل فمعناه
 خمسة جبال وكانت هنالك مدينة حسنة كثيرة العمارة على نهر عظيم أزرق كانه بحر ينزل
 من جبال بدخشان وهذه الجبال يوجد الياقوت الذى يعرفه الناس بالبلخش وخرب
 هذه البلاد تنكيز ملك التتر فلم تعمّر بعد وبهذه المدينة مزار الشيخ سعيد المكي وهو
 معظم عندهم ووصلنا الى جبل بشاى (وضبطه بفتح الباء المعقودة والشين المعجم وألف
 وياء ساكنة) وبه زاوية الشيخ الصالح أطا أولياء وأطا (بفتح الهمزة) معناه بالتركية
 الاب وأولياء باللسان العربى فمعناه أبوالاولياء ويسمى أيضا سيصد صاله وسيصد (سين
 مهمل مكسور وياء مدو صا د مهمل مفتوح ودال مهمل) ومعناه بالفارسية ثلاثمائة وصاله
 (سأله) (بفتح الصاد المهمل واللام) معناه عام وهم يذكرون ان عمره ثلاثمائة وخمسون

حاما ولهم فيه اعتقاد حسن وياتون لزيارته من البلاد والقرى ويقصده السلاطى والخواتين
 وأكرمنا وأضافنا ونزل على نهر عند زاويته ودخلنا اليه فسلمت عليه وعانقنى وجسمه
 رطب لم أر ألين منه ويظن رائيه ان عمره خمسون سنة وذكركلى انه فى كل مائة سنة
 ينبت له الشعر والاسنان وانه رأى أباهم الذي قبره بملتان من السند وسأته عن رواية
 حديث فاخبرني بحكايات وشككت فى حاله والله أعلم بصدقه ثم سافرنا الى برون (وضبطها
 بفتح الباء المعقودة وسكون الراء وفتح الواو وآخرها نون) وفيها لقيت الامير برنطية وضبط
 اسمها بضم الباء وضم الراء وسكون النون وفتح الطاء المهمل وياء آخر الحروف مسكن
 وهاء) وأحسن الى وأكرمى وكتب الى نوابه بمدينة غزنة فى اكرامى وقد تقدم ذكره
 وذكر ما أعطى من البسطة فى الجسم وكان عندة جماعة من المشايخ والفقراء اهل الزوايا
 ثم سافرنا الى قرية الجرخ (وضمط اسمها بفتح الجيم المعقودة واسكان الراء وخاء المعجم)
 وهي كبيرة لها بساين كثيرة وقوا كهها طيبة قد مناهى أيام الصيف ووجدنا بها جماعة من
 الفقراء والطلبة وصلينا بها الجمعة وأضافنا أميرها محمد الجرخي ولقيته بعد ذلك بالهند ثم سافرنا
 الى مدينة غزنة وهي بلد السلطان المحاهد محمود بن سبكتكين الشهير الاسم وكان من كبار
 السلاطين يلقب بيمين الدولة وكان كثير الغزوا الى بلاد الهند وفتح بها المدائن والحصون وقبره
 بهذه المدينة عليه زاوية وقد خرب معظم هذه البلدة ولم يبق منها الا يسير وكانت كبيرة وهي
 شديدة البرد والسالكون بها يخرجون عنها أيام البرد الى مدينة القندهار وهي كبيرة مخصصة
 ولم أدخلها وبينهما مسيرة ثلاث ونزلنا بخارج غزنة فى قرية هنالك على نهر ماء تحت قلعتها
 وأكرمنا أميرها مرذك أغا ومرذك (بفتح الميم وسكون الراء وفتح الذال المعجم) ومعناه
 الصغير وأغا (بفتح الهمزة والغين المعجم) ومعناه الكبير الاصل ثم سافرنا الى كابل وكانت فيها
 سلف مدينة عظيمة وبها الآن قرية يسكنها طائفة من الاعاجم يقال لهم الافغان ولهم جبال
 وشعاب وشوكة قوية وأكثرهم قطاع الطريق وجبلهم الكبير يسمى كوه سليمان ويذكر ان نبى
 الله سليمان عليه السلام صعد ذلك الجبل فنظر الى أرض الهند وهي مظلمة فرجع ولم يدخلها
 فسمى الجبل به وفيه يسكن ملك الافغان ويكابل زاوية الشيخ اسماعيل الافغانى تلميذ الشيخ
 عباس من كبار الاولياء ومنهار حلنا الى كرماش وهي حصن بين جبلين تقطع به الافغان وكنا
 حين جوازنا عليه نقا لهم وهم بسفح الجبل ونرميهم بالنشاب فيفرون وكانت رفقتنا مخفة
 ومعهم نحو أربعة آلاف فرس وكانت لى جمال انقطعت عن القافلة لاجلها ومعى جماعة
 بعضهم من الافغان وطرحنا بعض الزاد وتركنا أحوال الجمال التي أعيت بالطريق وعادته

اليها خيلنا بالغد فاحتملتها ووصلنا الى القافلة بعد العساء الآخرة فبتنا بمنزل ششغاروهى
 آخر العمارة مما بلى بلاد الترك ومن هنا دخلنا البرية الكبرى وهى مسيرة خمس عشرة
 لا تدخل الا فى فصل واحد وهو بعد نزول المطر بارض السند والهند وذلك فى أوائل
 شهر يولية وتهب فى هذه البرية ريح السموم القاتلة التى تعفن الجسوم حتى ان الرجل اذا
 مات تنفسخ أعضاؤه وقد ذكرنا ان هذا الريح تهب أيضا فى البرية بين هرمز وشيراز
 وكانت تقدمت امامنا رفقة كبيرة فيها اخدا وندزاده قاضى ترمذ فمات لهم جمال وخيل
 كثيرة ووصلت رفقتنا سالمة بحمد الله تعالى الى بنج آب وهو ماء السند وبنج (بفتح
 الباء الموحدة وسكون النون والجيم) ومعناه خمسة وآب (بهمزة مفتوحة ممدودة وباء
 موحدة) ومعناه الماء فمعنى ذلك الاودية الخمسة وهى تصب فى النهر الا عظم وتسقى تلك
 النواحي وسندكرها ان شاء الله تعالى وكان وصولنا لهذا النهر سلخ ذى الحجة واستهل
 علينا تلك الليلة هلال المحرم من عام أربعة وثلاثين وسبع مائة ومن هنا لك كتب المخبرون
 بخبرنا الى أرض الهند وعرفوا ملكها بكيفية أحوالنا وها هنا ينتهى بنا الكلام فى هذا السفر
 والحمد لله رب العالمين

﴿ تم الجزء الاول ويليه الجزء الثانى ﴾

﴿تذييل﴾ يقول مصححه وحيث انتهينا من رحلة الشيخ المغربي المعروف بابن بطوطة إلى هذا الحد وهو أول جلد وقد شرع رحمه الله تعالى في ذكر ما شاهده من العجائب والغرائب ببلاد الهند وهو ثاني جلد رأينا من المفيدان نوردها عبارة توجد في مقدمة ابن خلدون رحمه الله تعالى مما يتعلق بهذا القصد تنميًا للفائدة وتقييدًا للشاردة ونصها بقصصها وفصلها ورد علي المغرب لعهد السلطان أبي عنان من ملوك بني مرين رجل من مشيخة طنجة يعرف بابن بطوطة كان قد رحل منذ عشرين سنة قبلها إلى المشرق وتقلب في بلاد العراق واليمن والهند ودخل مدينة دهلي حاضرة ملك الهند وانصل بملكها لذلك العهد وهو السلطان عهد شاه وكان له منه مكان واستعمله في خطة القضاء بمذهب المالكية في عمله ثم انقلب إلى المغرب وانصل بالسلطان أبي عنان وكان يحدث عن شأن رحلاته وما رأي من العجائب بممالك الأرض وأكثر ما كان يحدث عن دولة صاحب الهند ويأتي من أحواله بما يستغفر به السامعون مثل أن ملك الهند إذا خرج للسفر أحصى أهل مدينته من الرجال والنساء والولدان وقرض لهم رزق ستة أشهر يدفع لهم من عطائه وأنه عند رجوعه من سفره يدخل في يوم مشهود يبرز فيه الناس كافة إلى صحراء البلد ويطوفون به وينصب امامه في ذلك الحفل منجنقات على الظهر يرمى بها شكاثر الدراهم والدنانير على الناس إلى أن يدخل ابوانه وأمثال هذه الحكايات فتتجى الناس في الدولة بتكذيبه ولقيت أنا يومئذ في بعض الأيام وزير السلطان فارس بن ودار البعيد الصيت ففاوضته في هذا الشأن ورأيت أنه إنكار أخبار ذلك الرجل لما استفاض في الناس من تكذيبه فقال الوزير فارس إياك أن تستنكر مثل هذا من أحوال الدول بما أنك لم تره فتكون كابن الوزير الناشئ في السجن وذلك أن وزيراً اعتقله سلطاناً فحك في السجن سنين ربي فيها ابنه في ذلك الحبس فلما أدرك وعقل سال عن اللحمان التي كان يتغذى بها فإذا قال له أبوه هذا لحم الغنم يقول وما الغنم فيصفه له أبوه بشياتها ونعوتها فيقول يا أبت تراها مثل الفار فينكر عليه ويقول أين الغنم من الفار وكذا في لحم البقر والابل إذ لم يعاين في حبسه إلا الفار فيحسبها كلها أبناء جنس للفار وهذا كثير مما يعتري الناس في الأخبار كما يعتريهم الوسواس في الزيادة عند قصد الأغراب كما قدمناه أول الكتاب فليرجع الإنسان إلى أصوله وليكن مهيمناً على نفسه ومميزاً بين طبيعة الممكن والممتنع بصرح عقله ومستقيم فطرته فما دخل في نطاق الامكان قبله وما خرج عنه رفضه وليس مرادنا الامكان العقلي المطابق فان نطاقه أوسع شيء فلا يفرض حداً بين الواقعات وإنما مرادنا الامكان بحسب المادة التي للشيء فإذا نظرنا أصل الشيء وجنسه وفصله ومقدار عظمه وقوته أجرينا الحكم في نسبة ذلك على أحواله وحكمنا بالامتناع على ما خرج عن نطاقه وقل ربي زدني علماً (اه بحروفه)